١

تاريخ
دولتي المرابطين والموحدين
في الشمال الإفريقي

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م

صفحات من التاريخ الإسلامي

تاريخ دَوْلَتَي المُرَابِطينَ وَالمُوَحّدينَ

في الشمال الإفرِيقِي

تأليف
الدكتور علي محمد الصَّلابِي



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى أبناء الشمال الإفريقي خصوصاً وأبناء الأمة عموماً أهدي هذا الكتاب، سائلاً المولىٰ عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].







القِسمُ الأول

دَولة المُرَابطين
في الشمال الإفريقي




بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن الحمد لله نحمدهُ ، ونستعينهُ ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ لهُ ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

وبعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانكَ ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت .

هذا الكتاب صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي ، يتحدث عن دولتي المرابطين والموحدين .

وهذا القسم الأول يحيط بتاريخ دولة المرابطين السنيَّةِ منذ نشأتها وحتى سقوطها ، ويتعرض لسنن اللهِ في بناء الدول وإحياء الشعوب ، فيعطي نبذة تاريخية

عن أصول القبائل التي قامت عليها دولة المرابطين ، فيتكلم عن مواطنها ومواقعها وحياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية قبل دخول الإمام عبد الله بن ياسين في قلب الصحراء الكبرىٰ لدعوة قبائل صنهاجة إلى الإسلام ، وكيف تعامل ذلكَ الإمام مع تلك القبائل وجعل منها أمة تحمل الإسلام عقيدة ودعوة ومنهجاً ، كما يسلط هذا الكتاب الأضواء على زعماء دولة المرابطين من أمثال الأمير يحيى بن إبراهيم ، والأمير أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، ويتكلم عن خط سير المرابطين في توحيد المغرب الأقصى ، وتوغلهم في الدعوة في جنوب المغرب نحو غانا ومالي وغيرها من دول إفريقية ، ويتحدث عن دفاع المرابطين عن مسلمي الأندلس وأسباب ضعف المسلمين هناك ، وعن أثر تحكيم شرع الله في مجتمع المرابطين ، وعن سياستهم الداخلية والخارجية ، وكيف أعطوا حقوق الرعية من خلال دستور دولتهم السنية ، وما موقف الرعية من دولة المرابطين؟

ويتحدث عن علاقة دولة المرابطين بالخلافة العباسية ، ودولة بني حماد وملوك الطوائف و الإسبان والنصارى ، ويعطي نبذة مختصرة عن أنظمة الدولة المرابطية ، كنظام الحكم والإدارة ، والنظام القضائي ، والنظام العسكري ، والنظام المالي ، ويدافع عن دولة المرابطين ويبين مآثرها الحضارية من أعمال معمارية وحياة أدبية علمية وفقهية وتاريخية جغرافية وطبية ، ويجد القارئ الكريم في ثنايا هذا البحث تركيزاً على معرفة سنن الله وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية ، وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة ، وكيف حرصوا على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي حققت النصر على الأعداء، ويتحدث عن أهمية سنة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول، ويعطي للتربية الربانية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف العظمىٰ للأمة ، سواء على مستوىٰ القادة في أخلاقهم وعلمهم وجهادهم ، أو مستوىٰ الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسنة نبيها وقيادتها المخلصة .

وهذا الجهد المتواضع حاول أن يسلط الأضواء على فقه التمكين من خلال التحليل والتفسير للأحداث التي وقعت في دولة المرابطين .

الهدف من كتابة تاريخ دولة المرابطين :

١ ـ التعريف بزعماء دولة المرابطين من أمثال : عبد الله بن ياسين ، ويحيى بن إبراهيم ، وأبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، وأبي عمران الفاسي .

٢ ـ إظهار معانٍ في فقه التمكين من خلال المنظور التاريخي لدولة المرابطين ،

فيوضح مراحل التمكين التي مرت بها الحركة المرابطية إلى أن وصلت إلى الدولة ، وما الأسباب التي اتخذوها والشروط التي حققوها ، وما الأهداف التي نفذوها لما وصلوا إلى الحكم.

٣ ـ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها وأسباب سقوطها ، والنظر في سنن الله في الآفاق ، وفي الأنفس والمجتمعات.

٤ ـ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السنة والجماعة ، وتربية أبناء الأمة عليها ، وكيف كان اهتمام المرابطين بهذه العقيدة التي استمدوها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٥ ـ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم ، بعيداً عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

أما خطة الكتاب: فقد قمت بتقسيمه إلى خمسة فصول:

* **الفصل الأول**: بناء دولة المرابطين.

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: الجذور التاريخية للمرابطين.

المبحث الثاني: الأمير يحيى بن إبراهيم.

المبحث الثالث: أبو عمران الفاسي.

المبحث الرابع: الزعيم الديني عبد الله بن ياسين.

المبحث الخامس: المراحل التي مر بها ابن ياسين لبناء الدولة.

المبحث السادس: مرحلة التمكين.

* **الفصل الثاني**: المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس.

ويشتمل على تسعة مباحث:

المبحث الأول: الصراع بين طليطلة وقرطبة.

المبحث الثاني: أسباب ضعف المسلمين في الأندلس.

المبحث الثالث: العالم زمن ظهور دولة المرابطين.

المبحث الرابع: أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين.

المبحث الخامس: الأندلس بعد الزلاقة.

المبحث السادس: الفتاوىٰ في جواز ضم الأندلس.

المبحث السابع: العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين.

المبحث الثامن: الجواز الرابع.

المبحث التاسع: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله.

* **الفصل الثالث**: السياسة الداخلية والخارجية في دولة المرابطين.

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: حقوق الرعية الذين يعيشون في الدولة.

المبحث الثاني: موقف الرعية في دولة المرابطين.

المبحث الثالث: موقف المرابطين في الخلافة العباسية.

المبحث الرابع: علاقة الأمير يوسف مع بني حماد.

المبحث الخامس: علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف.

المبحث السادس: علاقة المرابطين مع الإسبان النصارىٰ.

* **الفصل الرابع**: سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة.

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: نظام الحكم والإدارة.

المبحث الثاني: النظام القضائي.

المبحث الثالث: النظام العسكري.

المبحث الرابع: النظام المالي.

* **الفصل الخامس**: أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية.

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: الآثار المعمارية في المغرب والأندلس.

المبحث الثاني: الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين.

المبحث الثالث: من مشاهير علماء دولة المرابطين.

المبحث الرابع: علوم اللغة في زمن المرابطين.

المبحث الخامس: علوم التاريخ والجغرافية.

المبحث السادس: علوم الطب في عصر المرابطين.

المبحث السابع: أسباب السقوط.

ثم نتائج البحث.

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجههِ الكريمِ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

سبحانك اللَّهُمَّ، أشهد أن لا إله إلا أنتَ، أستغفركَ وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

المؤلف

الدكتور علي محمد محمد الصَّلاَّبي

الفصل الأول

بناء دولة المرابطين

المبحث الأول
الجذور التاريخية للمرابطين

تمهيد:

تعتبر قبائل صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدها وأمنعها، واشتهرت بقوة شكيمتها وكثرة رجالها الذين ملؤوا الشمال الإفريقي، وسكنوا جباله وسهوله، وخصوصاً من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصىٰ.

واعتبر بعض المؤرخين أن قبائل صنهاجة مثلت شعباً انضوت تحت لوائِهِ أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها: لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وهي التي تكونت منها دولة المرابطين السنية، وبعض المؤرخين يجعل القبائل الصنهاجية لها أصل من حمير بن سبأ، أي: أصلهم يمانيون، والبعض الآخر يذهب إلى أنهم برابرة لا علاقة لهم بالعرب[١].

١ ـ تسمية الملثمين:

اشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم الملثمين، وأصبح اللثام شعاراً عرفوا به إلى أن تسموا بالمرابطين، ويرىٰ بعض المؤرخين أن الملثمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونة إحدى بطونِ صنهاجة، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر قبائل مسوفة ومسراتة، ومداسة، وجدالة، ولمطة، وغيرها، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة على عهد الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[٢].

ويبدو أن إطلاق اسم الملثمين في بدايته كان خاصّاً بقبيلة لمتونة، ثم توسع وأصبح شعاراً لكل من حالف لمتونة، ودخل تحت اسم سيادتها.

---

(١) انظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، د. سعدون عباس، ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم، ص ٢٧.

٢ ـ سبب تسميتهم:

وأما سبب تسميتهم فقد وردت أقوال كثيرة في سبب تسميتهم بذلك، منها: أنْ أجدادهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر، ويذهب إلى هذا الرأي من ظن أن أصل قبائل صنهاجة يرجع إلى الهجرات القديمة من المشرق لأسباب متعددة، منها: اقتصادية وسياسية.

ومنها: أنهم آمنوا بالرسول ﷺ وكانوا قلة فاضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر فتلثموا بقصد التمويه، وقيل: إن طائفة منهم أغارت على عدو لهم فخالفهم إلى مواطنهم وهي خالية إلا من النساء والأطفال والشيوخ، فأمر الشيوخُ النساءَ بأن يرتدين لباس الحرب ويتلثمن، ففر الأعداء، وهكذا اتخذوا اللثام سنة يلازمونه، وارتقى عندهم إلى مستوىٰ رفيع في حياتهم وأعرافهم، ومما قيل في اللثام:

قوم لهم درك العلا في حمير وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ
لما حَوَوْا إِحْرَازَ كُلِّ فضيلة غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثموا[1]

٣ ـ موطن الملثمين:

سكن الملثمون الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوباً.

ولم تكن هذه الأماكن والمواطن تجري بها أنهار دائمة، وكانت قليلة الأمطار، وأحياناً تحبس عنها الأمطار لسنوات عديدة فيتعرض سكانها للمجاعة فيرتحلون لطلب الماء والكلأ، فتفرقوا حول الواحاتِ الصغيرة في تلكَ الصحارى الممتدة الأطراف، وكوّنوا قرىٰ بدائية تتماشىٰ مع ظروف حياتهم الرعوية[2].

٤ ـ حياتهم الاقتصادية:

توزع الملثمون حول الواحات بحثاً عن المياه، وعملوا في الزراعةِ وخاصة زراعة الشعير الذي ينبت في الأرض الفقيرة ويكفيه قليل من الماء، وقد ازدهرت زراعته في منطقة أزكىٰ التي تسكنها قبيلةُ لمتونة.

وكان النخيل من أهم أشجارهم، وكانت مدينةُ سجلماسة من أهم واحاتِ

(١) انظر: وفيات الأعيان ٧ / ١٣٠.
(٢) انظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص ١٣.

الصحراء عمراناً بشجر النخيل ، واستفاد الملثمون من ظل أشجار النخيل فزرعوا البطيخ والقرع والكوسىٰ والقثاء ، وشهدت بعض الواحات زراعة الذرة ، وازدهرت في واحة سجلماسة زراعة القطن ، وقصب السكر ، وكانت وسيلة الزراعة في تلك الواحات الصحراوية المحراث البدائي الذي تجره الجمال .

وكانت تلك القبائل تهتم بتربية الحيواناتِ للحصول على قوتهم ولكي يستعملوها في تنقلاتهم ، ومن أهم الحيوانات التي اهتموا بها الإبل ، والتي كانوا يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ، ويستفيدون من أوبارها وجلودها لصناعة العباءات والألبسة والنعال وسقف البيوت الصغيرة .

وكذلك اهتموا بتربية البغال والحمير لاستخدامها في النقل المحلي[١] .

واهتموا بتربية المواشي من بقر وغنم وماعز لاستعمال ألبانها ولحومها في غذائهم ، وجلودها وأصوافها في لباسهم ، واهتموا بتربية النحل للحصول على العسل والشمع ، وقد مارسوا الصيد وخاصة صيد البقر الوحشي .

وازدهرت الصناعات المحلية للاكتفاء الذاتي ، وتطورت في الكم والنوع الصناعات المنزلية ، وكذلك الأدواتُ الحربية التي ازدهرت بسبب الحروب المستمرة بين الملثمين وجيرانهم الوثنيين من السودان وغانا ، واهتموا بصناعة السروج ولجم الخيل ، وازدهرت الصناعات الغذائية فاستخرجوا الزيت من ثمر الفرتي وذلك بعصر قشره ، واستعملوه في طهي الطعام وإنارة السرج ليلاً ، وكانوا يمزجونه بالرمل ، ويطلون به أسطح المنازل فيخفف من شدة الحر ، ويمنع تسرب الماء ، واشتهرت مدينةُ تارودانت بصناعة قصب السكر ، والمنسوجات ، والألبسة من الصوف والقطن والوبر ، وكانوا يصنعون من ثمار القرع أواني يضعون فيها الملح والبهارات .

ومن أهم المعادن في بلاد الملثمين الملح ، ويكثر في أوليل وتغاري ، والأخيرة تضم معظم مناجمه ، وهي على شكل ألواح يقطعها العبيد وتحملها الجمال إلى السودان وغانا ، وكانِ الحمل الواحد يُباع في أيوالاتن بعشرة مثاقيل من الذهب ، أما في مالي فكانَ يُباع بعشرين مثقالاً ، وربما ارتفعَ إلى الثلاثين ، كان للملحِ أهمية في حياتهم الاقتصادية ، إذ كانوا يقطعونه قطعاً صغيرة يقايضون به

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٥ .

كالذهب والفضة ، وكان الفائضُ من إنتاجهم الزراعي والصناعي يُصدر إلى خارج بلادِهم[١] .

٥ ـ أهمية موقع الملثمين :

كانت بلادُ الملثمين الممر الوحيد بين الأندلس وأواسط إفريقية ، فكانت تسلكه القوافل على ثلاث طرق ، فالطريق الأول وهو الطريق الساحلي على المحيط الأطلسي ينطلق من أغادير ماراً بنواكشوط حتى مصب نهر السنغال ، يقابله طريق داخلي غير بعيد عنه لجهة الشرق هو طريق تارودانت أويل .

أما الطريقُ الثاني وهو الأوسط فيمتد من أواسط المغرب إلى قلب الصحراء ، حيث بلدان مالي والنيجر ، ويبدأ هذا الطريق من سجلماسة ويمر بأزكي حتى أودغشت في بلاد النيجر .

والطريق الثالث والأخير وهو طريق الصحراء يمتد من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقاً ، ولا تخلو هذه الطرق من صعوبات طبيعية ، فتحرك الرمال يمحي معالمها ، وتتعرض القوافل المارة بها إلى مخاطر لا يُحمدُ عقباها ، ولذلك احتاجت هذه القوافل للقصّاص من الملثمين لكي يقودوا القوافل في تلك الصحارىٰ حتى تصل إلى بر أمانها مقابل مبالغ مالية على المجهود الرائع العظيم .

ونشطت حركة التجارة بين إفريقية الغربية وبلاد المغرب والأندلس بسبب الدور الريادي الذي قامت به قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة التي كونت حلقة الاتصال الناجحة والمثمرة للأطراف المشاركة ، وكثرت الأسواق التجارية التي تعرض فيها بضائع بلاد الأندلس والمغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي ، حيث يتم التبادل بالتقايض أو بالذهب والفضة على حسب الاتفاق بين المتايعين ، ومن أشهر تلك الأسواق التي اشتهرت في تاريخ البلاد : أوغشت ، أغمات ، أسيلا[٢] .

٦ ـ الحياة الاجتماعية في بلاد الملثمين :

وأدى ازدهارُ التجارة في بلاد الملثمين إلى ظهور طبقة من الأثرياء تجمعت لديهم أموال عظيمة بسبب نشاطهم التجاري ، وعلى رأس هذه الطبقة الأمراء الذين

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٦ .
(٢) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٨ .

استأثروا بالحكم وحافظوا على مصالحهم ، وكانت هذه الطبقة مستعدة لمقاومة من يهدد مصالحها أو يحاول انتزاع مكانتها وثروتها وجاهها ، مستخدمين من أجل تلك الأهداف والأساليب المشروعة والمحرمة ، ويساندهم في ذلكَ الفقهاء المحليون الذين ارتبطت مصالحهم بهم ، وأصبحت أطماعهم والسعي لتحقيقها فوق أحكام الله .

واحتكرت هذه الطبقة الأراضي الزراعية في الواحات ، وكذلك مناجم الملح وقطعان الماشية ، أي : جميع مصادر الثروة ، وكانت تبني بيوتها بطريقة تدل على ترفعها عن سائر الناس ، ومعلوم لدى الدارسين والباحثين في تاريخ المجتمعات البشرية أنه عندما تظهر طبقة ذات غِنى مفرط ينتج عنه ظهور طبقة من الفقراء المدقعين في فقرهم ، وهذا ما حدث في المجتمع الملثم ، حيث نجد أن عامة الناس أصابهم الفقر ، واضطر للاشتغال برعي المواشي والعمل في الأراضي الزراعية ، ويؤدون الضرائب للأمراء والأعيان الذين استغلوهم استغلالاً مشيناً ، وكانت طبقة الفقراء تتعرض للمجاعة في سنوات الجفاف ، أما منازلهم فكانت من أغصان الأشجار مغطاة بالجلود كالأكواخ .

وظهر العبيد في المجتمع الملثم بكثرة ، حيث استخدموا وسخروا للعمل في مناجم الملح ، وجلهم كانوا أسرى في الحروب التي نشبت بين الملثمين والوثنيين ، وارتفع شأن العبيد فيما بعد فكانوا فرقة خاصة في جيش المرابطين ، واشتهرت المرأة الملثمة بالجمال ، وهي سمراء اللون ، وبعض نساء الطبقة العالية كانت لهن منزلة رفيعة فاقت منزلة الرجال في بعض الأحيان .

وانتشرت عادات خبيثة في المجتمع الملثم تتنافى مع تعاليم الإسلام ، بل هي عادات غارقة في مستنقعات الجاهلية ، ومن أبشع هذه العادات السيئة الزواج بأكثر من أربع حرائر ، وعادة الزنى ، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره ، وغابت العقيدة الإسلامية الصحيحة عن ذلكَ المجتمع ، واضطربت تصوراته ، وانحرفت عن الصراط المستقيم بعد ما كان أجداد هذا المجتمع قد آمنوا باللهِ ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيّاً ورسولاً ، ونبذوا ديانتهم المجوسية القديمة ، بل كان أجداد هذا المجتمع دعاة إلى الله ، ورفعوا لواء الجهاد ، وخاضوا حروباً في سبيلِ إعلاء كلمة الإسلام الخالدة التي وصلتهم بعد فتح الأندلس .

واشتهر من ملوك الملثمين بحرصهم على نشر الإسلام وكسر شوكة من يعاديه

الملك «تيولوثان بن تيكلان اللمتوني» الذي حارب القبائل الوثنية ونشر بينها الإسلام ، وبعد وفاته سنة ٢٢٢ هـ خلفه حفيده الآثر الذي دام حكمه حتى وفاته عام ٢٨٧ هـ فخلفه ابنه تميم الذي قتل عام ٣٠٦ هـ/ ٩٢٠ م على يد مشايخ صنهاجة.

وبعد ذلك افترقت كلمة الملثمين ، وضاعت كثير من تعاليم الدين ، واستمر شتاتهم مدة مئة وعشرين سنة ، إلى أن قام بالأمر الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني[1] الذي وحدهم ، وقد استشهد هذا الأمير بعد ثلاث سنوات من حكمه على يد الوثنيين ، فقام بالأمر بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي قاد قومه نحو دين الله بعد رجوعه من حجه ورحلته المشهورة.

■ ■ ■

(١) انظر: ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٧٤٦ ؛ نقلاً عن دولة المرابطين ، ص ١٩.

المبحث الثاني
الأمير يحيى بن إبراهيم (الزعيم السياسي)

كان الأمير يحيى بن إبراهيم سيداً مطاعاً في قومهِ لما عرف عنه من شجاعةٍ وكرم وجود ومقدرة قيادية عالية ، واشتهر برجاحة عقله ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار الملثمين قاصداً بيت الله الحرام ، لأداء فريضة الحج ، تاركاً الحكم لابنه إبراهيم عام ٤٢٧ هـ ـ ١٠٣٥ م(١).

وكانت العادة أن يقترن الحج بطلب العلم ، وبعد أداء الفريضة انطلق الأمير يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالباً للعلم لإرواء روحه الظمأىٰ إلى نور المعرفة الإسلامية ؛ التي اندرست معالمها في بلاده ، ورمت به أقدار الله في حلقة إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبي عمران الفاسي» الذي تعلقت نفس الأمير يحيى بتعاليمه وفقهه ، وعرض نفسه على الإمام أبي عمران الفاسي الذي ورث زعامة المدرسة المالكية التي انتصرت على الهيمنة الإسماعيلية العبيدية الباطنية الرافضية ، واستردت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذي أصبح معلماً من معالم أهل السنة في الشمال الإفريقي.

وأعجب الشيخ أبو عمران بالأمير يحيى لما لمسه فيه من حبه للخير وحرصه على التعليم ، وتحدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده ، وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة ، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية(٢).

وتذكر بعض كتب التاريخ : أن أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط الأولى

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٩.
(٢) انظر : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص ٣٨.

مع الزعيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنيه في المغرب على أسس دينية صحيحة ؛ كي تستطيع القضاء على الفوضىٰ السياسية والدينية التي كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة ، وفي ذلكَ يقول صاحب كتاب «بعض مشاهير أعيان فاس في القديم»: «ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن إبراهيم ، ندبه إلى قتال برغواطة ، وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم ، واستنزال رؤسائهم من الولاية ، فوعده يحيى بالنهوض إلى ذلك»(١) .

وكان يحيى بن إبراهيم حريصاً على أخذ فقيه وعالم معه إلى قومه ، ورأىٰ أبو عمران الفاسي من أجل تحقيق الأهداف التي رسموها أنه لا بدَّ من المرور بمراحل ضرورية في بناء الدولة المنشودة من مرحلة التعريف بالمنهج ، وتكوين أفراده ، وتربيتهم عليه ، وتنفيذ السياسة المرسومة بعد التكوين للوصول إلى مرحلة القوة والتمكين .

فأحال أبو عمران أمير الملثمين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب ، وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي ، الذي كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين ، ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم .

وكان يحيى بن إبراهيم بجانب تفكيره في إخراج قومه من الظلمات إلى النور ، يفكر في إنقاذ قومه من الهيمنة الزناتية الظالمة ؛ التي كانت قبائل صنهاجة الملثمة تعاني من جورها وقسوتها وإذلالها وإهانتها .

لقد رأىٰ الأمير يحيىٰ أن طريق عزة قومه في تمسكهم بالإسلام الصحيح ، وقد لاحظ الأميرُ يحيى بن إبراهيم أن كل من حركوا القبائل البربرية وهيَّؤوها لإنشاء الدول ، كانوا جميعاً من المتحمسين من علماء الدين ، أو أصحاب الدعوات الدينية سواء كانت خارجية بدعية ، أو إسماعيلية كفرية ، أو إدريسية مالكية ، من أمثال: أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الخارجي ، وأبي عبد الله الشيعي الباطني ، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، حتى برغوطة ذات الديانة الشركية المجوسية اليهودية ؛ التي تزعمها رجل يدعي أنه من أهل العلم ، وهو ميسرة الفقير ، وحتى قبيلة غمارة ، التي تزعمها صالح البرغوطي الذي زعم أنه

(١) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمدالعبادي ، ص ٢٧١ .

«صالح المؤمنين» الذي ورد ذكره في القرآن[1] .

لهذه الجولة التاريخية التي مرت في ذاكرته حرص على الاهتمامِ بالشيخ عبد الله ياسين الرجل الفقيهِ العالم السني ليعلم قومه ، ويزكيهم ، ويفقههم .

كما كان الأمير يحيى بن إبراهيم يخشى من خطر الجنوب ، ويهتم بدعوة القبائل الوثنية للإسلام .

وبدأ الأميرُ في شقّ طريقه المليء بالأشواك من أجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة ، ورجع إلى أهله وعشيرته ومعهُ الرجل الرباني والفقيه المالكي والمربي الصبور والزعيم الديني الإمام عبد الله ياسين ، وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السني المالكي سيد القيروان في زمانه .

■ ■ ■

(١) انظر : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، د. حسين مؤنس ، ص ١٦٠ .

المبحث الثالث

أبو عمران الفاسي

مهندس الخطوط العريضة لدولة المرابطين

(٣٦٨ هـ ـ ٤٣٠ هـ)

ذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» ترجمة أبي عمران الفاسي فقال: «هو موسىٰ بن عيسى بن أبي حاج بن وليم ابن الخير الغَفَجُومي، وغَفَجُوم فخذ من زناتة من هوارة، وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور، يعرفون ببني أبي حاج، ولهم عقب، وفيهم نباهة إلى الآن»[(١)].

١ ـ شيوخه:

تفقه بالقيروان عند أبي الحسن القابسي، وسمع بها من أبي بكر الدويلي، وعلي بن أحمد اللواتي السوسي، ورحل إلى قرطبة، فتفقه بها عند أبي محمد الأصيلي، وسمع الحديث من أبي عثمان سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم، وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق، فحج ودخلَ العراق، فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس، وأبي الحسن علي بن إبراهيم المستملي، وأبي الحسن الخضر، وغيرهم من العراقيين[(١)]، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبي الحسن بن أبي فراس، وأبي القاسم السقطي، وبمصر من أبي الحسن بن أبي جدار، وأحمد بن نور القاضي، ثم رجع إلى القيروان، وسكنها، وأصبح سيدها المطاع، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صوب، وطارت فتاويه في المشرق والمغرب، واعتنىٰ الناس بقوله[(٢)].

---

(١) ترتيب المدارك، الطبعة المغربية (٧/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(٢) انظر: مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٧٦٥ ـ ٧٦٦).

٢ ـ أثـره وتلاميذه:

ابتدأ نشاطه العلمي سنة ٤٠٢ هـ ، حين عاد من المشرق ، فقد جلس للطلبة في المسجد ، وفي داره أيضاً ، وسرعان ما عُرف قدره ، واشتهرت إمامته ، وطار ذكره في الآفاق ، وقد خلف الإمام القابسي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، في نشر علوم السُّنَّة في إفريقية ورئاسة العلم بها ، ورحل إليه الناس من الأقطار لسماع مروياته ، واستجازه من لم يستطع الاجتماع به[(١)] .

وكان يجلس في حلقته العلمية من بعد صلاة الصبح إلى صلاة الظهر ، يحدثهم ، ويملي عليهم ، ويقرأ لهم: «فلا يتكلم بشيء إلا كُتب عنه إلى أن مات»[(١)] .

وكـان يحـدث بصحيـح البُخـاري و«التـاريـخ الكبيـر» لـه أيضـاً ، و«تصحيـف المحدثين» للدارقطني ، وكان يحدّث كذلك بمصنفاته في الحديث والرجال والفقه ، وقد انتشرت روايتها في الأندلس أيضاً عن طريق تلاميذه من أهلها[(١)] .

وكان متضلعاً في كلام الرواة جرحاً وتعديلاً ، ومعرفة سيرهم ووفياتهم ، وغير ذلك .

وكان العامة من أهل القيروان خصوصاً يرجعون إليه فيما يلم بهم ، ويستفتونه .

كما كان الموفدون في مهمات سياسية إلى القيروان يسألونه ، ويستفتونه ، ويستفيدون من علمه .

وكان له اهتمام بالبلاد البعيدة ، ويرسل إليها من يقوم بنشر العلم كما حدث في اهتمامه بصحراء المغرب ، وما نتج عن ذلك الاهتمام من قيام دولة المرابطين في تلك المناطق النائية[(٢)] .

وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الناس من أهل إفريقية والمغرب والأندلس وصقلية ، حتى قال الذهبي: «تخرج بهذا الإمام خلق من الفقهاء والعلماء»[(٣)] .

٣ ـ ثناء العلماء عليه:

قال تلميذه الحافظ حاتم الطرابلسي: «لقيته بالقيروان في رحلتي سنة ٤٠٢ هـ ،

---

(١) انظر: مدرسة الحديث في القيروان ، (٢/ ٧٦٥ ـ ٧٦٦) .
(٢) انظر: مدرسة الحديث في القيروان ، (٢/ ٧٦٥ ـ ٧٦٦) .
(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٤٦) .

وكان من أحفظ الناس، وأعلمهم، وكان جمع حفظ المذهب المالكي، وحفظ حديث النبي ﷺ، والمعرفة بمعانيه، وكان يُقرئ بالسبعة، ويُجودها مع المعرفة بالرجال، والمعدلين منهم والمجروحين...»[١].

وقال الذهبي: «الإمام الكبير العلامة عالم القيروان.. أحد الأعلام.. تخرج به خلق من الفقهاء والعلماء»[٢].

وقال أبو بكر الباقلاني لأبي عمران الفاسي: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر ـ وكان إذ ذاك بالموصل ـ لاجتمعَ فيها علم مالك: أنت تحفظهُ وهو ينصره، لو رآكما مالك لسر بكما»[٣].

٤ ـ شعره:

عندما كتب محمد بن علي الطبني أبياتاً من الشعر وأرسلها إلى أبي عمران الفاسي بمناسبة العزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام، أجابه أبو عمران الفاسي بهذه الأبيات:

حياك رب من خل أخي ثقة ... وصان نفسك بالتكريم مولاها
من كل غم وشان لا يوافقها ... فهو العليم بما بيديه مولاها
ولا أضاع لها الرحمن حرمتها ... وقولها إن تسر ودعتك الله
فالله يجمعنا من بعد أوبتنا ... ويؤتنا من وجوه البرّ أسناها[٤]

هذه ترجمة موجزة لواضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين.

وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ثلاثين وأربعمئة من الهجرة.

■ ■ ■

---

(١) ترتيب المدارك (٧/ ٢٤٦) الطبعة المغربية.
(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦).
(٣) ترتيب المدارك (٧/ ٢٤٦).
(٤) المصدر السابق (٧/ ٥٢).

المبحث الرابع
الزعيم الديني لدولة المرابطين
عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي ، أصله من قرية «تماماناوت» في طرف صحراء غانة[١] .

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا ، ثم رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين[٢] ، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية ، ثم أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا ، فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهاً عالماً ديناً تقياً مربياً فاضلاً وقع الاختيار على عبد اللهِ بن ياسين الصنهاجي الذي كان عالماً بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم .

ودخل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومواطن ومساكن الملثمين من قبلة جدالة في عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م ؛ فاستقبله أهلها واستمعوا له وأخذ يعلمهم ، فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم ، والإرشاد الديني للعامة بلهجة أهل الصحراء البربرية .

لاقى عبد الله بن ياسين كثيراً من الصعوبات ، فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلُّون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وعم الجهل عليهم وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة ، وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم ، واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف ، فثاروا عليه ، وكادوا أن يقتلوه ، إلا أنه تركَ قبيلة جدالة ، وانتقل إلى

---

(١) دولة المرابطين ص ٢١ نقلاً عن البكري المغرب ، ص ١٦٥ .
(٢) ابن الخطيب ، الخلل ، ص ١٩١ .

قبيلة لمتونة ، ومن ثم اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال ، بعد انتشار صيته ، وتعلق الناس به ، فهرعوا إليه ليربيهم وينظمهم ويعلمهم.

ومن خلال كتب التاريخ نستطيع أَنْ نقول: إن عبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ نجح في رسالته الدعوية لأسباب مهمة يجب أن يعرفها الدعاةُ إلى الله ، ألا وهي ما وهبه الله من صفات فطرية وما اكتسبه من حياته من صفات عقلية وصفات حركية.

أ ـ ومن أهم الصفات الفطرية التي ظهرت لي من سيرته:

١ ـ **الذكاء**: فكان ـ رحمه الله ـ عميق الفهم ، صاحب حجة ، يقيم الدليل على خصومه من الفقهاء ، والمحليين الذين تحالفوا مع الأمراء والأعيان للقضاء عليه أو طرده.

واختياره لمكان أنسب لتربية أتباعه وتعليمهم يدل على ذكائه وبعد نظره ، ويظهر ذلك في حروبه التي خاضها لتوحيد القبائل الصنهاجية ، ثم انتقاله للقضاء على المخالفين له في المنهج والمعتقد والتصور.

٢ ـ **الشجاعة**: حيث إنه دخل الصحراء داعياً إلى الله تعالى ، مع أن غيره من تلاميذ أبي عمران الفاسي اعتذروا ، وكذلك من تلاميذ وجاج بن زلوا.

وامتاز بشجاعة وصلابة عظيمة في دعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وفي جهاده ، حتى إنه استشهد في إحدى معاركه ضد أعدائه.

فكان شجاعاً عظيم الاحتمال ، ومارس أفضل الشجاعة ، ألا وهي الصراحة في الحق ، وكتمان السر إذ إنه كان قد خطط مع يحيى بن إبراهيم المراحل العملية ولم يتسرب منها شيء لأعدائه حتى أخذت حيز التنفيذ.

والشجاعة في الحق وفي ميادين القتال بالنسبة للمسلم تدل على قوة عقيدته وسلامته من غبش التصور وانحراف المنهج ، ومن المعلوم أن صفاء العقيدة يرفع الهمة ، وينمي الشجاعة ، ويلهب المشاعر ، ويذكر الروح ، ويربط الفؤاد ، وينور العقل ، ويوسع المدارك. والعاملون في الدعوة إلى الله ينبغي عليهم أن يكونوا شجعاناً ؛ فهي منه وإليه.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٤].

وحامل دين الله ينبغي ألا يستكين ، ولا يجبن ، ولا يخور عزمه؛ لأنه صاحب رسالة مقدسة من عند العليم الحكيم ، سار على نهجها رسل الله من قبل ، فنصرهم الله وانتقم من عدوهم.

قال الشاعر:

إن نفساً ترتضي الإسلام دينا ... ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترىٰ الإسلام في أرض مهينا ... ثم تهوى العيشَ نفس لن تكونا
في عداد المسلمين العظماء[1]

وكم نحن محتاجون إلى شجاعة الدعاة إلى الله من أمثال الفقيه عبد الله بن ياسين لندك بها الباطل ، ونُزيل بها المنكرات الظاهرة ، وندمغ الشبهات الخادعة بالنورين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال الشاعر:

وإذا اضطررت إلى الجدال ولم تجد ... لك مهرباً وتلاقتِ الصفانِ
فاجعل كتاب الله درعاً سابغاً ... والشرعَ سيفك وابد في الميدان
والسُّنَّة البيضاء دونك جُنة ... واركب جواد العزم في الجولان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فالصبر أوثقُ عُدةِ الإنسان
واطعنْ بِرمح الحقِّ كُلَّ معاندٍ ... لله درُّ الفارسِ الطعان
واحمل بسيف الصدقِ حملة مخلص ... متجردٍ لله غيرِ جبان[2]

وكم نحن محتاجون للدعاة الذين يتوغلون في مواطن القبائل التي ابتعدت عن إسلامها ودينها وإيمانها ؛ ليقودوها من جديد إلى دعم حركة الإسلام المعاصرة التي استهدفها كل من النصارىٰ واليهود والملاحدة والحاقدين.

٣ ـ **المهابة**: ومن الصفات التي ظهرت لي في سيرة عبد الله بن ياسين أنه كان مهيباً قوياً شديداً ، فمن الأدلة على قوته البدنية : خوضه الحروب بنفسه وتقدمه في ميدان الفروسية ، بل جعل من منهجه الذي ربى عليه أصحابه في هذا الجانب قوله

---

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة ، أحمد القطان ، جاسم المهلهل ، ص ٢٠.
(٢) نونية أبي عبد الله القحطاني ، ص ٣٩.

تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفسر الرسول ﷺ القوة في هذه الآية بالرمي بقوله: «ألا إن القوة الرمي»[١]، والرماية إن لم تخرج من ساعد قوي ومتين فهي لا تحقق الهدف المطلوب، وفي السنة نجد القوة البدنية لاقت حظاً وافراً، فالرَّسولُ ﷺ هو أقوىٰ الأقوياء، وكان يشجع أصحابه رضي الله عنهم على اكتساب هذه الصفة، بل ربما كان يباريهم، ويصارعهم، ويسابقهم، كما تحدّثنا السيرة عن ذلك، يروى مرة أنه تسابق ﷺ مع عائشة رضي الله عنها مرة، ثم سبقته مرة، وكذلك تحدثنا السيرة عن مصارعته ﷺ لأحد أصحابه فصرعه.

ومر ﷺ على صبيان يرمون بالسهام فأخذ يرمي معهم ويشجعهم ويذكي فيهم روح البطولة والشجاعة والقوة، ويقول: «ارموا فإن أباكم إسماعيل كان رامياً»[٢].

وهذه الآية والأحاديث الفعلية كانت منهج عبد الله بن ياسين وأصحابه، ولذلك تظهر لنا صلابة وقوة أتباعه في ميادين القتال.

ومفهوم القرآن للقوة عام يشمل كل أنواع القوة، قال السعدي ـ رحمه الله ـ في تفسيره لقوله تعالى: ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] أي: «كل ماتقدرون عليه، من القوة العقلية، والبدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك».

فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي السياسي، التي يتقدم المسلمون عن طريقها، ويندفع عنهم بها شر أعدائهم، وتعلم الرمي بالشجاعة، والتدبير»[٣].

لقد جمع عبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ من القوة الفكرية أنواعاً متعددة من قوة الإدراك، وقوة الصبر، وقوة العلم، وقوة التلقي، وغيرها من القوى.

ومن هنا يتضح لنا حاجة العاملين في الحركة الإسلامية إلى هاتين القوتين،

---

(١) رواه مسلم رقم (٩١٠).
(٢) رواه البخاري فتح الباري، (٦/ ٤٣١).
(٣) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص ٢٢.

البدنية والعقلية ، وجميع أنواع القوى الفكرية لتوظيفها في الدعوة إلى الله[١] .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قيمة القوة العقلية والفكرية وإلى القوة البدنية في بيان أمة مجاهدة تحفز للنهوض بعبء النضال ، في سبيل عقيدتها وحريتها ، وكان من صفات قائدها أن الله أعطاه ومنّ عليه بهاتين القوتين البدنية والعقليّة ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فبسطة العلم إشارة إلى القوة العقلية ، وبسطة الجسم إشارة إلى القوة البدنية ، قال الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ في الأصل الأول من الأصول العشرين: «إن القوة تشمل قوة الإنسان التي تجعله قوياً في نفسه وبدنه وعقله ، وعليه أن يباشر الأسباب التي تجعله قوياً ، أما قوّة نفسه فبالإيمان ، وأما قوة بدنه فبالرياضة والفروسية ونحوها ، أما قوة عقله فبالعلم»[٢] .

والإنسان المسلم الذي وهبه الله القوة العقلية والفكرية والبدنية لا ينسىٰ دائماً وأبداً قوة القوي العزيز الذي أمده بكل خير وفلاح وصلاح ، وما سوىٰ قوة الله فهي قوة ضئيلة هزيلة ، مهما أوتيت من وسائل البطش والقوة والتنكيل ، فهي بمثابة خيوط العنكبوت: ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤١][٣] .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله: «وإن أصحاب الدعوات ، الذين يتعرضون للفتنة والأذىٰ والإغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ، ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوىٰ المختلفة المعادية ، التي تحاول سحقهم وإبادتهم ، كلها خيوط في حساب العقيدة الصحيحة»[٤] .

٤ ـ الأمانة: ومن الصفات الفطرية التي تميز بها الزعيم الديني لدولة المرابطين الأمانة ، فحين وجد الفقيه عبد الله ياسين أن القلوب التفت حوله ، وأصبح الآمر الناهي في قبائل الملثمين ، لم ينافس الأمير يحيى بن إبراهيم في منصبه ، بل نجده لم يتجاوز حدوده ، ولم يتدخل في سلطات الأمير يحيى مع مقدرته على إزاحته

---

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة ، ص ٢٢ .
(٢) انظر: رسالة التعليم ص ١٠ .
(٣) انظر: الصفات اللازمة للدعاة ، ص ٢٢ ، نقلاً عن: طريق الدعوة في الظلال .
(٤) انظر: الظلال لسيد قطب . نقلاً عن الصفات اللازمة لأصحاب الدعوات ، ص ٢٢ .

وإبعاده من الطريق ليتبوأ الزعامة السياسية والدينية معاً ، وهذا يدل على أمانة الداعية الفقيه عبد الله بن ياسين ، والأمانة صفة مهمة للعاملين في الحركة الإسلامية ، فهي ذات أنوار تشع على من حول الدعاة إلى الله فتجذبهم للانخراط في ميادين العمل الإسلامي الواسعة المحتاجة لكل جهد وشخص مخلص لهذا الدين .

والأمانة تحتاج إلى أشخاص أقوياء لحملها ، ومفهوم الأمانة في القُرآن واسع جداً .

وقد وصف اللهُ المؤمنينَ الذين نالوا الفلاح في الدنيا والآخرة ، وورثوا جنة الفردوس بصفات منها الأمانة ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨] .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية : «وراعون لأماناتهم وعهدهم أفراداً وراعون لأماناتهم وعهدهم جماعة ، والأمانات كثيرة في عنق الفرد ، وفي عنق الجماعة ، والجماعة المسلمة مسؤولة عن أماناتها العامة ، عن عهدها مع الله تعالى ، وما يترتب على هذا العهد من تبعات ، والنص يحمل التعبير ويدعه يشمل كل أمانة ، وكل عهد ، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون ، فهي صفة دائمة لهم في كل حين ، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأماناتُ وترعى فيها العهود»[1] .

فعبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ اتصف بالأمانةِ ، فعظم شأنهُ في نظر أتباعه وفي تاريخ المسلمين؛ لأنه كان أميناً في نفسه ومع إخوته ، وحمل أمانة الإسلام ، وبذل كل ما في وسعه ، وتحرك بمنهج الله في دنيا الناس لتحكيم شرع الله ، فأكسبته هذه الصفة في نفوس الناس قبولاً .

٥ ـ **الحياء** : والصفة الخامسة الفطرية التي جبل عليها عبد الله بن ياسين الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان ، ويظهر ذلك جلياً عندما طلب شيخه منه الذهاب مع يحيى بن إبراهيم للدعوة ، فلم يعارض ولم يناقش ، بل استجابَ لشيخه كما نلاحظ ذلك في سيرته مع يحيى بن إبراهيم الذي تملك قلبه حب عبد الله بن ياسين ، وأسر فؤاده بإحسانه وكرمه وحرصه على دعوة الناس لدين الله ، فعندما عرض الأمير يحيى على عبد الله بن ياسين رباطاً في ضفاف نهر السنغال أجابه عبد الله بن ياسين

(١) في ظلال القرآن ، ص ٢٤٥٦ .

الذي كان عازماً عل تركِ جدالة ولمتونة لما أصابه من عنتهم وظلمهم وجورهم في بداية دعوته لهم. وعرف العلماء الحياء فقال: «أصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح»[(١)].

وقال الجنيد: «إن الحياء يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير»[(١)].

فالحياء من المعاني والصفات الرائعة التي يتصف بها النبلاء والشرفاء من الناس، وكان الرسول ﷺ أشد الناس حياءً، وقد وصفه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير[(٣)]»، ومن الحياء: غض البصر، وخفض الجناح، وعدم رفع الصوت إلا في وجه الباطل.

فعلى العاملين في الدعوة إلى الله أن يلازموا هذه الصفة الجميلة.

فالحياء المطلوب في صفة الداعية والذي تدعو إليه الشريعة وتحثُّ عليه، هو الذي يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي والوقوع في الآثام، وفي نفس الوقت يحث صاحبه على العمل الدؤوب للإسلام، ومناصرة الحق والذود عنه، والوقوف أمام الباطل بشتى أنواعه.

قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[(٤)].

إن هذا الخلق الكريم والصفة الفاضلة لا بد منها في أخلاق الدعاة الربانيين، ولا يمنعهم هذا الخلق أن يفرطوا في معالي الأمور والصعود على سلم الفضائل، والوصول إلى الغايات النبيلة من تفقه في الدين وتعلم العلم والحرص عليه.

---

(١) الصفات اللازمة لحياة الدعاة، ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) البخاري فتح الباري (١٢/ ١٥١).
(٣) رواه البخاري (٦١١٧).
(٤) رواه مسلم رقم (٣٥).

فعن عائشة رضي اللهُ عنها قالت: «نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[(١)].

٦ ـ **الحلم**: والصفة السادسة من الصفات الفطرية التي يلاحظها الباحث في حياة الفقيه عبد الله بن ياسين هي صفة الحلم ، فنجده عندما تمكن من قبائل جدالة ولمتونة التي حاربت دعوته عفا عنها وأحسن إليها ، وكل من انصاعَ وانقاد لأحكام الله من المخالفين والمحاربين له عفا عنه.

والحلم كما هو معلوم سيد الأخلاق.

فالحليم هو الذي يتحمل أسباب الغضب ، فيصبر ، ويتأنى ، ولا يثور.

من هنا ينبغي على الداعية أن يملأ صدره بالحلم ، لأن طريق الدعوة محفوفة بالمكاره ، والمتاعب ، والإيذاء ، والبطش ، والسخرية ، وهذه كلها عقبات تزدحمُ في وجه الداعية والدعاة إلى الله[(٢)].

ولقد ضرب الله لنا في كتابه العزيز نماذج من حلم رسله وسعة صدورهم على ما لاقوه من إيذاء وابتلاء من قومهم ، قال تعالى عن هود عليه السلام:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٦ ـ ٦٨].

صورت لنا هذه الآيات مقدار الحلم الذي يتصف به هود عليه السلام وسعة صدره ، حيث لم يعبأ بهذا السباب وبهذه السخرية والشتائم ، ولم يطش لهما حلمه ، بل قابل هذه الشتائم والسباب والسخرية بدعوة التوحيد ، ووضح لهم مهمة رسالته ، وأخيراً نصحهم بالحسنىٰ وأنه أمين على ذلك.

أما رسول الله ﷺ فكان حلمه يفوقُ حد التصور ، وخصوصاً إذا علمنا أن حلمه كان مع القدرة على البطش ، ورد الفعل بأنكى وأعتى ، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنتُ أمشي مع رسولِ اللهِ ﷺ ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي ، فجذبه بردائه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق

(١) رواه مسلم (١/ ٢٦١).
(٢) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله ، ص ٣٠.

رسول الله ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بالعطاء»[(١)].

إن الدعاة إلى الله تعالى الذين يسعون لإقامة شرع الله على منهج النبوة الخالد ، لمحتاجون إلى هذه الصفة الرفيعة في حركتهم الدائبة المستمرة ، وإن كتب التاريخ الإسلامي تبين لنا أن طلائع الفتح والتمكين دائماً وأبداً تكون هذه الصفة بارزة في صفوفهم.

٧ ـ **الجاذبية الفطرية**: وهذه الصفة بارزة للعيان في شخصية الفقيه عبد الله بن ياسين ، وبها جذب قلوب أبناء الصنهاجيين بدون تكلف ، وهي من أقوى العناصر التي تكونت منها شخصية الفقيه ابن ياسين.

لقد استطاع أَنْ يملك قلوب من جالسوه وسمعوا حديثه من أمثال يحيى بن إبراهيم ، ويحيى بن عمر ، وأبي بكر بن عمر ، وغيرهم من قادة الصنهاجيين وشيوخهم ، ولا شك أن ما ذكرناه من هذه الصفات المهمة في شخصية الداعية هي من العطايا العظيمة التي يهبها الله لفئة من عباده الذين أخلصوا القول والعمل.

وكان قول الله تعالى متمثلاً فيهم: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

ب ـ من الصفات المكتسبة في شخصية الفقيه ابن ياسين:

١ ـ الصدق:

وظهر ذلك في أقواله وأفعاله ومخالطته للناس ، فكان صادقاً في دعوتِهِ وفي عرضها ، وفي مخاطبته للناس ، ولا يهاب أحداً ، ولا يخشىٰ في اللهِ لومةَ لائم ، ولا همزةَ هماز ، ولا لمز لماز.

ولمس الناس صدقه في أمره بالمعروفِ ونهيه عن المنكر وفي حربه للبدع وفي تعليمه للناس وجهاده في سبيلِ اللهِ ، فتأثر أتباعه به غاية التأثر.

وحثنا القُرآنُ الكريم على التخلق بهذه الصفة ، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الفتح (٧/ ٦٣) ، الحديث (٣١٤٩).

وكانت التوجيهات النبوية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم تحثهم على الصدق ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»(١) .

ويعتبر الصدق من أهم صفات المنتسبين للعمل الإسلامي القائمين بإرشاد الناس إلى دين الله ، فليعلم ذلك كل داعية ، وَلْيَعِ تماماً أن دعوته جاءت بالصدق ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣].

وقد شهد المؤرخون حتى الذين طعنوا في دولة المرابطين على صدق زعيمها عبد الله بن ياسين ، فلقد ساد ابن ياسين في قبائل الملثمين بصدقه في دعوته.

٢ ـ ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال:

ويظهر ذلك جلياً في شخصية ابن ياسين عندما باشر الأمير يحيىٰ بن عمر اللمتوني القتال ، أدَّبه ابن ياسين وضربه بالسوط عشرين مرة وبين له أن ذلكَ خطأ ، لأن الأمير لا يقاتل وإنما يحرض الناس ويقوي نفوسهم ، فإن حياة الأمير حياة عسكره ، وموته فناء جيشه.

واعتبر عبد الله بن ياسين أن إقدام الأمير يحيى على القتال فيه تهور وعدم ضبط النفس.

كما يدل على ضبط نفس الفقيه ابن ياسين ، وابتعاده عن التهور أنه لم يعلن الجهاد حتى أعد عدته ، واستكمل أمره وأخذه بمراحله ، وربى رجاله ، ولذلك عندما خاض جهاده كان موفقاً منصوراً ، ولم تستطيع القوة المعارضة له أن تقضي عليه(٢).

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الإصلاحي إلى كثير من الجدال ، والتحدي والأذىٰ ، فعليهِ أن يتحلى بالصبر وضبط النفس؛ لأن طريق الدعوة كما هو معروف طويل ويحتاج إلى صبر حتى الوصول إلى نهايته.

---

(١) أخرجه البخاري فتح (١٣/ ١٢١) الحديث (٢٠٩٤).
(٢) انظر: روض القرطاس ، ص ٧٩ ـ ٨٠.

فعملية ضبط النفس وعدم التهور والإسراع في تهدئة الجو مطلوب من الداعية قبل التورط فيما لا تُحمد عقباه.

إن ضبط النفس يتم بموازين محددة تقي صاحبها من مغبة انسياقه وراء ما يصور له خياله، ويراه في نظره هو الأسلم فعندئذٍ يغضب، ويندفع ويتعجل الأمور فيتورط، ولقد ذكر لنا القرآن قصة تعطي هذه المعاني، وتصورها لنا تصويراً كأننا نلمسه ونشاهده، تلك قصة الملأ من بني إسرائيل: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وفي هذه القصة عبر وعظات، فإن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً، قد يكون أشد الناس جزعاً وانهياراً ونقضاً للعهد: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وهكذا نكثوا وعدهم، وتفلتوا من الطاعة، ونكصوا عن التكليف، وهذا شأن المتهورين المتسرعين، الذين لا يقدرون الظروف، ولا يحسبون حساباً صحيحاً، ولا يعرفون قيمة للتكاليف الملقاة على عاتقهم[1].

ورحم اللهُ الشيخ حسن البنا حيث يقول: «أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم، اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع؛ إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلمُ طريق للوصول، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلكَ بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات... ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة، والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون؛ فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوّلوا تيارها، واستعينوا

---

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص ٤٤.

ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد»[١] .

فينبغي على العاملين في الحركة الإسلامية أن يدركوا هذا جيداً ، ويتركوا الحماس المتهور ، ويتفهموا أصول العمل ويدركوا الواقع الذي يحيط بهم ، وينبذوا المجازفات الفاشلة ؛ لأن واقعنا المعاصر يحتاج إلى صفة ضبط النفس وعدم التهور للعاملين في الدعوة إلى الله عز وجل .

٣ ـ الإرادة القوية :

لقد شهد المؤرخون المسلمون وغيرهم أن ابن ياسين ـ رحمه الله تعالى ـ كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال ، آمن بسمو دعوتِهِ ، وقدسية فكرته ، وعزم على أن يعش لها ويموت في سبيلها ، وأدرك أن الأمانة التي يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعتها عظيمة ، فعليه أن يصبر في عزيمة قوية ، وإيمان ثابت ، ويقين لا يدخلهُ تردد ولا شك .

فداومَ على العملِ الجادِ وأخذ بقوة وعزم ومثابرةٍ ، ومصابرةٍ حتى تحقق إعزاز دينِ اللهِ في تلكَ الصحارىٰ القاحلة المقفرة الخالية من العلماء والفقهاء ، فأصبحت بفضل الله ثم بجهده وجهاده مليئة بالدعاة والفقهاء والعلماء والمجاهدين .

فينبغي علينا ـ ونحن في طريق الدعوةِ سائرون ـ أن نأخذ أمر الدعوة بقوة ، وإرادة قوية ، وعزيمة ماضية ، وهمة متطلعة للمعالي ، ونترك حياة الرخاء واللين والدعة ، ونقتدي بسيد الدعاة الرسول ﷺ في عزمه وقوة إرادتِهِ وجمال صبره وشدة تحمله وعظم حلمه .

ج ـ الصفات العقلية التي ظهرت في شخصية ابن ياسين :

١ ـ القدرة على الفهم والاستيعاب :

استطاع ابن ياسين أن يفهم ويستوعب المناهج العلمية التي كانت في زمانه من فقه وحديث ولغة وأصول وغيرها من العلوم ، حتى تأهَّل لأن يكون أهلاً لحمل الرسالة التي كلفه بها شيوخه ، كما انجلى لي قدرته على فهم واقعه الذي يريد تغييره ، وحدد أولويات المرحلة التي هو فيها وشرع في إصلاحها ، كما أنه استوعب الظروف السياسية في زمانه ، واستطاع أن يستفيد منها لدعوته .

---

(١) مجموعة الرسائل ، لحسن البنا ، ص ١٨٠ .

فينبغي على العاملين في الدعوة الإسلامية أن يكون لهم وعي سياسي بواقعهم ، وخبرة بالأساليب الحركية والتنظيمية ، ومهارة في التخطيط المنظم والمتزن حتى نستطيع أن نواجه العدوان الشرس الموجه لأمتنا الإسلامية ، ونتصدى له بأسلوب كله حكمة وحنكة.

ومن هنا يتوجب على الأخ الداعية ، أن تكون عنده قدرة على الفهم والتجاوب وسرعة في التنفيذ ، وأن يتسلح بالمعرفة التامة ، وأن يفهم دعوته حق الفهم كي يستطيع أن يبلغها حق التبليغ. قال عمر رضي الله عنه: «لست بالخب ولا الخب يخدعني».

٢ ـ النظر الثاقب والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد:

ويظهر ذلك في سيرة الفقيه عبد الله بن ياسين ، عندما طلب فقهاء سجلماسة ودرعة في عام ٤٤٧ هـ منه القدوم ليخلصهم من الحكام الطغاة الظلمة من زناتة المغروايين ومن أميرهم مسعود بن أنودين ، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة ، فأشاروا عليه بمد يد العون لهم ، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر على بركة الله» ، فأخذ قراره الحاسم ، وتحركت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ إلى بلاد درعة ، واشتبكت مع المغراويين الذين انهزموا أمام المرابطين وتشتت جموعهم ، ودخل ابن ياسين سجلماسة ، وأصلح أحوالها ، وقدم عليها عاملاً من أتباعه ، وجعل فيها حامية من جنوده ، ورجع إلى الصحراء(١).

فعلى العاملين في الدعوة الإسلامية: الاتصاف بصفة النظر الثاقب ، وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون أي تردد ، ودون أي ريب ، لأن الداعية الرباني ينظر بنور الله ، وهذا النور الإلهي إذا حل في قلب المؤمن يولد فيه البصيرة الثاقبة ، التي يعرف بها الحقائق ، ويزن بها الأمور ، ويدرك بها الصعاب(٢). ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، حمدي عبد المنعم ، ص ٤٢.

(٢) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله ، ص ٦٣.

د ـ الصفات الحركية التي ظهرت للباحثين في شخصية ابن ياسين:

١ ـ الشعور بالمسؤولية:

وبدأ الشعور بالمسؤولية في حياة ابن ياسين منذ أن رغب في التحصيل والتزود للعمل والاستعداد للدعوة، وازداد ظهور ذلكَ في شخصيته عندما دخل مع الأمير يحيى بن إبراهيم في قبائل الملثمين، حيث تولد في أعماقه شعور بمسؤولية الدعوة في هذه الأمة الجاهلة من قبائل صنهاجة، وكان شعور جرى في عروقه جريان الدم، فأحس بعظمة التكليف، وأعباء المسؤولية فقام بأدائها خير أداء.

إن الأمة الإسلامية في هذه الأيام بأمسِّ الحاجة إلى العناصر التي تتحرك ذاتياً نحو مسؤوليتها، وبحاجة إلى عناصر تتقد نفوسها شعوراً وإحساساً بواجباتها الإسلامية، وبحاجة إلى عناصر يغلي فيها الشعور لهذا الدين، وهي تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهذا الدين ساعة من ليل أو نهار.

فالشعور بالمسؤولية أمر لا بد منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه، وعليه أن يتحرك في هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسؤولية، لأن حياة الداعية هي التحرك للإسلام لا القعود ولا الهمود[١].

وقد أحسن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي عندما قال:

قلت الحيلة هي التحر ... ك لا السكون والهمود
وهي الجهاد وهل يجا ... هد من تعلق بالقعود
وهي التلذذ بالمتا ... عب لا التلذذ بالرقود
هي أن تذود عن الحيا ... ض وأي حر لا يذود
هي أن تحس بأن كأ ... س الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة ... في الأرض شأنك أن تسود[٢]

٢ ـ النظام والدقة:

وظهرت صفة النظام والدقة في شخصية الفقيه ابن ياسين عندما تكاثر عدد المريدين في رباطه الذي اتخذه قريباً من نهر السنغال، حيث وضع شروطاً في قبول

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص ٧١ ـ ٧٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٧٣.

كل جديد كي يحفظ صفو جماعته من المخربين ، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق ، ومن توفرت فيه الشروط واجتاز التجربة بنجاح يتولى تعليمه وتثقيفه من قرآن وسنة وتفسير وحديث وأحكام الدين[١] .

وأصبح رباطه قمة في النظام والدقة ، واختار لإدارته أحد الأمراء ، وفي الأمور المهمة كان الأمر شورىٰ بين الجماعة الإسلامية المرابطة[٣] .

إن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شيء ، ومن التطبيقات العملية على ذلك نأخذ مثال السفر ، حيث أمر الإسلام الركب إذا كانوا ثلاثة أن يؤمروا عليهم أميراً ، حتى لا يختلفوا في الطريق وتتبعثر جهودهم ، وخصوصاً أن السفر كما قال الرسول ﷺ قطعة من العذاب ، فعملية التنظيم واختيار الأمير ، لا شك أنها عملية تريح المسافرين من أعباء كثيرة ، قال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[٢] فلا بد إذاً من تعويد النفس وضبطها على النظام ، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة ، إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء ، وفي كل أمر ، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي ، يتحقق بتعاون الفرد وانصهاره في بوتقة الطاعة والنظام[٣] .

٣ ـ القدرة على التعامل مع الناس :

تميزت شخصية الفقيه ابن ياسين بمقدرته في تعامله مع أصناف الناس من أمراء وعوام وتجار وغيرهم من طبقات المجتمع الصنهاجي . فقد كان ـ رحمه الله ـ رقيق الشعور ، ثائر العاطفة ، يقظ القلب ، بعيد الآمال ، كبير المطامح في الإصلاح ، وكان كل همه أن ينتفع الناسُ بعلمه ودعوته ، ولذلك اختلط بالناس ودرس أخلاقهم وطبيعتهم عن كثب ، وكان في خطابه للناس متحلياً بمكارم الأخلاق ، بعيداً عن التجريح والإساءة .

واتخذ من القرآن منهجاً في أسلوبه ودعوته متمثلاً بقول الله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

وقد وصف نبيه الكريم ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ

---

(١) دولة المرابطين ، ص ٧٢.

(٢) مسلم ، كتاب المساجد ، باب من أحق بالإمامة ، (١/ ٤٦٤) رقم (٦٧٢) .

(٣) انظر : الصفات اللازمة للدعاة ، ص ٧٥ .

لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فليقتد الداعي المسلم برسول الله ﷺ، وليكن شأنه وديدنه لمن يدعوهم، ويتحمل صدور أي أذى منهم.

٤ ـ الاستعداد للبذل والتضحية بكل شيء:

نجد أن الفقيه عبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ بذل نفسه وماله ووقته وحياته، وكل شيء في سبيل الغاية التي خرج من أجلها إلى قبائل صنهاجة، وقد أيقن هذا الداعية الرباني أنه ليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه، إنما هو الأجر الجزيل، والثواب الجميل.

إن المسلم عندما يبذل ما في وسعه من أجل دعوته ورضا ربه يرجو بذلك أعظم الدرجات عند الله، والفوز والخلود والنعيم المقيم بالجنة، وأعظم من ذلك إحلال رضوان الله عليه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠ ـ ٢١].

إن الذين ضحوا وبذلوا وجاهدوا، استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ، ويبدلوا أفكار ومبادئ البشر الأرضية بمبادئ سامية ربانية.

فينبغي على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يجردوا أنفسهم من الهوىٰ، وينفضوا أنفسهم من كل بهرج وزينة، وأن يبذلوا المال برضاء وسخاء، ويبذلوا العافية والصحة والسهر والتعب، والمسير المضني، لرفع دعوة الله، وإذا دعت الحاجة إلى بذل الروح فلا يضنون بها، بل يجعلونها رخيصة بجانب مغفرته ورحمته ورضوانه وجنته[١].

لقد تعمدت الإسهاب في ذكر الصفات اللازمة في الشخصية التي تريد أن تربي أمة وتنشئُ شعباً وتبني دولة، لعل الله ينفعنا بالدراسة التحليلية للشخصيات الربانية التي ظهرت في أمتنا العظيمة.

■ ■ ■

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص ٧٤ وما بعدها.

المبحث الخامس
المراحل التي مر بها ابن ياسين في دعوته

نستطيع أن نقرر من الاستقراء التاريخي لسيرته أنه مر بعدة مراحل قبل أن تقوم دولة المرابطين ، وبعض المراحل عاصرها وأشرف عليها ، وبعضها الآخر قام بها أتباعه المخلصون.

أما المراحل التي مرت بها دولة المرابطين قبل قيامها فهي: مرحلة التعريف والتكوين والتنفيذ ، وأما مرحلة التمكين فهي التي أصبحت فيها ملامح دولة المرابطين واضحة للعيان. إن المراحل التي عاصرها وأشرف عليها بنفسه هي مرحلة التعريف والتكوين وجزء من التنفيذ ، أما بقية المعارك فقام بها تلاميذه المخلصون من أمثال أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، وأما صاحب الفضل بعد الله تعالى في مرحلة التمكين والتوسع والانتشار الفعلي ، فهو يوسف بن تاشفين منقذ الأندلس من الضياع ، ومبيد الحركات الكفرية البدعية من الوجود.

أ ـ مرحلة التعريف:

قام ابن ياسين في هذه المرحلة بتعريف الناس بالعقيدة الإسلامية الصحيحة ، موضحاً لهم أركان الإيمان الستة: «الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضائه وقدره» وعلى أصول منهج أهل السنة والجماعة ، واهتم بتنقية العقيدة الإسلامية من اللوثات الشركية والوثنية التي خالطت عقائد الملثمين في تلك الفترة.

واهتم بتعليم الناس الصلاة والزكاة وأحكام الصيام ، حيث وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وحارب العادات السيئة التي تصطدم مع ثوابت الدين من زنى وزواج بأكثر من أربع وغير ذلك من الأعراف والتقاليد الممزوجة بالجهل والتخلف والضلال ، وبذل جهداً في بيان أصول الإسلام للناس وحاول جاهداً أن يربطهم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وأوضح للناس ضرورة الالتزام بالسنة وأنها هي

المبينة للقرآن الكريم ، بل هي شرح وتفصيل للقرآن العظيم ، وعمل على تفسير نصوص الدين بأسلوب يلائم عقول الملثمين ، وأزال الشبهات التي تعلقت بأذهان الناس من قبائل صنهاجة ، وكان همه جمع الناس على الإسلام ومبادئه والعمل به على العموم.

ودعا الناس جميعاً إلى محبة كل أعمال الخير ، وكراهية كل أنواع الشر.

ونستطيع أن نقول: إن هذه المرحلة في دعوة ابن ياسين كانت انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وهذه الآية حدد الله بها وظيفة النبي ﷺ وواجبه ، وكذلك الدعاة من أمته من بعده ، حيث نجد الداعية الفقيه ابن ياسين سلك في دعوته هذه الأمور أو الوظائف أو الواجبات ؛ المحاور التالية:

١ ـ تبليغ وحي الله إلى الناس ، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١].

٢ ـ تزكية نفوس الناس و تطهيرها وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة ، بحيث يصير الإنسان في الدنيا مستحقاً للأوصاف المحمودة ، وفي الآخرة الأجر والمثوبة ، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيُزَكِّيكُمۡ﴾.

فالداعية إلى الله يطهر نفوس الناس بوحي الله ، وينمي أرواحهم وأقوالهم وأبدانهم ، ويرتفع بهم إلى المستوىٰ الذي يليقُ بكرامة الإنسان ، الذي كرمه ربه وفضله على كثير من خلق.

٣ ـ التعليم: تعليم الناس العلم النافع ، أي: القرآن والحكمة ، وذلك في قوله سبحانه من هذه الآية: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وهذا هو واجب النبي ﷺ ، وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين ، و«الكتاب» هو القرآن الكريم ، وهو هدىً للناس؛ كل الناس ، إذ ما من خير للبشرية في دينها ودنياها إلا أمر به القرآن ، وما من شيء من هذا وذاك إلا اشتمل عليه القرآن: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ٣٨] و﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يوسف: ١١١] ، و﴿تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

وقد سمي القرآن الكريم «قرآناً» من بين كتب الله ، لأنه جمع ثمرة هذه الكتب

كلها ، بل جمع ثمرة العلوم والمعارف كلها ، إذ القرآن معناه الجمع والإثبات.

والحكمة هي: إصابة الحق بالعلم والعقل ، ولها معان ، فهي من الله سبحانه: معرفة الأشياء وإيجادها ، وعلى غاية ما يكون الإحكام ، ومن الإنسان معرفة الموجودات ، والعلم بها ، وفعل الخيرات ، و«الكتاب والحكمة» بهذه المعاني هما تنوير الأذهان بما تفتقر إليه من هدايات في عالمي الغيب والشهادة ، وكم كانت قبائل صنهاجة محتاجة لهذه الهدايات التي أصلحت اعتقادها وتصورها ومنهجها ، وأصبحت قبائل تحمل أهم رسالة ودعوة ربانية بفضل الله عليها ، ثم بجهود المخلصين ، من أمثال الفقيه ابن ياسين.

٤ ـ واجتهد ابن ياسين ـ رحمه الله ـ في نقل الناس من ضلال الباطل إلى طريق الحق ، ومن ظلام الجهل إلى نور العلم مسترشداً بقول الله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١] أي: يبصركم بحاضركم ، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

وكان أثر التربية القرآنية واضحاً في شخصية ابن ياسين ـ رحمه الله ـ حيث نجده في تبليغ رسالات الله لا يداهن ولا يجامل ، بل يأخذ بكافة الأخلاق الشرعية ويتوكل على الله في الصدع بكلمة الحق ، وكأن بين عينيه قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكان يشعر في قرارة نفسه بالإثم والمعصية إن قعد وكتم ما علمه الله سبحانه وتعالى ، وهذا من أثر القرآن في نفسه حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

والآية واضحة في بيان أن من عرف الحق فقد وجب عليه أن يبينه للناس ، ومن لم يفعل فقد أثم.

إننا محتاجون بأن نتربى على آيات الله لنفهمها ، ثم لننطلق في دنيا الناس عاملين بها ابتغاء مرضاة الله ، وطمعاً في ثوابه ورغبة في جنته ، وخوفاً من عقابه وشفقة من ناره.

وقد نعى الله تعالى في كتابه العزيز على أهل الكتاب عدم بيانهم لأحكام الله للناس ، وكتمانها مقابل ثمن قليلٍ من متاعِ الدنيا.

فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهكذا يا أخي الكريم نجد القرآن الكريم في تربيته للدعاة إليه يرغبهم ويرهبهم، فتنطلق القلوب تسعى للمثوبة والدرجات العلى؛ لأن ما عند الله خير وأبقى.

كما نجد الأحاديث النبوية التي تربى عليها ابن ياسين وتلاميذه مشجعة لهم في السعي الدؤوب من أجل إكمال مرحلة التعريف بنجاح؛ فإن السنة النبوية المطهرة ـ شارحة القرآن ـ قد فاضت بالأحاديث في هذا المجال.

روىٰ الإمامُ البخاري بسنده، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه، في باب: تعريف النبي ﷺ وفد عبد قيس على أن يحفظوا الإيمان، والعلم، ويخبروا من وراءهم، قال مالك بن الحويرث ـ وهو من بني عبد القيس ـ قال لنا النبي: «ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم».

عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ لما قدم إليه وفد عبد القيس: «من الوفد، أو من القوم؟» قالوا: ربيعة، فقال: «مرحباً بالقوم، أو الوفد، غير خزايا ولا ندامىٰ»، قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم».

ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت، قال شعبة: ربما قال: «النقير» وربما قال: «المقير» قال: «احفظوه وأخبروه من وراءكم»[1].

وهذا الحديث النبوي الشريف نهج للقوم لمعرفة أصول الدعوة في مرحلة التعريف ومعالجة الأمراض المنتشرة في المجتمع، حيث كانت عادة شرب الخمر قد انتشرت في ربوعِ هؤلاء القومِ انتشار النارِ في الهشيم، ولذلك نهاهم رسول الله ﷺ عن الدباءِ، والحنتم، والمزفت، التي كانت عبارة عن أوانٍ لشرب الخمر، ومن

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (١/ ٤٦) رقم (١٧).

مثل هذا الحديث يستلهم الدعاة أولوياتِ مرحلة التعريف في الدعوة إلى اللهِ تعالى ، وغيره من الأحاديث الكثيرة والإرشاداتِ النبوية الكريمة.

استمر الفقيهُ ابن ياسين في تعريف الناس بأصول دينهم وأحكامه والأخلاقِ التي تطلبها شريعتهم ، وحارب التقاليد والأعراف السيئة بكل شجاعة وجرأة.

إلا أن الله تعالى ابتلاهُ بقوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، فاصطدمت دعوة المصلح الفقيه بأطماعهم ، فتعرض للتضييق والشدة والتعسف من بعض وجهاء قبائل صنهاجة من قبيلة جدالة ، وحاولوا قتلهُ إلا أن الله نجاه منهم.

فأشار الأمير المخلص والتلميذ الوفي يحيى بن إبراهيم على ابن ياسين أن يذهبوا إلى جزيرة في حوض السنغال ؛ ليتربى الأتباع فيها ابتغاء مرضاة اللهِ والدار الآخرة.

وقال له: «إن الجزيرة إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا ، وإذا ملأ دخلنا في الزوارق ، وفيها الحلال المحض الذي لا تشكُّ فيه من الشجر البري ، وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحوش والحوت»[1].

وبذلك يكون ابن ياسين ـ رحمه الله ـ ترك ديار الملثمين واختار جزيرة في حوض نهر السنغال للمرابطة ، وتربية المريدين على كتاب الله وسنة رسولهِ ﷺ بعد أن ترك صدى ودوياً لدعوته في ديار الملثمين ، وبذلك قرر ابن ياسين أن ينتقل إلى مرحلة التكوين مختاراً مكاناً مناسباً لهذه المرحلة المهمة في تاريخ دولة المرابطين ؛ بعد أن نجح في مرحلة التعريف في إبلاغ الدعوة والتعريف بها لهم.

ب ـ مرحلة التكوين عند الفقيه ابن ياسين:

تمهيد:

اشتهر في تاريخ المرابطين ما يُسمىٰ برباط ابن ياسين ، وقبل أن نتعرض لرباط ابن ياسين الذي اتخذه في مرحلة التكوين أرى من باب الفائدةِ للقارىءِ الكريم أن يأخذ فكرة مختصرة عن معنى الرباط في الإسلام.

الرباط: هو حصن حربي يُقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المسلمين ، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

---

(١) انظر: دولة المرابطين ص ٢٣.

أما القرآن: فمن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفي الحديث النبوي: في البخاري جاء في فضل الرباط في سبيل الله تعالى عن سهل بن سعد الساعدي رضي اللهُ عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رباط يوم في سبيل اللهِ خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنةِ خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل اللهِ أو الغدوةُ خير من الدنيا وما عليها»[1].

وأصبحت كلمة مرابط تطلق على الشخص الذي خرج إلى الثغور للدفاع عن المسلمين من أعدائهم، وأطلق المسلمون على الثغر أي المحل الذي يقيمون فيه اسم الرباط.

ويحتوي الرباط على برج مراقبة وحصن صغير، وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من هذه الربط لحماية الدولة الإسلامية على مر التاريخ، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط، وكذلك في ثغور الجزيرة الفراتية، وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها، فأقيمت فيها الربط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها، حتى إن الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطة فيها، وقالوا له: قربها من البحر ليكون أهلها من المرابطين[2].

وقد توسعت الربط في عهد العباسيين، وبنى الوالي العباسي هرثمة بن أعين أول رباط في إفريقية عام (١٧٩ هـ ـ ٩٧٥ م)[3] وتوسع الأغالبة في هذا المجال توسعاً عظيماً، وأقام الوالي زيادة الله الأغلبي رباط سوسة عام ٢٠٦ هـ ـ ٨٢٢ م.

وكان الأغالبة يسمون هذه الربط بالقصور والمحاريس، وقد انتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، وكان أهالي الشمال الإفريقي يلجؤون إليها إذا

---

(١) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير (٣/ ٢٩٥)، حديث رقم (٢٨٩٢).

(٢) انظر: المالكي رياض النفوس، ص ٦.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة رباض، ص ١٩.

داهمهم الغزاة ، وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحري عن احتلال الساحل الإفريقي ، وقد التزم المقيمون في هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصة ، بالإضافة إلى كافة التدريبات الجهادية الأخرى التي أهَّلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المسلمين والجهاد في سبيل الله .

وإلى جانب المهمات الجهادية التي قامت بها الثغور فقد اهتمت بالناحية العلمية ، فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها ، وقد قام فقهاء أهل السنة والجماعة في تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريادي عظيم في وجه التيارات الفكرية والمذهبية التي عصفت بالمشرق ، وكانت الربط والثغور والقلاع والحصون هي المنطلق لنشر ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة ، وأصبحت الثغور في الشمال الإفريقي مدارس علمية تدرس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها ، وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية ، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البري والبحري حسب موقع الرباط ، وكذلك يقومون بإعداد الطعام وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها ، بالإضافة إلى صناعة الأسلحة[١] .

وأما من ناحية العبادة ، فالجماعة التي التزمت بالرباط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام ، فكانت العبادة تقتصر على الصلواتِ الخمس جماعة ، وقد وضعت عقوبات لمن تأخر عنها .

وفي أوقات السلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره ، وكل ما يمت إلى الدين بصلة ، ويقومون بالمهماتِ التي تتعلق بحياة الرباط ، وبما أن التبشيرَ لهذا الدين والدعوة إليهِ من أهم واجباتهم ، فكانوا يخرجون إلى القبائل لهدايتها وترغيبها بالإسلام وتربيتها عليه ، وقد أدت الثغور في الشمال الإفريقي خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين ، فقد عصمت أهل المغرب إلى حدٍّ كبيرٍ من الفتن التي سادت المشرق ، وكان لمنهجِ أهل السنة والجماعة شوكة وحماة وعلماء وفقهاء في تلك الربوع من عالمنا الإسلامي ، وتميز أهل الثغور عن غيرهم بالزهدِ والتقشف والتفاني

---

(١) انظر : دولة المرابطين ص ٢٤ ـ ٢٥ .

في سبيلِ الله ، ولا يبتغي أهلها من الناس من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً ، وإنما لسان حالهم أنا ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[1] .

١ ـ رباط عبد اللهِ بن ياسين :

أقام الفقيه العالم الرباني المربي المجاهد ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال ، وموقعه يدل على أهداف ابن ياسين التي أعد لها ، فهو يقع قريباً من مملكة غانة الوثنية ، لذلك فهو مهدد دائماً بالأعداءِ ، ولا بد للحاميةِ المقيمة فيه من الجهاد ، وهو غير بعيد عن ديار الملثمين ، فيستند إليهم في حالات الخطر ، وتشكل تلك الديار مورداً بشرياً لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه ، وهذا يفسر كثرة عددِ رجالهِ .

دخل ابن ياسين الجزيرة التي في الحوض الأدنى لنهر السنغال عام ٤٣٣ هـ ـ ١٠٤٠ م ومعه أتباعه المخلصون ، ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء الملثمين ، وتكاثر عدده حتى بلغ الألف رجل ، ولما كثر أتباعهُ وضع ابن ياسين شروطاً رآها لازمة لكي لا يتأثرَ تنظيم رباطه الجديد ومرحلته التي بدأ الشروع فيها ، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوةً وأقدرهم على تحمل المشاق ، كان يطلب منهم أن يتخلوا عن تقاليدهم وأعرافهم وتصوراتهم التي تخالف الإسلام ، ويدخلوا الإسلام بقلوب صافية ونفوس طاهرة وهمم عالية تسعى لتحكيم شرع اللهِ على وجه المعمورة[2] .

وعمل جاهداً على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مجتمعه الجديد ، وكان يرى أن من فاتته صلاة من عمره عليه أن يقضيها ، وهي مسألة فقهية اختلف علماء الأمة فيها ، فمنهم من يكتفي بالتوبة النصوح ، ومنهم من يطلب قضاء ما فات .

وكان ابن ياسين يهتم اهتماماً بالغاً بالفقهاء والعلماء ويرفعهم إلى مراتب عالية حيث التف حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه على تربيةِ الناسِ وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة .

وكان لا يمنعهُ الحياء من طرد من لا يراه مناسباً لهدفه المنشود .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢) انظر : دولة المرابطين ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

وكان أهل الرباط في قمةٍ من الصفاء الروحي ، ويعيشون حياة مثالية في رباطهم ؛ فيتعاونون على قوتهم اليومي معتمدين على ما توفره لهم جزيرتهم من الصيد البحري ، ويقنعون بالقليل من الطعام ، ويرتدون الخشن من الثياب[1] .

وكان رباط السنغال الذي أسسه الداعية الرباني ابن ياسين منارة يشع نورها وخيرها وعلمها في تلك الصحارىٰ القاحلة ، فأصبح قطباً جذاباً عاملاً على جذب أبناء قبائل صنهاجة إليه ، ووفر الأمن والاستقرارَ في تلك الديار الصحراوية البعيدة ، فأصبحت القوافل تمر بأمن وسلام دون أن يتعرض لها أحد بسوء ، وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة .

وتميز ذلك الرباط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله ؛ مما ساعد على قوة النواة الأولى لدولة المرابطين ، حيث تشكل مجلس الشورىٰ وجماعة للحل والعقد ، وتطورت مع مرور الأيام وأصبحت مرجعية عليا للملثمين .

٢ ـ أصول المنهجية العلمية والفقهية عند الفقيه ابن ياسين التي ربى عليها أتباعه :

يعتبر الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة ، مالكي المذهب ، استمد أصول فهمه من أصول المالكية التي كانت ولا زالت ضاربة بجذورها في قلوب أهالي الشمال الإفريقي ، إلا أنه كانت له اجتهاداته الحركية والتنظيمية التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها وتحرك بها ، وبذلك نستطيعُ أن نقول عنه بأنه فقيه مالكي حركي ، ويرى علماء المالكية الذين تتلمذ ابن ياسين على كتبهم وفقههم أن المذهب المالكي له أصول في الاستنباط واستخراج الأدلة الشرعيةِ ، ومن هذه الأصول :

المصدر الأول : القرآن الكريم :

كان الإمام مالك يرى أن القرآن قد اشتمل على كليات الشريعةِ ، وأنه عمدة الدين ، وآية الرسالة ، ولم تكن نظرتهُ إليه كنظرة الجدليين ، فابتعد عن نظر المتكلمين ، هل القرآن لفظ ومعنى أو معنى فقط ، وهو عنده لفظ ومعنىٰ ، كما هو إجماعُ من يعتد بهم من المسلمين ، وروي أنه كان يقول : إن من يقول بأن القرآن مخلوق فهو زنديق يجب قتله ، ولذا لم يعتبر الترجمة قرآناً يُتلىٰ تجوز به الصلاة ،

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

بل هي تفسير أو وجه من وجوه المعنىٰ المعقول ، وهو يأخذ بنص القرآن ، وظاهره ومفهومه[١] .

إن القرآن الكريم هو المرجعية العليا لابن ياسين وأتباعِهِ ، وكان موقفهم الإذعان والتسليم لكل ما جاء فيه ، ومما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات ، فالقُرآن الكريم لم يفرّق بينها ، فكلها تتضمن كلمات اللهِ الهادية إلى أقوم سبيل ، الداعية إلى كل هدى ورشد ، والمحذرة من كل ضلالة وغي ، فكان وأتباعه على بينة من ربهم وبصيرة من دينهم ، فلم تتحير عقولهم أو ترتاب قلوبهم أو يتردد عزمهم في أي تصور أو معتقد أو خلق أرشد إليه القرآن ، لإيمانهم العميق بقوله تعالى : ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وكان تدبر ابن ياسين وفقهاء المرابطين للقرآن الكريم معيناً لهم على استنباط الأحكام الشرعية .

قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

وقال عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] .

لقد فهم المرابطون أن القرآن الكريم لم ينزل ليُتلى على الأموات ، بل نزل ليحكم الأحياء ، وأنه لم ينزله الله تعالى إلا من أجل اتباعهِ والعمل به ، وبذلك ينالُ المتبع والعاملُ به رحمة اللهِ تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

إن الله تعالى حدد في كتابه أهدافَ القرآن الكريم في الحياة والمجتمع في عباراتِ أبين من الشمس في رائعة النهار ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [النساء : ١٠٥] . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ

---

(١) انظر : تاريخ التشريع ، مناع القطان ، ص ٢٩١ .

ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٦].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩ ـ ١٠].

إن من أسباب قوة المرابطين وتوفيق الله لهم: تمسكهم بكتاب الله.

المصدر الثاني: السنة النبوية:

اعتمد المرابطون ـ وخصوصاً فقيههم الأكبر ابن ياسين ـ على السنة النبوية في استنباط الأحكام الشرعية، وألزمُوا أنفسهم وغيرهم بمنهجِ الله تعالى.

والسنة عند المرابطين: هي المنهج النبوي المفصل في تعاليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه، والذي يتجسد فيه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويتمثل ذلك في أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته.

فالقُرآن: هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام بعقائده، وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه.

والسنة: هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

ورأى علماء المرابطين وجوب اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته مستندين بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

وجع طاعته طاعةً لله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وجعل سبحانه وتعالى طاعته الاهتداء: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤].

وجعل سبحانه وتعالى اتباع النبي ﷺ دليلاً على محبة الله ومغفرته: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأمرهم باتباعهِ فيما أمر ونهىٰ:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وأمرهم بالاستجابةِ لدعوته ، واعتبر ما يدعوهم إليه هو الحياة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولم يجعل لمؤمنٍ ولا مؤمنة خياراً في قبول حكمه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأقسم على نفي الإيمان عمن أعرض عن تحكيمه ، أو لم يقبل حكمه راضياً مُسلِّماً: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وجعل سبحانه وتعالى قبول حكمه أو التولي عنه المحك الذي يميز الإيمان من النفاق. قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٧ ـ ٤٨].

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وحثَّ على الاقتداء بالنبي ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزب: ٢١].

ودلت أحاديثُ كثيرة على وجوب اتباع النبي ﷺ ، ولذلك سعى المرابطون لتحقيقها في حياتهم ، ومن ذلك ما رواه أبو هريرةَ أنه قال: «كل أمتي يدخلون الجنةَ إلا من أبى» قيل: ومن يأبى يا رسولَ الله؟ قال: «مَنْ أطاعَنِي دخل الجَنة ، ومن عصاني فقد أبى»(١).

ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا: يا رسولَ الله ، كأنها موعظة مودِّع ، فأوصنا ، قال: «أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثاتِ الأمر ، فإن كل بدعة ضلالة»[(١)] .

إن قبائل صنهاجة الذين عرفوا بالملثمين ثم أطلق عليهم اسم المرابطين ظهرت آثار التزامهم بسنة النبي ﷺ في كافة مناشط حياتهم ، في التعليم والتزكية والجهاد والسياسة وغيرها من الأمور التي كونوا بها دولتهم المعروفة .

المصدر الثالث : عمل أهل المدينة :

الذي اهتمت به المدرسة المالكية المغربية السنية عموماً عمل أهل المدينةِ حيث إنها دار الهجرةِ ، وبها تنزَّل القرآن ، وأقام رسول الله ﷺ ، ومعه أصحابه بها ، وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل ، وبما كان من بيان رسول الله ﷺ ، على هذا رأى المالكيون أن عملهم بالاقتداءِ بعلماء أهل المدينةِ في أقوالهم وأفعالهم حجة ، وقدموا ذلك على القياس وعلى خبر الواحد ، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد الفقيه المصري : «إن الناس تبع لأهل المدينةِ ، التي إليها كانت الهجرة ، وبها تنزل القرآن»[(٢)] .

وسار فقهاءُ الدولة المرابطية وعلى رأسهم الفقيه عبد الله بن ياسين على هذا الطريق ، ولم يغيروا أو يبدلوا أو يرضوا بغيره حولاً .

المصدر الرابع : قول الصحابي :

جعل المالكية قول الصحابي الذي لا يعرف له مخالف حجة ، واعتمدوا في ذلك على ما ذكر الإمام مالك في «الموطأ» حيث اعتمد في كثير من فتاويه على العديد من أقوال الصحابة الذي هم أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد .

وحين تتعدد أقوال الصحابة في المسألة الواحدة يختار علماء المالكية من أقوالهم ما يتفق مع عمل أهل المدينة .

المصدر الخامس : المصالح المرسلة :

اعتبر المالكية المصالح المرسلة دليلاً شرعياً ، ومارسوها ممارسة عملية في الحياة ، وأصَّلوا لها أصولاً في جلبِ المنفعة ودفع المفسدة ، وقاسوا بهذه القواعد

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذي (٢٦٧٦) .

(٢) انظر : تاريخ التشريع الإسلامي ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

الأمور التي لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين ، لأن تكاليف الشريعةِ ترجع إلى حفظِ مقاصدها في الخلق ، والمقاصد إما ضرورية ، أو حاجية ، أو تحسينية .

والضرورية : هي التي لا بد منها في قيام مصالحِ الدين والدنيا ، والضروريات الخمس في الملل جميعاً ، وهي : حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل .

والحاجية : هي التي تؤدي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة .

والتحسينية : هي المتعلقة بمكارم الأخلاق ، وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها في الكتاب والسنة ، مما يدل على مقاصد الشرع ، ولذا ذهب المالكية إلى أن المصلحة تكون حجة . ويعتبر بعض الباحثين القول بالمصلحة من خصوصيات مذهب المالكية .

المصدر السادس : القياس :

وهو من أصول المنهجية العلمية التي سار عليها ابن ياسين وربى عليها أتباعه .

المصدر السابع : سد الذرائع :

سار عليه ابن ياسين في منهجه العلمي في تأصل أصول فقه مذهبه ، وسار على نهج فقهاء المالكية في الاقتداء بالإمام مالك ـ رحمه الله ـ الذي أكثر إكثاراً شديداً من العمل بسد الذرائع ، حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه حتى وصفه الشاطبي بأنه كان شديد المبالغة في سد الذَّرائع[١] .

ج ـ مرحلة التنفيذ التي قام بها ابن ياسين :

بعد أن قطع ابن ياسين بأصحابه وأتباعِهِ مرحلة التكوين العقدي والفقهي والحركي والتنظيمي والتربوي ، وأصبح معه رجال يعتمد عليهم في تبليغ دعوة الله على فهم صحيح لكتاب الله ، وفقه واسع لسنة نبيه ﷺ ، ورغبهم في ثواب الله تعالى ، وطلب مرضاته ، وخوّفهم من عقابه ، وتمكن حب الاتباع من قائدهم العالم الفقيه ، وبدأ ابن ياسين بإرسال البعوث إلى القبائل ، لترغيب الناس في الإسلام ، فلبى مجموعة من أشراف صنهاجة هذه الدعوة المحكمة والتفوا حوله .

ثم أمر ابن ياسين أتباعه وتلاميذه أن يذهب كل منهم إلى قبيلته أو عشيرته

---

(١) انظر : التشريع والفقه في الإسلام ، مناع القطان ، ص ٢٩٤ .

يدعوهم إلى العمل بأحكام الله وسنة نبيه ﷺ ، فلما لم يجدوا استجابة من أقوامهم ، خرج إليهم بنفسه ، فجمع أشياخ القبائل ، ووعظهم وحذرهم عقاب الله ، واستمر في ذلك سبعة أيام ، فلم يزدادوا إلا فسقاً ، فلما يئس منهم أعلن الجهاد عليهم[(١)] .

تحركت جموع المرابطين أولاً صوب قبيلة جدالة ، حيث اشتبكوا معهم في معركة شرسة ، وأوقعوا بهم الهزيمة ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وانقاد الباقون لأحكام الإسلام ، ثم سار ابن ياسين إلى قبيلة لمتونة فقاتلهم وانتصر عليهم ، ودخلوا في طاعة ابن ياسين ، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة ، ثم مضى إلى قبيلة مسوفة التي دخلت تحت لوائه وبايعوه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة ، فلما شهدت قبائل صنهاجة هذه الأحداث بادرت إلى مبايعة ابن ياسين على بذل الطاعة له ، وقلدتها كثير من القبائل الصحراوية في ذلك[(٢)] .

ووضع ابن ياسين خطة شاملة تركزت على توزيع النابغين من تلاميذه على القبائل التي دخلت في دعوته ليعلموها القرآن وشرائع الإسلام ، وبدأ ابن ياسين في تخطيط الدولة التي شرع لتأسيسها على أسس شرعية ربانية ، وفي ظني أن الذي أسس الدولة المرابطية فعلياً ، ونفذ أحكامها الشرعية هو يوسف بن تاشفين ، وهذا ما يتضح من خلال دراسة هذه الدولة البهية ، ولما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ، قدم ابن ياسين مكانه يحيىٰ بن عمر اللمتوني ، وكان من أهل الدين والفضل ، كما كان منقاداً في جميع أموره لإمامه ابن ياسين[(٣)] .

وبذلك أصبحت القبائل الصنهاجية في المغرب الأقصىٰ لها قيادة دينية وسياسية ومجالس شورىٰ تدير دفتها وحركتها ، فتطلعت لتوحيد المغرب الأقصىٰ كله ، وإزالة كل عائق يمنعها من تحكيم شرع ربها .

أ ـ الوضع السياسي في المغرب الأقصى عند ظهور المرابطين :

كان المغرب الأقصى في أوائلِ القرن الخامس الهجري في محنة سياسية ودينية حيث ظهرت دعوات منحرفة عن الإسلام وحقيقته وجوهره الأصيل ، واستطاعت بعض الدعوات البدعية الكفرية أن تشكل كياناً سياسياً تحتمي به ، وأصبح المغرب

(١) انظر : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٥ .
(٢) انظر : تاريخ المغرب والأندلس ، د. حمدي عبد المنعم ، ص ٤١ .
(٣) انظر : دولة المرابطين ، ص ٣١ .

الأقصى شبيهاً بالأندلس في زمن ملوك الطوائف ، وكانت الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين تتكون من أربع شوكات قوية لها وزنها في المغرب الأقصى .

أولاً : قبائل غمارة في الشمال .

ثانيا : قبائل برغواطة في المغرب .

ثالثاً: قبائل زناتة ، وكانت تكوِّن نطاقاً حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة .

رابعاً: طوائف الشيعة والرافضة والوثنيين في الجنوب .

١ ـ الطائفة الأولى قبائل غمارة :

كانت تسكن جبال الريفِ الممتدة من ناحية البحر المتوسط من سبتة وطنجة غرباً ، إلى وادي نكور بالقرب من المزمة أو الحُسَيْمة الحالية شرقاً ، وتمتدُّ بلادهم جنوباً إلى قرب فاس ، وكانت غمارة بطناً من بطونِ مصمودة وظهر فيها مشعوذون ، وقصدتهم الخوارجُ للمنعة في جبالهم ، ووصفهم المؤرخون من أمثال ابن خلدون وغيره: بأنهم: «عريقون في الجاهلية؛ بل الجهالة ، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطنِ الخير ، وتنبأ فيهم إنسان يعرف حاميم بن مَنّ الله ، ولقب بالمفتري ، وفي رواية أخرى بالمقتدي ـ ولعلها هي الأصل ثم حرفت إلى المفتري ـ والجبل الذي تنبأ فيه نسب إليه ، وهو جبل على مقربة من تطوان ، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا نبوته ، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها ، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها ، ووضع لهم قرآناً بلسانهم «أي البربري» ، ومن تعاليمه أنه أحل لهم أكل أنثى الخنزير ، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء ، وحرم عليهم الحوت حتى يُذكىٰ ، وحرم بيضَ كل طائر . . . إلخ»[١] .

وقد قتل هذا المشعوذ الزنديق في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في طنجة في حروبه مع قبائل مصمودة الساحلية على حد قول البكري وابن خلدون ، أو

---

(١) انظر : الاستبصار في عجائب الأمصار ، لمؤلف مجهول ص ١٩٠ .

في حروبه مع جيوش الخليفة الأموي عبد الرحمٰن الناصر على حد قول صاحبِ «الاستبصار» وصاحب «مفاخر البربر»[١].

واستمرت البدع الكفرية بالرغم من موت المتنبئ المشعوذ ، وظهر أحد أبنائه ويدعى عيسى كان مبجلاً في قومه ، وكانت قبائل غمارة غارقة في الإباحية بينَ النساءِ والرجال ، وكان رجالهم يربون شعورهم كالنساء ، ويتخذونها ضفائر ، ويطيبونها ويتعممون بها . . إلخ[٢].

٢ ـ الطائفة البرغواطية :

كونت هذه الطائفة الكافرة دولة لها في القرن الثاني للهجرة في إقليم تامسنا أو ما يُسمىٰ اليوم بالشاوية[٣] ، وكانت دولتهم تمتد من الرباط الحالية إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها ، وتنتهي عند بلدة أزمور عند مصب وادي أم الربيع .

ونجد أن المؤرخين اختلفوا حول اسم برغواطة ، فبعضهم يرى بأنه لم يكن اسماً لقبيلة معينة يجمعها أصلٌ واحد أو أب واحد ، بل كان اسماً لأخلاطٍ من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل ، ادعى النبوة ، اسمه صالح بن طريف بن شمعون البرباطي ، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس ، فصارت كلمة برباطي تُطلق على كل من اعتنق ديانته ، ثم حرفت إلى برغواطي[٤].

ويرى ابن خلدون بأن برغواطة قبيلة من المصامدة ، وأن ملوكها كانوا مصامدة المغرب[٥].

ومن عقائد هذه الطائفة الضالة اعتقادهم بأن صالح بن طريف هو المقصود بقوله تعالى في سورة التحريم : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] ، وزعم زعيمهم أنه المهدي الأكبر الذي يخرجُ في آخر الزمان لقتال المسيحِ الدجال ، وأن عيسىٰ ابن مريم يكون من أصحابهِ ويصلي خلفه .

---

(١) انظر : كتب الاستبصار ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ ، ومفاخر البربر ص ٧٧ .
(٢) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د. العبادي ، ص ٢٧٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٧٩ .
(٤) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د. العبادي ، ص ٢٧٩ .
(٥) ابن خلدون : العبر ، (ج ٢/ ٢١٠).

وشرَّع لأتباعهِ صوم رجب والأكل في رمضان ، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين بالإضافةِ إلى طريقة الوضوء عند المسلمين ، وفرض عليهم خمس صلوات في النهار وخمس صلوات في الليل ، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود ، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين ، وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى ، ويقول البربرية ابسمن باكش ، وتفسيره باسم الله ، وثم مقر ياكش ، أي: اللهُ أكبر ، ويقولون في تسليمهم بالبربرية أيحن ياكش ، ووردام ياكش أي الله أحد لا مثيلَ له ، ووضع صالح بن طريف قرآناً باللغة البربرية في ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس.

وأباح لهم تزوج النساء فوق أربع ، وأباح لهم الطلاق ، وحرم عليهم زواج بنت العم ، وزواج المسلمات ، كذلك شرع قتل السارق ، ورجم الزاني ، ونفي الكاذب ، وحرم رأس كل حيوان ، وحرم ذبح الديك ، والحوت أي السمك ، لا يؤكل إلا أن يذكى «أي يذبح» والبيض عندهم حرام ، وليس عندهم أذان ولا إقامة ، وهم يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الديوك ولذلك حرموها ، إلى غير ذلك من التعاليم الشيطانية وإلى حد كبير تشبه ديانة حاميم المفتري في غمارة(١).

لقد كانت تعاليم هذه الدولة الكفرية متأثرة بتعاليم اليهود المنحرفة ، وكذلك ببعض التعاليم الإسلامية ؛ حيث يمكننا أن نقول إنها ديانة مشوهة للإسلام تعمل للقضاء عليه. وكانت هذه الدولة عند أهل السنة والجماعة مجوساً منحرفين مارقين عن الدين الحنيف ، ولهذا فرضوا قتالهم ، واستحلوا دماءهم.

واستمرت هذه الدعوة الكفرية منذ سنة ١٢٥ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك إلى ظهور أهل السنة المرابطين الملثمين الذين قضوا عليهم قضاءً مبرماً ، وقد ذكرت كتب التاريخ أن حكام المغرب قبل مجيء المرابطين ، كالأدارسة والأمويين والزناتيين قد قاتلوا برغواطة ، وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة.

لقد قاسىٰ المغرب الأقصى محنة كبيرة بسبب هذا الدولة الكفرية والطائفية

---

(١) نص على ذلك التشابه صاحب كتاب مفاخر البربر ص ٧٧ ، انظر: في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨١.

البدعية ، وكان خطرها أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ[١] .

٣ ـ الطائفة الثالثة وهي الدولة الزناتية :

وهي تتكون من قبائل مكناسة ومغراوة وبني يفرن وغيرها من القبائل الزناتية التي حكمت المغرب سنين بعد زوال نفوذ الأدارسة ، حيث قامت بدور إيجابي في حرب الدولة البرغواطية ، إلا أن حكام الدولة اشتهروا بالجور والظلمِ والتعسف في آخر زمانهم[٢] .

٤ ـ الطائفة الرابعة طوائف الشيعة والوثنيين :

كان محلهم جنوب المغرب في أقصى بلاد السوس ، وكانوا عبارة عن أقليات مبعثرة .

أما الشيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت ونواحيها ، وكانوا دعاة للفكر الشيعي الرافضي ، وبعضهم يرجع جذروهم وأصول فكرتهم للدولة العبيدية الرافضية التي جاء ذكرها في صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي «الدولة العبيدية الرافضية». لقد كان الصراع عنيفاً بين الشيعة وبين أهل السنة في كل ناحية وضاحية ومكان في المغرب كله ، وتوج جهاد أهل السنة بالقضاء على الدولة العبيدية إلا أن بقايا جذورهم أزالها المرابطون بقوتهم السنية الميمونة. أما الوثنيون فكانوا يسكنون الأطلس الكبير في جبل وعر ، وكان الوثنيون يعبدون الكبش ، ويبدو أنهم تأثروا بديانات مصرية قديمة كانت تعبد الكبش في زمن الفراعنة ويسمونه الإله خنوم ، فكأن طقوس هؤلاءالوثنيين وعباداتهم من رواسب مؤثرات مصرية قديمة[٣] .

لقد اتضح لي في دراستي التاريخية لبلاد المغرب أنها كانت تعاني من تفكك سياسي ، وتكونت من دول طائفية على مناهج منحرفة عن دين رب البرية ، وكانت شعوب تلك الديار قد غرقت في وحل الجهل ، ومستنقعاتِ الانحراف وفساد التصور ، وضياع الأخلاق ، وكثرة الظلم ، وانتشار العسف والجور ، وكان علماء وفقهاء المرابطين على علم ودراية ، وقد وضعوا في خطتهم الجهادية توحيد المغرب الأقصى والقضاء على الدولة الطائفية ، وإزالة الظلم والجور والتعسف.

---

(١) في المغرب والأندلس ، ص ٢٧٨ .
(٢) في المغرب والأندلس ، ص ٢٨٩ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

وعملوا على توحيد الديار المغربية وتربيتها على منهج سني مالكي ، ومحاربة المناهج الكفرية ، والقضاء على المذاهب البدعية من خوارج ومعتزلة وروافض ومنعها من الانتشار أو أن يكون لها وجود.

د ـ الشروع في توحيد المغرب الأقصى:

في عام ٤٤٧ هـ ـ ١٠٥٥ م اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة ، وكتبوا إلى ابن ياسين يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من حكم الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين ، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة ، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم ، قالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله»[(١)].

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ إلى بلاد درعة ، فتصدى لهم الأمير مسعود بن واندين بالقتال ، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود ، وتشتت جيشه وأسرع ابن ياسين بدخول سجلماسة ، وأصلح أحوالها ، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء[(٢)].

وفي عام ٤٤٨ هـ ـ ١٠٥٦ م توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني فعين عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة ، ثم تأهب أبو بكر لغزو بلاد السوس ففي ربيعِ الثاني سنة ٤٤٨ هـ سار المرابطون صوب بلاد السوس ، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين لتولى القيادة على مقدمة الجيش المرابطي ، وكان ذلكَ أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التمكين ، وتمكنوا من احتلال أرودانت ، وقضوا على الروافض والوثنيين ، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي ؛ فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة[(٣)].

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات ، وكان أميرها يومئذٍ لقوط بن يوسف بن علي المغراوي وحاصروها واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة ، فخرج يتلمّس النجاة في أهله وحشمه تحت جناح الظلام ، ودخل المرابطون أغمات عام

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٢/ ١٨٢).
(٢) انظر: موسوعة المغرب العربي (٢/ ١٨٢).
(٣) في المغرب والأندلس ، ص ٢٩٣.

٤٤٩ هـ ـ ١٠٥٧ م وأقاموا فيها ما يقارب الشهرين ، وتحركوا حركات حربية محكمة للقضاء على فلول المغراويين ، واستطاعوا قتل أمير أغمات ، وتزوج أبو بكر بن عمر من زينب النفراوية زوجة لقوط المغراوي.

ثم سار أبو بكر بن عمر في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان أميرهم يومئذٍ أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين ، وقائع ومعارك حامية الوطيس أصيب فيها العالم الرباني والمقاتل الميداني والفقيه الموجه ابن ياسين بجراح أودت بحياته إلى الشهادة نحسبه كذلك ، ولا نزكي على الله أحداً ؛ حمل على إثر تلك الجراح إلى مقر القيادةِ في معسكر المرابطين ، وقبل خروجِ روحه جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال ، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة ، ولم يلبث أن فارق الحياة[1] فعلى أمثال هؤلاء الرحمة والمغفرة والرضوان من الرحيم الواحد المنان ، واتفق رأي المرابطين على اختيار أبي بكر بن عمر للرياسة مكان ابن ياسين ، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر ، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية ، بينما يؤكد كل من القاضي عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو ، ليرجعوا إليه في مشاكلهم وقضايا دينهم ، وتولى القائد الجديد الزعامة بهمة عالية وشجاعة فائقة ، واستعداد للتضحية والفداء من أجل إحياء دين الله على منهج النبوة ، وطمس المعالم الفكرية للدولة البرغواطية ، فأمر بتعبئةِ جيوشه المجاهدة ، وخرجَ لقتال واستئصال الكفر من بلاد المغرب ، فأثخن في جنود الدولة البرغواطية ، وفرق جموعهم ، وكسر شوكتهم ، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة ، ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات ، فمكث بها حتى شهر صفر سنة ٤٥٢ هـ ـ ١٠٦٠ م ثم تابع سيره في بلاد المغرب ، يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال ، ففتح سائرَ بلاد زناتة ، وفتح مكناسة ، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثاني ٤٥٢ هـ ، ثم عاد إلى أغمات التي اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقراً للأمير وإخوتهِ ، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة ، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية ، وشرع في بنائها ، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارةِ قبيلة جدالة على قبيلةِ

(١) تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٤.

لمتونة ، فعينَ ابن عمه يوسف وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة ، وقسم الجيش إلى فريقين ، نصفه مع يوسف الذي شرع في تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبني يفرن وغيرهم ، ووقع اختياره على أربعة من القواد هم: محمد بن تميم الجدالي ، وعمر بن سليمان المسوفي ، ومدرك التلكاني ، وسير بن أبي بكر اللمتوني ، وعقد لكل منهم على خمس آلاف من قبيلته ، وسيرهم لتأديبِ تلك القبائل المتمردة ، وسار في أثرهم فغزا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة وبلداً بعد بلد ، وكان بعضهم يفرون وبعضهم يقاتلونه ، والبعض الآخر يدخلون في طاعته.

واستمر في توحيد بلاد المغرب ، وسنرى جهوده الجهادية في سيرته الميمونة.

أما أبو بكر فقد استطاع تأمين الأمن في الصحراء ، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة ، وتوسع في جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل في دين الله حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول في الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة في مهمته الدعوية رجع إلى المغرب الأقصىٰ بجيوشه ؛ فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكراماً يليق بالقائدِ الرباني أبي بكر بن عمر ، واختار أبو بكر يوسف نائباً عنه على حكم المغرب الأقصى ، وأمره بالعدل والرفق بالمسلمين ثم ودعه وعاد إلى الصحراء ، وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة ، ومن المال والخيل والبغال ، والأسلحة المحلاة بالذهب ، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب ، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل في إحدى غزواتِهِ في سنة ٤٨٠ هـ ـ ١٠٨٧ م[١].

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» عنه أي عن أبي بكر بن عمر: «اتفق له من الناموس ما لم يتفق لغيره من ملوك ، كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمئة ألف مقاتل ، كان يعتقد طاعته ، وكان مع هذا يقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام ، ويحوط الدين ، ويسير في الناس سيرة شرعية ، مع صحة اعتقاده ودينه ، وموالاة الدولة العباسية ، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلته[٢].

---

(١) البداية والنهاية ، (١٢/ ١٤٣).

(٢) المصدر السابق نفسه.

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين ، وأتقاهم وأكثرهم ورعاً وديناً وحباً للشهادة في سبيل الله ، وساهم في توحيد بلاد المغرب ، ونشر الإسلام في الصحاري القاحلة وحدود السنغال والنيجر ، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين ، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام ، وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتية ، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس ، وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميزة.

هـ ـ تأملات في مسيرة ابن ياسين الجهادية :

لقد سار ابن ياسين في دعوته لقبائل الملثمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية ، وتدرج بهم من مرحلة التعريف إلى التكوين ثم التنفيذ ، حيث شرع في قتال القبائل التي لم تحترم أو تقدس حرمات الله ، وأزال المنكرات ، واعتبر ذلك جهاداً في سبيل الله.

وقد لاحظت أن إعلان الجهاد على القبائل التي تفشت فيها المنكرات جاء بعد إعداد وشورى من أهل الحل والعقد ، وبعد أن أصبحت لهم شوكة قوية وإمام مطاع ومجلس من العلماء والفقهاء يقلبون أمور السلم والحرب.

ويكفي هؤلاء الأبطال على صحة جهادهم ما رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلُوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلكَ من الإيمان حبةُ خردل»[1].

إن حركة المرابطين كانت موفقة حيث استطاعت أن تنسق مع علماء وفقهاء سجلماسة لإسقاط الدولة الزناتية التي تفشى فيها الظلم والجور والعسف ، فعندما رأوا من أنفسهم الاستطاعة والمقدرة على إزالة الظلم ، ورأوا أن تحقق المصلحة كان أرجح ، سارع الفقهاء والعلماء بالموافقة على مقترح ابن ياسين ، وتدفقت جيوش المرابطين ، وتعاونت مع المستضعفين ، وطهرت البلاد من هيمنة العابثين ،

---

(١) صحيح مسلم رقم (٥٠).

ونشرت العدل بين المسلمين ، ورفعت الضرائب والمكوس عن المظلومين ، وفي نظري أن نجاح حركة المرابطين كان بتوفيق الله ، ثم إن القيادة الفعلية للعلماء والفقهاء ومجلس الشورى الذي يمثل أهل الحل والعقد ممن شهدت لهم جموع المرابطين بأنهم أهل لذلك كانت حساباتهم دقيقة ، وفتاويهم موزونة ، ومعاركهم مدروسة .

أما قتالهم لبرغواطة ، وغمارة ، ذات المعتقدات الكُفرية والانحرافات العقدية فهذا يعتبر من أعظم أعمالهم الجهادية عندما وفقوا لإزالة الدولة الشركية واقتلعوها من جذورها ، وبدلت بأصول سنية زكية بهية .

كما لاحظت أن للعلماء شبكة عملية للاتصال والتشاور ووضع الخطط اللازمة لإحياء الإسلام في الشمال الإفريقي ، حيث نجد أن الإمام أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط العريضة والإرشادات النافعة لدولة المرابطية ، ثم وجه الأمير يحيى بن إبراهيم إلى موقع من مواقع حلقة الاتصال الواسعة بين العلماء ليرسل قائد تلك الجهة وهو ابن وجاج مع الأمير يحيى أحد الأفراد الذي يتوسم فيهم ذكاءً ونجابةً وصلاحاً وتفوقاً للدعوة في قبائل صنهاجة ، وكان اختيار ابن وجاج في محله الذي استمر على اتصاله بشيوخه .

كما أن علماء سجلماسة كانوا ضمن شبكة من شبكات التعاون بين فقهاء أهل السنة ، فهم الذين شجعوا جيوش المرابطين لتوحيد الديار المغربية تحت لواء دولة سنية .

■ ■ ■

المبحث السادس
مرحلة التمكين والتوسع لدولة المرابطين
القائد الرباني يوسف بن تاشفين
٤٠٠ ـ ٥٠٠ هـ/١٠٠٩ ـ ١١٠٦ م

تمهيد:

قد علمت أهم المراحل في فقه الدعوة إلى الله التي مر بها الإمام ابن ياسين ، حيث نجده نجح نجاحاً عظيماً في تنفيذ مرحلة التعريف والتكوين والتنفيذ ، واستشهد في مرحلة التنفيذ ، وتولى القيادة في هذه المرحلة أبو بكر بن عمر الذي سار على نفس المنهج الذي رسمه ابن ياسين.

واستمر في فتح مدن المغرب ، إلا أنه ترك نصف جيش المرابطين لابن عمه يوسف ودخل بالباقي نحو الجنوب داعياً ومجاهداً ومصلحاً ، واستمر في فتوحاته حتى استشهد ـ رحمه الله ـ وتولى الأمر بالكلية القائد الرباني ابن تاشفين الذين أنهى مرحلة التنفيذ وانتقل إلى مرحلة التمكين.

أ ـ نسبه:

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي ، وأمه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين. وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة ، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ، فنما عزيزاً كريماً في قومه.

قال عنه المؤرخون من أمثال أشياخ: «خلق للزعامة»[1].

---

(١) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٦٥.

ملك له الشرف العلي من حمير وإن اتهموا صنهاجة فهم هم[(١)]

كان يوسف أسمر اللون نقيه ، معتدل القامة ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيق الصوت ، أكحل العينين ، أقنى الأنف ، له وفرة تبلغ شحمة الأذن ، مقرون الحاجبين ، أجعد الشعر[(٢)] .

كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم ، وبين أبدع المواهب ، كان بطلاً شجاعاً نجداً حاذقاً ، جواداً كريماً ، زاهداً في زينة الدنيا ، عادلاً متورعاً ، متقشفاً ، لباسه الصوف ، وطعامه خبز الشعير ، ولحوم الإبل وألبانها[(٣)] ، وكان عزيز النفس كثير الخوف من الله .

كان يحب الصفح والعفو عن الذنوب مهما كبرت ؛ ما عدا الذين يرتكبون الخيانة في حق الدين فلا مجال للعفو عنهم[(٤)] .

ربته الأحداث وصاغت من شخصيته قائداً فذاً ، وبرهنت الأيام على أن له قدرة على فهم واقعه ، وكان قادراً على النهوض بقومه وشعبه وجيشه نحو حياة إسلامية حضارية أفضل .

تلقَّى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه المحدثين والفقهاء ، ونما وترعرع وتربىٰ على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين ، ونبغ في فنون رجال الحرب ، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على أيدي الفقهاء فيها ، وقام بها خير قيام ، وسنرى ذلك بإذن الله في بحثنا هذا .

تذكر كتب التاريخ أنه تزوج زينب النفروية بعد أن طلقها ابن عمه أبو بكر بن عمر عندما عزم على السفر إلى الصحراء للجهاد والدعوة والإصلاح ، فقال لها : أنت امرأة جميلة بضة ، لا طاقة لك على حرارة الصحراء ، وإني مطلقك إذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين ، وتزوجها يوسف بعد تمام عدتها ، وكانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة ، بارعة الحسن ، حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي سديد ومعرفة بإدارة الأمور ، فكانت نعم الزوجة المعينة

---

(١) وفيات الأعيان ٧/ ١٣٠ .
(٢) دولة المرابطين ، ص ٣٦ .
(٣) انظر : الروض القرطاس ، ص ٨٧ .
(٤) دولة المرابطين ، ص ٣٦ .

لزوجها ، وقد مدحت كتب التاريخ هذه المرأة واعتبرتها من خيرة نساء دولة المرابطين ، وتوفيت عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م .

وتزوج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تدعى قمر ، ولا تذكر كتب التاريخ عنها شيئاً ، ويقال : هي التي أنجبت الأمير علي ولي العهد ، وأمير الأندلس والمغرب بعد والده .

وتزوج يوسف امرأة تسمىٰ عائشة وأنجبت له الأمير محمد الذي نسب إليها فصار يدعى محمد بن عائشة ، ورزق يوسف مجموعة من الذكور والإناث بكرهم تميم الذي توفي غداة معركة الزلاقة وكان والياً على سبتة ، وعلي الذي تولى الإمارة بعده ، وإبراهيم ومحمد الذي كانا من القادة البارزين في جيش والده ، وأما بنتاه فهما : كونة ورقية[1] .

ب ـ المراحل العسكرية التي مر بها يوسف في جيش المرابطين :

١ ـ ٤٤٨ ـ ٤٥٢ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٠٦٠ م :

كان في هذه المرحلة مجرد قائد من قواد المرابطين يتلقَّى الأوامر وينفذها بكل نجاح ، وكانت هذه المرحلة غنية بالتجارب والخبرات التي شحذت ذهنه وأهَّلته للمرحلة التالية ، فكأنها كانت ممارسة للسلطة ، والاطلاع على خفايا دون تحمل المسؤولية ، استطاع بعدها تسلم الإمارة والقيام بكل الأوامر التي وكلت إليهِ بكل همة ونشاط دون تردد ، وقاد المرابطين إلى النصر في ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف .

وظهر نجم يوسف للمرابطين في معركة الواحات ٤٤٨ هـ ـ ١٠٥٦ م التي كان فيها قائداً لمقدمة جيش المرابطين المهاجم ، وبعد فتح مدينة سجلماسة عينه الأمير أبو بكر والياً عليها فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها ، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ، ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها ، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها علي بن عبد الله البجلي ، وقتل المرابطون أولئك الشيعة ، وتحول من بقي منهم على قيد الحياة إلى السنة .

ثم جاء دور أغمات ، كانت مدينة مزدهرة حضارياً إذ كانت إحدى مراكز

---

(١) دولة المرابطين ، ص ٣٨.

النصرانية القديمة ومقراً للبربر المتهودين ، كان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن علي المغراوي.

تلقى يوسف التعليمات من الأمير أبي بكر بالزحف نحوها ومهاجمتها ودكها ، ودخل المرابطون المدينة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م.

وسار المرابطون وفي جملتهم يوسف نحو دولة برغواطة «الدولة الكافرة الملحدة» ونشبت المعارك بين الفريقين ، وأصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على أثرها كما علمت في ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م.

كان استشهاد الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

إذ أن جانب الإمامة يغلب على جانب الإمارة في عهد الإمام ابن ياسين ، وبعد وفاته تولى أبو بكر بن عمر ، فرجح جانب الإمارة على جانب الإمامة وأخذت الدولة الناشئة تتحول إلى طابع سياسي جديد ، ومرت بها ظروف تتطلب رجالاً من طراز يوسف بن تاشفين.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء وأناب ابن عمه يوسف على المغرب ، ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية ، وسلم الناس بزعامته ، وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة ، والكتاب والشهود ، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة ، وعلل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته ، وأوصاه الوصية التالية: «يا يوسف إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله في المسلمين ، وأعتقني وأعتق نفسك من النار ، ولا تضيع من أمر رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم ، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح ، والعدل في رعيتك ، وهو خليفتي عليك وعليهم»[١].

---

(١) انظر: روض القرطاس ، ص ٨٦.

ويحلو لبعض الكتاب من المؤرخين أن يفسر هذا الإيثار والتنازل عن الملك بأن أبا بكر خشي من سطوة يوسف الذي أظهر له عدم استعداده عن التنازل عن الملك، وسيرة الرجلين من الصلاح والتقوىٰ تنافي ادعاءهم الباطل.

٢ ـ فتح المغرب الأقصى الشمالي ٤٥٤ هـ ـ ٤٧٧ هـ:

قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشمالي لينتزعه من أيدي الزناتيين، واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيداً من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخل مدينة فاس صلحاً عام ٤٥٥ هـ، ثم تمرد أهلها عليه إلا أنه استطاع إخماد كافة الثورات التي قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمر، حتى تمّ له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م.

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربه عليها بجيش قوامه مئة ألف جندي عام ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ م، فقضىٰ على شوكة مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة، ونظم المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام ٤٦٣ هـ إلى بلاد ملوية وفتحها، واستولىٰ على حصون وطاط من بلاد طنجة[١].

٣ ـ لقب الإمارة:

بعد هذه الانتصارات الناجحة استدعى شيوخ وأمراء المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغمارة، وأكرمهم وبذل لهم العطاء وأحسن إليهم، وبايعوه على الإمارة وخرج بهم يطوف في أقاليم المغرب يتابع الأمراء ويحاسب الولاة وينشر العدل ويرفع المظالم، فهابته النفوس، واقتنعت أنها أمام رجل دولة عبقري فذ.

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام ٤٦٥ هـ/ ١١٧٢ م لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علوادن، وفي عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م. استولى على جبل غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا وجعلها حداً فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كل من ظن أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصاً له مرتاحاً إلى طاعته مطمئناً إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

---

(١) روض القرطاس، ص ٩١، العبر (٦/ ١٨٥).

وأصبحت منطقة تازا ثغراً منيعاً بينه وبين زناتة ؛ ولذلك اعتبر المؤرخون عام ٤٧٦ هـ/ ١٠٧٤ م فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى والشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

وسيَّر يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشاً من اثني عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفاً من سائر القبائل ، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام ٤٧٠ هـ وعندما اقترب جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيش ، وهو شيخ يناهز التسعين ، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت[1] وبعد فتح طنجة استأنفَ الأمير يوسف توسعه نحو الشرق لمطاردة زناتة التي لجأت إلى تلمسان ، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تهدد دولة المرابطين في المستقبل ، وبدأت عمليات الهجوم الوقائي التي استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادي وتأسر قائده معلي بن يعلي المغراوي الذي قتل على الفور ، ورجعت كتائبُ المرابطين إلى مراكش ، ثم عاد يوسف نحو الريف وغزا تلك الأراضي وضم مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر ، وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي يحكمها بنو حماد فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعاً لا يزال إلى اليوم ، ويعرف بالجامع الكبير.

وعاد إلى مراكش عام ٤٧٥ هـ/ ١٠٨١ م وبذلك توحد المغرب الأقصى بعد جهاد استمر ثلاثين عاماً ، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية ، وفي عام ٤٧٦ هـ/ ١٠٨٣ م وجه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له ، كان يحكمها بعد وفاة الحاجب سكوت ابنه ضياء الدولة يحيى ، فحاصرها المعز براً وبحراً ودارت معركة بحرية كانت طاحنة ، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبتة ، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقي القبض عليه ، كان ذلك عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م[2] ، وبعد هذه الجولة الجهادية الموفقة تم توحيد المغرب الأقصى بكافة نواحيه بعد عمل جاد مستمر ، وأصبحت

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ٥٠.

(٢) انظر : الاستقصار (١/ ١١١) ، وانظر : دولة المرابطين ، ص ٥٣.

الدولة المرابطية قوة لا يُستهانُ بها ، وتُشكل خَطراً على النصارىٰ في الأندلس ، وملجأ وحصناً أميناً للمسلمين في الأندلس ، حيث إن النصارىٰ استفحل خطرهم في الأندلس ، حيث قامت دويلات في كل مدينة ، ووصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت فيما بينها ، وعرف حكامها بملوك الطوائف ، وتلقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل ، إلى غير ذلك من الألقاب ، ووصف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق :

مما يزهدني في أرض أندلس   سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

لقد آلت أوضاع الأندلس إلى السوء ، وأصبحت لا حول لها ولا قوة مما شجع النصارىٰ على توجيه ضربات إلى المسلمين ، وقد شنوا حرباً لا هوادة فيها نابعة من شعورهم العدائي للعرب والمسلمين ، تهدف إلى طردهم من إسبانيا ، وبدأت هذه الحرب بدافع الحقد الصليبي ، وأضافوا إليها مع مرور الأيام عامل القومية ، وأطلقوا عليها حرب الاسترداد[1] .

ولم تكن للمقاومة الإسلامية في الأندلس القدرة على إيقاف المد الصليبي الزاحف للخلاص من المسلمين ؛ فاضطر أهل الأندلس إلى طلب العون من المرابطين .

■ ■ ■

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ٥٩ .



الفصل الثاني

المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس





تمهيد :

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس سنة ١٣٨ هـ ، وبدأ عصر الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م عندما أعلنها عبد الرحمٰن الناصر ، الذي اشتهر بالحزم والذكاء والعدل ، والعقل والشجاعة وحبه للإصلاح وحرصه عليه .

ووحد الأندلس بالقوة والسياسة ، وأعاد وحدتها وقوتها ومكانتها .

وحارب المتمردين من حكام الشمال الإسباني ، وأخضعهم لشروطه .

وكان سبب إعلانه الخلافة في الأندلس ضعف الخلافة العباسية ، وظهور الدولة العُبيدية في الشمال الإفريقي ، فأعلن الخلافة ، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله(١) . وفي عام ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس ، الذي دام حتى عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م .

وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التي نخرتها الأطماع والأحقاد والصراعات الداخلية على الحكم ، وسعي بعض الشخصيات للمجد الشخصي متناسياً في ذلكَ مصالح الأمة وضرورة وحدتها لتقف صفاً واحداً أمام أعدائها .

لقد انقسمت الأندلس إلى دويلات واتخذ حكامها ألقابهم تبعاً لحجم دويلاتهم ، فأحدهم : ملك أو أمير ، والٍ أو قاض .

ونظراً لاختلاف القوى والرياسات ، فقد أخذ القوي يبطش بالأضعف ، والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي ، وأحياناً يستنجد بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ .

وتكونت من هذه الدويلات العديدة أربع دول رئيسية :

١ ـ في جنوب الأندلس ، حكم الأدارسة الإفريقيون أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة ، وألبيرة وجيان وأستجة ، فضلاً عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب .

---

(١) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد العبادي ، ص ١٦٨ ـ ١٧٠ .

٢ ـ بنو عباد أمراء إشبيلية ، أقوىٰ ملوك الطوائف ، ومن حلفائهم بنو جهور في قرطبة ، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأندلس.

٣ ـ بنو ذي النون أمراء طليطلة ، الذين حكموا أواسط إسبانيا ، والذين وقفوا في وجه بني عباد ، وكلفهم ذلك دفع جزية لملك قشتالة النصراني التماساً لعونه ضد خصومهم.

٤ ـ بنو عامر في بلنسية ومرسية الذين حكموا في شرقي إسبانيا ، وطبقاً لظروفهم ، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة أو بني عباد ، أو بني ذي النون تارة أخرى. . . بسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصب نهر أبرة سنة ١٠٥١ م[١].

■ ■ ■

(١) انظر: الزلاقة ، شوقي أبو خليل ، ص ١٢.

المبحث الأول
الصراع بين طليطلة وقرطبة

عندما تولى المأمون يحيى بن ذي النون عام ١٠٤٣ م إمارة طليطلة ، اغتنمَ حليفه القوي عبد العزيز بن أبي عامر ، واستأجر الفرسان النصارى من القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة ، فتدخل بنو عباد أصحاب إشبيلية ، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس للوقوف ضد صاحب طليطلة الذي كان يهددهم جميعاً ، وسار أمراءُ لبلة وولبة وجزيرة شلطيش إلى الانضمام إلى الحلف الذي تزعمه صاحب لبلة عبد العزيز اليحصبي ليعقد محالفة مع قرطبة.

تحرك الجميع تطبيقاً لهذا التحالف لإنجاد قرطبة ، فانتهز ابن عباد أمير إشبيلية هذه الفرصة واكتفى بإرسال خمسمئة فارس إلى ابن جهور ، وزحف في جيش قوي على لبلة ، وولبة وجزيرة شلطيش وأكسونية واستولى عليها ، ثم فتح قرمونة سنة ١٠٥٣ م. طالت الحرب بين طليطلة وقرطبة ، ودامت أعواماً وكانت سجالاً ، وأرادَ المأمون صاحب طليطلة حسم الموقف ، فأوقعَ بقوات قرطبة وحليفاتها هزيمة شديدة ، واستطاعَ الوصول إلى قرطبة فحاصرها ، فبادرت إشبيلية إلى إغاثتها ، فأرسل ابن عباد ابنه محمداً على رأس جيش قوي فيه وزيره أبو بكر محمد بن عمار الموصوف برجاحة عقله وشدة ذكائه ، وزودهما بخطة وأوامر سرية خاصة.

واستطاع جيشُ ابن عباد أن يفك الحصار عن قرطبة ، واضطر الطليطليون لرفع الحصار وارتدوا عنها ، وخرج القرطبيون ليطاردوا أعداءهم فأتموا بذلكَ هزيمة الطليطليين[١].

ونفذت خطة ابن عباد السرية وكان محتواها دخول قرطبة عندما يخرجُ منها أهلها خلف الطليطليين ، ودخلتها قواتُ ابن عباد دون معارضة ، واحتلت مراكزها

---

(١) انظر: الزلاقة ، ص ١٤.

الحصينة قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن من جاء لنصرتهم غدر بهم ، وبذلك سقطت دولة بني جهور في قرطبة ، ولم يمض على قيامها ثلاثون عاماً ؛ في محنة محزنة وخيانة فظيعة ، وأصبح ابن عباد أمير إشبيلية أقوى أمراء الأندلس المسلمة. تخوف المأمون أمير طليطلة من قوة ابن عباد أمير إشبيلية التي نمت نمواً سريعاً وبخاصة بعد أن حالفه العامريون أمراء قسطلون ومربيطر وشاطبة المرية ودانية ، فحاول التحالف مع صهره زوج ابنتهِ عبد الملك المظفر حاكم بلنسية الذي رفض ذلك محتجاً بأن وقوف العامريين إلى جانب إشبيلية يجعل إقدامه على هذا التحالف خطراً على بلنسية ، فما كان من المأمون إلا أن عقد حلفاً مع فرديناند الأول صاحب قشتالة.

وهجمت القوات المشتركة المتحالفة «قوات المأمون وفرديناند الأول» على بلنسية ، فسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون في تشرين الأول سنة ١٠٦٥ م ، وعاد بعدها إلى طليطلة ليجهز قواته لقتال ابن عباد ، وحال بينه وبين ما أراد وفاة فرديناند الأول ، ونشوب حرب ضروس بين أولاده ، فنقض المأمون عهده مع قشتالة ، وامتنع عن دفع الجزية ، مما أدى إلى حرمانه من معونة النصارىٰ ، وهي المعونة التي لم يستطع أن يحارب أمير إشبيلية بدونها ، فلما تم أمر الحكم لسانشو ابن فرديناند سنة ١٠٧٠ م ، هرب أخوه ألفونسو إلى المأمون صاحب طليطلة والتجأ أخوه الثاني جارسية إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وفي سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩ م توفي المعتضد بن عباد أمير إشبيلية ، فخلفه ابنه الملقب بالمعتمد على الله ، ولم يكن أمام الأمير الجديد ما يخشاه إلا أمير طليطلة الذي ملك بلنسية في الوقت نفسه ، أما بقية ملوك الطوائف فقد انكسرت شوكتها ، وتزعزع كيانها في حروبها الداخلية ومن غزوات النصارىٰ المتتابعة عليها.

واستطاع المأمون حاكم طليطلة أن يتوسع ويحقق انتصارات واسعة سنة ١٠٧٣ ؛ على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى ، وبهذا أصبح الأمير الأقوى الذي يسيطر على أواسط إسبانيا كلها ، وبخاصة بعد أن فاز ألفونسو بحكم قشتالة بعد وفاة «شانجة» وتحالف مع المأمون الذي رعاه وحماه عند محنته ، وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق.

وأصبح أمير إشبيلية في خوف من توسع أمير طليطلة الذي فاجأ المعتمد بتحالفه مع بني هود أصحاب سرقسطة وبني الأفطس أصحاب بطليوس ، وهاجم خصمه من ثلاث جهات لكي يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة ، فسقطت دون مقاومة تذكر

سنة ٤٦٨ هـ ، ولكن المأمون توفي بعد دخولها بأيام قلائل ، فرجع جنده عنها إلى طليطلة ، واسترد ابن عباد قرطبة ، وبقيت إشبيلية تحت حكم ابن عباد حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٧٤ هـ .

وأرسل ابن عباد سفيره ووزيره البارع ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذٍ وتحالف مع ألفونسو ، وتعهد ملك قشتالة بمعاونة أمير إشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة ، وتعهد بألا يعترض على مشروع ألفونسو في افتتاح طليطلة ، وهكذا ضحى ابن عباد بمعقل المسلمين إسبانية المسلمة ، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد ، وهي إمارات غرناطة وبطليموس وسرقسطة[1] .

واستفاد ألفونسو من هذه الاتفاقية وأعلنها حرباً لا هوادة فيها على طليطلة التي حمته من مطاردة أخيه سانشو ، ونسي الأمير الطموح للتوسع كل عهوده ومواثيقه وشرع في غدره بمن أحسن إليه .

وتحرك المعتمد بن عباد بجيشه نحو غرناطة ليضمها إلى سلطانه وكان حاكمها عبد الله بلكين بن باديس ، وكان ابن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليهِ يوماً فيوماً من شانسو الأول ملك أرجون ، فلم يستطع إنجاد طليطلة سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور ، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو ، ولكن ألفونسو الذي كان قد أثخن في ولاية طليطلة ، حتى صيرها قفراً بلقعاً ، شعر باقترابِ المنصور ، فانسحبَ ولكنه كرر الرجعة في العام التالي فعاث في بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى ، وزحف المعتمد على بطليوس ، وبهذا استطاعَ أن يحول دون معاونة بني الأفطس لطليطلة حيث القادر بن ذي النون ، ولم يستطع أمير سرقسطة من بني هود «المؤتمن» معاونة القادر معاونة قوية خشية أن تقع سرقسطة ذاتها فريسة لابن عباد أو النصارى ، وهو في جهاد ضد أرجون وبرشلونة ، واستمرت الحرب أعواماً ، وألفونسو يفسد في بلاد المسلمين «طليطلة» ومن حولها فساداً لا حدَّ له .

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ هـ الخامس والعشرين من أيار «مايو» سنة ١٠٨٥ م استطاع أن يدخل طليطلة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت

---

(١) انظر : الزلاقة ، ص ١٧ .

طليطلة بذلك إلى حظيرةِ النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمئة واثنين وسبعين حعاماً ، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين ، وأصبحت عاصمة إسبانية النصرانية .

وهكذا انتهت دولة ذي النون في طليطلة لتستمر في بلنسية(١) .

تأثر المسلمون بسقوط طليطلة تأثّراً عميقاً على كافة الساحة الإسلامية في الأندلس ، وتفجرت قريحة الشعراءِ في استثارة الهمم والتحريض على الجهادِ ، والتحذير من تفاقم الخطر ، ومما قيل في ذلك قول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن عسال الطليطلي :

يا أهل أندلس حشو مطيتكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسلُ من أطرافه وأرىٰ ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياةُ مع الحيات في سفط(٢)

ومن ذلك أيضاً :

يا أهلَ أندلس ردوا المعمار فما ... في العرف عارية إلى مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات(٣)

لقد كانت روما تقف بكل ما تملك من قوة معنوية ومادية خلف ألفونسو وجنوده للقضاء على المسلمين ، وأسبغوا على قتال المسلمين صفة الحرب الصليبية المقدسة ، وأصبح البابوات لهم دور في توجيهها .

وندم المعتمد بن عباد على فعلته خصوصاً عندما رأىٰ ألفونسو يتوسع في ضم ممالك المسلمين إليه ، وأيقن أن الدائرة عليه قادمة ، واجتمع أمراء المسلمين عندما رأوا أن شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم فاتحدوا لأول مرة ، واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لفتوح ألفونسو ، وإذا كانت قواتهم مجتمعة لا تكفي لرد عدوانه ، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين في إفريقية واستدعائهم إلى الأندلس ، علماً بأن ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج بإظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين ، وكان له شهرة تطايرت في الآفاق لما حققه من ضم دول إلى

---

(١) انظر : الزلاقة ، ص ١٨ .
(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٢٨).
(٣) انظر : الزلاقة ، ص ١٩ .

دولته وقضائه عليها ، واشتهر بين الناس أن لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تنظم الكلى ، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم[١] .

■ ■ ■

(١) وفيات الأعيان (٧/ ١١٤).

المبحث الثاني
أسباب ضعف المسلمين في الأندلس وقوة النصارى

أولاً: ضعف العقيدة الإسلامية والانحراف عن المنهج الرباني، وهذا هو السبب الأساسي.

ثانياً: موالاة النصارىٰ والثقة بهم والتحالف معهم، حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة، واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه، فلا بد أن يحل بها سخطه، وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وقوله عز وجل: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمٗا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء، فقال: «أوثق عرا الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»[(١)].

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٦).

(٢) البخاري، فتح الباري، كتاب الرقائق، باب (٣٨ رقم ٦٥٠١).

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه ، فلا بد أن تُرى سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فحين تجد أن المعتمد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال ، نراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم ، أما كان الأفضلُ له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف ، وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة ، وللإسلام وأهله ، ولكنك لا تجني من الشوك العنب(١) .

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء ، حتى إن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارىٰ ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام. فهل يؤمن الذئب على الغنم!!(٢)

ثالثاً: الانغماسُ في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد ، إن الأمة التي تركن إلى الدعة والترف واللهو ، هي غالبة قاهرة يجب أن تُعد غير مستحقة للريادة والقيادة ، فما بالك بأمة تغرق في اللهو والدعة والترف ، وهي لا تدري إن كان العدو قد كسر حصنها واجتاحها ، أم إنه لا يزالُ ينتظر تلك اللحظات؟!

يقول المؤرخ النصراني كوندي: «العرب هُزموا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها ، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفةِ والمرح ، والاسترسال بالشهوات»(٣) .

إن المؤرخين رأوا: «أن الأندلسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم ، وناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون ، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر ، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل ، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق في المجون ، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي من أبرز المميزات أيام الاضمحلال لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة ، والجواري الشاديات ، وإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد»(٤) .

---

(١) انظر: تاريخ الأندلس ، د. عبد الرحمن الحجي ، ص ٣٩٠.
(٢) سقوط الأندلس د. ناصر العمر ، ص ٢٤.
(٣) مصرع غرناطة ، ص ٩٣.
(٤) مصرع غرناطة ، ص ١٢٠.

دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور «الله أكبر» وبقوا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه الخمر ليشرب قال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه[١].

يقول الدكتور عبد الرحمٰن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: «كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم، أشربت نفوسهم حُبَّه، وغدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم»[٢].

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

ووزن العـود وهـات القـدحـا راقـت الخمـرة والـورد صحـا

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦ هـ خرج أهلها للقائم بثياب الزينة؛ فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي:

لبسوا الحديد على الوغىٰ ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا[٣]

ضعف المسلمون في الأندلس، وسلب كثير من ديارهم لما تنافس الولاة والحكام من أجل إسعاد زوجاتهم وجواريهم بالباطل.

وإليك ما فعلهُ المعتمد مع إحدى زوجاته: اشتهت زوجة المعتمد بن عباد أن تمشي في الطين وتحمل القرب، فأمر المعتمد بن عباد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران، وتحمل قرباً من طيب المسك وتخوض فيه تحقيقاً لشهواتها!!!

ولكن الله المعز المذل أراد أن تنقلب الأمور على المعتمد، فيؤخذ أسيراً في أغمات، وتبقى بناته يغزلن للناس يتكسبن، وفي ذلك يقول المعتمد وهو شاعر مجيد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا

---

(١) سقوط الأندلس، ص ٢٧
(٢) انظر: تاريخ الأندلس، ص ٢١١.
(٣) انظر: النصر والهزيمة، ص ١٢٢.

يطأنَ في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
من باتَ بعدك في ملك يسرُّ به ... فإنما باتَ بالأحلام مغرورا[١]

وصدق الحبيب ﷺ المؤتى جوامع الكلم إذ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّط اللهُ عليكم ذُلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[٢].

رابعاً: إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس كان بزوال الخلافة الأموية، ونشأ على إثر ذلكَ عهد السنوات الصعاب، وكانت كلمة الأمة الواحدة وخليفتهم واحد فأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[٣]

وكما قال الآخر:

وتفرقوا شيعاً فكل محلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون من النصارى فيمكنونهم من حرب المسلمين، لعن اللهُ جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه»[٤].

ويقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: «وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، وهانت لديهم معه مصالح الأمة، وتُركت دون مصالحهم الذاتية، وباعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السلطة، ولقد أصابَ الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف، الذي كانت به الأندلس وحضارتها».

---

(١) نفح الطيب، (٤/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤).
(٢) أخرجه أبو داود، كتاب البيوع (باب ٥٦، ت/ ٥٤ م).
(٣) سقوط الأندلس، ص ٣١.
(٤) التاريخ الأندلسي د. عبد الرحمن الحجي، ص ٣٢٥.

خامساً: الاختلافُ والتفرق بين المسلمين:

كان الاختلاف والتفرق سمة من سمات عصر ملوك الطوائف، وكان بعضهم يستعدي النصارى على إخوانه، ويعقدون مع النصارىٰ عهوداً وأحلافاً ضد إخوانهم في العقيدة، ومن أجل شهوة سلطة تراق على أرض الأندلس دماء المصلين، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبددُ ... فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم ... وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرّطتم في أمتكم ... وتركتموهم للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف ... لكفى الحيا من وجه ذاك السيد[1]

ولما سقطت طليطلة كان من العجيب أن بعض ملوك الطوائف وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلة، وكأن الأمر لا يعنيهم، فاغرين أفواههم جبناً وغفلة وتفاهة، بل إن عدداً منه كان يرتمي على أعتاب ألفونسو ملك النصارىٰ طالباً عونه أو عارضاً له الخضوع، بذلة تأباها النفوس المسلمة، تغافلوا عن أن ألفونسو لا يفرق بين طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية، لكن العجب يزول إذا تذكرنا نزعتهم الأنانية والعصبية[2].

سادساً: تخلي بعض العلماء عن القيام بواجباتهم:

لا شك أن حياة الأمة في حياة علمائها فهم تاجها ومنارتها وهم روحها ومادة حياتها، فكلما كان علماء الأمة ربانيين كان أمر الأمة في طريقه نحو العزة والرفعة والكرامة، وكلما ابتعد العلماء عن الربانية، وتثاقلت نفوسهم إلى الأرض، وحرصوا على مصالحهم الذاتية خبا نور الأمة، ودب فيها الأمة الضعف والجهالة.

«فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العنايةِ المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه، ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها»[3].

وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «ولا يغرنك الفُساق

(١) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، ص ٣٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٤.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٥.

والمتتسبون إلى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم»[١] .

ولا ننسىٰ دور العلماء الربانيين الذين قاموا بجمع شتات الأمة الممزق ، وبذلوا وسعهم في ذلك من أمثال أبي الوليد الباجي ، وأبي محمد بن حزم ، وأبي إسحاق الإلبيري وغيرهم ، عليهم رحمة الله وبركاته .

سابعاً: عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين ، وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي «فرفع صوته بالاحتساب ، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن آل فرعون ، لكنه لم يصادف أسماعاً واعية ، لأنه نفخ في عظام ناخرة ، وعطف على أطلال داثرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه في التنافس والتقريب ، وهو في باطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته ، وما كان أفطن الفقيه ـ رحمه الله ـ بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجو حالاً تثوب ومذنباً يتوب»[٢] .

لم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة ، ولم تنفعهم نصائح العلماء حتى حلت بهم مصيبة وكارثة ألا وهي سقوط طليطلة .

ثامناً: مؤتمرات النصارىٰ ومخططاتهم:

استطاع النصارىٰ أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ، ومن ثم على المسلمين عموماً ، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارىٰ الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرنادو ملك قشتالة .

تاسعاً: وحدة كلمة النصارى:

في الوقت الذي كان المسلمون في الأندلس يعانون من التفرق والشتات ، كان النصارى في وحدة كلمة وتراص صفٍّ في مواجهة أمة الإسلام في الأندلس .

---

(١) مجموع رسائل ابن حزم (ج ٣/ ١٧٣) .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، الشنتريني ، القسم الثاني ص ٩٥ .

عاشراً: غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارىٰ عباد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر، فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم، وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم»[١].

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

لقد سطر النصارىٰ في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء وهتك الأعراض، وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لقد استماتت النصارىٰ في حربهم للمسلمين، فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

الحادي عشر: التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[٢].

وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[٣].

لقد تخاذل ملوك الطوائف عن نصرة من يستحق النصرة، وإليك ما حدث في طليطلة. يقول الدكتور عبد الرحمٰن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف: «قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب

(١) سقوط الأندلس ص ٤٠.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، رقم (٢٤٤٢)، مع الفتح (٥/ ١١٦).
(٣) البخاري مع الفتح كتاب المظالم رقم (٢٤٤٦) ٥/ ١١٧.

عليهم لما لاقت هذا المصير ، ولحَمَوْها وحموا أنفسهم ، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته ، وكأن الأندلس وجدت لمنفعته ، وليتربع على كرسي حكم ، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد»(١) .

فهذه مجموعة من الأسباب التي أدت إلى الحالة التعيسة التي آلت إليها الأندلس. وعندي أن من أعظم الأسباب في خذلان الأمة ابتعادها عن منهج ربها وضياع عقيدتها وتربيتها على الترف والدعة ، وترك الجهاد في سبيل الله ، ولذلك عندما تربىٰ المرابطون على معاني الجهاد في سبيل الله ومنهج أهل السنة ؛ وفقهم الله لإقامة دينه وإعزاز سنة نبيه ونصرة إخوانهم في الدين.

إن الجهاد من أعظم الدروس ، فلما وجد في الأندلس بقيت الأمة في عزة ومنعة ومهابة ، ولما فقد أصبحت الأمة مطمعاً لكل جبار عنيد أو متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. قال رسول الله ﷺ: «رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد»(٢). وقال ﷺ: «لغدوة في سبيل اللهِ أو روحة خير من الدنيا وما فيها»(٣).

■ ■ ■

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي.
(٢) الترمذي ، باب الإيمان ، باب (٨) رقم (٢٦١٦).
(٣) البخاري مع الفتح رقم (٢٧٩٢ ، ٦/ ١٧).

المبحث الثالث

العالم في زمن ظهور دولة المرابطين

كانت أوربة يتحكم فيها الإقطاعيون في حالة همجية بعيدة عن التحضر ، ومعالم الحضارة والمدنية.

وكان العالم الإسلامي مجزأ عند قيام دولة المرابطين ، فظهر ملوك الطوائف في بلاد الأندلس ، واستطاع السلاجقة أن يطهروا العراق من بني بويه ، والعبيديون حكموا مصر ، وبنوا حماد في المغرب الأوسط ، والمعز بن باديس وأحفاده في المهدية.

وتوسع المرابطون وشملت دولتهم أجزاء شاسعة من شمال إفريقية «جزء من الجزائر والريف في المغرب» وضربت جذورها في الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال ، فرفعوا راية الإسلام في تلك الأماكن البعيدة.

وكان المشرق الإسلامي في ظروف سياسية حرجة وصعبة قاسية ؛ حيث أمر الخلافة في بغداد مهتز ، والخليفة معرض للخطر ، ولا يملك من أمر الخلافة شيئاً وإنما هو رمز تحكم فيه البويهيون ، ومن بعدهم السلاجقة ، أما العبيديون في مصر فتحالفوا مع الإفرنج من أجل مصالحهم وأطماعهم ، فكان أمر المسلمين في غاية الخطورة حتى قيض الله لأهل المشرق نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي الذين قاما بدور عظيم في القضاء على النصارى والعبيديين ودحرهم ، وفي هذه الظروف الصعبة والعصيبة أرادت حكمة الله وقدرته أن تخرج دولة المرابطين السنية لتكون سداً منيعاً ضد أطماع النصارى في الأندلس ، ولتحمي الشمال الإفريقي من غاراتهم وأطماعهم ، إنه تدبير العزيز العليم.

لقد أكرم الله تعالى المُرابطين وجنودهم بالدفاع والذود عن الإسلام والمسلمين ، وعن أعراضهم وأموالهم وعقائدهم التي لا تقدر بثمن.

وأعز الله الأمة بهم في زمن عصيب، ورفع الله بهم لواء الإسلام في المغرب والأندلس.

واستطاعوا بجهودهم الجهادية أن ينقذوا إخوانهم في الدين من ظلم النصارىٰ وحقدهم الدفين، ويكبّدوهم هزائم عسكرية أصبحت نبراساً للأمة على مر العصور ومر الدهور.

أولاً: تكالب النصارىٰ على المسلمين وأطماع ألفونسو التوسعية:

بعد سقوط طليطلة بيد ألفونسو، بدا له أن كل شيء ممكن وعمل على توحيد جهود النصارىٰ، واتفقوا على سحق دولة الإسلام في الأندلس، معتقدين أن قدرتهم تكفيهم لأداء هذه المهمة المقدسة لديهم.

وترك النصارىٰ خصوماتهم الداخلية، وتوحدت مدنهم، وكونوا جيشاً ضخماً واحتلوا مدينة «قورية» من بني الأفطس، ووصلوا إلى ضواحي إشبيلية، وأحرقوا قراها وحقولها، وسارت فرقة من الفرسان إلى شذونة، ثم احترقت جزيرة طريف قرب مضيق جبل طارق، كما حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين الذي وضعهم ألفونسو السادس تحت قيادته قلعة سرقسطة الحصينة التي يضع سقوطها منطقة الأبير «أبرة» في يد النصارىٰ حتماً، وتصبح الشواطئ الإسبانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط عرضة لغاراتهم، يقول المؤرخ يوسف أشباخ: «وأثخن النصارىٰ في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف، ولم يكن يردهم في الحرب أي اعتبار إنساني ما دام الأمر متعلقاً بأعداء الدين، كما يعتقدون، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة، وتلقَّى المؤتمن بن هود وعداً لوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة، بيد أن النصارىٰ شددوا الضغط على سرقسطة يوماً بعد يوم، وخشي المسلمون سقوط المعقل المنيع، بعد أن أصبحت قواتهم وأحوالهم في حالة يرثى لها، فقد كانت حتماً دون قوىٰ النصارىٰ، فتطلعوا إلى عون من الخارج، فاتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين المجاهدة في المغرب الأقصى[1]».

وأصبح ألفونسو اللعين يضغط على ممالك المسلمين الكبرى المجاورة له أي

---

(١) انظر: الزلاقة، ص ٣٢.

مملكتي بطليوس وإشبيلية ، فأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه أن يسلم إليه القلاع والحصون المجاورة لحدوده مع تأدية الجزية ، وضعف مسلمو الأندلس أمام هذه الضربات الماكرة ، وأصبح سقوط الممالك قاب قوسين أو أدنى ، وظل حكام الممالك منغمسين بملذاتهم وفسادهم ، يحاربون أنفسهم ويحالفون النصارىٰ ضد إخوانهم ، ويؤدون لهم الجزية مقابل تركهم على عروشهم التي تزعزعت أمام ضرباتهم ، واستخدم ملوك الطوائف المرتزقة من النصارى لحماية أنفسهم بعد أن فقدوا الأمل في شعوبهم ورعاياهم بسبب ظلمهم وجورهم وتعسفهم ، وجعل الله بين أمراء الطوائف من التنافس والتدابر والتقاطع والتحاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات ، فلم تصل لهم في الله يد ، ولا نشأ على التعاضد عزم[1] ، لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي بعدما رأى من أمرائه الخيانة والتخاذل ؛ حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنصارى ، وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص ، فقد ارتقى عرش إسبانيا النصرانية ألفونس السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في احتلال الجزيرة الأيبرية وعادت حرب الاسترداد قوية على يده ، وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طليطلة فحاصرها سبع سنوات حتى سقطت بيده في ٢٥ أيار ١٠٨٥ م مستهل صفر ٤٧٨ هـ ، وقد أحدث سقوطها دوياً هائلاً في العالم الإسلامي الغربي ، وباتَ المسلمون في حال من الضياع التام[2] لا يعرفون كيف يتصرفون وبدؤوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونس ، وأصبحت مملكة طليطلة خالية من السكان الذين هجروها إلى بطليوس هرباً من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم ، ورأى ألفونس أن زمام الأندلس أصبح في يده ، فضاعف غاراته على جميع البلاد ، وتساقطت المدن والقرى بين يدي اللعين الحقود وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون ، والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية ، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض ، فرد المتوكل بشجاعة ونبل معلناً تحديه ، وفي هذه الرسالة معانٍ عميقة ، وفهم دقيق للموقف الحرج الذي أصبح فيه المسلمون ؛ حيث قال المتوكل :

---

(١) انظر : أعلام الأعلام ، تحقيق د. عبادي ، ص ٢٤١ .

(٢) دولة المرابطين ، ص ٦١ .

«. . . . . ولو علم ـ أي ألفونس ـ أن لله جنوداً أعزَّ بهم كلمة الإسلام ، وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ وأعزه على الكافرين . . وأما تعييرك المسلمين فيما وهي من أحوالهم فبالذنوب المركوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك أي مصاب أذقناك كما كان أبوك يتجرعه . . وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه»[١] .

وأرسل المتوكل قاضيه العالم الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأندلس يدعو إلى لمِّ الشعث ، وتوحيد الكلمة ، ومدافعة العدو ، ولكن مهمة القاضي لم تكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء ، وانهيار مقومات الدولة ، وتخاذل الشعب ، فَفُرِض على الحكام استرضاء العدو ، وعندئذ كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين[٢] يصور له محنة الأندلس ويستنصره[٣] ، «لما كان نور الهدى ـ أيدك الله ـ دليلك ، وسبيل الخير سبيليك ، وضحت في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائم ، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى الشرك أقدر قادر ، وجب أن تستدعي لما عضل الدار ، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء ، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال ، وتستنزل بالأموال ، ويخرج لها عن كل ذخيرة ، وتسترضي لك خطيرة ، ولم يزل دأبها التشكك والعناد ، ودأبها الإذعان والانقياد ؛ حتى نفذ المطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، وأيقنوا الآن بضعف المنن ، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن ، واضطرمت في كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ، ومن أخطأه القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا ، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب ، وأشرفوا ما أملوه من التغلب ، فيا لله ويا للمسلمين أيسطوا هكذا بالحق الإفك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الإيمان الكفرُ ، ولا يكشف هذه البلية النصر ، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامي لما استبيح من الحرم؟ ، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل ، وعزه من ذل ، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء ، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ـ أعزك الله ـ بالنازلة في

(١) المصدر السابق ، ص ٦٢ .
(٢) تاريخ ابن الكردبوس ص ٨٨ ، عن كتاب دولة المرابطين ، ص ٦٢ .
(٣) د. عدنان ، دولة الإسلام في الأندلس ودول الطوائف ، ص ٩١ ـ ٩٢ .

مدينة قورية أعادها الله ، وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلاء ، ومن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم ما زال التخاذل يتزايد ، والتدابر يتساند ؛ حتى تخلصت القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت في يد العدو مدينة سرية ، عليها قلعة ، تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع .

وهي من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها ، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليه عدو مشترك وطاغية منافق ، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً ، وتتداركها ركباناً ورجالاً ، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً ، وما أحضكم على الجهادِ بما في كتاب الله فإنكم له أتلى ، ولا بما في حديث رسول الله ﷺ إنكم إلى معرفته أهدى ، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها ، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضحها ، فإنه لما توجه نحوك احتساباً ، وتكلف المشقة إليك طالباً ثواباً ، عولت على بيانه ، ووثقت بفصاحة لسانه ، والسلام»[١] .

ثانياً : ألفونس والمعتمد بن عباد :

لقد وقع المعتمد بن عباد في أخطاء كثيرة ، حيث تعاهد مع ألفونس ضد إخوانه المسلمين في طليطلة مقابل أن يسمح له ألفونس بأخذ ممالك ممن حوله ؛ إلا أن النصارى كما علمت لا عهود لهم ولا مواثيق ، فأراد ألفونس أن يجد مبرراً لضرب الحصار على إشبيلية واحتلال قرطبة ، فطلب من المعتمد حصوناً وقرىٰ الموت أحب إليه من تسليمها ، ومارس ألفونس مع المعتمد أنواعاً من الإذلال والتجني ليخرج المعتمد عن طوره ويلغي الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ، ويجد ألفونس والنصارىٰ ما يبرر أفعاله الانتقامية والوحشية .

فطلب ألفونس من المعتمد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة ، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة ، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر ، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم[٢] ، وأرسل إليه بعثة من خمسمئة فارس برئاسة اليهودي ابن ساليب لأخذ الجزية ، وتجرأ السفير وقل أدبه إن كان له أدب ، وخرج

---

(١) دولة المرابطين ص ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) المصدر السابق .

على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمعتمد وقال: «لا تعتقدوني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة، لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدناً»[١]. فأخذت المعتمد النخوة الإسلامية، وصلب اليهودي، وقتل البعثة، وبذلك يكون ألفونسو قد تحصل على ما يُريده، وكان ألفونسو متجهاً لحصار قرطبة، فلما وصل خبر البعثة أقسم بآلهته ليغزون المعتمد في إشبيلية، وحرك جيوشه نحو غرب الأندلس، فدمر كل القرىٰ والتخوم التي في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر ليدمر ويخرب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي، حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته»[٢].

ومن هنا أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: «أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين بل الملة الإسلامية، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رؤسائكم بالأندلس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار وأهتك الأستار، وأقتل الشبان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تعالى فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعاً، ولا تستطيعون امتناعاً، وبلغنا عنك وأنك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدرى أكان الجبن يطغى بك أم التكذيب بما أنزل عليكَ، فإن كنت لا تستطيعُ الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك، فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا عليك واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة»[٣].

فكان رد يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ على ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى ما تسمع إن شاء الله تعالى وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم[٤]

(١) المصدر السابق، ص ٦٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تاريخ ابن الكردبوس ص ٩١.

وعاد ألفونس المغرور المتكبر إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المعتمد بن عباد بضفة النهر ، وحاصر المدينة ثلاثة أيام ، وكتب إلى المعتمد يسأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب ، ولم يتحمل المعتمد هذه الإهانة فرد: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك»[١] .

ترك ألفونس إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها ، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم ، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيراً ، ثم أخذ بلنسية وأعطاها القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق ، وهاجم مملكة المرية ، ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة ، وكان الخطر على الأندلس شديداً ، وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم ، إذ إن ثمانين قشتالياً هزموا أربعمئة من المرية»[٢] .

ثالثاً: اجتماع علماء قرطبة:

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأندلس اجتمعَ علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم ، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المعتمد أن هذا الرأي فيه صواب ونفاذ بصيرة ، فجد في تقوية جيشه ، ورمم الحصون والقلاع ، وقرر أن يطلب النجدة من إخوانه المسلمين ، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونس والرضوخ لشروطه ، ولكن هذا الرأي لم يجد هوىً في نفس المعتمد الذي خلا بابنه الرشيد وكان ولي عهده وقال له: «أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع ، ولا يرجى منهم نصرة ، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طليطلة وعاد دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه إلينا.

وإن نزل علينا طليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة ؛ نستدعيه للجواز إلينا ليدفع عنا الكلب اللعين إذ

---

(١) الرياض المعطار ص ٨٠ للحميري.
(٢) تاريخ ابن الكردبوس ص ٨٩ نقلاً عن دولة المرابطين ص ٦٦ .

لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف لجاؤنا ، وتدبرت بل تبردت أجنادنا ، وبغضتنا العامة والخاصة[١] ، فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر ، ولا تركتها للنصارىٰ ، فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المسلمين مثل ما قامت على غيري ، والله خُرز الجمال عندي خير من خُرز الخنازير»[٢] .

ولما انتشر رأي المعتمد بن عباد في الأندلس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد» وعارض بشدة طلب العون من المرابطين عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطراً من النصارىٰ ، ويجب الاعتماد على القوة الذاتية للأندلسيين[٣] فأجابهم المعتمد: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[٤] وأضاف: «إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الشرين أمر الملثمين»[٥] .

وقال للذين لاموه على هذا الرأي: يا قوم إني في أمري على حالين ، حالة يقين وحالة شك ، ولا بد لي من أحدهما ، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليَّ ، ويمكن أن لا يفعلا فهذه حالة شك .

وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله ، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى ، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ فحينئذٍ قصر أصحابه عن لومه[٦] .

ولما عزم على طلب النصرة من المرابطين اتصل المعتمد بالمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة ، وطلب منها أن يرسل كل منهما قاضي مدينته حتى يكونوا وفداً إلى المرابطين لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين ، وتشكلت البعثة من قاضي قرطبة ابن أدهم ، وقاضي بطليوس

---

(١) دولة المرابطين ص ٦٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق ص ٦٩ .
(٤) وفيات الأعيان (٧/ ١١٥) .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) نفح الطيب (٦/ ٩١) .

ابن مقانا ، وقاضي غرناطة ابن القليعي ، ومعهم وزير المعتمد أبو بكر بن زيدون ، وأسند إلى وزيره إبرام العقود ، وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخة سنة ٤٧٩ هـ ، وهذا نصها : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة الخليفة ، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، القائم بعظيم أكبارها ، الشاكر لأجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، اللائذ بحرامها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله وبركاته.

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م وإنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين ، فإنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا ، وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيعتنا ، فصرنا شعوباً لا قبائل وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر ، فقل نصرنا ، وكثر شامتنا ، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفونش ، وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه ، وأسر المسلمين ، وأخذ البلاد والقلاع والحصون ، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه ، ولو شاؤوا لفعلوا ؛ إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك ، وقد ساءت الأحوال ، وانقطعت الآمال ، وأنت أيدك الله سيد حمير ، ومليكها الأكبر ، وأميرها وزعيمها ، نزعت بهمتي إليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين محمد ﷺ ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحثّ الأمير على إنقاذ الأندلس.

وتأثر المرابطون لمصاب إخوانهم في الدين ، وعرض أميرهم قضية مسلمي الأندلس على أهل الحل والعقد عنده ، وأجمعوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد ، وكان وزير يوسف ومستشاره أندلسي الأصل اسمه عبد الرحمٰن بن أسبط

---

(١) دولة المرابطين ص ٧١.

أو إسباط ، فنصحه المستشار بأن يطلب من المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش ، ولحماية خطوط التموين ، وقال له: إن الأمر للهِ تعالى ولكم ، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له ، واقتنعَ الأمير يوسف برأي وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعلَ فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء ، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن: صدقت يا عبد الرحمن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي ، اكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المعتمد بن عباد الكتاب التالي نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، من أمير المسلمين وناصر الدين معين دعوة أمير المؤمنين ، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة اللهِ وبركاته ، أما بعد: فإنه وصل خطابك الكريم ، فوقفنا على ما تضمنه الله من استدعائنا لنصرتك ، وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك ، فنحن يمين لشمالك ، ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا في الشرع وفي كتاب الله تعالى ، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء ؛ تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا ، فإن رأيت ذلك فأشهد على نفسك بذلك ، وابعث إلينا بعقودها ، ونحن في إثر خطابك إن شاء الله تعالى».

أطلع المعتمد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب؟ فقال له المعتمد: يا بني هذا قليل في حق نصرة المسلمين ، ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف ، وتسليمها له بحضورهم ، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المعتمد فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهن بتصرف الأمير يوسف[1] ، وبعد موافقة المعتمد تجهز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة راغباً في الأجر والمثوبة من اللهِ بتأدية فريضةِ الجهاد ، وكتب أماناً لأهل الأندلس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين لا يتولىٰ الأمر أحد إلا أنا بنفسي» وأعلن النفير العام في قوات المرابطين ، فأقبلت من مراكش ومن الصحراء وبلاد الزاب ومن

---

(١) دولة المرابطين ص ٧٤ ، مذكرات الأمير عبد الله صاحب غرناطة ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربانية ، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات ، وكان أول من نفذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود بن عائشة وتمركز في الجزيرة الخضراء ، وتتابعت كتائب المرابطين ، وكانت معهم الجمال الكثيرة ، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين ، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل ، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها .

ولما تكامل جيش المرابطين بساحل الجزيرة الخضراء ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم ، ولما ركب واستوى على السفينةِ رفع يديه نحو السماء مناجياً : «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[١] وسهل اللهُ عبورهم ، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩ هـ حزيران ١٠٨٦ م ، وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر ، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين ، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم ، وبدأ الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء ، ورمم أسوارها وما تصدع من أبراجها ، وشحنها بالأسلحة والأطعمة ، وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ، ثم سار نحو إشبيلية[٢] .

سارع المعتمد مع قادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين ، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدين ، وتذاكرا نعم اللهِ عليهما ، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة المسلمين ، وكان المعتمد محملاً بالهدايا ، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة جيش المرابطين ، وكان المعتمد كريماً جواداً باذلاً للخير .

واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى «عسكراً نقياً ومنظراً بهياً»[٣] .

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق ؛ حتى وصل حاضرة المعتمد ، فأقام بها ثلاثة أيام

---

(١) الأندلس في عهد المرابطين ، ص ٧٩ .
(٢) دولة المرابطين ، ص ٧٥ .
(٣) انظر الحلل ، ص ٧٩ .

للاستراحة ، ثم قال للمعتمد : «إنما جئتُ ناوياً جهاد العدو حيثما كان توجهت»[١] .

وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد[٢] ، فكان أول من لبىٰ الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله ، وأخوة تميم صاحب مالقة ، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه ، وسار الأمير الرباني والقائد الميداني نحو بطليوس ، فاستقبلهم صاحبها المتوكل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة[٣] وقدم لهم الهدايا والضيافة وعلف الدواب ، وظهر منه جود وكرم ، وأقام الأمير أيام عدة حتى يصل باقي المتطوعين ؛ إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغالهم بمدافعة النصارى ، فتابع سيره الجهادي حتى حط رحاله عند سهل الزلاقة[٤] وكان يبعد عن بطليوس ثمانية أميال .

ونظم يوسف بن تاشفين جيشه ، فجعل الأندلسيين جيشاً مستقلاً بذاته ، وأسند قيادته إلى المعتمد بن عباد الذي تولىٰ المقدمة ، وأسندت الميمنة إلى المتوكل بن الأفطس ، وجعل أهل شرق الأندلس على الميسرة ، وباقي أهل الأندلس في الساقة .

أما الجيش المرابطي فتولى داود بن عائشة قيادة فرسانه ، وأما سير بن أبي بكر فتولى قيادة الحشم ، وبقية المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي ، وعسكر المرابطون مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي ، وعسكر المرابطون خلف الأندلسيون ، تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه ، وكان تعداد جيش المرابطين والأندلسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي[٥] وتضاربت الروايات في ذلك .

وكان ألفونسو مشغولاً بمحاصرة سرقسطة ، ولما وصله الخبر ارتبك وجزع ، وطلب من المستعين بن هود حاكم سرقسطة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار ،

---

(١) دولة المرابطين ، ص ٧٩.
(٢) مذكرات الأمير عبد الله بن رير ، ص ١٠٤
(٣) دولة المرابطين ، ص ٨٠.
(٤) وفيات الأعيان ، (٥/ ٢٩).
(٥) دولة المرابطين ، ص ٨١.

فامتنع ابن هود لما علمه من وصول المرابطين ، وقرر ألا يساعد ألفونسو بأي مال يستعين به على قتال المسلمين.

واضطر ألفونسو لرفع الحصار ، ورجع مسرعاً إلى طليطلة ، وأعلن الاستنفار العام ، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارىٰ ، وأرسل إلى من وراء جبال ألبرتات ، فأتته أفواج عديدة من النصارىٰ تطوعاً من أجل الحرب المقدسة ، وجند ألفونسو كل من يستطيع حمل السلاح صغيراً أو كبيراً ، ونظم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين ، أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا ورودِيك ، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة إثر خلاف مع ألفونس الذي أبقى روديك في القيادة ، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني ، وعين على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند وتولى هو القلب[1] وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة ، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته.

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبريائه ، وقال قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده قال: «بهذا الجيش ألقى محمداً وآل محمد والإنس والجن والملائكة»[2].

«وكانت جموع الرهبان والقسيسين أمام جيوش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجليل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفاً»[3].

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس ، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتاباً جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده وخاض البحار ، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً ، وأمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم»[4].

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ، ولا بد من الاستعداد لاكتساح بلاده ، وبذلك ينجو من

---

(١) انظر: الحلل ، ص ٣٤.
(٢) انظر: الأندلس في عهد المرابطين ، ص ٨٣.
(٣) انظر: الكامل (٦/ ٣٠٣).
(٤) الروض المعطار ، ص ٨٨ ، نفح الطيب (٦/ ٩٦).

التدمير ، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه .

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزلاقة ، وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون(١) .

لقد انزعج ألفونسو من مجيء المرابطين انزعاجاً كبيراً ، حيث شعر بعودة الروح المعنوية إلى أهالي الأندلس الذين كان يسومهم سوء العذاب ، يقتل رجالهم ويسبي نساءهم ، ويأخذ منهم الجزية ، ويحتقرهم ويزدريهم ، ويتلاعب بمصيرهم وينتظر الفرصة لاستئصالهم من الأندلس ، لتعم النصرانية في سائر البلاد ، ويرتفع الصليب على أعناق العباد ، وإذ بالمرابطين يربكون مخططاته ، ويبددون أحلامه .

لذلك أراد ألفونسو أن يوجه ضربة قاصمة لمن كان السبب في استدعاء المرابطين وخصوصاً للفارس المغوار المعتمد بن عباد وقرينه المتوكل بن الأفطس ، وكان يرى أن نصره يعتمد على تكبيل القوة الداخلية في الأندلس بالهزائم المتتالية والمتلاحقة .

أما المرابطون بعد ذلك سيرجعون إلى وطنهم الأصلي المغرب ، وبالقضاء على الأندلس سيسهل القضاء على المرابطين بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد .

ومما ساعد ألفونسو على أن يعيش في تلك الأحلام فتور معظم أهل الأندلس بسبب ترفهم ونعيمهم وجبنهم وحبهم للحياة وهروبهم من الشهادة ، كما أن أسباب الهزيمة نخرت في ذلك المجتمع المتهالك .

أما المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس فقد قررا امتشاق الحسام ، فمن ظفر عاش سعيداً ومن مات كان شهيداً(٢) .

وأما المرابطون الذين تربوا على تعاليم الإسلام وأصول أهل السنة والجماعة فقد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بعد تربية عميقة ، وتكوين فريد وإيمان راسخ ، ساهم علماء وفقهاء المالكية في ذلك ، وعلى رأسهم الفقيه الشهيد ابن ياسين ، فقد مروا بمراحل صقلتهم وحروب زكتهم ، وأصبحوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين على رب العباد ، آخذين بأسباب النصر المعنوية والمادية .

وكان رأي المرابطين أن المعركة في الأندلس مصيرية للأمة الإسلامية ، وبذلكَ

---

(١) ابن الكردبوس ، ص ٩٣ ، روض القرطاس ، ص ٩٤ نقلاً عن دولة المرابطين ، ص ٨٤ .
(٢) انظر : دولة المرابطين ، د. سعدون عباس ، ص ٨٥ .

لا يمكن الاعتماد على شعب مهزوم وقع في أسر المعاصي والذنوب.

وكما أن انتصارهم في الأندلس يرعب أعداءهم وخصومهم في المغرب، ويتم بنصرهم إنقاذ الإسلام والحضارة في ذلكَ البلد البعيد عن العالم الإسلامي.

كان ألفونسو يقود حرباً صليبية شرسة ضد المسلمين، ودعمته الكنيسة في روما بالجنود والعتاد والأموال، ورغبت بلدان الإفرنجة بالوقوف مع ألفونسو في حربه المقدسة ضد المسلمين.

إن الجانب المادي عند النصارىٰ كان أعلى بكثير مما عند المرابطين، ولكن الجانب المعنوي عند المرابطين لا حدود له.

وأرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو كتاباً يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنك نحوت الاجتماع بنا، وتمنَّيت أن تكون لك فلك أن تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[١] [الرعد: ١٤].

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟»[٢] وقال لرسول الأمير يوسف: «قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك[٣]، وإننا سنلتقي في ساحة المعركة»[٤]، ومعنى ذلكَ أن ألفونسو اختار الحرب، وحاول ألفونسو حامي حمىٰ النصرانية في إسبانيا أن يخدع المسلمين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعد السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الإثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا اللعين وما أحب»[٥] فاعترض المعتمد وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة

(١) وفيات الأعيان (٧/ ١١٦).
(٢) دولة المرابطين، ص ٧٨.
(٣) روض القرطاس، ص ٩٤.
(٤) الأندلس في عصر المرابطين، ص ٨٢.
(٥) الحلل الموشية، ص ٣٦.

إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه ، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار»[١] .

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارىٰ ، وكان حدس المعتمد صائباً صحيحاً ، ورصدوا تحرك العدو نحوهم .

وانقض الجيشُ الذي يقوده رودويك بمنتهى العنف على معسكر المسلمين من الأندلسيين ، فتصدى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود بن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأندلسيين ، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارىٰ ، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني ، وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل ، واختار اللهُ من المرابطين شهداء ، واحتدم الصراع ، وزحف ألفونسو ببقية جيشه ، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة ، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها ، ولم يصمد منهم إلا فارس الأندلسيين وقومه «المعتمد بن عباد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيماً وعقرت تحته ثلاثة أفراس ، وأصيب بجروح بليغة ، واستمرت المعركة الرهيبة ، وصمد المعتمد مع داود بن عائشة حتى فلت السيوف ، وتكسرت الرماح ، وصبر المسلمون في المعركة صبراً عظيماً سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد .

وبدأت قوةُ المسلمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة ، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر معتقداً أن هذه هي قوة المسلمين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها ، وأخذت موقف المدافعة ، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيشُ المرابطين إلى ميدان المعركة ، أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية ، فتقوت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم ، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي ، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف ، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها ، ولم ينج منهم إلا القليل ، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض ، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء ، فبث الذعر في نفوس الأعداء

---

(١) أعمال الأعلام ، تحقيق العبادي ، ص ٢٤٢ .

وهلعت قلوبهم[(١)] ، وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارين ، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه ، وإنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل[(٢)] ، ووجد ألفونسو نفسه محاصراً من المسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكرِهِ المحروق ، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس ، فانقض عليه كالسيل ، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت ، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة» وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين ، وكأن العناية الإلهية كانت تحميه[(٣)] ، وكان فقهاء المسلمين وصالحيهم يعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدين ، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى ، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال ، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان[(٤)] .

اندفعوا في المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية ، وتكسرت شوكتهم ، وانقض أسد من أسود المسلمين على ألفونسو وطعنه في فخذه ، ولاذ النصارى بالفرار ، وتمنى ألفونسو الموت على العيش ، ولجأ مع خمسمئة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين[(٥)] .

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم ، وكانت مناسبة لألفونسو الذي تابع سيره مع الظلام إلى طليطلة ، فوصل إليها مغموماً حزيناً جريحاً بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه .

وفقد ألفونسو في الزلاقة القسم الأعظم من جيشه ، وأمر يوسف بضم رؤوس القتلى من النصارىٰ فعمل المسلمون منها مآذن يؤذنون عليها ، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء ، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضي

---

(١) الحلل ، ص ٤٢ .
(٢) ابن الكردبوس ، ص ٩٣ .
(٣) الأندلس في عهد المرابطين ، ص ٨٥ .
(٤) الروض المعطار ، ص ٩٢ .
(٥) ملوك الطوائف ، ص ٣١٤ .

مراكش عبد الملك المصمودي ، والفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي[١] ، وجمع المسلمون الأسلاب والمغانم التي تركها النصارىٰ وراءهم في ساحة المعركة ، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس ، وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام[٢] .

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين ، وهذا نص خطابه : «أما بعد ، حمداً لله المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل وأكرم خلقه ، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه ، وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة ، وخيرناه بين الإسلام والحرب ، فاختار الحرب ، فوقع الاتفاق وتوقفنا بيننا وبينه على الملاقاة يوم الإثنين ١٥ رجب وقال : الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير ، والأحد عيدنا نحن ، فافترقنا على ذلك ، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه ، وعلمنا أنهم أهل خدع ونقض عهود ، فأخذنا أهبة الحرب لهم ، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إليهم أحوالهم ، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشهِ نحو المسلمين ، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين ، فنبذت إليه أبطال المسلمين ، وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها ، وتعدته قبل أن يتعداها ، وانقضت جيوش المسلمين على جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته ، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته ، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد مشتهرة ، ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفنش ، فلما أبصر النصارى رايتنا المشتهرة المنتشرة ، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة ، وأغشتهم بروق الصفاح ، وأظلتهم سحائب الرماح ، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبل بذلك الفياح ، فالتحم النصارىٰ بطاغيتهم ألفنش ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية ، فعصفت ريح الحرب ، وركبت دائم السيوف والرماح بالطعن والضرب ، وطاحت المهج وأقبلت سيل الدماء في هرج ، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج .

وولى ألفنش مطعوناً في إحدىٰ ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه مع ٥٠٠ فارس

---

(١) الروض المعطار ، ص ٩٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

من ثمانين ألف فارس ومئتي ألف راجل ، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل ، وتخلص إلى جبل هنالك ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذراً ويحيد عنها صبراً ، ولا يستطيع عنها دفعاً ولا لها نصراً ، فأخذ يدعو بالثبور والويل ، ويرجو النجاة في ظلام الليل ، وأمير المسلمين يحمد اللهَ قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة ، تحت ظلال بنوده المنتشرة منصوراً لجهاد مرفوع الأعداء ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد ، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها ، وتصطلم ذخائرها وأسبابها ، وتريه رأي العين دمارها ونهبها ، وألفنش ينظر إليها نظر المغشي عليه ، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه ، فتتابعت البهرجة الفرار ، ورؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار ، فتراجعوا حذراً من العار ، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد ، أبو القاسم المعتمد بن عباد ، فأتى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح ، مريض عنه وجراح ، فهنأه بالفتح الجليل ، وتسلل ألفنش تحت الظلام فاراً لا يهدي ولا ينام ، ومات من الخمسمئة فارس الذين كانوا مع بالطريق أربعمئة ، فلم يدخل طليطلة إلا مئة فارس والحمد للهِ على ذلكَ كثيراً.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م العجمي[١] .

وأرسلَ المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزف إليه البشرى بالنصر ، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر ، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين ، هذا نصها: «اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية أذفنش اللعين ففتح اللهُ للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد للهِ رب العالمين ، فأعلم بذلك من قبل إخواننا المسلمين والسلام» وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور ، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر ، منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري ، وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها ، وما أظهره ألفونس من الغدر والآخرة للصالحين[٢] .

وأصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك: «يوم

(١) انظر الحلل المواشية ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٤٧ .

لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك ، فيا له من فتح ما كان أعظمه يوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

نتائج معركة الزلاقة :

كانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة من أهمها :

١ ـ رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس وخصوصاً بعد أن أنقذ الله بها سقوط سرقسطة من سقوط محتم ، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارىٰ ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها .

٢ ـ سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصة ، وأنهم قد هزموا في بدء المعركة ، ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأندلس .

٣ ـ امتناع الرعية من دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلقهم بالمرابطين .

٤ ـ مهدت الزلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم .

٥ ـ ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع .

٦ ـ انصياع قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها ، وتنتظر فرصة الوثوب على المرابطين ، وبذلك تكون نتيجة معركة الزلاقة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة ، وأعلنت ولائها التام .

٧ ـ عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه ، وأعتقت الرقاب ، وسرَّ العلماءُ والفقهاء بهذا النبأ السعيد .

٨ ـ أصيب نصارىٰ الإسبان بهزيمة تعيسة أثرت في نفوسهم ، وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم .

٩ ـ جعلت النصارى يرتبون أمورهم ، ويوحدون صفوفهم ، ويتنازلون عن صراعاتهم الداخلية .

وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيَّرت مجرىٰ تاريخ الأندلس وبلاد المغرب .

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزلاقة عاد إلى إشبيلية ، ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام ، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم ، فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق

رغبته ، وترك ثلاثة آلاف جندي مرابطين للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر[١] .

رابعاً: رجوع الأمير يوسف إلى المغرب:

لقد عدد المؤرخون أسباب رجوع يوسف إلى المغرب وهو لم يجنِ ثمرة الانتصار بعد إلى أسباب منها:

١ ـ وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً .

٢ ـ اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بني حماد مع عرب بني هلال ، وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية .

٣ ـ أراد أن يتفقد الولاة والحكام الذين تركهم في المدن والقرى ، وينظر في أمور الرعية .

٤ ـ أراد أن يخرج من إلحاح مسلمي الأندلس الذين طلبوا منه تعقب ألفونسو وجنوده ؛ حيث إنه رأىٰ أن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأندلس لاتساع أراضيها .

٥ ـ خشي من إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي زعم أنه له حق شرعي في استخلاف والده المجاهد الكبير .

إن نظرتي للتاريخ الإسلامي تؤكد لي معنى عظيماً في حياة أمتنا ألا وهو أن المعارك الفاصلة في تاريخها المجيد لا تكون إلا لقوم أقاموا الشريعة على مستوىٰ الشعب والجيش والقادة ، وهذ المعنىٰ واضح في سيرة المرابطين الذين تدرجوا في مراحلهم ، وأقاموا شرع ربهم على أنفسهم .

ولهذا أرى أن من أقوى الأسباب على الإطلاق في نصر اللهِ للمرابطين هو تمسكهم وتحكيمهم للقرآن والسنة على مستوىٰ شعبهم ودولتهم وجيشهم وقائدهم ، ولذلك يهمنا كثيراً أن نبين أثر تحكيم شرع الله في الأمم والشعوب والجيوش والأفراد .

■ ■ ■

---

(١) انظر: الحلل الموشية ، ص ٤٥ ـ ٤٧ .

المبحث الرابع
أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين

تمهيد:

إن التأمل في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق، وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وسنن الله تتَّضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سنته ﷺ فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ «العضباء» كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم ﷺ كاشفاً عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»(١).

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسَّير، وفي الأزمنة من التاريخ والسير.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٨].

وأرشدنا القرآنُ الكريم إلى معرفةِ السنن بالنظر والتفكير، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ناقة رسول الله ﷺ (٦/ ٨٦)، حديث رقم (٢٨٧٢).

[يونس: ١٠١ ـ ١٠٢].

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: أنها قدر سابق: قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

أي: أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لا محالة، وواقع لا حيد عنه، ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ثانياً: أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

وقال: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الفتح: ٢٢ ـ ٢٣][1].

ثالثاً: أنها ماضية لا تتوقف: قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

رابعاً: أنها لا تُخالف ولا تنفع مخالفتها: قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

خامساً: لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتَّعظ بها المتقون: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٨].

---

(١) لقد استفدتُ من كتاب: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي للشيخ عبد العزيز مصطفى كامل في بيان أثر الحكم بما أنزل الله.

سادساً: أنها تسري على البر والفاجر، فالمؤمنون ـ والأنبياء أعلاهم قدراً ـ تسري عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه، وبما أن المرابطين التزموا بشرع الله في كافة شؤونهم، ومروا بمراحل طبيعية في حياة الدول؛ فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرىٰ أخروية، أما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي في دراستي لشعوب الملثمين التي قامت بهم دولة المرابطين فأمور كثيرة منها:

أولاً: الاستخلافُ والتمكين:

حيث نجد أن المرابطين منذ زعيمهم عبد الله بن ياسين حرصوا على إقامة شرع الله في أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله تحاكمهم في سرهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم حتى استخلفهم في الأرض، وأقام المرابطون شريعة اللهِ في الأرض التي حكموها، فمكَّنَ لهم المولى عزَّ وجلَّ الملك، ووطأَ لهم السلطان.

وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعىٰ جاهدة وجادة لإقامة شرع الله تعالى.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد هذه السنة ماضية في الأفراد والشعوب والأمم، فيوسف عليه السلام استخلف في الأرض بعد أن ابتُلِيَ فأبلى، وظهر منه أنه كان من المخلَصِين، وعندما قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] عرف أنه قد جاء أوان الاستخلاف، فاستعد لتبعته ونضل لحمل رسالته فقال: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وصار بهذا من أهل التمكين: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وقد بين الله تعالى تحقق سنة التمكين في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

وكان بعد وراثة الأرض والاستخلاف فيها أن منّ اللهُ عليهم بالتمكينِ إنفاذاً لمشيئته السابقة، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ

أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ ـ ٦].

وبذلك تتضح هذه السنة في القرآن الكريم كما هي ملموسة في واقع الأمم والشعوب.

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بدلاً عن الكفار ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من بني إسرائيل(١) فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]. فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين.

وهذا ما رأيتهُ في دراستي للدولة السنية التي أقامها المرابطون.

ثانياً: الأمن والاستقرار:

كانت بلاد المغرب قبل وصول المرابطين دويلات متنازعة فيما بينها، بل بعض هذه الدويلات لها معتقدات تخرجها عن الملة، كما أن قبائل الملثمين كانت متناحرة فيما بينها، وصراعهم مع الزنوج لم يستقر؛ مما ولد لهم الخوف والإزعاج الشديد.

وبعد أن أكرم اللهُ المرابطين بتوحيد قبائل صنهاجة، وساروا في جهادهم المجيد سيرة حسنة، وتوحد المغرب الأقصى كله، يسر اللهُ لهم الأمن والاستقرار في تلكَ الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن دولة المرابطين بعد أن استخلفت، ومكن اللهُ لها أعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظَ على مكانتها، وهذه سنة جارية ماضية، ضمن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم، فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد، وتطهر من الشرك بأنواعه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

---

(١) انظر: تفسير الجلالين، ص ٤٦٦.

[الأنعام: ٨٢]. فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته. إن الله تعالى بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلافِ ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع. قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ﴾ [النور: ٥٥]. وإن تحقيق العبودية للهِ ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب.

وهذا ما حدث لقيادات المرابطين وشعبهم الذي انقاد لمنهج رب العالمين.

ثالثاً: النصر والفتح:

إن المرابطين حرصوا على نصرة دين اللهِ بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «وما حدث قط في تاريخ البشريةِ أن استقامت جماعةٌ على هدي اللهِ إلا منحها القوة والمنعةَ والسيادةَ في نهاية المطاف، وأتم إعدادها لحمل أمانة الخلافة في الأرض وتصريفِ الحياة.. إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة اللهِ والسيرِ على هداه، يشفقون من عداوة أعداء اللهِ ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصاديةِ وغير الاقتصادية، وإن هي إلا أوهام كأوهامِ قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآۚ﴾ [القصص: ٥٧]. فلما اتبعت هدىٰ الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان»[1].

إن الله تعالى أيد المرابطين على الأعداء، ومنّ عليهم بالفتح، وفتح الأراضي وأخضعها لحكم اللهِ تعالى، وفتح القلوب وهداها لدين الإسلام.

---

(١) في ظلال القرآن، (٤/ ٢٧٠٤).

إن المرابطين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جلبت لهم الفتح ، واستنزلت لهم نصر الله .

إن الحكام والشعوب الإسلامية التي تبتعد عن شريعةِ الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة .

إن مسؤولية الحكام والقضاة والعلماء في الدعوةِ إلى تحكيم شرع الله مسؤولية عظيمة يسألون عنها يوم القيامةِ أمام الله ، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله ، وقع بأسهم بينهم ، وهذا من أعظم أسباب تغير الدول كما جرىٰ هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ، ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره ، فيسلك مسلك من أيدهُ الله ونصرهُ ، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه ، وإن الله يقول في كتابه : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠ ـ ٤١] .

فقد وعد الله بنصر من ينصره ، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله ، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ، ويتكلم بما لا يعلم[١] .

رابعاً : العز والشرف :

إن عزّ المرابطين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وإن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة ، وبه يعلو ذكرها ؛ يكون قد وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠] .

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية : فيه شرفكم[٢] ، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «إنا كنا أذل قوم ، فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله»[٣] ، فعمر رضي الله عنه كشف لنا بكلماتِهِ عن حقيقة

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٥/ ٣٨٨) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠) .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك في الإيمان (١/ ٦٢) .

الارتباط بين حال الأمة عزاً وذلاً ، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً ، فما عزت في يوم بغير دين الله ، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه .

قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل[١] .

وقال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

إنني عندما مررت بسيرة الإمام ابن ياسين ذكرت وصفه بأنه ذو مهابة عظيمة في نفوس أتباعه ، ونال شرفاً وعزة في قومه .

وعندما مررت بسيرة الإمام أبي بكر بن عمر ، ذكرت أنه إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف من قومه يجاهدون معه .

وعندما مررت بسيرة الأمير يوسف بن تاشفين ذكرت وصف له كأنه خُلِقَ للزعامة .

ورأيت في سيرة هؤلاءِ الأبطال عزّاً وشرفاً نالوه بالاستعلاء على شهوة النفس ، وبالاستعلاء على القيد والذل ، وكان استعلاؤهم على الخضوع الخانع لغير الله واضحاً في سيرتهم العطرة ، كانت حياتهم خضوعاً لله وخشوعاً ، وخشية لله ، وتقوىٰ ، ومراقبة لله في السراء والضراء ، وهذا هو سر عزهم وشرفهم في تاريخنا الإسلامي المجيد .

لقد عاش المرابطون في بركة من العيش ، ورغد من الحياة الطيبة التي وصلوا إليها بإقامة دين الله .

قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

خامساً : انتشار الفضائل وانزواء الرذائل :

لقد انتشرت الفضائل في عصر المرابطين ، وانحسرت الرذائل ؛ فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة ، متطلعاً إلى ما عند الله من الثواب ، يخشى من عقاب الله . لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته

---

(١) ابن كثير (٢/ ٥٢٦) .

وحكامه إلى ما يحييه من الإيمان والقرآن وسنة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة المرابطين هي من ضمن سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير ، فأي شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ، ويرىٰ آثار ذلك التحكيم على أفراده ودولته وحكامه.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله ، وأخذهم بسنن التمكين ، وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية ، والانتقاء من الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلامية المنشودة ، إن الانتصارات العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه ، وأقام شرعه ، وزكى نفسه ، ولهذا لم يأت فتح الزلاقة من فراغ ، لقد جاهد المرابطون في الأندلس ، وحققوا نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً في معركة الزلاقة ، وأنقذ الله بهم المسلمين.

■ ■ ■

المبحث الخامس

الأندلس بعد الزلاقة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التي ذكرتها ، تولى قيادة المرابطين القائد الميداني سير بن أبي بكر الذي واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلي تاجة ، وقد أثخنت قواته مع قوات المرابطين في تلك البقاع .

كما وجه المعتمد بن عباد ضربات موفَّقة بقيادته على عدة مدن حول طليطلة ، ثم اتجه نحو أرض مرسية ، حيث استقرت جموع الفرسان النصارىٰ بقيادةِ الكنبيطور في أحد الحصون القريبة التي تشن غاراتها على مدن المسلمين وخاصة مدينة المرية ؛ إلا أن المعتمد انهزم واضطر أن يلتجئ إلى قلعة لورقة في كنف واليها محمد بن ليون ، ثم توجه نحو قرطبة تاركاً مرسية لمصيرها .

وبدأت قوات النصارىٰ تتجمع حول ألفونسو الذي أربك شرق الأندلس متخذين من حصن لييط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزاً لشن الغارات على أراضي المسلمين .

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد إلى نشاطه وجيشه ، ونقل مقر العمليات إلى شرق الأندلس الذي خيمت عليه الفرقة السياسية .

بعكس غرب الأندلس الذي كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس ، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل ، على رأسها القائد العظيم سير بن أبي بكر[1] .

تأذى أهل غرب الأندلس من النصارى الحاقدين ؛ فتوافدت وفودهم على الأمير

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٦٢ .

يوسف وخصوصاً أهل بلنسية ومرسية ولورقة يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدي النصارىٰ الذين يتحكمون في حصن ليط .

وعبر المعتمد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور ، فاستجاب يوسف لرغبته ، وتمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨ م) ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ، ثم تحرك الأمير يوسف إلى مالقة في صحبة أميرها تميم بن بلقين ، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح ، إضافة إلى المعتمد بن عباد ، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان ، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوىٰ ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن ليط الذي كان يسكنه ألف فارس واثني عشر ألفاً من المشاة من جنود النصارى الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية ، واستبسل النصارىٰ في الدفاع عن الحصن ، وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المسلمين وإلحاق الخسائر بهم .

واستمر الحصار دون جدوىٰ ، وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ، ووصلت للأمير يوسف الذي ساءه ذلك كثيراً .

وشكا المعتمد بن عباد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ، ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقرباً إليه ، وظهرت المشاكل بين أبناء بلكين عبد الله وتميم للأمير يوسف ، وكأن لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة .

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذي دفع أموالاً طائلة لألفونسو ، وعرض الأمر على الفقهاء الذين أفتوا بإزاحته من حكمه وتسليمه للمعتمد ، واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا يستطيع مخالفتها[١] .

وأمر القائد سير بن أبي بكر باعتقاله ، وتسليمه للمعتمد مشترطاً عليه إبقاؤه حياً[٢] .

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١١٢ .
(٢) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٠٨ .

وكانت لفتوىٰ الفقهاء عند قادة المرابطين مكانة عظيمة يضعونها فوق كل اعتبار.

وفرّ جيش ابن رشيق من المعركة ، ومنع الزاد عن جيش المرابطين ومن معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن ، فارتفعت الأسعار ، ووقع الغلاء ، واضطربت الأحوال ، وعندما علم ألفونسو بالخلافاتِ التي وقعت حشد جيشاً من أجل فك الحصار على أتباعه في حصن ليبط ، فاضطر الأمير يوسف إلى فك الحصار خوفاً من معركة خاسرة غير مأمونة النتائج خاصة بعد الذي رآه من حكام الأندلس وتآمرهم واتصالهم بالعدو ، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطين بقيادة داود بن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية ، وبعث بجنوده إلى بلنسية بقيادة محمد ابن تاشفين[(١)].

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن ، وأخرج من نجا من الموت ، ورأىٰ أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن لأنه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها ، فقرر إخلاءه وتدميره ، واسترجع ابن عباد الحصن بعد أن أصبح أطلالاً.

لقد أيقن يوسف أن أمراء الأندلس لا يصلحون للحكم ، ولا يعتمد عليهم في جهاد ، وبعد رجوع الأمير يوسف في عام ٤٨٢ هـ/ ١٨٤٩ م عرض على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأندلس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأندلس يؤيدون ذلك ، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق ، وأرسل الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي[(٢)] فتوىٰ تؤيد عمله الجليل من أجل توحيد صفوف المسلمين.

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة ، لتدخل تحت الخلافة الإسلامية في بغداد.

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة ، ولا ينظرون إلى عزة أمتهم ؛ حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا»[(٣)].

---

(١) ابن خلدون: العبر ، (٦/ ١٨٧).

(٢) ابن خلدون: العبر ، (٦/ ١٨٧).

(٣) محمد بن عبد الله عنان: دول الطوائف ص (٤٠٦) نقلاً عن رسالة ابن حزم.

وكان المسلمون في الأندلس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين ، وعبر عن ذلك فقهاؤهم وعلماؤهم ، وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة» الذي توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان أحد أعضائها ، وكان يرى في الأمير يوسف صلاحاً وعدلاً وحزماً .

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله ، ثم اضطر إلى إطلاق سراحه ، فهرب إلى قرطبة ، ومن هناك اتصل بالأمير يوسف ، وأطلعه على خفايا من الأمور ، وأفتى بخلع ملوك الطوائف ، وتفاعل مسلمو الأندلس مع هذه الفتوىٰ الموفقة[١] .

■ ■ ■

(١) دولة المرابطين ، ص ١١٣ .

المبحث السادس

فتوى في جواز ضم الأندلس بالقوة والقضاء على ملوك الطوائف

أرسل الإمام أبو بكر بن العربي المالكي إلى الإمام الغزالي كتاباً يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية ، ويطلب منه فتوى في ذلك ، قال الإمام أبو بكر العربي: «وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق ، ومن سارت بذكره الرفاق ، ولطول باعه في العلم ورحب ذراعه ، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي ، فاستدعينا منه فتيا وكتاباً ، واختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها ، لكن أنبه على مع معناها وهو: في علم الإمام ما ذكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأندلس والعدوة ، وما أوضحت لديه من إعزاز اليدين ، والذب عن المسلمين ، وهو حميري النسب معه المرابطون ، وقد وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمئة ، عدة ثوار تسوروا على البلاد ، فضعف أهلها عن مدافعتهم ، وتلقبوا بألقاب الخلفاء وخطبوا لأنفسهم ، وضربوا النقود بأسمائهم ، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه ، واستبانوا الفساق من الأرقاء والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً ، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه ، وعند ذهاب شوكة المسلمين ، وحينما انكشف للنصارىٰ ضعف المسلمين ، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين ، وطلبوا المعاقل ، وأخذوا بالحرب كثيراً منها من غير مؤونة ولا مشقة ، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المسلمين ، ووصل إلى البحر ، فاستاء بعض الرؤساء وفاء للمشركين ، وحقداً على المسلمين في استدعائهم له ، وصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله نصراً ، وألجم الكفار السيف ، ثم عاود الجواز

في العام الثالث من هذا الفتح فتهيبه العدو ، وتحصن منه ، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه ، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء ، واستولىٰ على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل ، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس ، حالفوا النصارىٰ أو صاروا معهم إلباً ، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد ، والدخول في بيعة الجمهور ، فقالوا: لا جهاد إلا مع إمام من قريش ، ولست به ، أو مع نائب عن الإمام ، وما أنتَ ذلك ، فقال: أنا خادم الإمام العباسي ، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك ، فقال: أوليست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا: ذلك احتيال. ومردوا على النفاق ، فهل يجب قتالهم؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم؟ وهل على المسلم حرج في قتالهم ، وهل على الإمام العباسي أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم ، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه ، وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر ، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك ، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبداً ، وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر ، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية ، وأظهر أن يجدد بالتزكية.

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد الأوحد أبي حامد أتم الأجر ، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله تعالى»[1].

أولاً: فتوىٰ الإمام الغزالي في موقف كل من يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف والخلافة العباسية؟

فأجاب الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ: «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى بشهادته عن غيره وعن طبقة من ثقات المغرب الفقهاء وغيرهم ، من سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله ما أوجب الدعاء لأمثاله ، ولقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمام المستظهري ، حرس الله على المستظهرين ظلاله ، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحق ، وإن لم يكن بلغهم صريح التقليد من الإمام ، أو تأخر عنهم ذلك لعائق ، وإذ نادى الملك المستولي بشعار الخلافة العباسية ، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد ، ولزمهم السمع والطاعة ، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام ، ومخالفته هي

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب. د. أحمد العبادي ، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى، وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. والفيئة إلى أمر الله: الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته، ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارىٰ المشركين وأوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ويتركوا المخالفة، وعندها يجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا، لم يجز أن يتتبع مدبرهم، ولا أن يُذفَّف[1] على جريحهم، بل متى سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكف عنهم، أعني عن المسلمين منهم دون النصارىٰ الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضمان فيها، وحكمهم في الجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة؛ حكم الباغي على نائب الإمام، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادي بشعاره، ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه.

وإن توقف في كتبه المنشورة، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين فلا رخصة في تركه، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه، وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذلك ذلك؛ فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في

(١) لا يذفف: لا يجهز.

إطفائها بكل ممكن. قال عمر رضي اللهُ عنه: «لو تركت جبراء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسؤول عنها يوم القيامة». قال سليمان بن عبد الملك يوماً وقد أحدق به الناس: «قد كثر الناس» فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين» يعني أنك مسؤول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته. فلا رخصة في التوقيف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوي عشرة، فكيف في أقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، والمواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك؛ فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، ولم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته، وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه، ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصور، أو تقتضي في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها، والمعتصمين بعروتها، والقائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض، وحكم من بغي عليهم، والله أعلم[1].

يتضح لي من فتوى الإمام الغزالي أن رأيه في قتال يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف مبني على كون أولئك الملوك من البُغاة والخارجين عن سلطة الدولة المرابطية التابعة للخلافة الإسلامية.

وبهذا يتضح أن الفقهاء والعلماء رأوا ضرورة ضم الأندلس لقيادة المغرب الأقصى؛ بعد أن فرط أمراء الأندلس في أمور الشرع ومصالح الرعية، وحالفوا النصارىٰ ضد إخوانهم المسلمين.

ولا شك في أن ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف صحيح من الناحية الشرعية، والاستراتيجية العسكرية، والمنطلقات السياسية.

بل في رأيي أن وجود ملوك الطوائف مفسدة عظيمة، والسعي لإزالتهم خطوة

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد عبادي، ص ٤٨٤.

نحو توحيد الصفوف ، ونجد كُتاباً من الغرب وأذيالاً لهم من أبناء المسلمين يصفون ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف بأنه خروج عن الإنسانية ، ودليلٌ على الهمجية ، حسب وجهة نظرهم المشوشة ، وتصورهم المغلوط ، أما بالنسبة للمؤرخ المسلم فإن ما قام به يوسف يعتبر عملاً عظيماً قدمهُ للأمةِ ، وحفظ به الإسلام في الأندلس من انهيار محقق ، وضبط الأمور بعزم وحزم بعد فوضى وضياع وخنوع واستسلام مارسه ملوك الطوائف دون اهتمام بدين أو شعب أو عقيدة.

لقد تميز يوسف بن تاشفين بوفائه التام للعهود ، وابتعاده عن الأطماع الدنيوية ، وحرصه على إعزاز الدين ، وإزاحة العوائق التي تحول دون وحدة المسلمين ، ولذلك أقدم على الخطوة المباركة من أجل توحيد الأندلس ، وضمها تحت قبضة دولته الميمونة التابعة للخلافة العباسية السنية.

إن كثيراً من الحكام المعاصرين المتسترين بالدين ، والذين يحالفون النصارىٰ الحاقدين واليهود الماكرين وأشياعهم وأتباعهم الكافرين واجب على الدولة الإسلامية السنية الفتية أن تعمل على تخليص المسلمين من قبضتهم ، وتضمها إليها ، وتسعى من أجل تحقيق ذلك بكافة الأمور الشرعية المعروفة.

وإذا تعذر وجود دولة سُنية لها هموم إسلامية وتطلعات شرعية ، فعلى الحركات الإسلامية أن توحد صفوفها للوصول إلى هذا الهدف المنشود ، ومن ثم السعي لتوحيد الأمة تحت دولة إسلامية تقوم على عقيدة التوحيد ، وتحكمها شريعة الرب المجيد ، وإذا ما وصلت أي حركة معاصرة إلى ذلك الهدف المذكور تجد نفسها تحتاج إلى فتاوى شرعية وتجارب لتستأنس بها في مسيرتها المباركة ؛ ولذلك أرى من الفائدة العميمة والخبرة الرشيدة دراسة الدولة الإسلامية التي قامت ، واجتهادهم في الحروب ، وتربيتهم للشعوب ، لنسترشد بها ، ولنطوِّرها على حسب متطلبات المرحلة التي نمرُّ بها.

ولذلك نجدُ أن الأمم عموماً عندما تعد طلائع قيادية تهتم بدراسة الشعوب والحركات التحررية ، والثورات الإنسانية ؛ لتكون رصيداً لأولئك الذين يعدون ويربون على قيادة أمتهم في المستقبل المنظور.

إن العقلية الضيقة المتحجرة عندما تكون في سدة القيادة لا تستطيع أن ترتقي بجنودها ، وتجد نفسها تصطدم اصطداماً عنيفاً مع مستجدات الحياة ، ومشاكلها المعقدة.

إن تجارب التاريخ الإسلامي تُكسب الطلائع القيادية للحركة الإسلامية المعاصرة خبرات مهمة في مجال البناء ، والحركة ، والتنظيم ، والتكوين ، والتنفيذ ، والتمكين .

إن دروس التاريخ تعلمنا أن العلماء الربانيين ، والفقهاء العاملين لهم مكانة في نفوس شعوبهم ، ومهابة عند حكامهم ، ولفتاويهم شأن عظيم في شؤون الحكم والدول والحروب وعزل الملوك وتولية غيرهم . . . إلخ .

■ ■ ■

المبحث السابع

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء من الأندلس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضم الأندلس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السنية ، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، وسار على رأس جيش إلى طليطلة ، وأرسل فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن ، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاعَ أن يفتح غرناطة بعد شهرين من حصارها ، واعتقل أميرها عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذي تحالف مع النصارىٰ من أجل أملاكه ، ثم أرسله أسيراً إلى المغرب ، واستقر في أغمات بالقرب من مراكش[1] .

وحاول المعتمد بن عباد والأفطس أن يثنيا الأمير يوسف عن عزمه ، ولكنه رفض مقابلتهما ، وأيقنوا أن زوالهم قريب.

وألقى المرابطون القبض على تميم بن بلكين والي مالقة وأرسلوه إلى إفريقية ، ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة ، وتولىٰ القيادة السياسية والعسكرية القائد المحنك سير بن أبي بكر ، وبدأ الأمير يوسف في إرسال الجيوش من المغرب إلى الأندلس للقضاء الكلي على ملوك الطوائف ، وأصبحت القوة المرابطة في الأندلس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها ، وقسم الأمير يوسف جيوش المرابطين إلى أربعة أقسام:

١ ـ جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجه إلى إشبيلية.

---

(١) انظر: معركة الزلاقة ، ص ٦٢.

٢ ـ وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج ، وواليها آنذاك ، ولد المعتمد الفتح أبو النصر .

٣ ـ وسار جرور اللمتوني إلى أرض رندة بجيش ثالث ، وفيها ولد آخر للمعتمد وهو يزيد الراضي بالله .

٤ ـ وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التي فيها المعتصم بن صمادح ، صديق المعتمد الحميم .

وبقي يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك[١] .

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م بعد مقاومة عنيفة من ابني المعتمد اللذين قتلا «المأمون وزيد الراضي» ووصل المرابطون إلى ضواحي طليطلة مهددين ملوك النصارى ، واستولوا على قلعة رباح التي فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة ، واشتد الخوف بالمعتمد بن عباد الذي أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين ، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهما .

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م ، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم ، وجاءته إمدادات النصارى التي أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز ، وعدتها أربعون ألف رجل مترجل ، وعشرون ألف فارس ، ووصلت إلى مقربة من قرطبة ، وتصدىٰ لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جنده الشجعان ، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة ، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصراً كبيراً مبيناً ، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارىٰ تحت رحمة المرابطين ، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار ، وكان سير بن أبي بكر يقود الجيش المحاصر ، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م وكانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة حزينة ، وكانت عبرة لتقلب الدهر ، وذلك أن الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصائر إسبانية ، والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ، والذي يرجع إليه سبب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة ، والذي استدعىٰ المرابطين إلى الأندلس ، اختتم حياته الحافلة بالأحداث

---

(١) انظر : معركة الزلاقة ، ص ٦٢ .

في غمرة البؤس والحزن في أغمات المغرب ، فقد قبض عليه بعد سقوط إشبيلية ، وعلى نسائه وأبنائه وبناته ـ وهم نحو مئة ـ وأرسلوا إلى مراكش[١] ، وفي طريقه تألم المعتمد من قيده وضيقه وثقله فقال:

تبدلت من ظل عزِّ البنودِ بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا أدهماً يعض بساقي عض الأسود

لقد أطنب الشعراء والمؤرخون وأهل الأدب في سيرة المعتمد بن عباد ، وسبب ذلك أمور كثيرة ، وأهمها في نظري أن قضيته غريبة ، وشخصيته عجيبة ، ومرّ بأمور رهيبة ، وكانت سيرته مليئة بالمتناقضات ، فهو الذي قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير» وهو الذي استعان بالنصارىٰ ، وأجلب خيلهم ورجالهم ضد المسلمين ، وسيرته تبين لنا سنن الله في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء ، وإعطاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وتوفي المعتمد بن عباد في أغمات سنة ٤٨٨ هـ رحمه الله تعالى.

ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب ، بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه ، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء[٢].

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيدي ، أما تعلمني مُسلماً أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شرابٌ ، واللحم قد أكلته ولا تهشم الأعظُما
يُبصرني فيك أبو هاشم فينثني ، والقلب قد هُشما
ارحم أخياتٍ له مثله جرّعتهن السُّم والعَلقما

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه:

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٤.
(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٧).

لمـــا تمـــاسكـــت بـــالـــدمـــوع ... وتَنَهنـــه القلـــبُ الصـــديـــع
قـــالـــوا الخضـــوعُ سيـــاســـة ... فليبـــدُ منـــك لهـــم خُضـــوع
وألـــذ مـــن طعـــم الخُضـــوع ... علـــى فمـــي السّـــمُّ النقيـــع
أتسلـــبُ عنـــي الـــدُّنـــا ... ملكـــي وتُسْلـــم القلـــبَ الضُّلـــوع
قـــد رُمـــتُ يـــوم نـــزالهـــم ... أن لا تحصننـــي الـــدروع
وبـــرزت ليـــس ســـوى القميـ ... ـص عـــن الحشـــى شـــيء دَفُـــوع
أجلـــي تـــأخـــر ، لـــم يكـــنْ ... بهـــواي ذُلـــي والخُضـــوع
مـــا ســـرت قـــطُّ إلـــى القتـــال ... وكـــان فـــي أملـــي الـــرجـــوع
شيـــم الأولـــى إنـــا منهـــم ... والأصـــل تتبعـــه الفُـــروع(١)

ولما توفي في أغمات رثاه الشعراء بقصائد معبرة عن المشاعر الإنسانية الدفينة ، وممن رثاه شاعره المخلص أبو بحر عبد الصمد بقصيدة طويلة أجاد فيها ، وأولها :

ملـك الملـوك ، أسـامـع فـأنـادي ... أم قـد عـدتـك عـن السمـاع عـوادي
لمـا نقلـت عـن القصـور ولـم تكـن ... فيهـا كمـا قـد كنـت فـي الأعيـاد
أقبلـت فـي الثـرىٰ لـك خـاضعـاً ... وجعلـت قبـرك مـوضـع الإنشـاد(٢)

لقد كانت محنة المعتمد بن عباد عظيمة ، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء ، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة وأنه صحراوي بدوي نزعت الرحمة من قلبه ، واستدلوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية ، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأندلس وتخلص منهم .

والواقع يقول : إن ابن تاشفين لم يطمع بالأندلس ، وتردد كثيراً قبل العبور ، وعفَّ عن الغنائم بعد الزلاقة ، وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس ، ولم يأخذ منها شيئاً وفي عودته ، ثم عاد في الجوازِ الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف الهزلي ، وتحالف بعضهم مع ملوك النصارىٰ ، ولما اشتد الخطب على أهل الأندلس ، وأفتى العلماء بخلع ملوك الطوائف حرصاً على سلامة الدين والعقيدة ؛ قرر الأمير يوسف أن يضع حداً لمهزلة ملوك الطوائف لقد آن «من أجل الشريعة والمصلحة العظمى

---

(١) التاريخ الإسلامي للذهبي . مجلد حوادث ووفيات ، (٤٨١ ـ ٤٩٠ هـ) ، ص ٢٧١ .
(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٣٧) .

للأمة» لهذه الدويلات الهزيلة الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي ، وكما قال الشاعر محمود غنيم :

مـن عـالـج البـاب العصـي فلـم يلـن ليـديـه ، حطَّـم جـانـب المصـراع

فقد شغله هؤلاء الأمراء المتفرقون عن الجهاد والفتوحات والمرابطة في سبيل الله لضعفهم وفرقتهم ، فلقوا جزاء خيانتهم وفرقتهم ، وابن تاشفين خص الأمراء وحدهم بشدته وعقابه ، وعفا عن الشعب المسلم ، لأن التناقض جلي بين الشعب الذي تعلق بالمرابطين وبالأمير يوسف لعدله وحزمه وجهاده ، والذي حرص على رفع المظالم والضرائب والمكوس عن كاهل الشعب الذي طلب من ملوكهِ الاتحاد في وجهِ النصارىٰ ، وبين الأمراء والملوك الذين آثروا التفرق والخلاف ، حبّاً في الحكم ، وحفاظاً على مصالحهم الشخصية .

وهذا الرأيُ قام به الأمير يوسف ، وإزاحة الملوك من أعظم حسناته ومآثره الخالدة في تاريخه المجيد ؛ الذي تعتز به أمتنا العريقة .

وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقي المدن والحصون ، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين ؛ في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً .

ولما سقطت المرية بيد داود بن عائشة ، هذا القائد المجاهد المرابط في سبيل الله المنصور بإسلامه ودينه وصفاء عقيدته وحفظه للعهود ، واصل سيره الموفق مع جنوده البواسل ، وافتتح مربيطر وبلنسية وشنتمرية ، ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه ، فبلنسية كان بها يحيى بن ذي النون «القادر» وعلى الرغم من أنه كان منضوياً تحت حماية ملك قشتالة ، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة منهم ، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر ، على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين أصحاب الأيادي المتوضئة ، والقلوب الطاهرة ، والضربات الفتاكة لكل جبار عنيد .

واستمر داود بن عائشة في فتح حصون وقلاع مدن شرق إسبانيا تحفه العناية الإلهية ، وتنزل عليه الفتوحات الربانية ، ويخط للمغاربة وللأمة الإسلامية تاريخاً مجيداً باقياً على مر العصور والأزمان ، واضحة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي .

أما القائد الرباني والفارس الميداني سير بن أبي بكر فكان جهاده الميمون في

غرب الأندلس ، حيث زحف إلى بطليوس وأميرها يومئذٍ محمد بن الأطفس «المتوكل» بعد أن فتح إشبيلية كما سلف ، فاستولى على شلب ويابرة ، ثم احتل بطليوس في صفر ٤٨٧ هـ ـ آذار (مارس) ١٠٩٤ م.

وفي الوقت الذي سقطت بطليوس ، استطاع المرابطون أن يفتحوا جزر البليار ، التي كان واليها يومئذٍ من بني شهيد أتباع بلنسية ودانية ، وأحسن المرابطون صنعاً بفتح الجزر الشرقية «بليار» في الوقت الملائم ، وقد كانت منعزلة تعيش تحت هيمنة الأسطول النصراني ، وقد تم الفتح على يد القائد البحري ابن تافرطست.

وبذلك أصبحت إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م ونستثني من ذلك ولاية سرقسطة التي كان واليها أحمد بن هود «المستعين بالله» الذي أبلى بلاءً حسناً في جهاد النصارىٰ ، وظهرت فيه شهامة ورجولة أقنعت الأمير يوسف على إبقائه في ملكه ، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيدة ضد أعدائهم في الدين ، وكان سداً منيعاً في الثغور الشمالية ، وقد كلف النصارىٰ خسائر هائلة في الأموال والأرواح.

واستطاعَ النصارىٰ أن يحتلوا مدينة «بلنسية» عام ٤٨٧ هـ بقيادة القائد النصراني الكمبيادور الذي أمن قاضيها «ابن جحاف» ثم أحرقه بالنار ، وعمل المرابطون على إرجاع بلنسية والحصون التي وقعت في يد النصارىٰ ، وتمكنوا من تحرير بلنسية عام ٤٩٥ هـ.

والجدير بالذكر أن بابا الفاتيكان أفتى لأهل إسبانيا ومن حولهم من الإفرنج أن قتالهم في الأندلس ضد المسلمين جهاد مقدس ؛ ولذلكَ لم يشارك الإسبان في حروب النصارى الصليبية في شرق العالم الإسلامي في هذه الفترة.

لقد كانت سياسة الإسبان في حروبهم للمسلمين صليبية النزعة ، همجية الخلق ، خالية من الأخلاق ، ممزوجة بالغدر ، بعيدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين في حروبهم وجهادهم مبنية على نشر الإسلام ومكارم الأخلاق ؛ في أطر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[1].

■ ■ ■

---

(١) انظر : معركة الزلاقة ، ص ٦٨.

المبحث الثامن

الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

لما أصبحت إسبانية المسلمة تحت حكم المرابطين بما في ذلك سرقسطة التي حكمها بنو هود ، عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٣ م بعد استرداد بلنسية بعام واحد ، يبغي تنظيم شؤونها ، وليطلع على حسن سير الإدارة ، ودعا القادة والولاة وزعماء الأندلس ، وشيوخ القبائل المغربية التي تدين بالطاعة له إلى الاجتماع في قرطبة ، وعين ولده الأصغر علياً «أبا الحسن» ولياً للعهد ، فقد ظهرت مواهبه ونجابته ورجاحة عقله ولمس والده ذلك فيه من الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة[1] .

نص ولاية العهد للأمير علي بن يوسف:

عهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد ، وكان مشهوراً ببلاغته ، وهذا هو النص: «الحمد للهِ الذي رحم عباده بالاستخلاف ، وجعل الإمامة سبب الائتلاف ، وصلى اللهُ على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة ، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد: فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب بن تاشفين لما استرعاه على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظمة ، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة ، وكيف في هذه الأمور العائدة في المصلحة الخاصة والجمهور ، وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة ، وخصَّه الله بها من النظر في الأمور الدينية الشريفة ، قد أعزّ الله رماحه وأحد سلاحه ، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً ، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً ،

---

(١) انظر: معركة الزلاقة ، ص ٧١.

فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه ، ودعا بعد استشارة أهلِ الرأي على القرب والناي ، فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلاً أن يسترعي فيما استرعاه ، فأحضره مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل ، وأجاب حين دُعي ، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره ، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت النصيحة مرامي قصية ، يقول في ختامه شروطها وتوثيق ربوطها ، كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضي إمامتها على البعيد والقريب ، وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب ، وذلك في عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م[(١)].

أ ـ وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه علياً بما يلي :

ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولاياتِ والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين ، قوامه سبعة عشر ألف فارس ، يطعمون على حساب الدولة ، ويوزعون كما يأتي: أربعة آلاف في ولاية سرقسطة ، وسبعة آلاف في إشبيلية ، وثلاثة آلاف في غرناطة ، وألف في قرطبة ، والباقي قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية ، ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارىٰ ، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارىٰ مع المغاربة ، وأن يعمل على تشجيع الأندلسيين على روح الجهاد ، وأن يكافىء المتفوقين في الحرب منه بالخيل والسلاح والثياب والمال.

ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأندلس وخصوصاً قرطبة بالرفق واللين ، وأن يقوي علاقته الأخوية مع بني هود الذين هم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارىٰ ، ولما انتهىٰ يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس ، وقسمها إلى ست ولايات هي إشبيلية ، غرناطة ، قرطبة ، بلنسية ، مرسية ، وسرقسطة ، عاد ابن تاشفين إلى مراكش.

---

(١) الزلاقة ، ص ٧١ ـ ٧٢ ، انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة (٢/ ٥١٩ ـ ٥٢٠).

ب ـ لقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث :

١ ـ مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين ، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.

٢ ـ مرحلة الحذر من ملوك الطوائف ، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد ، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة ، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

٣ ـ مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب ، فوضعوا حداً لمهزلة ملوك الطوائف.

■ ■ ■

المبحث التاسع

آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على ملوك الطوائف

١ ـ إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة ، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم .

قال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كانت في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة ، فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه ، يخشى من النصارىٰ ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء ، وإذا تشجع في معركةٍ من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه ، وأصبح في ضنك من العيش : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

٢ ـ أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي ، فلا أمر بالمعروف تأمر به ولا نهي عن المنكر تنهى عنه ، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل ، قال رسول الله ﷺ: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد

الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً ، ثم ليلعننكم كما لعنهم»[١].

٣ ـ إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاقة والانقياد إلى المخالفةِ والتمرد على أحكام الله : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال : ٥٣].

كما أنَّ المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله ، وتطلب العون من إخوانهم في العقيدةِ ؛ لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله ، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت ، ولذلكَ حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين. لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا ما رحم الله ، وتركوا الحق وانقادوا للضلال ، وابتلوا بالنفاق ، وفضحهم الله بذلك ، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب ، وخف دينهم ، وضعف إيمانهم ، بسبب بطرهم للحق ، وغمطهم لحقوق الناس ، وابتعادهم عن شرع الله تعالى.

٤ ـ لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض ، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم ، ونشبت حروب وفتن وبلايا ؛ تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

٥ ـ وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارىٰ في الأندلس ، فأصبحت شوكتهم تقوىٰ ، وحصلوا على مكاسب كبيرة ، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس ، وحرموا من التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم ، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارىٰ لهم ، وكم قتل النصارىٰ من المسلمين وكم سبوا من نسائهم!!

٦ ـ إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك ، وتسلط الكفار ، وتوالي المصائب.

---

(١) أبو داود ، كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف ، رقم الحديث (٤٦٧٠).

٧ ـ إن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط عليهم من لا يعرفونه ، ولذلك سلط الله النصارىٰ على المسلمين في الأندلس ، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء ، واستنصروا إخوانهم في الدين ، والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ، ثم خلّص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين ، وأبدلهم بأمراءٍ عادلين ، منقادين لشريعة رب العالمين.

٨ ـ إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

الأول: معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به.

ثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر ، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء ، والإسراف في الفسق والفجور ، والغرور بالغنىٰ والثروة ، فهذا كله من الكفر بنعمة الله ، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام ، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً.

■ ■ ■



الفصل الثالث

السياسة الداخلية والخارجية في دولة المرابطين




المبحث الأول
حقوق الرعية في دولة المرابطين

إن الله تعالى جعل بين الحاكم والمحكوم حقوقاً وواجبات متبادلة، وبينت الشريعة الغراء هذه الحقوق المتبادلة، فمن أهم حقوق الرعية على الراعي:

أولاً: العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية:

وذلك عن طريق حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فهذا هو أهم الأمور التي تلزم ولاة الأمر تجاه الرعية[١]، وأهم هذه الأصول: التمسك بالكتاب والسنة وإجماع القرون المفضلة الأولى، وفي دراستي التاريخية لدولة المرابطين وجدت أن حكامها ساروا على هذا المنهج الذي رسمه شيوخهم الذين سبقوهم، ولذلك توحدت دولة المرابطين، وكان لذلك المسلك سبب في حماية الأمة من التفرق في الدين إلى دروب الأهواء والضلالات، وكان حماية ووقاية للحاكم والمحكوم في دولة المرابطين على السواء من الزيغ عن السبيل، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. أي: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم، في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله[٢]. لقد كان يوسف بن تاشفين ومن سبقه من حكام دولة المرابطين على منهج الفرقة الناجية، وسبيل أهل السنة والجماعة، لا سبل أهل الزيغ والتفريق على نهى عنها في قوله:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود

(١) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٢.
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٧٠).

وجوه أهل الفرقة والزيغ»[١] لقد قام يوسف بن تاشفين بحماية أصول أهل السنة والجماعة بتشجيع العلماء والفقهاء وبنشرها، وحمل الناس عليها، واستخدم في ذلك سلطانه وصلاحياته الشرعية[٢].

ثانياً: توحيد المغرب تحت راية الخلافة الإسلامية:

قام يوسف بن تاشفين بتوحيد المغرب الأقصىٰ تحت راية الخلافة الإسلامية واستعمل من أجل هذا الهدف كافة الأسباب المشروعة سواء بإصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع من استعصى عن الإجابة، وكان يسعىٰ سعياً حثيثاً للقضاء على الشرور في بلاده، ويعمل على إغلاق أبوابها أولاً بأول، وسبيله في ذلك: «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم»[٣].

ثالثاً: العمل على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين:

حيث استطاع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يأمن السبل في بلاده، وأن يبسط الأمن، ويقمع الأخطار التي هددت دولته من المارقين، ونظم طرق الأسفار ومسارب التجارات.

وقد عد علماء الإسلام تأمين السبل والطرق حقاً من حقوق الرعية التي سيسأل عنها كل راع، فذكروا أن الإمام يلزمه: «حماية بيضة الإسلام والذب عن الحُرم، ليتصرف الناس في معايشهم، وينتشروا في أسفارهم آمنين على أنفسهم وأموالهم»[٤]، ولا شك أن تأمين السبل دليل بارز على انتصار الدين وتمكينه، فإنه ﷺ لما دَعا عدي بن حاتم إلى الإسلام، وعده ـ إن طالت به الحياة ـ أن يرى طرق المسلمين آمنة وسبلهم محفوظة لما يؤول إليه الأمر من قوة المسلمين بعد ضعفهم، فقد روىٰ البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: «بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترين

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٩).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم، (٢/ ٥١٤).
(٣) الأحكام السلطانية للماوردي، ص ٢٢.
(٤) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٧.

الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله. . » وفيه أن عدياً رضي الله عنه قال بعدها: «فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله»[١].

رابعاً: العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج:

قام الأمير يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ بأعمال عظيمة حماية لدولته وشعبه من كل عدو يحاول أن يعتدي، واتخذ كافة الأسباب المتاحة من أجل تحقيق هذا العمل المنشود من تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرماً ويسفكون دماً لمسلم أو معاهد»[٢].

وقضى على كل محاولات الأعداء دولته من البراغوطيين والمغاورة والحماديين الذين حاولوا ضم أراضي من دولته، وقضى على دويلات الكفر والإلحاد، وألزم الحماديين احترامه بالقوة.

خامساً: حفظ ما وضعت الشريعة لأجله:

فقام بإقامة الحدود، حتى تصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق العباد من أي إتلاف أو استهلاك، ونفذ في رعيته قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

سادساً: إعداد الأمة إعداداً جهادياً:

ومسيرة المرابطين منذ خروجهم من رباط عبد الله بن ياسين تدل على أنهم قوم مجاهدون، وقام قادتهم بجهاد الوثنيين، واستمر يوسف بن تاشفين في قتال أهل الردة وغلاة المبتدعة وتوحيد القبائل الخارجة عن نطاق الدولة، وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى أسلموا أو دخلوا في ذمة المسلمين قياماً بحق الله تعالى في ظهور دينِهِ على الدين كله»[٣].

سابعاً: القيام على تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء:

حيث قام الأمير يوسف بالإشراف على جباية وصرف الزكاة في مصارفها الشرعية

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامة النبوة (٦/ ٧٠٦) رقم الحديث (٣٥٩٥).
(٢) الأحكام السلطانية، لأبي يعلى.
(٣) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ص ٢٣.

من غير حيف ولا عسف ، فكانت من مصادر دولة المرابطين الزكاة والخراج والفيء وغيرها ، فكان الأمير يوسف لا يأخذ الضرائب والمكوس ، بل أسقطها ، وإنما يأخذ المال من حله ، ويضعه في حقه ، ولا يمنعه من مستحقه(١) .

ثامناً: تحري الأمانة في اختيار المناصب:

حرص الأمير يوسف أن يختار الأمناء والأكفاء ، وأسند إليهم الولايات وقيادات الجنود ومناصب القضاة ، وحرص على أن يولي كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل ، واختار وانتخب أحسن وأنفع العناصر لدولته السنية من أجل أن يقوم بواجبه نحو رعيته.

تاسعاً: الإشراف المباشر على شؤون الدولة:

اعتاد الأمير يوسف أن يُشرفَ بنفسه على أمور رعيته ، ويتابع ولاته ويزورهم في مواطنهم ويستمع للناس ، وما كان يعتمد على التفويض وحده خوفاً من الله تعالى الذي قال في كتابه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾ [صَ: ٢٦] ، وقد عد الإمام الماوردي هذا الأمر من حقوق الرعية على الوالي ، وذكر أنه يلزمه: «أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة ، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة ؛ فيخون الأمين ويغش الناصح . . . »(٢) .

كان الأمير يوسف يراقب ولاته مراقبة شديدة ، ولا يتردد في تبديلهم وعزلهم إذا أساؤوا ، وكان يضع مصلحة الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة ويوصيهم بها خيراً ، وقد جاء في كتابه إلى عبد الله بن فاطمة: «فاتخذ الحق إيمانكَ ، وارفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولا تسد في وجه المضطهد بابك ، ووطن للرعية أحاطها اللهُ أكنافك ، وابذل لها إنصافك ، والحرج من كل ما يحيف عليها ويؤذيها ، ومن سدد عليها من عمالك زيادة ، أو خرق في أمرها عادة ، أو غيَّرَ رسماً ، أو بدل حكماً ، أو أخذ لنفسه منها درهماً ظلماً فاعزله من عمله ، وعاقبه في بدنه ، وألزمه

---

(١) انظر السياسة الشرعية ، لابن تيمية ص ٢٩ .

(٢) السياسة الشرعية ص ٢٩ .

في رد ما أخذ متعدياً إلى أهله ، واجعله نكالاً لغيره حتى لا يقدم منها أحد على مثل فعله»[١].

وكان الأمير يوسف يخبر أهل الولاية بتعيين الوالي الجديد ، فكتب إلى أهل مدينة سبتة بشأن الأمير يحيى بن أبي بكر : «ونحن من وراء اختياره والفحص عن أخباره ، فإذا وصل إليكم كتابنا فالتزموا له السمع والطاعة ، والنصح والمتابعة جهد الاستطاعة»[٢] بالإضافة إلى ذلك كان الأمير يوسف كثير الطواف في مملكته للإشراف على تنفيذ أوامره وتعليماته من قبل الولاة[٣] والاطلاع على أحوال الرعية والنظر في أمورها .

■ ■ ■

(١) دولة المرابطين ص ٦٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

(٣) الأندلس في عهد المرابطين . استفدت من مباحث أثر حكم الله على دولة المرابطين ، وأثر ترك حكم الله والواجبات السياسية التي قام بها الأمير يوسف من كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، للمؤلف عبد العزيز مصطفى كامل .

المبحث الثاني
موقف الرعية في دولة المرابطين

لقد استوفت الرعية في دولة المرابطين حقوقها الشرعية ، فكان طبيعياً جداً أن تؤدي واجباتها إلى حكامها وولاتها ، وأهم هذه الواجبات التي أدتها :

أولاً: الطاعة: كان مسلمو المغرب في زمن دولة المرابطين يتقربون إلى اللهِ تعالى بطاعة أميرهم والانقياد له في كل معروف ، ويرون هذه الطاعة حقاً ثابتاً لحكامهم بنص القرآن وصريح السنة وصحيحها.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي مجتمع المرابطين كانت الشريعة فوق الجميع ، يخضع لها الحاكم والمحكوم ، ولهذا فإن طاعة الحكام كانت عندهم مقيدة دائماً بطاعة اللهِ ورسوله.

قال ﷺ: «لا طاعة في المعصية ، إنما الطاعة في المعروف»[١].

ثانياً: النصرة: كان المسلمون تحت قيادة أمراء المرابطين يعاضدون وينصرون أمراءهم في أمور دينهم وجهادهم لعدوهم ، عاملين بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢].

وكانوا يكرمون من يقيم شرع الله من حكامهم ، ويدافعون وينافحون عنه ويكرمونه ويجلونه لقوله ﷺ: «إن من إجلالِ الله تعالى: إكرامُ ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرامُ ذي السلطان المقسط»[٢].

ثالثاً: النصح: قامت هذه الدولة الميمونة المباركة على النصح المتبادل بين

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة ، حديث (٧١٤٥).

(٢) رواه أبو داود كتاب: الأدب ، باب: في تنزيل الناس منازلهم رقم (٤٨٢٢).

الحاكم والمحكومين ، ونجد أن أحد الوزراء يطلب من الأمير يوسف عدم جواز البحر في جهاده ضد النصارىٰ حتى يسلم المعتمد بن عباد له الجزيرة الخضراء ، فيسمع الأمير هذه النصيحة وينفذها في أرض الواقع ، وامتنعَ عن جواز البحر حتى تحصل على تلك الجزيرةِ التي أفادته في جهادهِ كثيراً ، لقد كانت قيادات المرابطين تستمع للنصح في تواضع جم ، واستعداد نفسي رفيع يدل على عمق التربية العميقة التي حصلوا عليها .

إن الإسلام أوجب على الرعية أن تناصح ولاة أمرها ، وقد جاء الأمر بذلك في حديث جوامع الكلم لرسول الله ﷺ إذ يقول: «الدين النصيحة» ـ ثلاثاً ـ قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ـ عز وجل ـ ولكتابه ولرسولِهِ ولأئمة المسلمين وعامتهم»[١] .

ومعنى النصيحة لهم في هذا الحديث: «معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف ، ومجانبة الوثوب عليهم ، والدعاء لهم بالتوفيق»[٢] .

وقال ﷺ: «ثلاث لا يُغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله ، والنصح لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم»[٣] .

لقد أكرم الله حكام المرابطين ببطانة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر ، مرشدة للصواب ، ناصحة للراعي والرعية ، لا تخشى إلا الله .

رابعاً: التقويم: كان المسلمون الذين ارتبطوا بدولة المرابطين لا يجدون حرجاً ولا مانعاً في إيصال ما يرونه من النصح والإرشاد ، وتقويم الأخطاء التي يقع فيها الحكام أثناء اجتهاداتهم في شؤون الحياة .

وهذا المبدأ قد استقر في نفوس الصحابة منذ بداية دعوة الإسلام ، فهذا الصدّيق رضي الله عنه عندما تولى الخلافة ، قام في الصحابة خطيباً ، فقال: «أيها الناسُ فإني قد وليتُ عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب: بيان أن الدين النصيحة (رقم ٥٥) .
(٢) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب ص ٧٩ .
(٣) انظر: صحيح ابن ماجه ، للشيخ الألباني رحمه الله (٢/ ١٨٢ رقم ٢٤٨) .

الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، وقوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[١] .

وكان عمر رضي الله عنه لا يكتفي بإنصاف الناس من نفسه ، حتى ينصفهم من عُماله وولاته ، يسأل الرعية عمن أساء منهم ، وكان يقول: «إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم ، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي ، ليرفعها إليَّ حتى أقصه منه»[٢] .

إن علاقة الحاكم بالمحكوم في الإسلام غرضها الأول إعلاء كلمة الله ، وإعزاز دينه ، وتحقيق مصحلة الراعي والرعية .

ثانياً: فهي بعيدة كل البعد عمّن يُجعلون في مرتبة من لا يسألون فيها عما يفعلون ، وبين من يحقرون ويمتهنون حاكمهم دون وجه حق ، إن الحاكم في الإسلام له احترامه وحقوقه المستمدة من كتاب الله ِوسنة نبيهِ ﷺ ، وكذلك للمحكوم حقوقه المستمدة من أصل عقيدة الإسلام ، لذلك نجد النصح والنقد والتقويم بين الحاكم والمحكوم في تاريخ الإسلام على مر العصور والأزمان ، فإذا تأملت في الدول التي سارت على شرع المولىٰ ـ عز وجل ـ وجدت هذه المعالم واضحة .

وهذا يوسف بن تاشفين عندما دخل الأندلس للجهاد في سبيل الله ِأرسل إلى أهل المرية من ممالك الأندلس ، وذكر لهم أن جماعة أفتوه بجواز طلب العون اقتداءً بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فرد قاضي المرية «أبو عبد الله بن الفراء» على الأمير يوسف رداً فيه نقد وتقويم ونصح ، فلم يتعرض ذلك القاضي لعقوبة ، بل استمع إلى نصحه وإرشاده وما رآه حقاً ، وكان هذا القاضي من الدين والورع بمكان ، وهذا نص الجواب الذي أرسله إلى الأمير يوسف: «أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخيري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء

(١) البداية والنهاية (١/ ٣٠٦) إسناده صحيح .
(٢) الطبقات الكبرىٰ ، محمد بن سعد (٨/ ٢٢٢) .

بالعُدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها ، وكان صاحبُ رسول الله ﷺ وضجيعه في قبره ولا شكَّ في عدله ، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بضجيعه في قبره ، ولا من لا يشك في عدله ، فإن كان الفقهاء القضاة أنزلوك بمنزلة في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم ، فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم ، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد ، ولا في بيت مال المسلمين ، وحينئذٍ تستوجب ذلك ، والسلام»[1] .

ومحل الشاهد من هذه الرسالة هو النقد والتقويم المستمر في حياة الأمة بين علمائها وأمرائها دون ظلم وجور واعتداء من الطرفين على بعضهما بعض ، وبذلك تنطلق حضارة الأمة بآفاقها المتنوعة لتحدث تغييراً حضارياً في دنيا الناس ، مبنياً على النصح والتناصح ، والنقد والتقويم ، كما حدث في دولة المرابطين السنية .

■ ■ ■

---

(١) وفيات الأعيان (٧/ ١١٩) .

المبحث الثالث

موقف المرابطين من الخلافة العباسية

رأى المرابطون أن مبايعة الخليفة العباسي واجبة ، ولذلك أعطوا بيعتهم له لكونهم مالكيين سنيين ، فاعترفوا بالخلافة العباسية ، واتخذوا السواد شعاراً لهم ، ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، وبعد أن بسط الأمير يوسف سيادته على الأندلس طلب منه الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة ، ونزولاً عند رغبتهم اتصل بالخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله ٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م وأرسل إليه بعثة من عبد الله بن محمد بن العربي الإمام المعروف ، وزودها بهدية ثمينة ، وبكتاب يذكر فيه ما فتح الله على يده من البلاد في المغرب والأندلس ، وما أحرزه من نصر للمسلمين ، وعز للإسلام ، ويطلب في النهاية تقليداً بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها ، وأدت البعثة مهمتها بنجاح ، فتلطفت في القول ، وأحسنت الإبلاغ ، وعادت إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين الذي سر بذلكَ سروراً عظيماً[(١)] .

لقد كانت دولة المرابطين من الناحية العملية تستطيع أن تستغني عن الخلافة العباسية الضعيفة ، حيث إن السلطان لا يملك من السلطة إلا اسمه ، بل كان الأمير يوسف أكثر قوة منه يملك ويحكم ، ولكن حبهم لشريعة الإسلام وحرصهم على تنفيذ أحكام الله في أسوأ الظروف جعلهم يتقيدون بذلك ، لقد كانت توجيهات القرآن الكريم في وجوب لزوم الجماعة وذم التفرق واضحة المعالم بالنسبة إليهم ، ولقد كانت أحاديث رسول الله ﷺ في هذا المضمار هي التي أرشدتهم للانضمام للخلافة العباسية الضعيفة ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ

---

(١) دولة المرابطين ص ١٥٧ .

وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٧].

لقد ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، ونحو هذا من القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»[١].

والأحاديث في هذا الشأن كثيرة، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من فارق الجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية»[٣].

والمراد بميتة الجاهلية ـ وهي بكسر الميم حالة الموت ـ كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس لهم إمام مطاع، لأنه كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً، لقد ذهب علماء المرابطين إلى أن الجماعة المقصودة في الحديث جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، موافق للكتاب والسنة[٤].

هذا في نظري سبب دخول المرابطين تحت الخلافة العباسية، وأما ما ذكره المؤرخون أن من أسباب ذلك بعدهم عن العباسيين، ولذلك كانوا لا يخشونهم خاصة بعد أن تطرق إليهم الفساد، ودب الضعف فيهم، وهي لا تشكل أي خطر عليهم، فإني أستبعد ذلك، حيث إن سياسة قادة المرابطين تقاد بالشرع، وليس العكس، فهم إسلاميون سياسيون، وليسوا سياسيين إسلاميين في علاقاتهم الخارجية وشؤون دولتهم الداخلية وارتباطاتهم الدولية.

أولاً: الخطاب الذي رفعه الفقيه ابن العربي إلى الخليفة المستظهر بالله:

وقد التمس فيه تقليداً يخول يوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب والأندلس،

---

(١) جامع البيان (٤/ ٣٩).
(٢) البخاري، فتح الباري (١٣/ ٧).
(٣) انظر الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (٩٨٤).
(٤) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، د. جمال أحمد، ص ٩٧.

وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي:

أسعد اللهُ الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، وضاعف مددها، ولا أرىٰ المسلمين أمدها بغرائب مجد تبدعها، وفرائض الخلافة تشرعها، ومستأنف سعود تحرس جنابها، ولا زالت الأيام التي هي لأيامها غرر، وفي إكليل الخلافة درر، وللدهر تمائم، وفي المحل غمائم، والحمد للهِ الذي جعل المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية شرائط السواد، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب، كابراً عن كابر إلى أعلى خندف[1] فهي أعلاها عماداً وأوراها في مواقف الفضل زناداً، أرومة الرسالة وجرثومة الخلافة، إليها ينزع هامش، وعنها أخذت المكارم، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل، وعهد بتخليدها مخبراً عن الوحي في آله وعقبه النبي المرسل، قد آمنت بعصمة الله من الغير، وتحققت أواخرها على السنن أولها في هداية البشر بحسن السير، أوزعنا الله الشكر على ما منّ به من توقيفنا للتمسك بعراها الوثيقة والإهداء بهداها إلى واضح الطريقة فهم في الدين أمتنا ويوم الدين وسيلتنا، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي إلى مرضاته ومرضاتهم، إنه الموفق الهادي لا رب غيره.

وأن الخادم بالأدعية المنقلبة للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، ألهمه اللهُ منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الإمام العادل من أركان الديانة، ومما يتعين ما يتحمل من رعاية الأمانة.

هاجر إلى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغارب، معتقداً أن عمله أفضل القرب والرغائب، احتمل برد الهواء وظمأ الهواجر، واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر، ولم يثنه بحر يزخر، ولا قفر يذعر ويحتسب في ذلك أثره، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عثره، إلى أن انتهى هو وابنه إلى مدينة السلام لا زالت محروسة من غِيَر الأيام، عاصمة لمن التجأ إليها من مهتضمي الأنام.

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته، ويتقرب بخلوص علانيته وسريرته، ويسأل تشريف رقاعه بملاحظاتها، والنظر من انقطاعه، رغبة في

---

(١) خندف: هي امرأة إلياس بن معز أحد جدود العرب، وقد عرف بنوه بها، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٢٤٨.

الحظ الجسيم ، إلى أن وصل إلى المجلس السامي وخدم البساط العالي ، زاده الله تعظيماً وتشريفاً ، وأنهىٰ أغراض وفادته ومقاصد إدارته ، فنفذت الأوامر الشريفة ، أدام الله سموها وتشريفها واصطفى على الجميع ستر سلطانها ، وكنف إحسانها بقبول وسائله ، وإلحاح مطالبه ، وإضافة الإحسان عليه.

ولما بسط له في الأمل ، وكان هو وابنه في محل الكرامة والجذل ، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين ، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين رضوان الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد المتجهز إلى المسلمين باستئصال فئة العناد ، ولمة الفساد ، قام بدعوة الإمامة العباسية ، والناس أشياع وقد غلب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم ، ولا من شعبة الطاهر الصميم ، فنبه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية ، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عاماً إلى أن صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له طاعة ، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقة جهة الجماعة فيخطب الآن للخلافة ، بسط الله أنوارها ، وأعلى منارها على أكثر من ألفي وخمسمئة منبراً ، فإن طاعته ضاعفها الله من أول بلاد الإفرنج استأصل الله شأفتهم ، ودمر جملتهم إلى آخر بلاد السوس مما يلي بلاد غانة وهي بلاد معادن الذهب ، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر ، وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الإفرنج وغيرهم قد فللت غربهم ، وقللت حزبهم ، وألفت جموعه حربهم ، وهو مستمر على مجاهدتهم ، ومضايقتهم في كل أفق ، وعلى كل الطرق ، وقد استرجع كثيراً من المعاقل التي استباحها الروم من أمور المسلمين ، وسبت أهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه ، وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة ، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها ، واحترمت لحرمة المسلمين والإسلام وعز سلطانه ، وهذا دأبه وهجيراه ، الذي لا عمل له سواه.

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس وكان أمله مواصلة الخدمة والتشريف بإنهاء أعماله ، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله وباحتماله على حماية دين المسلمين وإقباله على مجاهدة المشركين ، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لإشفاته ، ولم يزل محافظاً على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة والاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله ، ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاضٍ من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم ، وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته ، ويؤيد

ما شرحته ، وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة ، وصل الله تشريفها وتعظيمها ، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم ، وحصاره لهم ، وقد تكرر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولي الأمر لا سيما هذا الأمير ، وقد حظي بفضائل منها الدين المتين ، والعدل المستبين ، وطاعة الإمام ، ابتدأ جهادهُ بالمحاربة على إظهار دعوته ، وجميع المسلمين على طاعته والارتباط بحماية ثغور المسلمين ، وهو ممن يقسم بالسوية ويعدل في الرعية ، ووالله ما في طاعته من سعتها دان منه ، ولا ناء عنه من البلاد ما يجري فيه أحد من المسلمين رسم مكس ، وسبل المسلمين آمنة ، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشرب ، مطرزة باسم الخلافة ، ضاعف الله تعظيمها وجلالها.

هذه حقيقة حاله ، والله يعلم أني ما أسهبت ولا لغوت ، بل لعلي قد أغفلت أو قصرت ، ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، والطول العميم في الأمر ، تشريفه بقبول تأميله ، وفي الإشارة إليه بما يقوي أمره ، ويشد أزره ، ويؤيد سلطانه ، ويعلي شأنه ، مجرياً له على السنن الكريم ، والطول العميم ، فوالله ما في الأمراء ولا في شيع النصحاء الأولياء من يجوز في الولاء وصحة الانتماء سبقه ، ولا يلبس من النصيحة من الخلافة المقدسة المبنية على طريق النبوية ، ما يصل يده ويقوي أيده ويشد عضده بمنه وطوله.

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان بإباحةِ الصدر لهما إلى الوطن ، فقد بعد عنه سبعة أعوام ، وأقاما في الجانب المخضب الظليل والكنف الرحب المأهول مدة عامين ، يستدران النعم الحافلة جملاً بعد جمل ، ويكرعان في المشارب الجمة العذبة عللاً بعد نهل ، فلله المهام الشريفة التي مسحت على شكيتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرامة ، فأزاحت عنهما جميع الشكايات والآلام.. لا أعدم الله مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين ، رضوان الله عليه وعلى آبائه المنتخبين مبرة تتضاعف بها المعالي وسعادة تحرز أسنى الآمال ، كفاية يستمد بها حرية الأيام والليالي ، فلذلك بيده وغيره معجزة ، وهو المنعم الجواد ، وكل خير من طوله مستفاد ، لا شريك له ، ولا توفيق إلا به والحمدُ للهِ حق حمده وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبده وعلى آله الطيبين ،

وعترته المنتخبين الراشدين ، آباء أمير المؤمنين رضوان الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين ، وحسبي الله ونعم الوكيل»[١].

إذا تأملنا في الرسالة المذكورة فإنها تدلنا على طابع رسائل الحكام في فترة المرابطين ، وتدلنا على حسن اختيار دولة المرابطين لممثليها عند الخلافة العباسية حيث إنها اختارت عالماً فقيهاً ذا دراية وخبرة كبيرة في مخاطبة الحكام والخلفاء ، وذلك نجحت تلك الوفادة ، وحققت أهدافها ، ورجعت تحمل معها ثمارها .

ثانياً: رد الخلافة العباسية على طلب دولة المرابطين:

لا شك أن الخلافة العباسية دخلها سرور عظيم ، وكسبت مكسباً معنوياً كبيراً ؛ ولذلك حرص الخليفة على أن يرد بنفسه على خطاب ابن تاشفين حيث كتب سبعة وثلاثين سطراً جاء فيها: «عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة ، ومواقف الإمامة المطهرة المكرمة ، زاد الله جلالها ، وسبوغ ظلالها ، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذي أضحى بحبل الإخلاص معتصماً ، ولشرطه ملتزماً ، وإلى أداء فروضه مسابقاً ، وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق من الولاء ، طويل نجاده ، إذ كان من غدا بالدين تمسكه ، وفي الزيادةِ عنه مسلكه ، حقيقاً بأن يستتب صلاح النظام على يده ، ويستشف من يومه حسن العقبى من يليه من الكفار وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار ، اتباعاً لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذا هو الواجب اعتماده الذي يقوم به الشرع ، وأن يؤلف شمل من في جملته من الأنجاد على الطاعة الإمامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى واستقراه قوله تعالى العمل به ، والبدار إلى التشبث بسببه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله الزلفىٰ ، ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفىٰ: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأن يختص رافعها وولده بالإرعاء الذي يضفو عليهما برده ، ويصفو لهما

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد العبادي ص ٤٧٦ .

ورده ، وليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر ، ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النشر ، فليقابل الأسنىٰ في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شاء الله»[١] .

لقد استطاعت دولة المرابطين أن تكون سنداً قوياً معنوياً للخلافة العباسية السنية وبذلك تكون نفذت أوامر ربها ، واسترشدت بتوجيهات نبيها ، فأصابها بركة ذلك من سمعتها العالمية في ديار المسلمين ، وأصبحت جزءاً من الخلافة العباسية التي اكتفت منها بالطاعة المعنوية ، وبذلك تحصل أمراء المرابطين من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم ، حيث إن المرابطين كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه لن يعتبر ملكهم مشروعاً إلا إذا باركته الإمامة القرشية العباسية .

واختلف المؤرخون في زمن اتصال المرابطين بالخلافة العباسية ؛ فابن الأثير يقول: إن أول اتصال بين المرابطين والعباسيين قد حدث عقب انتصار الزلاقة واستيلاء يوسف على الأندلس ، ويتفق مع ابن الأثير في هذا الرأي كل من ابن خلدون والقلقشندي والذهبي[٢] .

وأنا أميل إلى أن اتصال المرابطين كان قبل ذلك بكثير ، حيث إن واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين الفقيه «أبو عمران الفاسي القيرواني» من أتباع العباسية ، وكل الفقهاء الذين من مدرسته سنيون مالكيون ، وبذلك يكون زعماء المرابطين ساروا على نفس التعاليم السنية المالكية .

ونجد أن نقود المرابطين قد نقش عليها أسماء الخلفاء العباسيين منذ عام ٤٥٠ هـ أي منذ عهد الأمير أبي بكر بن عمران ، وظل اسم الخليفة العباسي يذكر مقروناً باسم أبي بكر بن عمران إلى أن توفي عام ٤٨٠ هـ وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسي ، وهذا يدل على صلة المرابطين بالعباسيين قبل الزلاقة ، ولا شك أن كتابة اسم الخليفة على عملة المرابطين تم بعد اتصالهم بالخليفة العباسي ، وبعد أن تلقوا منه إجابة بقبول طاعتهم وتقليداً بولايتهم[٣] .

■ ■ ■

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب ص ٤٧٨ .
(٢) تاريخ المغرب والأندلس ، د. حمدي عبد المنعم ص ٢٣٧ .
(٣) تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ .

المبحث الرابع

علاقة الأمير يوسف مع بني حماد

حرص الأمير يوسف على علاقة حسن الجوار مع دولة بني حماد الصنهاجية التي تقع في شرق دولة المرابطين ، وكان الحماديون يتحينون الفرصة لضم أطراف مملكة المرابطين ، وتم لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف الأندلس عام ٤٧٩ هـ ، فتحالفوا مع عرب بني هلال ، وغزوا المغرب الأوسط ، وعادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم ، وسكت يوسف عن الانتقام منهم وصالحهم ، ولم يرغب في الدخول في حرب معهم مع وجود أسبابها حقناً لدماء المسلمين ، وحفظاً لشوكتهم وقوتهم.

وعندما توفي الناصر بن علناس الحمادي في عام ٤٨١ هـ بعث الأمير يوسف بكتاب تعزية إلى والده وخليفته المنصور ؛ مما يدل على نيات يوسف السليمة تجاه بني حماد ، واستمرت حالة السلم بين الفريقين أكثر من عشر سنوات ، ثم نشب خلاف بين والي تلمسان المرابطي تاشفين بن تنغمير وحكام بني حماد ، فهاجم الأمير تاشفين بدون إذن من الأمير يوسف ، واشتد الصراع بين الطرفين ، وتدخل الأمير يوسف ، واستطاع بحكمته وسياسته أن يحقن دماء المسلمين ، وعزل حاكم تلمسان تاشفين وعين مكانه الأمير مزدلي ، وبعد أن ضم الأمير يوسف الأندلس أضحت مملكة بجاية ملاذاً للفارين من الأندلس ، ومع ذلك لم يحرك الأمير يوسف ساكناً تجاه عمل بني حماد ، وبقي الأمر كذلك حتى وفاته[1].

لقد كان للتوجه السني في دولة الحماديين أثر في تخفيف الصراع مع المرابطين ، كما أن لصلة القرابة الصنهاجية سبب آخر ، وإلا ما كانت تستطيع دولة الحماديين أن تقام جيوش المرابطين الفتية ، وفي نظري أن بقاء دولة الحماديين كانت من الأسباب

---

(١) دولة المرابطين ، ص ١٥٨.

التي أضعفت الدولة الزيرية الصنهاجية ، وسببت توتراً وارتباكاً لدولة المرابطين ، ولو ضمت لدولة المرابطين لكان أفيد للإسلام والمسلمين وللمغرب الأوسط والأقصى .

■ ■ ■

المبحث الخامس

علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف

مرت علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف بمراحل متعددة ، وهي : المسالمة ، التحالف ، القتال .

أولاً : مرحلة المسالمة :

لما وصلت دولة المرابطين ذروة قوتها ، وحطت بجيوشها وأساطيلها على سهل البحر المتوسط ارتعد ملوك الطوائف ، وأصابهم الخوفُ وركبهم الهم ، وأصبحوا بين قبضتين قويتين : بين النصارىٰ الذين يمكن مداراتهم بالأموال وبالتنازل عن بعض الحصون ، وبين المرابطين الذين عرفوا بجهادهم واستعلائهم على متاع الدنيا ، وحبهم للشهادة ورفع المظالم عن العباد ، وقد وصلهم ظلم ملوك الأندلس ، وقد اشتهر جنود المرابطين بصيت عظيم في تحقيق النصر في المعارك ، وبأس شديد في القتال مما أدخل الرعب في قلوب ملوك الطوائف ، فعقدوا اجتماعاً للتشاور في أمر الخطر القادم من الجنوب ، واستقر رأيهم أن يكتبوا للأمير يوسف يسألونه الإعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، وهذا نص الكتاب : «أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ، ولم تنسب إلى عجز ، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبنا ، فاختر لنفسك أكرم نسبك ، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة ، وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام»[١] .

وأرسلوا مع حامل الكتاب هدايا وتحفاً نفيسة .

وبعد أن تشاور الأمير يوسف مع مستشاريه رأى أن يسالمهم ، ويرضى بما قدموا

---

(١) دولة المرابطين ، ص ١٥٩ .

له من الطاعة ، ورد عليهم بهذا الكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم عليكم وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصين منا أكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق ولكم السلام».

وقد قرن الأمير يوسف الكتاب بالتحف وبدرق اللمط التي لا توجد إلا في ديار المرابطين ، ولما وصل كتابه إلى ملوك الطوائف فرحوا بذلك ، وتقوت نفوسهم على قتال الإسبان ، وأحب أهل الأندلس دولة المرابطين حكامهم ومحكوميهم[١] .

ثانياً: مرحلة التحالف:

وبعد سقوط طليطلة في يد الإسبان النصارىٰ عام ٤٧٨ هـ اضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا النجدة من الأمير يوسف الذي لبى نداءهم ، وكان سبباً في إيقاف زحف النصارىٰ على ممالك الأندلس ، وانتصر على ألفونسو في معركة الزلاقة المشهورة.

وبعد أن احتك الأمير يوسف بملوك الطوائف ، ووقف على خيانتهم وتحالفهم مع النصارىٰ واتصالهم بأعداء المسلمين انتقلت العلاقة من التحالف إلى العداوة.

ثالثاً: مرحلة العداوة:

حيث استعرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف انتهت بضم كافة ممالك الأندلس لدولة المرابطين إلا سرقسطة التي حكمها أحمد بن هود والذي كان كالشوكة في حلق النصارىٰ ، فقد قاومهم زمناً طويلاً ، وتراجع النصارىٰ أمام صمود بني هود البطولي ، وأظهر بنو هود مقدرة فائقة على قتال النصارىٰ مما جعل المرابطين يحترمونهم ، وتوطدت العلاقة الودية بين الأمير يوسف والأمير أحمد بن هود الذي كان وفياً في عهوده ومخلصاً في جهاده وحريصاً على أمته ، ورضي المرابطون ببقاء أحمد بن هود حاكماً تابعاً لهم ، وبذلك أصبحت الأندلس ولاية تابعة لدولة المرابطين ، وتوارت العناصر والزعامات الهزيلة ، وانهار سلطان العصبيات الطائفية[٢] .

■ ■ ■

---

(١) دولة المرابطين ، ص ١٦٠ .

(٢) انظر: الأندلس في عصر المرابطين ص ١١٢ .

المبحث السادس

علاقة المرابطين مع الإسبان

كانت علاقة المرابطين مع نصارىٰ الإسبان عدائية بصورة دائمة إذا لم يتخللها أي اتصال ودي خصوصاً في زمن الأمير يوسف بن تاشفين ، والاتصال الوحيد الذي حدث عن طريق الرسائل بين الأمير يوسف وألفونسو أثناء قيام هذا الأخير بحملته العدائية على مملكة المعتمد ، ووصوله إلى مضيق جبل طارق إذ أرسل إلى الأمير يوسف رسالة تفيض تهديداً ووعيداً ، ويذكر فيها حالة ملوك الطوائف . وكان جواب الأمير يوسف مختصراً : الجواب ما ترىٰ لا ما تسمع إن شاء الله تعالى وأردف :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم[1]

واستمر جهاد المرابطين للنصارىٰ الذين امتنعوا عن دخول الإسلام ، ورفضوا دفع الجزية وحملوا السيف ضد المسلمين ، أما الذين دفعوا الجزية وعاشوا داخل دولة المرابطين ، فكانت أحكام الإسلام في أهل الذمة تحفهم وتحفظ حقوقهم .

أولاً : عاملتهم دولة المرابطين معاملة أهل الذمة : فكانت عليهم واجبات في دولة المسلمين منها :

١ ـ التزام الجزية ، وإجراء أحكام أهل الذمة عليهم .

٢ ـ ترك ما فيه ضرر على المسلمين في أنفسهم وأموالهم كالتعدي على المسلمين بضرب أو نهب .

٣ ـ تحاشي ما فيه غضاضة على المسلمين ، كذكر الإسلام أو القرآن أو الرسول ﷺ بما لا ينبغي .

٤ ـ تجنب ما فيه إظهار منكر ، كشرب الخمر في الأماكن العامة للمسلمين .

---

(١) دولة المرابطين ، ص ٦٦ .

٥ ـ التميز عن المسلمين بعلامة خاصة يُعرفون بها ، كأن تكون في اللباس أو غيره[١].

ثانياً: حقوقهم في دولة المسلمين:

الكف عنهم والحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين[٢]. روىٰ نافع عن ابن عمر رضي اللهُ عنهما قال: «احفظوني في ذمتي»[٣] والأحكام فيما يتعلق بأهل الذمة كثيرة يرجع إليها في كتب الفقه المختصة.

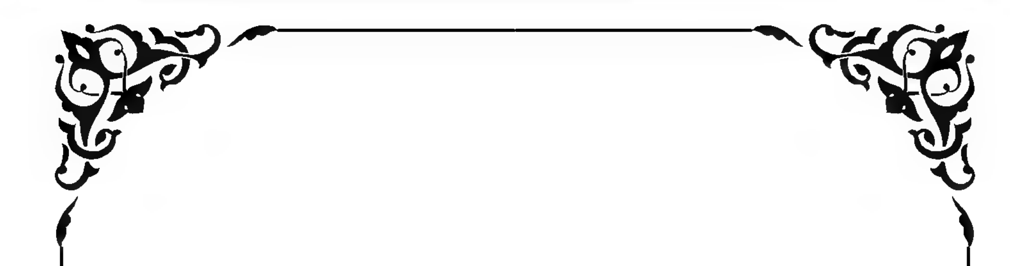
■ ■ ■

---

(١) انظر: المغني لابن قدامة ، (١٠/ ٦٠٦ ـ ٦١٨).

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٤٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه.



الفصل الرابع

سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة





المبحث الأول
نظم الحكم والإدارة في دولة المرابطين

أولاً: النظام الإداري:

١ ـ نظام إمارة المسلمين:

كان النظام السائد في إمارة المسلمين عند المرابطين يعتمد على اختيار الأمير وفق فقه الشورىٰ، وكانوا حريصين على تطبيق قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

وكان زعماء المرابطين يتشاورون في الوسائل التي تعين على تمكين الحق وإظهار الصواب، ونشر الصلاح بين العباد، واقتدوا بالقرآن الكريم في توجيهه للرسول ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«أي لا يصدنك ما كان منهم من خطأ رأيهم فيما بدا منهم يومٍ أحد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرىٰ، فإنما كان قد حصل فلتة تغفر وعثرةٌ تُقال، وشاورهم في أمر الحرب وأمثاله مما يجري فيه المشاورة»(١).

وقد دلت الآية على أن الشورىٰ قد أمر بها الرسول ﷺ في مهمات الأمة ومصالحها كالحرب ونحوها، وذلك في أمر التشريع، لأن أمر التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه، وهي توجيه لكل ولاة الأمر بعده أن يتشاوروا عن أمر الدين والدنيا، وما ليس فيه نص واضح، وهي تشمل هنا المشاورة في شؤون الأمة ومصالحها»(٢).

وكان مذهبهم في الشورىٰ مذهب المالكية وليس الخصوص، قال ابن خويز

(١) انظر تفسير أبي السعود (١/ ٥٥٨).
(٢) انظر تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٥).

منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما يشكل من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها»[١].

وأشار ابن العربي إلى وجوبها بأنها سبب الصواب، فقال: «والشورى مسبار العقل وسبب الصواب»، ويشير إلى أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة، وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب[٢].

ويذهب ابن عطية أيضاً إلى الوجوب، بل يؤكّد هذا الوجوب فيقول: «الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم فعزله واجب، وهذا ما لااختلاف فيه»[٣].

لقد كان نظام الشورى هو الأساس الذي اعتمده المرابطون في نظام حكمهم في بداية دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين، فقد كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيسهم الذي يتم تعيينه بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء، يشارك فيه الشيوخ المرابطيون وأعيانهم، وبهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين، الذي لم يحرص على استمرار الإمارة في أسرته، كما أنه لم يباشر أي ضغط على المرابطين في اختيار يحيى بن عمر ثم أبي بكر بن عمر، بل كانت وصيته الأخيرة للمرابطين قوله: «إياكم والمخالفة والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، ولقد ذهبت عنكم فانظروا من تقدمونه منكم، يقوم بأمركم، ويقود جيوشكم، ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيئكم، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم»[٤].

ومن هذه الوصية يتبين أن الزعيم الأول للمرابطين، لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى بعده وأن تنفصم عرا هذه الوحدة، وتنتهي هذه الدعوة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف أن يعين والياً للعهد يستخلفه بعد موته، وهكذا

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٠٥).
(٢) ابن العربي.
(٣) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٩٠.
(٤) المصدر السابق نفسه.

حدث انحراف في اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى النظام الوراثي منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه علياً والياً لولاية العهد ، وكان اجتهاد يوسف بن تاشفين في هذا التعديل الخطير يعتمد على رأيه أن اجتهاده ذلك يحفظ بلاده ودولته ، ويقضي على التنافس من أجل الحكم ، ورأى مصلحة بلاده وشعبه تقتضي اختيار ابنه .

كان من الطبيعي أن يمهد لفكرته في اختيار ولي العهد ، ولذلك شاور كل من يهمه الأمر حول هذا الاختيار ، ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م ، وناقشهم في المبررات التي دفعته إلى اختياره ، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه ، وعلى أثر ذلك قرئ مرسوم البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على هذا الاختيار ، والشروط الواجب توافرها فيه ، والمبادئ التي ينبغي أن يسير عليها ، وهذا المرسوم كتبه الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور ، وكان من أعلام البلاغة في ذلك العصر»[(١)] .

ونستخلص من نص الوثيقة التي ذكرتها فيما مضى: أن يوسف بن تاشفين اتبع مبدأين في اختياره ولده أبي الحسن علي ولياً لعهده :

أولهما : مبدأ الاختيار :

فقد أشارت الوثيقة التي ذكرتها إلى أن يوسف قد اختار من بين أولاده من هو أصلح لقيادة تلك الدولة المترامية الأطراف: «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً ، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً ، فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه لما كان إليه دعا»[(١)] .

ثانيهما : مبدأ الشورى :

فقد أخذ يوسف به ، وتمسك بما جاء في القرآن الكريم وما جاء على لسان نبيه ﷺ وما سار عليه الخلفاء الراشدون: «ودعاه لما كان إليه دعا ، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي»[(٢)] .

---

(١) انظر : الحلل الموشية ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٢) انظر : الحلل الموشية ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

كما أشار مرسوم البيعة إلى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها الأمير يوسف على ابنه ، وأهم تلك الشروط التمسك بالمبادئ التي دعا إليها الإمام عبد الله بن ياسين من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام ، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء ، والعمل على إقامة العدل بين الرعية ، وبالإضافة إلى بعض الأمور التي تتعلق بضمان أمن الدولة من وضع سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على أقطار معلومة ، يكون منها بإشبيلية سبعة آلاف فارس ، وبقرطبة ألف فارس ، وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة في الحصون المعاينة للعدو[(١)] .

وفي عام ٤٦٩ هـ دخل يوسف بن تاشفين قرطبة ، وجمع كبار رجال الدولة وأمراء لمتونة وأشياخ البلاد ، وقادة الرأي والفقهاء والعلماء والقضاة ، وتلا عليهم عقد البيعة لابنه علي الذي سبقت الإشارة إليه ، وضمنه الأسباب التي حملته على اختياره ولياً للعهد ، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين ، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء ، ثم وقَّعوا على البيعة ، وقام على إثر ذلك ، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد ، وترسم السياسة التي رسمها أبوه ، ثم أشهد الكتاب ووقع على الوثيقة[(١)] .

أ ـ وفاة الأمير يوسف :

ثم عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب ، حيث مرض مرضه الأخير الذي استمر زهاء عامين وشهرين ، وانتهى بوفاته عن مئة عام حافلة بالجهاد والدعوة وإعزاز دين الله ، كانت سنة وفاته ٥٠٠ هـ/ ٢ سبتمبر ١١٠٦ م ، وكان ولي العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه ، ونجح نجاحاً كبيراً في إدارة دفة الحكم لدولة المرابطين ، وكانت آخر وصية من يوسف لابنه في مستهل سنة ٥٠٠ هـ أوصى ولده وولي عهده بعده أبا الحسن علياً بثلاث وصايا أولها: «ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة» والثانية: «أن يهادن بني هود بالأندلس ، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم» والثالثة: «يقبل مِن مَن أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم»[(٢)] .

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٥١ .
(٢) ابن أبي زرع ، ص ١٠٣ .

ب ـ لقب أمير المسلمين :

كان زعماء المرابطين يطلقون على أنفسهم لقب الأمراء ، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمير على كل زعيم يتولى أمرهم ابتداءً من عهد أمير لمتونة أبي زكريا يحيى بن عمر اللمتوني ، فتلقب به يحيى كما تلقب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته ، وعندما تولى يوسف بن تاشفين زعامة المرابطين منذ ٤٦٤ هـ ظل يتقلب بالإمارة إلى سقوط أبي بكر بن عمر شهيداً في إحدى المعارك في سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧ م وعندئذٍ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين ، واجتمع إليه أشياخ قبيلته وعرضوا عليه أن يتلقب بأمير المؤمنين ، لأن حقه أكبر من أن يلقب بالأمير ؛ فرفض ذلك قائلاً : «حاشى أن أسمى بهذا الاسم إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»[١] ، ولكنهم قالوا له: أن لا بد له من اسم يمتاز به على سائر الأمراء ، واقترحوا عليه لقب أمير المسلمين وناصر الدين ، وأصبح العمل جارياً به عند سائر المرابطين ، وقد صدرت الكتب تحمل هذا اللقب بعد وفاة أبي بكر بن عمر على القول الأرجح ، وهذا نص الكتاب الذي أرسله إلى الولاة والقادة والعلماء: «بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ، ووفقهم لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر ، وميسر اليسر وواهب النصر ، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر ، وأنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله ، وأنه لما مَنّ الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة وهدانا وهداكم إلى شريعة محمد المصطفى نبيّنا الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة والتسليم ، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر القبائل ، وهو أمير المسلمين وناصر الدين ، فمن خطب الخطبة السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى ، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام»[٢] .

ويرى بعض المؤرخين من أمثال أبي زرع في «روض القرطاس» إلى أن الأمير

---

(١) دولة المرابطين ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

يوسف تلقب بأمير المسلمين في يوم الزلاقة ، ولم يكن يُدعى به من قبل ، وإن ملوك وأمراء الأندلس ، وكانوا ثلاثة عشر ملكاً ، بايعوه وسلموا عليه باسم أمير المسلمين وهو أول من سمي به من ملوك المغرب.

وقد تأثر شعب النيجر بشكل خاص بالمرابطين ، وأطلق على حكامه لقب أمير المسلمين ، وكانوا مالكيين في المذهب ، ويرجع ذلك إلى أن المرابطين هم الذي نشروا الإسلام في تلك الربوع النائية[١].

ج ـ نائب الأمير:

كان اتساع مملكة المرابطين سبباً في اتخاذ نواب ينوبون عنه ، حيث كان من المستحيل على أمير المسلمين أن يشرف وحده على تلك الدولة المترامية الأطراف ، فعين بعض النواب المقربين إليه ، فعين نائباً على شؤون الأندلس ونواباً على إقليم المغرب ، وكان يراعي في اختيار النائب أن يكون أقرب الناس إلى أمير المسلمين ، وأن يتوفر فيه حسن الإدارة والكفاية العسكرية ، ويعتبر ممثلاً أولياً لأمير المسلمين. ويستمد نائب الأمير سلطته منه شخصياً ، وكان ولي العهد نائباً للأمير ، وتولى نيابة الأندلس ، وكانت قرطبة هي المفضلة لإقامة ولي العهد لمكانتها السامية في نفوس الأندلسيين ، وأول نائب عينه الأمير يوسف على الأندلس القائد سير بن أبي بكر اللمتوني ، ثم بدَّل به ابن ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف ، وتلي نيابة الأندلس من حيث الأهمية نيابة فاس بالمغرب ، وكان النائب يستقر فيها عندما كان الأمير يوسف يعود إلى مراكش كي لا تحدث ازدواجية في السلطة[٢].

كانت مهمة النائب بالدرجة الأولى عسكرية ؛ إذ كان عليه أن يخوض الحروب ويقمع الفتن وحركات التمرد ، يعاونه قادة كبار من لمتونة[٣].

وكان من سياسة يوسف بن تاشفين مع نوابه مراقبتهم ، ولا يتيح لهم الاستقرار في مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستقلال ، فكان النواب دائماً معرضين للنقل من ولاية إلى أخرى.

---

(١) دولة المرابطين ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) حركات النظام السياسي والحربي عند المرابطين ، ص ٦٥.

(٣) مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١١ ، (٢/ ٢٧) ، تحت عنوان: الثغر الأعلى في عهد المرابطين ، د. حسين مؤنس.

وكان نائب أمير المسلمين يتخذ لنفسه كتّاباً يقومون عنه بالمكاتبات أو تسند إليهم بعض الأعمال الإدارية ، وممن ظهر من كتّاب نواب المسلمين علي بن يوسف في الأندلس الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال كاتب الأمير محمد بن الحاج ، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الأمير أبي بكر بن إبراهيم ، والزبير بن عمر اللمتوني كاتب تاشفين بن علي ، وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المسلمين صورة مصغرة من حياة هذا الأمير ، فكانوا يتخذون القصور والخدم والفقهاء والأعوان[١] .

د ـ تولية الولاة :

كان الأمير يوسف يعين الولاة على الأقاليم من لمتونة بشكل خاص وصنهاجة بشكل عام فولى أمراء قومه الأقاليم ، فقبل ضم الأندلس كان سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فازاز ، وولي عمر بن سليمان المسوفي في مدينة فاس وأحوازها ، وداود بن عائشة سجلماسة ودرعة ، وتميم بن يوسف مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتدلا وتامسنا ، وبعد ضم الأندلس عين يوسف بن تاشفين القائد سير بن أبي بكر حاكماً على الأندلس ، وفوض له تعيين والياً على كل بلد يفتحه ويكون من لمتونة .

وكان الولاة يخضعون مباشرة لنائب الأمير ، ومنح الأمير يوسف سلطات واسعة منها حق التصرف في عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين ، ومن يليهم من رجال السلطة ، وكذلك القيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم ، وكان الأمير يوسف وابنه من بعده يراقبون ولاتهم مراقبة شديدة ، ويجري تبديلهم وعزلهم إذا أساؤوا ، وكانوا يضعون مصالح الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة[٢] .

هـ ـ نظام الوزارة :

كان الأمير يوسف بعيداً كل البعد عن اتخاذ الألقاب والألفاظ والاهتمام بالمناصب ، فلم يتخذ وزراء بالمعنى المتعارف عليه ، ولم يمنح لقب وزير لأي شخص إلا أنه اتخذ لنفسه أعواناً يرجع إلى مشورتهم ، وكتاباً يشرفون على ديوان الرسائل أو الإنشاء ، وكان لديه هيئة استشارية تشترك فيها طائفة من الفقهاء ،

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص ٢٦٣ .
(٢) دولة المرابطين ، ص ١٦٥ .

والأعيان والكتاب يلازمونه في قصره وتنقلاته يبدون آرائهم في المشاكل المطروحة للبحث وتبقى الكلمة الفاصلة للأمير. أما في الأمور المهمة فكان يجمع زعماء المرابطين وأبناء عمومته من لمتونة للتداول واتخاذ الآراء ، وكان الاتصال بالأمير عن طريق الأعوان من السهولة بمكان ، وساعد على ذلك ما امتاز به الأمير من زهد في الدنيا وتطلع للآخرة وحب للبساطة ، وميل للتواضع.

ويذهب الأمير يوسف في مذهبه إلى أن الشورى معلمة وغير ملزمة ، وله في ذلك أدلة حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الشورى غير ملزمة ، مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ذهب الإمام الطبري إلى القول: «إذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك ، فامض لما أمرناك به ، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها ، وتوكل فيما تأتي من أمورك على ربك ، فثق به في كل ذلك وارض بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم»[١].

ويرى بعض العلماء أن رأي الشورى ـ ولو أنه غير ملزم ـ لكنه ينير الطريق أمام الحاكم[٢].

وأضاف العلامة أبو الأعلى المودودي في قضية الشورى هل هي معلمة أو ملزمة بعداً آخر ، وهو طبيعة المجتمع ، وما يسوده من أخلاق حيث يقول: «ما وجدت حكماً قاطعاً في هذا الباب في أحاديث الرسول ﷺ ، غير أن العلماء قد استنبطوا من عمل الصحابة في عهد الخلافة الراشدة أن رئيس الدولة هو المسؤول الحقيقي عن شؤون الدولة ، وعليه أن يسيرها بمشاورة أهل الحل والعقد ، ولكنه ليس مقيداً بأن يعمل بما يتفقون عليه كلهم أو أكثرهم من الآراء ، وبكلمة أخرى أنه يتمتع بحق الاعتراض على آرائهم.

ولكن هذا الرأي في صورته المجملة كثيراً ما يسبب سوء الفهم بالقياس إلى أحوالهم وأوساطهم الحاضرة ، ولا ينظرون إلى ذلك الزمان ولا الوسط الذي قد أخذنا هذا الرأي من أعمال الأمة فيه ، فما كان أهل الحل والعقد في عهد الخلافة الراشدة منقسمين إلى أحزاب متفرقة ، بل كانوا كلما دعوا للمشاورة يأتون المجلس

---

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣٤٦).

(٢) د. عبد الحميد متولي ، مبدأ الشورىٰ في الإسلام ص ٥٢.

بقلوب ملؤها الإخلاص. . . ثم يوازن الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة، ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل، ويبين رأيه، وكان هذا الرأي في عامة الأحوال رأياً يسلم به أعضاء المجلس كلهم. . . » ثم قال: «لم نعثر في تاريخ الخلافة الراشدة كله على مثال واحد نرى فيه أهل الحل والعقد قد تفرقت آرائهم حتى آل الأمر إلى عدد الأصوات»(١)، وهذا تفريق جميل بين المجتمع الإسلامي في حاضرنا وبين المجتمع الإسلامي القائم على أسس دولة القرآن التي تربى المسلم على خشية الله فلا ينحرف عن الجادة.

وربما كان يوسف بن تاشفين وأمراء المرابطين محقين في أخذهم بالرأي القائل بأن الشورى معلمة للأمير وليست ملزمة، ولهم أدلة كثيرة للتدليل على هذا المبدأ.

إلا أنني أرى الفائدة الكبرى والاستفادة العظمى في زمننا هذا الأخذ بالرأي القائل بأنها ملزمة، والقائلون بهذا القول لهم أدلتهم، منها:

أن الشورى ملزمة للحاكم طالما أنها مؤيدة بالشرع والعقل، فيقول ابن تيمية: «إذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب اتباعه عن كتاب أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك، وإن كان عظيماً في الدين والدنيا، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩](٢).

ولو كانت الشورى غير ملزمة، لكان بإمكان النبي ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها في غزوة أحد ـ لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة مستنداً إلى رؤياه. . . ولم يستشر أصحابه، أو لو أنه رجع عن الرأي عندما سنحت له فرصة الرجوع. . . ولكنه ـ وهو يقدر النتائج كلها ـ أنفذ الشورى. . . . ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى ـ بعد المعركة ـ تثبيتاً للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة»(٣)، وبهذه الأدلة التي ذكرتها نسترشد بهذا المبدأ في مسيرتنا الحركية والدعوية والتنظيمية التي تسعى لإعادة الإسلام كنظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾ [الإسراء: ٥١].

---

(١) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٢) السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص ١٨١ ـ ١٨٢.
(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، (١/ ٥٣٢).

و ـ ديوان الرسائل والمكتبات عند المرابطين:

كان المرابطون يهتمون بديوان الإنشاء، ولذلك حرصوا على أن يتولاه رجال من أشهر الأدباء في تلك الفترة جلهم أندلسيون، واهتم الأمير يوسف بجلب الأدباء والبلغاء والفقهاء لهذه الأعمال، واستفاد من كتاب ملوك الطوائف، وتوسع ديوان الرسائل مع امتداد رقعة دولة المرابطين، وانتفع المرابطون انتفاعاً عظيماً بخبرة الأندلسيين أصحاب الحضارة والأدب، وأقبل المغاربة على ثقافة الأندلس ينهلون منها في تواضع المستفيدين، وحدث تنافس بين الكتاب، وحاولوا أن يثبتوا جدارتهم في هذا الفن، وأصبح ديوان الأمير يوسف متألقاً بالحضارة.

وقام ابنه علي بتطوير ديوان الرسائل، وجلب له كتاباً في غاية البلاغة ودقة الأسلوب وجمال التعبير، ومما دفع الأمير علياً على تطوير دولته تربيته الرفيعة وذكاؤه الوقاد واهتمامه بكتاب ملوك الطوائف وتقريبهم إليه في زمانه، فشعر بحاجته إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة، ومن أشهر أولئك الكتاب والأدباء والبلغاء، محمد بن سليمان الكلاعي المتوفى عام ٥٠٨ هـ، وصفه ابن خاقان في «القلائد» بقوله: «غرة في جبين الملك، ودرة لا تصلح إلا لذلك السلك، باهت به الأيام، وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور، وانسربت إليه الأماني انسراب الماء إلى الغور»(١).

ويقول عنه ابن الصيرفي: «الوزير الكاتب الناظم الناشر، القائم بعمود الكتابة والحامل للواء البلاغة، والسابق الذي لا يشق غباره، ولا تخمد أبداً أنواره، اجتمع له براعة النشر، وجزالة النظم، رقيق النسيج، حصيف المتن»(٢).

وكذلك انضم إلى البلاط المرابطي أبو محمد عبد المجيد بن عبد عبدون المتوفى ٥٢٠ هـ، وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري المتوفى في عام ٥١٥ هـ، وابن أبي الخصال الغافقي المتوفى ٥٤٠ هـ، وأبو زكريا بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المتوفى ٥٧٠ هـ في غرناطة، وأحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي الذي نكبه عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، وغير هؤلاء كثير من الأدباء والكتاب الذي علموا في خدمة دولة المرابطين زمن أمير

---

(١) قلائد العقبان، ص ١٠٤.

(٢) المركش، عن ابن الصيرفي في المعجب ص ١٦٤.

المسلمين علي بن يوسف[١]. ولا ننسى أن الوزارة في زمن علي بن يوسف تطورت تطوراً ملحوظاً، وأصبح الوزير بمنزلة السمع والبصر واللسان والقلب بالنسبة لأمير المسلمين، وفي الأمثال: نعم الظهير الوزير.

كان الحكم في دولة المرابطين قائم على أسس عسكرية، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأعلى، ومعاونوه هم قواد الجيش، لهذا كان من الطبيعي أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك، ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضاً كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها؛ فقد وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء:

١ ـ وزراء عسكريون من قادة الجيش، وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافهم دولة المرابطين.

٢ ـ وزراء كتاب وهم من الفقهاء.

وكان المغاربة يطلقون كلمة «فقيه» على العالم بالأحكام الشرعية، إلا أن أهل المشرق أصبح ذلك المصطلح عندهم يطلق على دارس الفقه عموماً من الطلبة.

وتوسع الأمير علي بن يوسف في اتخاذ الوزراء والمستشارين من الفقهاء وكبار العلماء، وكان من أخص وزرائه الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي شارك في جميع العلوم، ونظم الشعر، وكتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ، وهذا الفقيه هو الذي أشار على سلطان المرابطين علي بن يوسف بقتل محمد بن تومرت زعيم دولة الموحدين فيما بعد، حيث تفرس فيه حدة نفسه، وذكاء خاطره، واتساع عبارته، فأشار على أمير المسلمين بقتله أو اعتقاله، قبل أن يستفحل خطره، لأنه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، غير أن علي بن يوسف توقف في قتله واعتقاله، وأبى ذلك عليه دينه، لعدم ثبوت التهمة عليه، وقد صح ما تفرسه مالك بن وهيب، إذ أنه على يد المدعي المهدية الكذاب ابن تومرت قامت دولة الموحدين التي قضت على دولة المرابطين في المغرب والأندلس[٢].

■ ■ ■

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حمدي عبد المنعم، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٢) انظر تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حمدي عبد المنعم ص ٣٦٨.

المبحث الثاني
النظام القضائي في دولة المرابطين

تمهيد:

للقضاء مكانة عظيمة ومنزلة شريفة، وفاصل بين الناس في خصوماتهم وحاسم للتداعي وقاطع للتنازع، وكان العرب في جاهليتهم يعرفون منزلة القضاء ويختارون له أهله ويطلقون عليهم الحكام، واهتم المسلمون بهذا الأمر ومارسه رسول الله ﷺ في زمانه، وسار الخلفاء من بعده على دربه، وأصبح القضاء بعد رسول الله ﷺ في عداد الوظائف الداخلة تحت الخلافة، وتطوَّر القضاء مع تطوُّر دولة الإسلام؛ فكان الخليفة يتخذ قاضياً في حاضرة الخلافة وقضاة آخرين في الولايات والأمصار.

كان القضاء في الأمصار أول الأمر مضافاً إلى الولاة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب فجعله مستقلاً عن نظر الوالي، عين له من ينفرد بالنظر فيه، ومع استقلال القضاء عن نظر الوالي، فإن تقليد القضاء في الولايات كان يتم في الغالب عن طريق الولاة بتفويض الخليفة لهم، أما في العاصمة فكان الخليفة هو الذي يعين القاضي إلى أن جاء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي انحرف بالقضاء نحو مركزية الدولة، وأخضع المؤسسات القضائية لرقابته المستمرة، وجعل تقليد القضاة على قضاء الأمصار من قبله، وتابعه على ذلك خلفاء بني العباس، إلى أن استحدث منصب قاضي القضاة في فترة تالية، فتولى قاضي القضاة النظر في مؤهلات المرشحين للقضاء ومراقبة الكفاءة المهنية للقضاة في عاصمة الخلافة وخارجها[1].
واهتمت كل الدول التابعة للخلافة بتطوير نظامها القضائي وخصوصاً المرابطين الذين حرصوا على إقامة العدل ونشره في ربوع بلادهم، فكان لمنصب القضاة أهمية كبيرة، ولذلك حرص أمراء المرابطين على تعيين القضاة ممن برزوا في العلم والفقه

---

(١) تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، د. محمد بطاينة، ص ٧٩.

وتميزوا بالمقدرة على تولي هذه المناصب في دولتهم دون الاستناد على العصبية القبلية ، حتى أصبح أكثر القضاة من غير قبيلة صنهاجة ، وهي سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام.

وقد منحهم رتبة عالية في الدولة حتى كثرت أموالهم ، واتسعت مكاسبهم ، وكانوا يستمدّون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها ، يحكمون وفق المذهب المالكي ويقوم بتنفيذ الولاة والحكام المحليين ، وقد شارك القضاة في معارك الجهاد في الأندلس ، واستشهد بعضهم في معركة الزلاقة منهم القاضي عبد الملك المصمودي قاضي مراكش(١).

وكانت السلطة القضائية تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية ، وكان تعيين القاضي يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين ، وكذلك عزله ، وكان لأهل البلدان التابعة لدولة المرابطين حق الترشيح لمن يرونه مناسباً لمنصب القضاء في بلدهم.

وإذا أراد أمير المسلمين عزل قاضٍ في بلد معين ، فعليه أن يوضح الأسباب لأهل ذلك البلد.

أ ـ منصب قاضي الجماعة في الأندلس:

يعتبر منصب قاضي الجماعة من أرفع المناصب القضائية في الأندلس ، كان صاحبه يشرف على القضاء في جميع أنحاء الأندلس ، ومن المرجح أن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه إلا كل من يثبت كفاءة عالية في أمور القضاء ، وكان قاضي الجماعة في الأندلس يتمتع بسلطات واسعة ، ومنهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز التغلبي الذي وجهه الأمير يوسف بن تاشفين إلى اتباع الحق في الأحكام دون أن يعرف في الله لومة لائم ، فكتب له: «ولا تُبالِ برغم راغم وتشفق من ملامة لائم ، فآس بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوي في حيفك ، ولا ييأس ضعيف في عدلك ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه...»(٢).

ومن أشهر من تولى منصب قضاء الجماعة في الأندلس في عصر علي بن يوسف أبي الوليد محمد بن محمد بن أحمد بن رشد المالكي ، وأبي عبد الله محمد بن

---

(١) دولة المرابطين ، ص ١٦٦.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٢/١٠٦) ابن بسام الشنتريني.

أحمد بن خلف إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج[١].

ب ـ قاضي الجماعة في المغرب:

كانت رئاسة القضاء في المغرب في زمن دولة المرابطين تسند إلى قاضي الجماعة بمراكش، الذي كان يُسمى بقاضي قضاة المغرب أو بقاضي الحضرة، وكان على من يتولى هذا المنصب أن يكون من المقربين إلى قلب أمير المسلمين يستفتيه في كل ما يعرض له من شؤون، ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقون، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله.

ولقد قطع المرابطون في تنظيم القضاء شوطاً أبعد من مجرد تقسيم قضاء الأندلس والمغرب، وجعل زعامة القضاء في كل منهما لقاضي القضاة، أحدهما يختص بالأندلس والآخر بالمغرب، بل إن المرابطين اتخذوا فقيهاً له السلطة العليا على قضاء المغرب والأندلس على السواء، ومن المرجح أن زعامة القضاء في العدوتين كانت أحياناً من نصيب قاضي مراكش أو قاضي سبتة أو طنجة، وأحياناً أخرى لقاضي الجماعة بقرطبة[٢].

ج ـ مجلس الشورى القضائي:

كان للقاضي في صحبة مجموعة من فقهاء البلد التي تولى قضاءها ليشاورهم قبل أن يصدر الأحكام، وكان قاضي المدينة يتولى اختيار هؤلاء الفقهاء من أهل مدينته، ممن يعرفون بالورع والتقوى والتبحر في الفقه والعلوم الدينية، ويحدد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء المشاورين بأربعة: اثنين يشتركان في مجلس القاضي، واثنين يقعدان في المسجد الجامع[٣].

د ـ القضاء العسكري:

عرفت دولة المرابطين ما يمكن تسميته بالقضاء العسكري، وكان يمارسه قضاة مختصون بحل مشاكل الجند في مواضع خاصة بالمعسكرات، كما كانوا يشتركون

---

(١) تاريخ المرابطين، ص ٢٨٧.
(٢) تاريخ المغرب، والأندلس، ص ٢٨٨.
(٣) المصدر السابق ص ٢٨٩.

في القتال لحث الجند وتشجيعهم على القتال ، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند ، وممن ذكرهم التاريخ فيمن تولوا منصب القضاء العسكري: عبد الرحيم بن إسماعيل الذي عين قاضياً في معسكر أمير المسلمين علي بن يوسف بمدينة سلا[١] .

هـ ـ قضاء الذميين في دولة المرابطين:

أما بالنسبة لأهل الذمة في الأندلس ، فقد كان رجال الدين النصارى واليهود يتولون القضاء لهم ، دون أن يتدخل فيهم قضاء المسلمين ، أجاز الفقهاء تقليد الذمي القضاء لأهل الذمة ، وفي الأندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضياً يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم ، أما إذا كانت الخصومة بين ذمي ومسلم فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهما ، وفي هذا الصدد يشير «أشباخ» إلى أن النصارى كانوا «يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم»[٢] .

و ـ شجون وأحزان وآلام وآمال:

إن السعي لإقامة دولة الإسلام في أي بقعة من بقاع العالم يحتاج للطلائع التي تسعى لهذا الهدف العظيم ؛ من الأخذ بأسباب التمكين في كافة الأصعدة ومختلف الميادين.

وإذا نظرنا في النظم القضائية التي لا بد منها في أي دولة دينية أو علمانية ، وسألنا أنفسنا: ما حظ الحركات الإسلامية من هذا الفقه؟ وما هي الخطط التي وضعت لإيجاد هذه النظم القضائية الشرعية التي لا بد منها في أسلمة الدولة؟ وما هي الوسائل التي اتخذتها؟ وهل بدأنا في إيجاد الكوادر التي تجمع فقه الشريعة والنظم المعاصرة بحيث تستطيع أن تقدم نموذجاً حياً لقدرة الإسلام على مواكبة التطور والتقدم بمفهومه الصحيح المنبثق من عقيدة الأمة ودينها وشريعتها ؛ لكانت الإجابة محزنة.

إن السعي لتحقيق هذه الجزئية من الجزئيات المطلوبة في إقامة الدول يحتاج من

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٩١ .

(٢) انظر: تاريخ الأندلس ، لأشباخ ص ٨٢ .

العاملين في هذه الميادين إلى جهد مضنٍ وسهر متواصل، وتصميم أكيد على الوصول للهدف، وسعي دؤوب ممزوج بالدموع والعرق والدماء، وهمم لا تعرف الوهن، وعزائم تنخر في هياكل الجاهلية ليدخل من خلال تلك الثقوب نور الإيمان وهدي القرآن؛ لينتشر رويداً رويداً زاحفاً على الظلام والضلال والظلم والكفران، وإعادة دولة الإسلام في أثوابها الزاهية، وتيجانها الناصعة، وعدلها المنتظر، وآفاقها الواسعة، ووظائفها المتعددة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر المعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المستضعفين ومقارعة الظالمين، وفتح أبواب الجهاد وشراء سلعة الجنة بالمهج والأنفس والأرواح ثمناً لها. إن أصحاب تلك الأهداف السامية والنبيلة لا بد لهم من أن يتميزوا في حياتهم عن غيرهم؛ فإن الآمال العظيمة لا يصل إليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت من مرادها الأجسام

إن تحديات الحركات الإسلامية كثيرة جداً، فعليها أن تستعين بخالقها على تحقيق أهدافها، وعليها أن تكثر العمل، وتقلل من الجدل، وتهتم بالرواحل وتترك المثبطين، وتصعد بأبنائها على كافة المجالات والأصعدة، وتهتم بتربيتهم وتزكيتهم وتفجير طاقاتهم وتوجيهها حتى تسد الثغرات المتعددة، وعليها أن تحرص على أوقات أبنائها، وتشغلهم بالنافع المفيد للأمة ولهم.

إن تحريك الشعوب الإسلامية نحو التغيير لإقامة شرع الله مقيد بسنن الله في المجتمعات والدول والأشخاص، وسنن الله لا تجامل ولا ترحم ولا تتغير ولا تتبدل، فعلينا أن نفقه سنن الله لنحسن التعامل معها، ونأخذ بها في خطواتنا لإقامة دولة الإسلام، ونشر شريعة الرحمن.

■ ■ ■

المبحث الثالث

النظم العسكرية

أولاً: صفات المجاهدين في سبيل الله:

تمهيد:

إن الجهاد في سبيل الله عظيم الكلفة والمشقة على النفس البشرية قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولذلك لا يستطيع أن يقوم بالجهاد الإسلامي ـ على أصوله الصحيحة ـ إلا من رزقه الله صفات تجعله أهلاً للقيام بهذه العبادة الكريمة.

والأصل العظيم الذي تنبثق منه كل صفات المجاهدين ـ سواء كانوا قادة أو جنوداً، أو صفات الجيش كله ـ هو الإيمان بالله العلي العظيم الذي بقوته تقوى صفات المجاهدين، وبضعفه تضعف تلك الصفات الرفيعة في القادة والأفراد والجيش على حد سواء، ولذا قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوىٰ، وكان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بسبب تفاضلهم في الإيمان والتقوى»[١].

والذي يكون إيمانه أكمل يحقق عبوديته لله أكثر، فيكون وقته كله عبادة وصبراً وعلماً وتذكراً وتقوى وإحساناً وإخلاصاً واعتزازاً بدينه[٢]. قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا

---

(١) الفتاوىٰ (١١/ ١٧٥).

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري (٢/ ٥).

يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ٩ ـ ١٢].

إن زعماء المرابطين في تاريخهم المجيد حرصوا على تربية شعبهم المجاهد على صفات المجاهدين، سواء على مستوىٰ الأفراد أو القادة أو الجيش أو الشعب.

أ ـ صفات القائد العسكري عند المرابطين:

إذا نظرنا في سيرة قادة المجاهدين في دولة المرابطين نجد أن خيار قادتهم تميزوا بصفات أهَّلتهم لقيادة الجيوش وتحقيق النصر وإلحاق الهزائم بالأعداء، ومن أشهر أولئك القادة الذين تميزوا بصفاتهم القيادية أبو بكر بن عمر، ويحيىٰ بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبو محمد مزدلي، وسير بن أبي بكر، وأبو عبد الله محمد ابن الحاج، وداود بن عائشة، وعبد الله بن فاطمة، وغيرهم كثير.

نلاحظ أنهم تميزوا بأمور أهمها:

١ ـ الإكثار من طاعة الله وإعداد النفس لتحمل المشاق:

حيث تربوا على حسن صلتهم بربهم الذي يمدهم بالعون بقدر ما يحققون له العبودية، فكان لهم حظ من القرآن والصيام والقيام وحسن الصلة والإنفاق في سبيل الله، وكان لتربية عبد الله بن ياسين لهم في رباطه أثر كبير لازمهم على طول حياتهم، فكان في مرحلة التكوين يربي أتباعه على الذكر والتوكل على الله والصبر على الأذية في سبيل الله، وكان يعلمهم أساليب إتعاب النفس في ذات الله حتى تستطيع أن تحتمل المشاق في سبيله، وكان منهجه في ترسيخ هذه المعاني في نفوس أتباعه القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ١٠].

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في «ظلاله» في ترسيخ هذه المعاني في نفوس الدعاة: «إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيشُ صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل العبء فماله والنوم، وماله والراحة، وماله

والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ ، والمتاع المريح ، ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمر وقدره فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام : «مضى عهد النوم يا خديجة» أجل مضى عهد النوم منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق»[(١)] .

لقد كان قادة المرابطين في تربيتهم الرشيدة جادين بعيدين عن الهزل واللهو واللعب ، وتميز فيهم أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين ، فكان لهما السبق على أتباعهم في كل مجال من المجالات التي تعتبر من ضرورات القائد الناجح .

٢ ـ القدوة الحسنة للجنود :

حيث نجد أن قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم فقتل عبد الله بن ياسين في ساحات الوغىٰ ، ويحيى بن عمر كذلك ، وأبو بكر بن عمر في جهاده في الصحراء الكبرىٰ . كما كان يوسف بن تاشفين يقود الحرس الخاص الذي أعده لانتزاع النصر من الأعداء في الساعات الحرجة ، ويندفع بجواده في ميادين الجهاد عندما يشتد وطيس المعركة . وضربوا أمثلة رائعة في إيمانهم وعملهم الصالح وشجاعتهم وكرمهم الفياض وحزمهم وإيثارهم وإقدامهم .

٣ ـ حرصوا على تزكية وتطهير جنودهم والارتقاء بهم في طاعة الله :

إن بُعد الجنود عن التعليم والتربية والتطهير يكون سبباً في قسوة قلوبهم وانغماسهم في الآثام والذنوب ، ومن ثم الهزيمة .

قال تعالى :

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة : ٢] .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ : «ويزكيهم ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم : يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم ، يطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم ، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم ، ويطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ،

---

(١) انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٤٤) .

وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية، وما تلوّث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم»[١].

٤ ـ الخبرة بأمور الحروب والقوة فيها:

وظهر ذلك في قادة المرابطين في جهادهم من أجل توحيد المغرب الأقصى كله والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وما خاضوه من حروب ومعارك ظهرت فيها خبرتهم الحربية ومقدرتهم على تنفيذ أساليب الكر والفر، وظهرت خبرة القائد الأعلى يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة التي أكسبت أركان الحرب خبرات عميقة ساعدتهم في جهادهم من أجل ضم الأندلس لدولتهم الفتية تحت راية الإسلام بمنهجه السني القويم، والقضاء على الخطر النصراني في الأندلس.

وفي القرآن الكريم نجد إشارة لطيفة تبين صفات القائد العسكرية وهما: العلم والقوة؛ كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد ظهر علمه وخبرته في اختبار جنده ومعرفة الصالح منهم للجهاد وغير الصالح، وبرزت قوته في صموده ومصابرته ونجاحه في جهاده.

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ:

«وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة وعدم التفاته للتجربة الأولىٰ، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٠٧).

المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الصادقين المؤمنين»[١].

٥ ـ البعد عن طلب القيادة وابتغاء الرئاسة:

وظهر لي هذا المعنى في شخصية الأمير المجاهد الزاهد أبي بكر بن عمر، فعندما لمس من ابن عمه مقدرة على القيادة أسند الأمر إليه، ودخل متوغلاً في الصحراء الكبرىٰ من أجل الدعوة والجهاد حتى أكرمه الله بالشهادة، وكان أمراء المرابطين يرون الإمارة قربة وعبادة يتقربون بها إلى الله لنصر دينه وتحقيق مصالح عباده، وليست مغنماً من جاه أو منصب أو مال.

٦ ـ إسناد الأمور إلى أهلها:

وهذه الصفة ظهرت لي في سيرة يوسف بن تاشفين في تعيينه للولاة والقادة والفقهاء، وما كان ليمتنع عن عزل من قصر في عمله، ويعين من هو أفضل منه.

٧ ـ تربية الجندي على التسليم المطلق لله لا لشخص القائد:

وكان أمراء المرابطين يضربون أروع الأمثلة في زرع هذه المعاني في نفوس المجاهدين، فهذا أمير المسلمين رفع يده نحو السماء مناجياً المولىٰ عز وجل: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[٢].

وفي وسط معركة الزلاقة وهو يبث الحماس في نفوس المجاهدين: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»[٣]. وهكذا القائد المسلم هو الذي يربي جنوده بالمواقف على تحقيق العبودية الخالصة لله.

ولهذا لما قتل عبد الله بن ياسين لم يتأثر المرابطون، وقتل يحيى بن عمر ومن بعده أبو بكر بن عمر، وما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وهذا يدل على حسن تربيتهم للمجاهدين وتعلقهم وتسليمهم لله لا للأشخاص، أما تربية اليوم في جيوش

---

(١) دولة المرابطين ص ٧٥.
(٢) دولة المرابطين ص ٩٠.
(٣) المرجع السابق نفسه.

المسلمين شبيهة بالفرعونية ، حيث يربي القائد جنوده على طاعته المطلقة في الخير والشر كما يربيهم على الخضوعِ الكامل لشخصه.

ووصف الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ هذه التربية فقال: «إن الذي يدرس المجتمعات الفاسدة ويتغلغل في بحث عللها ، والذي يتتبع أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة ، ويستقصي وسائلهم الملتوية في تسخير الجماهير للوصول إلى القمة ، والذي يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل فجأة لأنهم أصيبوا برجال يحبون الظهور ، فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن طريقهم وحدهم ، أما إذا جاء غيرهم فهو البلاء المبين»(١).

وقال سعد جمعة: «والفرق بين الإسلام والنظم المعاصرة أن الولاء في الإسلام هو للهِ وحده ، بينما الولاء في النظم الأخرى المنعوتة بالتقدمية ، هو للطاغية ، أو الدكتاتور ، أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدي أو الإيديولوجيَّة المتسلطة ، ولذا فهو ولاء إكراه وضغط فكري وقهر بوليسي ، لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوىٰ والإخوة»(٢).

وكم نحن محتاجون إلى منهج الإسلام الصحيح في غرس الربانية والتسليم المطلق لله لا للأشخاص.

٨ ـ الحرص على قاعدة الشورىٰ:

كان لأمير المسلمين في دولة المرابطين ونائبه مجلسٌ حربيٌّ يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية ، وتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى ، والتشاور في أمور الجهاد والبلاد والعباد ، واتصف قادة المرابطين بحرصهم على إقامة مبدأ الشورىٰ فيما بينهم.

فكان قرار الجهاد ضد النصارىٰ في الأندلس بعد شورىٰ شاركَ فيها الشيوخ والقادة والعلماء والفقهاء ، وكان قرار ضم ممالك الطوائف بعد شورىٰ كذلك ، واشتهر الأمير يوسف بن تاشفين بمشاورة ذي الرأي من علماء الشريعة الإسلامية وذوي الخبرة فيما يعرض له من أمور.

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي ص ٣٥.
(٢) الله أو الدمار ، ص ١٨١.

٩ ـ الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإداري وقوة التأثير:

ظهرت هذه الصفات في شخصية يوسف بن تاشفين الذي أظهر مهارة إدارية عندما فتح مدينة سجلماسة، واستطاع أن يحقق أهداف المرابطين بعد جهاد دام ربع قرن، جنى بعدها المرابطون ثمرة أتعابهم، وبسطوا سيطرتهم على المغرب الأقصى، ونشروا الأمن في ربوعه، واستطاع يوسف بحسن سيرته وعدله أن يؤثر بقوة الحق الذي التزمه على قبائل المصامدة وزناتة وغمارة وغيرها.

١٠ ـ الشجاعة والكرم:

وظهرت هاتان الصفتان في قادة المرابطين في جهادهم في الأندلس، فبعد معركة الزلاقة عفَّ الأمير يوسف وجنوده عن الغنائم، وتركوها لملوك الطوائف مع كونهم بذلوا من الدماء والنفوس في تلك المعركة ما لا يعلمه إلا الله، فدل فعلهم ذلك على شجاعتهم وكرمهم.

١١ ـ التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت:

وظهرت لي هذه الصفة عندما تدخل الحماديون من الحدود الشرقية، واعتدوا على دولة المرابطين من أطرافها، جرد المرابطون لهم جيشاً وردوهم إلى حدودهم وعقدوا معاهدة أمن وسلام، وعندما أخطأ والي تلمسان المرابطي وشن هجوماً على بني حماد دون إذن من القيادة العليا عزل ذلك القائد وعين مكانه من هو أفضل منه وتراضوا مع بني حماد، وعندما تأكد الأمير يوسف من خيانة ملوك الطوائف أسر بعضهم وقتل بعضهم، وضرب الحصار على ممالكهم حتى أسقطها جميعاً، وساعده على تحقيق تلك الأهداف قادة عظام اتصفوا بصفات عظيمة انعكست على جنود المرابطين.

هذه بعض الصفات التي حرص المرابطون على غرسها في قياداتهم وزعمائهم، فكانت خيراً وبركة على تلك الدولة السنية الفتية.

ب ـ المنهج التربوي لجيش المرابطين:

اهتم المرابطون بتربية جنودهم تربية جهادية بجميع جوانبها الروحية والنفسية والفكرية والجسدية، وقد تميزت تربيتهم الروحية بربط المجاهد بالجنة والاشتياق إليها، فشهدت المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم على حبهم للموت كحب خصومهم النصارىٰ للحياة.

وغرس العلماء المرابطون في نفوس جنودهم عقيدة الإيمان بالقدر ، فأصبح الفارس منهم ينطلق كالسهم في صفوف الأعداء يضرب ذات اليمين وذات الشمال لا يخشىٰ إلا الله تعالى مؤمناً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ؛ التي تدل على تعميق هذا المفهوم في نفوس المجاهدين .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

وقال تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١] .

وقال ﷺ : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد . . »[(١)] .

وكانت وسائل المرابطين في تقوية الجانب الروحي في جنودهم وشعبهم المقاتل تعتمد على إحياء شعيرة الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وتلاوة القرآن والذكر ، وأما وسائلهم في التربية النفسية فتعتمد على جهود العلماء والفقهاء الذين يقومون بتزكيتهم وإيضاح حقيقة النفس والكون والحياة وغرض الإنسان وهدفه في هذه الدنيا .

وكانوا يرون أن أهم أسباب تربية النفوس أن تستعد دائماً للجهاد ، وأن تتربى على خشونة العيش والطعام والشراب وقلة النوم لتنمية فضيلة الصبر في نفوسهم .

ج ـ أبرز الجوانب التربوية في جيش المرابطين :

١ ـ الأخوة الإسلامية :

كانت من أسباب قوة الجيش المرابطي سريان روح الأخوة بين جميع فصائل الجيش ، وامتلأت قلوبهم ونفوسهم بهذا المعنى السامي الذي كان سبباً في تذويب النعرات الإقليمية والعرقية ، وجيوشهم تتكون من الزنوج ، ومن قبائل صنهاجة

---

(١) البخاري رقم (٣٠٣٦) .

المتفرقة ومن العرب ومن مسلمي الإسبان ، وكل هذه الفصائل المتعددة والمتنوعة كونت أمة واحدة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد تحلى جيش المرابطين بهذه الصفة الربانية العظيمة، فقوت رابطة المجاهدين، وجعلتهم صفاً واحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء.

٢ ـ التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

فعندما أصيب عبد الله بن ياسين بجراح بالغة، وحمل على أثرها إلى معسكره؛ جمع رؤساء وشيوخ المرابطين، وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرئاسة، وما لبث أن فارق الحياة[١].

وهكذا جند الله المجاهدون لا يتباطؤون في مناصحة بعضهم بعضاً لعلمهم بأن في هذا التباطؤ هلاكهم جميعاً الذي وصفه لهم الرسول ﷺ في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه فقال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا إن خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[٢].

إن مفهوم الجندية الإسلامية يترعرع في بيئات التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

٣ ـ إصلاح ذات البين:

حرص المرابطون على نبذ الشقاق والقضاء على الخلاف وعلى رأب الصدع وإصلاح ذات البين؛ لعلمهم أن فساد ذات البين يقضي على جند الجهاد أكثر مما يقضي عليهم عدوهم الخارجي مهما قويت شوكته وكثر جنده، فاتخذوا أسلوب

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٤.
(٢) البخاري رقم (٢٤٩٣)، فتح الباري (٥/ ١٣٢).

الحكمة واللين والرفق من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود ، وإذا خرجت فئة تستمرئ الشقاق أو تعمل على إيجاده جردوا لها الجيوش وأخضعوها بالقوة ، وهذا ما قام به الأمير أبو بكر بن عمر عندما تمردت بعض قبائل الصحراء على مبادئ المرابطين ، واشتبكوا مع بعض القبائل الأخرى في قتال ، فخرج إليهم بجيشه الكثيف وأصلح ذات البين مستعملاً في ذلك القوة ، ومن أجل الضرورة وإصلاح ذات البين أذن النبي ﷺ لمن أراد أن يستعمل الكذب الذي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا سيما إذ كان من باب التورية والتعريض كما في حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»[١].

وجعل النبي ﷺ إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام والصدقة ، وحذر النبي ﷺ من فساد ذات البين ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل درجة من الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله ، قال: «إصلاح ذات البين ، وفساد ذات البين حالقة»[٢].

٤ ـ نصر الحق والثبات عليه:

لما أرسل فقهاء سجلماسة ودرعة إلى الفقيه ابن ياسين ، يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين ، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة ، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم ، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله تعالى»[٣].

ولما طلب ملوك الطوائف العون من المرابطين لنصرتهم على النصارىٰ لبوا نداء الحق. لقد كان جيش المرابطين حريصاً على نصرة الحق وإحقاقه والقتال عليه.

لقد حرص المرابطون على أن يشملهم قول رسول الله ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على

---

(١) البخاري رقم (٢٦٩٢) فتح الباري (٥/ ٢٩٩).
(٢) رواه الترمذي (٦٦٣).
(٣) تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٢.

ذلك»[١]. وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»[٢].

إن صفة نصر الحق والثبات عليه والقتال عليه ليست دعوى تقال أو شعار يرفع على مستوىٰ الجماعات أو الدول أو الطوائف، وإنما حقيقة لها دلالتها الواقعية في حياة الناس. وأي جماعة تفقد صفة الفقه في الدين ونصر الحق أو إحداهما فليست أهلاً لأن تكون هي الطائفة المنصورة.

وأي خلل يقع في أي جماعة فلا بد أن يكون مصدره فقد إحدى الصفتين أو فقدهما معاً أو ضعف في إحداهما أو فيهما معاً[٣].

إن دولة المرابطين في جيلها الريادي حققت صفة الفقه في الدين متمثلاً في فقهائها العظام فاستحقت أن تكون من الطائفة المنصورة التي حالفها نصر الله وتوفيقه، وعندما ضعفت تلك الصفات آل أمرها إلى طائفة مغلوبة، بل زالت من الوجود.

د ـ عناصر جيوش المرابطين:

١ ـ **الملثمون أو المرابطون:** كانوا هم النواة الأولى التي تكوَّن منها الجيش المرابطي، وقد قامت الدولة على أكتافهم، وقد اشتهر هؤلاء الملثمون بقوة بأسهم في الحرب، وكانوا أثبت من الجبال الرواسي في المعارك، ومهما تفوق عليهم عدوهم في العدد فلا يتقهقرون، ولقد حققوا انتصارات رائعة في معاركهم في المغرب الأقصى أو في معارك الجهاد في الأندلس.

٢ ـ **العرب:** وشكلوا فرقة أصبحت من أهم فرق الجيش المرابطي وشاركوا في معارك الأندلس، وتنتمي بعض العناصر العربية إلى عرب الأندلس الذين استقروا في المغرب في عصر الأدارسة، ويرجع البعض الآخر إلى قبائل بني هلال التي انخرطت في سلك جيش المرابطين، وشاركوا في معارك الجهاد، ومن أشهر تلك المعارك معركة كنسويجرة يقول ابن الكردبوس: «فجر ابن تاشفين عسكراً جراراً من مرابطين وعرب وأندلس الشرق والغرب، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج، فالتقوا بكنثرة

(١) البخاري رقم (٣٦٤١)، فتح الباري (٦/ ٦٣٢).
(٢) مسلم (٣/ ١٥٢٤).
(٣) الجهاد في سبيل الله، (٢/ ٩٥).

فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين وولوا مدبرين . . »[١] .

كما شاركوا في معركة إقليش فيقول ابن القطان: «واستشهد في هذه الوقعة ـ أي إقليش ـ الإمام الجزولي، وكان رجل صدق ، وجماعة من الأعيان والعربان . . »[٢] .

٣ ـ **الحرس الخاص**: كانت قوىٰ الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوي القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة ، يقول أشباخ: «جمع يوسف بن تاشفين من تجار الرقيق من إقليم غانا ، عدداً كبيراً من العبيد ، واختار منهم أميرهم وزودهم بالسلاح والخيل ودربهم على جميع فنون القتال ، وأنشأ من حرسه الخاص الأسود من ألفي رجل ، وأنشأ على هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين يتألف من فتيان من النصارىٰ المعاهدين ، وكان يوسف يَحبُوهُم بعطفه وصلاته ، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد»[٣] .

وبين الدكتور سعدون عباس نصر الله أن النصارىٰ في جيش المرابطين اعتنقوا الإسلام[٤] ، وأصبح الحرس الخاص ركناً أساسياً من أركان الجيش المرابطي ، ولا سيما أن علي بن يوسف ضم إليه الكثير من أسرى الحروب وشارك هذا الخاص في حراسة معاقل المغرب ، بل حتى في حروب الدولة ضد الموحدين[٥] .

٤ ـ **الحشم**: كانت فرق الحشم أهم فرق الجيش المرابطي وكانت تتكون من زناتة والمصامدة وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المرابطية في القتال[٥] .

هـ ـ فنون القتال:

لما تولى الأمير يوسف مقاليد حكم المرابطين عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال ، ففي البدء كانت أسلحتهم يدوية ويعتمدون على الإبل ، وهذه الأسلحة تصلح لحرب الصحراء ، أما حرب المدن والحصون فإنها

---

(١) الاكتفاء ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .
(٢) نظم الجمان ، ص ٩ ـ ١٠ ، انظر: الثغر الأعلى ، الأندلس ص ١٢٩ .
(٣) تاريخ الأندلس ، لأشباخ ، ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠ .
(٤) دولة المرابطين ص ١٧٠ .
(٥) تاريخ المغرب في عصر المرابطين ، ص ٢٩٨ .

تتطلب وسائل وأسلحة تتلائم مع الوضع الجديد الناشئ عن حرب الحصار؛ ولهذا ابتكر الأمير يوسف الخطة العسكرية المعروفة بالتقري ، وخطة التقري تعتمد على توجيه الجيوش إلى بلاد معينة للقتال مع جيوشها في معارك فاصلة لا لحصار المدن[١] .

وسلَّح الجيش بكل أنواع الأسلحة المعروفة من مغربية وأندلسية ونصرانية ، وكان سلاح كل فرقة من الجيش يتناسب مع تركيبها ووضعها القتالي ، فمشاة الصف الأول يتسلحون بالقنا الطوال وبدروق اللمط .

وكان للأمير يوسف الفضل في تنظيم جيش المرابطين ومعرفة الرجال ومواهبهم الفذة الذين أعادوا إلى الأذهان تاريخ الفتوحات الأولىٰ لأمة الإسلام ، لقد كانت حركة المرابطين مقنعة للعالم في زمانها بأن الإسلام قادر في كل زمان ومكان على إنجاب القادة الأفذاذ أمثال سير بن أبي بكر ، وداود بن عائشة ، وابن فاطمة ، وابن ميمون ومزدلي ، وغيرهم ، وعلى رأس الجميع القائد الرباني الذي أنقذ الله به الإسلام في الأندلس والمغرب يوسف بن تاشفين .

كان الأمير يوسف أثناء المعارك يرتّب جيشه وفق نظام خماسي : المقدمة ويحتلها الجنود المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة ، والجناحان الميمنة والميسرة ، حملة القسي والنبال وأكثرهم من أهل الثغور ، والقلب يتمركز فيه الفرسان المرابطون المزودون بالأسلحة الثقيلة والخفيفة ، والمؤخرة يقودها الأمير بنفسه وتتألف من صفوة الجنود والحرس ، وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص ، ويجتمع قادة الوحدات قبيل المعركة على شكل مجلس حربي لتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى يوسف[٢] .

وتطورت فنون القتال عند المرابطين ، وأهدى ابن الصيرفي إلى الأمير تاشفين بن علي قصيدة احتوت على فنون الحرب والقتال فقال :

أهديك من أدب السياسة ما به … كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لأنني أدري بها ولكنها … ذكرىٰ تحض المؤمنين وتنفع
خندق عليك إذا ضربت محلة … سيان تتبع ظاهراً أو تتبع

(١) دولة المرابطين ص ٤٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧٢ .

حارب من يخشى عقابك بالذي يخشى وهو في جود كفك يطمع
قبل التهارش عبئ جيشك مفسحاً حيث التمكن والمجال الأوسع
إياك تعبئةَ الجيوش مضيقاً والخيلُ تفحص بالرجال وتمزع
حصن حواشيهاولكن في قابها واجعل أمامك منهم من يشجع
واحذر كمين الروم عند لقائها وأمض كمينك خلفها إذا تدفع
لا تبقين خلفك عندما تلقى العدو فشرُّه متوقع
واصدمه أول وهلة لا ترتدع بدءاً تقدم فالنكوص يضعضع[(١)]

ونستطيعُ أن نستخرج بعض فنون الحرب التي أوصىٰ بها الشاعر في قصيدته للأمير تاشفين بن علي :

١ ـ ضرورة حفر الخنادق حول المدن لحمايتها من أي خطر خارجي .

٢ ـ ضرورة تعبئة الجيوش وتنظيمها قبل المعركة بوقت كافٍ ؛ لكي تدخل هذه الجيوش إلى المعركة ، وهي على أهبة الاستعداد ، وحتى لا يأخذها العدو على غرة .

٣ ـ ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية في جناحي الجيش ، وفي المقدمة ، بينما يقود القائد العام للجيش المعركة من قلب جنده .

٤ ـ ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو .

٥ ـ عدو القتال وظهورهم إلى الماء ، لأن في ذلك هلكة لجيوشهم .

٦ ـ ضرورة إحداث عنصر المفاجأة في بداية المعركة ، عن طريق الصدام مع العدو ، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر .

هذه بعض الفنون العسكرية التي طبقت في دولة المرابطين .

وكان المرابطون في بداية أمرهم قليلي الخبرة بفن الحصار لاعتمادهم على قوات الفرسان المستعدة دائماً للهجوم ؛ إلا أنهم بعد فترات من جهادهم استطاعوا أن يتقنوا فن الحصار ، وتجلى ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شتيرين الحصينة ، وتمكنهم من التغلب عليها ، كما ظهرت براعتهم في هذا الفن أثناء الحصار الذي فرضته الجيوش الإسلامية على مدينة غرناطة لحمايتها من ألفونسو المحارب خلال

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٠٠ .

غزوته الكبرى للأندلس ، التي كان يهدف من ورائها تلبية دعوة النصارىٰ المعاهدين في مدينة غرناطة إلى نصرتهم.

وضرب المرابطون الحصار ، وكان موفقاً ، وحقق نتائجه المطلوبة.

وكما أتقنوا فن ضرب الحصار ، فقد تفوقوا أيضاً في فن التخلص من الحصار ، كما حدث في تخلصهم من الحصار الذي ضربه الموحدون على مراكش عام ٥٢٤ هـ ودام ما يقرب من أربعين يوماً ، ثم تمكنوا وأوقعوا بالموحدين هزيمة منكرة عند البحيرة[١].

واهتم المرابطون بجميع الأسلحة المعروفة في زمانهم من نشاب وسهام ورماح وسيوف ودروع ورعادات ومزاريق ودرق لمطية والأطاس.

و ـ الأسطول:

ومع توسع المرابطين في المغرب الأقصى واستيلائهم على معظم مدنها ولم تبق إلا طنجة وسبتة ، شعر الأمير يوسف بأهمية الأسطول البحري لما وصلت دولته إلى شواطئ البحر الأبيض ، وبعد القضاء على دولة برغواطة صاحبة الأسطول البحري بدأ يوسف يهتم بتطوير أسطوله ، واستفاد من خبرات أهل الأندلس في ذلك ، وأصبح أسطول المرابطين يتقدم نحو الهيمنة على البحر المتوسط ، وأثمرت جهود يوسف في الاهتمام بالأسطول في زمن ابنه علي.

وأصبح أسطول المرابطين بفضل الله تعالى ثم قادته الكبار وعلى رأسهم أبو عبد الله بن ميمون قوة ضاربة في جنوب البحر المتوسط ، ونفَّس الله به كربات مسلمي الشمال الإفريقي ، وحقق أسطول المرابطين انتصارات تجاوزت كل تقدير وحسبان[٢].

ز ـ استيلاء المرابطين على جزر البليار:

كانت جزيرة البليار خاضعة لمجاهد العامري صاحب دانية الذي استقل بملكها سنة ٤٠٥ هـ ، وولى عليها بعض الولاة ، ولما قتل مجاهد في سنة ٤٣٦ هـ ، تولى ابنه علي الذي وقع في أسر بني هود عام ٤٦٨ هـ ومات في سرقسطة سجيناً عام

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١١.

(٢) تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١١.

٤٧٤ هـ ، وكانت جزيرة ميورقة تابعة لجزر البليار ، وكان بها مبشر بن سليمان الذي أعلن استقلاله بميورقة ، وأما مدينة دانية فضمها المقتدر بن هود إلى سرقسطة ، ولما ضم المرابطون ممالك الطوائف تركوا مبشر بن سليمان صاحب البليار حراً تقديراً لجهوده التي بذلها لصد النصارىٰ ، وما اشتهر به من غيرة على مصالح المسلمين ، وقدرته الفذة في حماية ملكه في غارات النصارىٰ المتتابعة فضلاً عن كونه أقر العدل وأرضى الرعية ، وهكذا أصبح مبشر يحكم الجزيرة الشرقية في عهد يوسف بن تاشفين وفي السنوات الأولىٰ من حكم علي بن يوسف إلى عام ٥٠٨ هـ.

وعندما تحالف النصارىٰ من أمراء فرنسا والبرتغال وإسبانيا ، وقرروا القضاء على جزر مبشر بن سليمان خرجوا له في خمسمئة سفينة ، وضربوا على جزيرة ميورقة حصاراً عنيفاً ، وراسل مبشر أمير المسلمين علي بن يوسف لنجدته ونصرة المسلمين ، وتوفي مبشر بن سليمان أثناء الحصار وقام بعده قريبه الربيع بن سليمان بن ليون وسقطت ميورقة عام ٥٠٨ هـ وقتل النصارىٰ من المسلمين ، وسبوا نساء المسلمين ، وعاثوا في الأرض فساداً ونهباً وتخريباً.

وعندما اقترب أسطول المرابطين بقيادة القائد البحري ابن «تافرطاست» وجد النصارىٰ قد رحلوا وتركوها كأن لم تكن بالأمس ، وفي الحال شرع ابن تافرطاست في تعمير الجزيرة وأعاد إليها الفارين من سكانها ، وكان قد لجأ منهم إلى الجبال جموع غفيرة ، وبذلك أصبحت تلك الجزر تابعة لدولة المرابطين الفتية.

وكان لأسطول المرابطين الفضل بعد الله في التصدي لأطماع النومنديين في مدن الشمال الإفريقي. وكان لأسطول المرابطين جهاد مشكور في سواحل أوربة الجنوبية ؛ مما عزز من هيبة المسلمين في نفوس النصارىٰ الحاقدين ، فأغار على سواحل حليقية وقطلونية وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية[١].

ومن أشهر قادة الأسطول المرابطي أبو عبد الله بن ميمون ، وتوارث أبناؤه من بعده قيادة أساطيل المرابطين ، ولعبت أسرة بني ميمون دوراً ريادياً في حماية ثغور المسلمين والذود عن حوزتهم وأعراضهم وأموالهم وعقيدتهم.

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١١.

ح ـ موانىء أسطول المرابطين:

كانت المرية من أكبر موانئ الأسطول المرابطي في الأندلس ، وكان بهم قسم كبير من أسطول المرابطين بقياد أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون ، وكان بالمرية دار صناعة للسفن ، ثم تأتي بعد المرية مدينة دانية التي تعتبر مقر قيادة الأسطول المرابطي في الأندلس.

وكانت موانئ أسطول المرابطين تنتشر على شواطئ سواحل المغرب والأندلس ، ومن أشهرها طنجة وبجاية وإشبيلية والجزيرة الخضراء ، وجزر البليار[١].

إن الشمال الإفريقي لا عزة لشعوبه ولا كرامة إلا بالتمسك بالمنهج الرباني وتربية شعوبه على الانقياد لمنهجه الرشيد ، ويحتاج ذلك لعلماء ربانيين وقادة سياسيين يعرفون قيمة دينهم ، ويؤمنون بمنهج ربهم ، ويستعدون لجهاد عدوهم ويهتمون بإحياء روح الجهاد ، ويغرسون معاني الشهادة في شعوبهم حتى تتدفق دماء الإسلام من جديد في شرايينهم ، ليعملوا على إرجاع الأندلس المفقود ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

■ ■ ■

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٢.

المبحث الرابع

النظام المالي في عصر المرابطين

حرص المرابطون في دولتهم على إسقاط الضرائب غير المشروعة عن كاهل شعوبهم التي فرضها الزناتيون في المغرب وملوك الطوائف في الأندلس ، وكذلك المكوس والرسوم والضرائب في جبل طارق ، ولم يفرض المرابطون في دولتهم رسم مكس أو معونة خراج لا في حاضرة ولا في بادية ، واتبعوا نظاماً مالياً يقوم على قواعد الإسلام ، وكان هذا النظام ظاهر المعالم في زمن الأمير يوسف بن تاشفين الذي التزم بالكتاب والسنة في جمع الأموال وتوزيعها ، فاعتمد على الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم ، وجبئ بذلك من الأموال على الوجه الشرعي ما لم يجبه أحد ، وترك في خزائنه مبلغ ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمساً وأربعين ألفاً من دنانير الذهب[1] . وأما في عصر علي بن يوسف فاختلف الأمر وفرض الضرائب على بعض السلع ، وفرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة ، وكان يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة ، وكان سبب فرض هذه الضريبة دخول ألفونسو المحارب للأندلس غازياً عام ٥١٩ هـ فاضطر لتحصين المدن وترميم الأسوار وتقوية الجيوش ، ففرض ضرائب تساعده في تسديد هذه النفقات التي لا غنى عنها .

أولاً : العملة :

كانت العملة الرئيسية لدولة المرابطين هي الدينار الذهبي الذي كان عماد الاقتصاد في الدولة ، وظلت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون حتى بعد سقوط الدولة المرابطية. كما استخدم المرابطون العملة الفضية المعروفة بالدرهم الفضي ، لتسهيل المعاملات التجارية .

---

(١) دولة المرابطين ص ١٧٩ .

وانتشرت دور سك العملة في مختلف أجزاء الدولة سواء في المغرب أو في الأندلس مثل أغمات ، تلمسان ، سجلماسة ، فاس ، مراكش ، سبتة ، مكناسة ، طنجة ، شاطبة ، إشبيلية ، دانية ، غرناطة ، قرطبة ، مالقة ، مرسية ، سرقسطة ، وغيرها[١] .

■ ■ ■

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٢٠.



الفصل الخامس

أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية





المبحث الأول

الآثار المعمارية في المغرب والأندلس

إن دولة المرابطين تركت آثاراً معمارية بارزة ، ظلت باقية على مر الدهور وكر العصور لترشد الأجيال المتعاقبة على سمو حضارة المرابطين ، ومن أعظم هذه الآثار على الإطلاق.

١ ـ جامع القرويين:

من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب وأكثرها شهرة لكونه جامعة إسلامية عريقة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ ، وكانت هذه الجامعة تقارع الأزهر الشريف في العلم ، وتخريج الدعاة والعلماء والفقهاء.

ولقد مر جامع القرويين بثلاثة أدوار: الأول عند تأسيسه سنة (٢٥٤ هـ/ ٨٥٩ م والثاني عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ م.

والثالث عندما زيدت مساحته في عصر علي بن يوسف سنة ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م.

وتولى مشروع زيادة مسجد القرويين وتوسيعه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بسبب ضيق المسجد بالناس واضطرارهم للصلاة في الشوارع والأسواق في يوم الجمعة ، وحرص على أن يكون المال من أوقاف مساجد المسلمين ، وأشرف القاضي أبو عبد الله بنفسه على هذا المشروع الحضاري العظيم ، وكان تمام التوسعة عام ٥٢٨ هـ.

ولقد تخرجت من جامع القرويين على مر العصور وكر الدهور أفواج عديدة من فقهاء الأمة وعلماء الملة ودعاة الشريعة والمجاهدين الأبرار والقادة العظام ، وكان لمسجد القرويين عند المرابطين مكانة عظيمة في نفوسهم.

وتذكر كتب التاريخ أن منبر جامع القرويين من أجمل منابر الإسلام ، وتدل على

روعة المغاربة في اختياراتهم الذوقية الرفيعة[١] .

٢ ـ المسجد الجامع بتلمسان :

وكان مقرّاً لنشر علوم الإسلام وتربية المسلمين على معاني القرآن ، وتم بناء هذا المسجد عام ٥٣٠ هـ في إمارة علي بن يوسف ، وكانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان ، ورأى بعض المؤرخين أن البنية المعمارية لمسجد تلمسان فيها لمسات أندلسية وفنون معمارية قرطبية ، بل بعضهم يرىٰ أن عرفاء مسجد تلمسان قلدوا جامع قرطبة تقليداً مباشراً في لوحتي الرخام اللتين تكسوان واجهة المحراب بتلمسان ، وكذلك سقف المسجد الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة ، وكذلك البلاط شبيهاً به أيضاً .

والذي يظهر أن دولة المرابطين انصهرت في بوتقتها حضارة المغاربة ، والأندلسيين ، والأفارقة ، فتجد تلك المعالم الحضارية المختلفة في كافة بقاع دولة المرابطين ، ولا ينكر تأثير المعالم الحضارية المعمارية الأندلسية في كافة مدن الدولة .

٣ ـ الآثار الحربية :

اهتم المرابطون بالحصون والقلاع ؛ ولذلك انتشرت في المدن والثغور .

وزاد اهتمامهم بالتحصينات العسكرية في زمن علي بن يوسف الذي أكثر من الأسوار والقلاع والحصون للدفاع عن دولته في المغرب من الحركات السياسية والثورات العدائية المناهضة لدولة المرابطين ، وواصل الأمير علي اهتمامه بهذا الأمر كذلك في الأندلس .

ومن أروع آثار المرابطين الحضارية أسوار مراكش ، حيث بدأ الأمير علي بن يوسف في بناء سور المدينة ٥٢٠ هـ ، وكمل بناء السور عام ٥٢٢ هـ[٢] .

وانتشرت فكرة بناء الأسوار في الأندلس ، وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجي الجهادي الدفاعي .

ومن أشهر الأسوار التي بنيت أو أعيد ترميمها في الأندلس ، أسوار المرية

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦٦ .
(٢) تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٧٢ .

وأسوار قرطبة التي امتازت بأبراجها المستطيلة الضخمة المتقاربة ، وأسوار إشبيلية من جهة نهر الوادي الكبير ، وبنى المرابطون في المناطق الوعرة حصوناً بالحجر ، وشحنوها بالجنود والأقوات لكي تصمد للحصار مدة طويلة .

وكان عدد جنود الحصون والقلاع ما يعادل ٢٠٠ فارس و٥٠٠ راكب في كل حصن .

ومن أشهر قلاع المرابطين في الأندلس قلعة منتقوط التي تقع على بساتين مرسية ، ومن أشهر قلاع المرابطين في المغرب قلعة تاسغيموت التي تقع على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب شرق مراكش وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات شرق أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف ، يصعب على الغازين ارتقاؤها ، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها .

إن قلاع المرابطين وحصونهم تدل على أن فن العمارة في زمانهم تأثر بالغ التأثر بفن العمارة الأندلسي[١] .

■ ■ ■

(١) انظر : تاريخ المغرب ص ٣٧٧.

المبحث الثاني
الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين

١ ـ الحركة الأدبية:

ازدهرت الحركة الأدبية في دولة المرابطين في عهد الأمير علي بن يوسف الذي اهتم بالشعر والأدب، وشجع الشعراء والأدباء فتوافدوا على بلاطه من أهل الأندلس، ومن الذين مدحوا الأمير علي بن يوسف الشاعر الكبير أبو العباس أحمد بن عبد الله القيسي المعروف بالأعمى التطيلي حيث قال:

يا علي العلاء في كل يوم ... وما أنت للملك بالسائس
يا ربيع البلاد يا غنيمة العالم ... من بين مؤتل ومـوال
يا قريع الأيام عن كل مجد ... يا سليل الأذواء والأقيال
لك من تاشفين أو من أبي ... يعقوب ذكر مكارم وفعال[١]

وكان الشعراء يقصدون ولي عهد الدولة في زمن الأمير علي بن يوسف لمدح ابنه تاشفين، ومن أشهرهم الشاعر أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف، كما حظي الشعراء في عصر علي بن يوسف بمكانة عظيمة لدىٰ الأسرة الحاكمة وكبار القادة وعمال الدولة على الأقاليم المختلفة.

وكان الأمير عبد الله بن مزدلي موضع اهتمام الشعراء منهم ابن عطية الذي قال فيه:

ضاءت بنور إيابك الأيام ... واعتز تحت لوائك الإسلام[٢]

ومن قبل مدح الشعراء والده الذي قال فيه أبو عامر بن أرقم:

أنت الأمير الذي للمجد همته ... وللمسالك يحميها وللدول

---

(١) الأعمى التطيلي، الديوان ص ١٠٤.
(٢) قلائد العقيان، لابن خاقان ص ٢١٠.

لمـــزدلـــي لـــواء كـــان يـــرفعـــه   مناسب كالضحى والشمس في الحمل
يـا أيهـا الملـك المـرهـب صـولتـه   وارتجى غوثه في الحادث الجلل[(١)]

ووصل المديح إلى الفقهاء والعلماء لمكانتهم العالية في دولة المرابطين ، فهذا الأعمى التطيلي يمدح القاضي الفقيه ابن أحمد قاضي الجماعة بقوله:

إليك ابـن حمـديـن وإن بعـد المـدى   وأن غربت بي عنك إحدى المغارب
صبـابـة ود لـم يكـدر جمـامـة   مـرور الليـالـي وازدحـام الشـوائـب
وذكـر عسـاهـا أن تكـون مهـزة   تـرىٰ علـى أعقـابـه كـل شـاغـب
بـأيـه مـا كـان الهـوى متقـاربـاً   وخطـوي فيـه ليـس بـالمتقـارب[(٢)]

ولا ننسىٰ أن أعداء المرابطين من الشعراء قاموا بالتندر بالمرابطين ، وبفقهاء دولتهم ، وممن اشتهر بالهجاء والتندر في هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكي ، الذي هجا المرابطين من ذلك قوله:

فـي كـل مـن ربـط اللثـام دنـاءة   ولـو أنـه يعلـو علـى كيـوان
مـا الفخـر عنـدهـم سـوىٰ أن ينقلـوا   مـن بطـن زانيـة لظهـر حصـان
المنتمـون لحميـر لكنهـم   وضعـوا القـرون مـواضـع التيجـان
لا تطلبـن مـرابطـاً ذا عفـة   واطلـب شعـاع النـار فـي الغـدران[(٣)]

وازدهر في عصر المرابطين لون آخر من ألوان الشعر أعني الطبيعة ، فقد شهد هذا العصر ظهور عدد كبير من الشعراء الذين نبغوا في هذا الفن الشعري ، نذكر منهم ابن سارة الشنتريني ، وابن الزقاق ، وابن خفاجة البلنسي ، وعبد الحق بن عطية ، من ذلك قول الشنتريني الشاعر يصف البركة:

لله مسجـورة فـي شكـل نـاظـرة   مـن الأزهـر أهـداب لهـا وطـف
فيهـا سـلاحـف ألهـانـي تقمصهـا   في مـائهـا ولهـا مـن عـرمـض لخـف
تنـافـر الشـط إلا حيـن يحضـرهـا   بـرد الشتـاء فتستـدلـي وتنصـرف
كـأنهـا حيـن يبـديهـا تصـرفهـا   جيش النصارىٰ على أكتافها الجحف[(٤)]

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٣.
(٢) الأعمى التطيلي ، الديوان ، ص ٤ ـ ٥.
(٣) تاريخ المغرب ، ص ٣٨٦.
(٤) قلائد العقيان ص ٢٧١.

وهذا أبو الحسن علي بن عطية بن الزقاق يصف فرساً أغر:

وأغـر مصقـول الأديـم تخالـه ... بـرقاً إذا جمع العتاق رهان
يطـأ الثـرى متبختـراً فكأنـه ... مـن لحظ من في متنه نشوان
فكـأن بـدر التم فوق سراته ... حسناً وبين جفونـهِ كيوان[1]

وهذا أبو جعفر بن سلام المعافري يصف في شعره الثلج:

ولم أرَ مثل الثلج في حسن منظر ... تقر به عين وتشنعه نفس
فنار بلا نور يضيء له سنا ... وقطر بلا ماء يقلبه اللمس
ترى الأرض منه في مثال زجاجة ... كأن كؤوس الماء يجمعه كأس[2]

وهذا شاعر آخر يصف لنا قوساً:

يا رب مائسة الأعطاف مخطفة ... إذا دنا نزعها فالعيشُ منتزح
ظلت ترن فظل النزع يعطفها ... كما ترنم نشوان به قزح
وقد تألف نصل السهم مندفعاً ... عنها قفل كوكب يرمي به قزح[1]

وهذا ابن خفاجة يصف الربيع، وهو ممن عاصر الأمير علي بن يوسف:

أذن الغمام بديمة وعقار ... فامزج لجيناً منهما بنضار
وأربع على حكم الربيع بأجرع ... هزج الندامىٰ مصفح الأطيار
وكمامة حدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه ... أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا ... دور الندىٰ ودارهم النوار
وقد ارتدىٰ غصن النقىٰ وتقلدت ... حلى الحباب سوالف الأنهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك ... جذل وحيث الشطر بدء عذار
والروح تنفض بكرة لمم الربا ... والطل ينضح أوجه الأشجار[3]

لقد ازدهر الشعر والأدب في عصر الأمير علي بن يوسف ازدهاراً عظيماً؛ شهدت بذلك قصائد شعراء المرابطين التي سجلت في ذاكرة التاريخ الخالدة.

وما قيل عن انحطاط الشعر والأدب في عصر المرابطين أكذوبة استشراقية بان

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية، ص ١٠٦.
(٢) تاريخ المغرب ص ٣٨٨.
(٣) ابن خفاجة، الديوان ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

زيفها أمام حقائق التاريخ التي لا تجامل ، ولا تعرف التحايل .

ولا ننسىٰ شيوع فن الموشحات والأزجال في عصر المرابطين ، يقول ابن خلدون عن نشأة فن الموشحات: «وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فناً يسمونه بالموشح ينظمونه أسماطاً وأغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد ، وتجاوزوا في ذلك إلى الغاية ، واستطرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولةِ تناوله وقرب طريقه»(١) .

ومن أشهر وشاحي عصر المرابطين التطيلي ، ومن موشحاته :

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ونار   مـــا اجتمعـــا إلا لأمـــر كبـــار
بئـس لعمـــري مـــا أراد العـــذول   عمـــر قصيـــر وعنـــاء طـــويـــل
يـــا زفـــرات نطقـــت عـــن غليـــل   ويـــا دمـــوع قـــد أعـــانـــت مسيـــل(٢)

وأما نشأة الزجل فقال ابن خلدون عنه: «أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا فناً سموه بالزجل ، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجاؤوا فيه بالغرائب ، واتسع فيهِ للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة»(٣) .

ويعتبر أبو بكر بن قزمان القرطبي أول من ابتكر الزجل .

ومن أشهر أزجاله ما كان في مدح القاضي أحمد بن الحاج قوله:

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين يحضر الإنكار والإقرار ، ويقع

---

(١) ابن خلدون المقدمة ، ص ٤٣٦ .
(٢) ابن خلدون المقدمة ، ص ٤٤١ .
(٣) الزجل في الأندلس ، لعبد العزيز الأهواني ، ص ٢٠١ .

الفصل ، فالحين اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام[١] .

هذه نبذة مختصرة عن بعض فنون الأدب التي ازدهرت وترعرعت في ظل دولة المرابطين.

■ ■ ■

(١) الزجل في الأندلس ، لعبد العزيز الأهواني ، ص٢٠١ .

المبحث الثالث

من مشاهير علماء دولة المرابطين

كانت دولة المرابطين مبنية على أسس شرعية ؛ ولذلك اهتمت بالعلماء والفقهاء الذين لا دوام لدولة تريد أن تحكم بشرع الله بدونهم ؛ ولذلك كثر المحدثون والفقهاء ، نذكر منهم :

أولاً : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (ت ٥٢٠ هـ) .

هو الإمام العلامة شيخ المالكية ، قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد .

أ ـ شيوخه :

من أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم أبو جعفر أحمد بن رزق ، وأبو مروان بن سراج ، ومحمد بن خيرة ، ومحمد بن فرج الطلاعي ، والحافظ أبو علي ، وأبو العباس بن دلهات .

قال ابن بشكوال فيه : «كان فقيهاً عالماً ، حافظاً للفقه مقدماً فيه على جميع أهل عصره ، عارفاً بالفتوىٰ ، بصيراً بأقوالِ أئمة المالكية ، نافذاً في علم الفرائض والأصول ، من أهل الرياسة في العلم والبراعة ، والفهم ، مع الدين والفضل ، والوقار ، والحلم ، والسمت الحسن ، والهدي الصالح ، ومن تصانيفه كتاب «المقدمات» لأوائل كتب المدونة ، وكتاب «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل» ، واختصار «المبسوطة» ، واختصار «مشكل الآثار» للطحاوي ، سمعنا عليه بعضها ، وسار في القضاء بأحسن سيرة وأقوم طريقة ، ثم استعفىٰ منه ، فأعفي ، ونشر كتبه ، وكان الناس يُعولون عليه ويلجؤون إليه ، وكان حسن الخلق ، سهل اللقاء ، كثير النفع لخاصته جميل العشرة لهم ، باراً بهم»[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء ، (١٩/ ٥٠٢) .

ب ـ ومن أشهر فتاوىٰ ابن رشد الجد ما أفتاهُ في شأن المعاهدين من النصارىٰ في بلاد الأندلس بإبعادهم وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ، ومساعدتهم لألفونسو المحارب[1] ، عاش هذا العالم الجليل سبعين عام ومات في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمئة ، وصلى عليه ابنه أبو القاسم ، وروى عنه أبو الوليد بن الدباغ فقال: «كان أفقه أهل الأندلس ، وصنف شرح العتبية ، فبلغ فيه الغاية»[2] .

ثانياً: الشهيد القاضي الفقيه أبو علي الصدفي:

هو العالم الفقيه القاضي المحديث الحسين بن محمد بن سُكرة .

أ ـ شيوخه:

روىٰ عن أبي الوليد الباجي ، ومحمد بن سعدون القروي ، وحج سنة إحدى وثمانين ، ودخل مصر على أبي إسحاق الحبال ، وقد منعه المستنصر العبيدي الرافضي من التحديث .

قال: فأول ما فاتحته الكلام على غير سؤالي ، حذراً أن أكون مدسوساً عليه ، حتى بسطته وأعلمته أنني من أهل الأندلس أريد الحج ، فأجاز لي لفظاً ، وامتنع من غير ذلك .

رحل للعراق ، فسمع بالبصرة من جعفر بن محمد بن الفاضل العباداني ، وعبد الملك بن شغبة ، وبالأنبار: الخطيب أبا الحسن علي بن محمد بن محمد الأقطع ، وببغداد: علي بن الحسن بن قُريش بن الحسن صاحب ابن الصلت الأهوازي ، وعاصم بن الحسن الأديب ، وأبا عبد الله الحميدي .

وتفقَّه ببغداد على: أبي بكر الشاشي ، وأخذ بالشام عن الفقيه نصر المقدسي ، ورجع إلى بلاده في سنة تسعين بعلم كثير ، وأسانيد شاهقة ، واستوطن مُرسية ، وجلس للإسماع بجامعها .

ورحل الناس إليه ، وكان عالماً بالحديث وطرقه عارفاً بعلله ورجاله ، بصيراً بالجرح والتعديل ، مليح الخط ، جيد الضبط ، كثير الكتابة ، حافظاً لمصنفاتِ الحديث ، ذاكراً لمتونها وأسانيدها ، وكان قائماً على «الصحيحين» مع «جامع» أبي

---

(١) تاريخ المغرب ص ٢٣١ .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٠٢) .

عيسى الترمذي ، وولي قضاء مُرْسِيّة ، ثم استعفي عنه فأعفي ، وأقبل على نشر العلم وتأليفهِ وكان صالحاً ديناً ، عاملاً بعلمه ، حليماً متواضعاً ، وخرج القاضي عياض شيوخه ذكر أنه أخذ عن مئة وستين شيخاً ، وأنه جالس نحو أربعين شيخاً من الصالحين والفضلاء ، وأنه أكره على القضاء فوليه ، ثم اختفىٰ حتى أعفي منه.

وتصدر في زمن علي بن يوسف في نشر الكتاب والسنة في مرسية بالأندلس ، وتوافد عليه الطلاب في كل حدب وصوب لينهلوا من علمه الجم الغزير ، ونفع الله به المسلمين في تلك الأقطار.

ب ـ وفاته:

استشهد أبو علي الصدفي في وقعة قُتُنْدَة بثغر الأندلس ، لست بقين من ربيع الأول ، وهو من أبناء الستين ، وكانت هذه الوقعة على المسلمين ، وكان عيش أبي علي من كسب بضاعة مع ثقات إخوانه[1].

انظر رحمك الله إلى هذا الطود الشامخ ، والجبل الراسخ ، والبحر الزاخر في حبه لطلب العلم ونشره ، والدعوة إلى دينه والدفاع عنه ، وحبه للجهاد والرباط ، وحرصه على أكل الحلال ، والتحري في لقمة العيش ، والاستعلاء على الدنيا وزخارفها الكاذبة ، ويا ترى كم نفس أحياها خبر استشهاد هذا العالم الفقيه الزاهد وكان ـ رحمه الله ـ يتذوق الشعر الذي في الذود عن سنة سيد المرسلين ، ويكتبه لتلاميذه منه ما قاله أبو عبد الله محمد بن علي الصوري لنفسه:

قال لمن أنكر الحديث وأضحى ... عائباً أهله ومن يدعيه
أبعلم تقول هذا؟ أين لي ... أم بجهل فالجهلُ خُلُقُ السفيه
أيُعاب الذين هم حفظوا الدّين ... من الترهات والتمويه؟
وإلى قولهم وما قد رَوَوْهُ ... راجعُ كلّ عالم وفقيه[2]

ثالثاً: القاضي الفقيه أبو بكر بن العربي:

من أعظم فقهاء الأندلس في عصر المرابطين ، وهو القاضي أبو بكر ، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي ، الإشبيلي ، الإمام العلامة ، المتبحر في العلوم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٧٨).
(٢) تاريخ الإسلام ؛ للذهبي ، وفيات عام (٥١١ـ ٥٢٠) ، ص ٣٦٩.

ولد عام ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م وتأدب ببلده ، وقرأ القراءات ، ثم رحل إلى مصر ، والشام وبغداد ومكة ، كان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه والأصول ، وقيد الحديث ، واتسع في الرواية ، وأتقن مسائل الخلاف ، وتبحر في التفسير ، وبرع في الأدب والشعر ، وعاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير ، لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق[١] .

أ ـ مكانته العلمية :

قال الشيخ صديق حسن خان عن ابن العربي : «إمام في الأصول والفروع ، سمع ودرس الفقه والأصول ، وجلس للوعظ والتفسير ، وصنف في غير فن ، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله ؛ فأحسن الصبر على ذلك كله»[١] .

قال عنه القاضي عياض ، وهو ممن أخذوا عنه : «استقصىٰ ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته ، وشدة نفوذ أحكامه ، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة ، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه»[١] .

قال عنه الشيخ أحمد بن محمد المقري : «علم الأعلام ، الطاهر الأثواب ، الباهر الأبواب ، الذي أنسى ذكاء إياس ، وترك التقليد للقياس ، وأنتج الفرع من الأصل ، وغدا في الإسلام أمضى من النصل»[٢] .

ب ـ مؤلفاته :

للإمام القاضي أبي بكر بن العربي مؤلفات كثيرة لم يصلنا أغلبها ، وقد قضى أربعين سنة في الإملاء والتدريس ، وفي بث ما حصله من العلوم ، وصنف ـ رحمه الله ـ في فنون متعددة منها ، علوم القرآن ، والحديث ، و«مشكل القرآن والحديث» ، وأصول الدين ، وكتب الزهد ، وأصول الفقه ، وكتب الفقه ، والجدل والخلاف ، واللغة والنحو والتاريخ ، ومن أشهر المؤلفات التي انتفع بها المسلمون «العواصم من القواصم» ، و«عارضة الأحوذي في شرح الترمذي» ، «أحكام القرآن» ، «القبس في شرح موطأ ابن أنس» ، «المسالك على موطأ مالك» ،

(١) انظر : أحكام القرآن في المقدمة .
(٢) انظر : العواصم من القواصم ، ص ١٣ .

«الإنصاف في مسائل الخلاف» ، «أعيان الأعيان» ، «المحصول في أصول الفقه» ، «قانون التأويل»[١] .

كان الإمام ابن العربي يصول ويجول في بلاد الأندلس ينور طرق الظلام بعلمه ، ويقضي على الشبهات بحججه ، ويدمغ البدع المنتشرة بصبره وحلمه ودعوته ، وكان من أعمدة دولة المرابطين في نشر الكتاب والسنة وتفقيه الناس وتربيتهم على مبادئ الإسلام وأخلاق الإيمان ودرجات الإحسان.

وله فوائد علمية سجلها في كتبه وانتفع بها طلاب العلم من بعده منها :

١ ـ قوله : قال علماء الحديث : ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة لقوله ﷺ : «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها».

قال : وهذا دعاء منه ﷺ لحملة علمه ، لا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته.

٢ ـ ومنه قوله : كنت بمكة في سنة ٤٨٩ هـ وكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً ، وكلما شربته نويت العلم والإيمان ، فنويت العلم والإيمان ، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم ، ونسيت أن أشرب للعمل ، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما ، ولم يقدر فكن صفوي للعلم أكثر منه للعمل[٢] .

ج ـ وفاته : أتاه أجله «بمغلية» قرب مدينة «فاس» في ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، ودفن في فاس خارج باب المحروف على مسيرة يوم من فاس غرباً منها[٣] .

رابعاً : القاضي الفقيه عياض :

هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسىٰ بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبي السبتي ، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم ، وصنف التصانيف المفيدة ، ولد في سبتة في عام ٤٧٦ هـ وتتلمذ على شيوخها ، ومن أشهرهم : القاضي أبو عبد الله بن عيسى ، والخطيب أبو القاسم والفقيه إسحاق بن الفاسي ، وإبراهيم بن جعفر اللواتي ، وإبراهيم بن أحمد

---

(١) انظر : ترجمته في كتاب العواصم من القواصم.
(٢) انظر : العواصم من القواصم ص ١٦ .
(٣) وفيات الأعيان (٣/ ٤٨٣).

القيسي ، وأبو بكر القاسم بن عبد الرحمن الكومي ، وغيرهم كثير[١] .

أ ـ رحلته إلى الأندلس :

كان خروجه للأندلس من بيته يوم الثلاثاء من منتصف جمادى الأولى سنة ٥٠٧ هـ ، وكان عمره إذ ذاك واحداً وثلاثين عاماً ، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم في قرطبة أبو محمد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن عتاب القرطبي وقاضي الجماعة أبو عبد الله بن الحاج ، والفقيه أبو جعفر بن رزق ، وأبو مروان عبد الملك بن سراج ، وأبو الوليد بن رشد الجد ، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعد الأندلسي الإشبيلي ، وأبو علي الصدفي .

وتحصل على علوم غزيرة ، وتصدر للتعليم والتدريس ، وعين في القضاء ، ونبغ فيه ، واشتهر بعلمه وعبادته وجوده ، وكانت مؤلفات القاضي عياض أكثرها في الحديث الشريف ، ثم في التاريخ والطبقات ثم في الفقه ، ثم في القرآن[٢] .

ب ـ مؤلفاته :

١ ـ «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» ، وموضوعه في السيرة النبوية والعقيدة والأصول والتفسير .

٢ ـ «مشارق الأنوار على صحيح الآثار» ، وموضوعه تفسير غريب الحديث في الصحاح الثلاثة : «موطأ مالك» و«صحيحي البخاري ومسلم» ، فضبط أسماء الرجال والألفاظ ونبَّه على مواضع الأوهام والتصحيفات .

وفي هذا الكتاب قال الشاعر :

مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق بالمغرب

فأجابه آخر بقوله :

وما شرف الأوطانِ إلا رجالها وإلا فلا فضل لتُرب على تُرْبِ

٣ ـ كتاب «الإكمال» أكمل به كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» لشيخه المازري الفقيه المالكي المحدث المتوفى سنة ٥٣٦ هـ .

٤ ـ كتاب «منهاج العوارف إلى روح المعارف» وهو في شرح مشكل الحديث .

(١) المغرب والأندلس ، د. مصطفى الشكعة ، ص ١٢٤ .

(٢) المغرب والأندلس ، د. مصطفى الشكعة ، ص ١٢٥ ـ ١٣٦ .

٥ ـ كتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» في مصطلح الحديث.

٦ ـ كتاب «بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد».

٧ ـ كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة» في الفقه، وجمع في هذا الكتاب فوائد وغرائب.

٨ ـ كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» في العقيدة.

٩ ـ كتاب «الخطب» يحتوي على خمسين خطبة من خطب الجمع.

١٠ ـ كتاب «جامع التاريخ» في التاريخ والطبقات.

١١ ـ كتاب «تاريخ سبتة» وهو مسودة.

١٢ ـ «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك».

١٣ ـ «الغنية» وذكر فيه شيوخه وترجم لهم.

١٤ ـ «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان».

١٥ ـ «غنية الكتاب وبغية الطلاب»، في الأدب والإنشاء، وغيرها من المخطوطات والكتب التي تدل على سمو منزلته وسلامة منهجه.

لقد برع القاضي عياض في أمور عدة منها: القضاء والفقه والحديث واللغة والأدب، وكان شاعراً مجيداً، وله موهبة رائعة تدل على قدرته على نظم الشعر. ومن أبرع ما قاله القاضي عياض من القصائد تلك التي أنشدها، وهو يودع قرطبة في عام ٥٠٨ هـ، بعد أن تلقى العلم فيها من شيوخها، وتوطدت له صلات بأهلها ومودة وصداقة وأخوة أكيدة، فقال مودعاً المدينة الأندلسية ذات التاريخ العريق:

أقول وقد جدَّ ارتحالي وغرَّدت ... حُداتي وَزُمَّتْ للفراق ركائبي
وقد غمضتْ من كثرة الدمع مقلتي ... وصارت هواء من فؤاد ترائبي
ولم تبقَ إلا وقفة يستحثها ... وداعي للأحباب لا للحبائب
رعىٰ اللهُ جيراناً بقرطبة العُلا ... وسقىٰ رُباها بالعهاد السواكب
وحيَّا زماناً بينهم قد ألفته ... طليق المُحيَّا مُسْتلان الجوانب
أَإِخواننا بالله فيها تذكروا ... معها جار أو مودة صاحب

غدوْتُ بهم من برهم واحتفائهم كأني في أهلي وبين أقاربي[١]

ومن أشعاره الإخوانية التي وصف فيها ليلة جمعت من أصحابه كل ذي مكانةٍ وفضل وجاه:

سَمَحَ الزمانُ بليلةٍ غراءَ جامعةِ السرورْ
أجنتْ أكفُّ جُناتِها قَطْفَ الأماني والحبور
ما فضَّ طينُ ختامها فيما تقدم من دهور
دارت على فلك السعود بمثل أشباه البدور
ما إن ترىٰ إلا أميراً حاز إرثاً عن أمير
تَخِذُوا القلوب أسرة وثَوَوْا بها عوض السرير
فعليهم وقفَ العلاءُ وإن تُدوولَت الأمور[٢]

لقد اهتم الأمير علي بن يوسف بالقاضي عياض لما كان شابّاً وظهر ذكاؤه وانتشر صيته، فأكرمته دولة المرابطين، وهيأت له الأجواء للمزيد من التحصيل والتفقه في الدين.

وكان القاضي عياض لا يحب كثرة الأسفار والارتحال، ويلاحظ المتتبع لسيرته وحياته أنه كان قليل الارتحال بالقياس إلى معاصريه وأترابه من العلماء والفقهاء والمحدثين، وكانت له نظرية عجيبة في ذم السفر وبيان أضراره وعيوبه ونظمه في الشعر، وخالفه كثير من العلماء في نظرته المتفردة، وإليك الأبياتُ التي ذكرها في ذم السفر:

تقعَّد عن الأسفار إن كنت طالباً نجاةً ففي الأسفارِ سبعُ عوائق
تشوفُ إخوانٍ وفقدُ أحبةٍ وأعظمها يا صاح سُكنىٰ الفنادق
وكثرةُ إيحاشٍ وقلةُ مؤنسٍ وتبذيرُ أموالٍ وخيفةُ سارق
فقد كان ذا دهراً تقادم عهده وأعقبه دهر شديدُ المضايق
فهذا مقالي والسلام كما بدا وجرِّب ففي التجريب علمُ الحقائق[٣]

وهذه فلسفة غريبة في الأسفار أخالف القاضي عياض ـ رحمه الله ـ فيها؛ إلا أنني

---

(١) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة ص ١٣٦ ـ ١٤٦.
(٢) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة ص ١٤٩.
(٣) انظر: النبوغ المغربي، عبد الله كنون (٣/ ١٣١).

أقول إن الإنسان في أسفاره العلمية أو التجارية عندما يقضي مآربه عليه أن ينتقل إلى غيرها حتى يحقق أهدافه ، ويرجع إلى وطنه وقومه غانماً سالماً مفيداً لأهله وشعبه ، وقد ذكر العلماء في الأسفار فوائد فقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى … وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائدِ
تفريج همٍّ واكتسابُ معيشةٍ … وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ[١]

وقال الإمام الشافعي في الاغتراب أيضاً:

ما في المقام لذي عقْلٍ وذي أدبِ … من راحةٍ فَدَعِ الأوطانَ واغتربِ
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه … وانصبْ فإن لذيذَ العيش في النصب
إني رأيتُ وقوف الماء يفسده … إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطبِ
والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست … والسهمُ لولا فِراقُ القوسِ لم يُصب
والشمسُ لو وقفت في الفُلكِ دائمة … لملها الناسُ من عُجمٍ ومن عرب[٢]

وكان ممن عاصر القاضي عياض العلامة الشيخ يعلى أبو جبل ، وكان له رأي يخالف رأي القاضي عياض في السفر نظمه في هذه الأبيات :

سافر لتكسب في الأسفار فائدة … فرُبَّ فائدةٍ تُلقىٰ مع السفر
ولا تُقم بمكان لا تُصيبُ به … نصحاً ولو كنت بين الظل والشجر
فإن «موسى» كليم الله أعوزهُ … علم تكسَّبَهُ في صحبةِ الخضر[٣]

ومن شعره في الأشواق ما نظمه من أبيات واصفاً فيها شوقه وحنينه لزيارة المدينة المنورة فقال :

يا دار خير المرسلين ومن به … هدىٰ الأنامِ وخُصَّ بالآياتِ
عندي لأجلك لوعة وصبابة … وتشوقٌ متوقدُ الجمرات
وعليَّ عهدٌ إن ملأت محاجري … من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرنَّ مصونَ شيبي بينها … من كثرة التقبيلِ والرَّشقات
لولا العوادي والأعادي زرتها … أبداً ولو سعياً على الوجنات[٤]

---

(١) ديوان الشافعي ص ٥٧ .
(٢) ديوان الشافعي ص ٣٤.
(٣) انظر : المغرب والأندلس ص ١٥٠ .
(٤) المغرب والأندلس ، ص ١٥٠ .

لكن سأهدي من جميل تحية ... لقطين تلك الدار والحُجُرات
أذكى من لمسك المتفق نفحةً ... تغشاه بالآصالِ والبُكرات
وتخصه بزواكي الصلوات ... ونَوامي التسليم والبركات[1]

وله أبيات يصف فيها نفسه وشوقه إلى وطنه قالها في مدينة «داي» ببلاد المغرب سنة ٥٤١ هـ، وكان قد ناهز الخامسة والستين من العمر، وكان مرغماً على البقاء فيها ممنوعاً للرجوع إلى بلاده في زمن دولة الموحدين.

يعلم الله وأنا أمر على هذه الأبيات التي فجرت الأحزان في نفسي، وألهبت مشاعري وهيجت الأشواق إلى مدينتي «بنغازي» ومنطقتي «الحدائق»، وذكرتني ببلادي العزيزة ليبيا ما تملكت دموع الشوق إلى مسقط رأسي التي طالت مدة غيابي عليه أكثر من أربعة عشر عاماً، نصفها مسجوناً في بلادي والنصف الآخر قضيتها متنقلاً بين البلدان، ولم تكن تهمتي التي كلفتني هذه العقوبة القاسية التي أحتسبها عند الله إلا أن رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ﷺ.

إن أبيات القاضي عياض في غربته أضفت علي وأنا أترجم حياته مسحة من الحزن ولوعة من الأسى وإحساساً بالحنين إلى أهلي ووطني، وأحبتي وإخواني، فقال القاضي ـ رحمه الله ـ وهو يحاور حمامة مرت به:

أقمرية الأدواح بالله طارِحي ... أخا شجي بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة ... تهيج من شوقي ومن بُرحائي
لعلك مثلي يا حمامُ فإنني ... غريب «بداي» قد بُليتَ بداءِ
فكم من فلاةٍ بين «داي» و«سبتة» ... وخَرق بعيد الخافقين قواء
تصفقُ فيه للرياح خوافقٌ ... كما ضعْضعتني زفرةُ الصعداء
يذكرني سحُّ المياه بأرضها ... دموعاً أريقت يوم بنتُ ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها ... خَمائل أشجارٍ ترف لِرائي
لعلَّ الذي كان التفرق حكمهُ ... يجمعُ منَّا الشملَ بعد تنائي[2]

ج ـ عياض والقضاة:

رجع القاضي عياض إلى سبتة بعد أن أتم ما أراد من علوم من الأندلس، وكان

---

(١) أزهار الرياض (٤/ ١٨٠).
(٢) انظر: المغرب والأندلس، ص ١٥٠.

دخوله لمدينته الحبيبة إلى نفسه عام (٥٠٨ هـ) وفرح أهل سبتة بابنهم البار ، وتصدر للتعليم والتدريس بعد أن امتحنه علماء مدينة سبتة في الفقه المالكي ، وأصبح من أهل مجلس الشورىٰ ، وكان ذلك في الثانية والثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً ، وكانت تلك المرحلة سبباً في إعداده ليتسنم سدة القضاء الشريفة الرفيعة في سبتة(١) .

ولما كان عياض في التاسعة والثلاثين من عمره تولَّى القضاء ، وكان ذلك عام ٥١٥ هـ ، وظل متربعاً على كرسي القضاء في بلدة سبتة ستة عشر عاماً فسار فيها أحسن سيرة ، وكان محمود الطريقة مشكور الحالة ، أقام جميع الحدود على ضروبها ، واختلاف أنواعها ، وبنىٰ الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله ، وترك في بلده آثاراً محمودة(٢) .

ويبدو أن بعض الأمراء لم يعجبهم حزم وعدالة القاضي عياض ، كما خافوا من كثرة أتباعه وانتشار صيته ومحبة الناس له ، فلذلك عزموا على نقله إلى غرناطة ولم يذكروا سبباً مقنعاً ، مما جعل الفقيه أبا الحسن بن هارون المالقي يمدح القاضي عياضاً في أبيات سجلتها ذاكرة التاريخ :

ظلموا عياضاً وهو يَحْلُمُ عنهم ... والظلمُ بين العالمين قديمُ
جعلوا مكانَ الراءِ عيناً في اسمه ... كي يكتموه فإنه معلوم
لولاه ما فاحتْ بطائحُ سبتة ... والروض حول فنائها معدوم(٣)

وانتقل القاضي عياض إلى غرناطة ممتثلاً لأمر الأمير ، فهب أهل غرناطة لاستقباله كما يستقبل الفاتحون ، وبالله إنه الحق فاتح للعقول ومنور للقلوب ومطهر للنفوس بعلمه العزيز ، وخلقه المتواضع وسيرته العطرة .

وسار في الناس سيرة العدل ورفع الظلم ، وإحقاق الحقوق دون خوف من أمير أو وزير ، ونشط وضاق به ذرعاً من تعرضت مصالحه للخطر ، ولا يستطيع الحصول عليها إلا بالظلم ، وأسفرت مكايد الأشرار في غرناطة عن عزل القاضي النزيه في عام ٥٣٢ هـ ، ورجع إلى بلده ليكون بعيداً عن القضاء قريباً لطلاب العلم وحلقاته وقصده الناس وانتفع به العباد ونشر نور الكتاب والسنة في البلاد ، واستمر على تلك

---

(١) انظر : المغرب والأندلس ، ص ١٥٠ .
(٢) انظر : أزهار الرياض ، (٣/ ١٠).
(٣) انظر : المغرب والأندلس ص ١٦٢ .

الحالة الدعوية سبع سنين ، وفي أواخر دولة المرابطين عام ٥٣٩ هـ دعي ليتولى قضاء سبتة من جديد ، وهو في الثالثة والستين من عمره ، وكان شيخاً جليلاً وعالماً عظيماً ، وقاضياً حكيماً ، وأباً رحيماً ، فابتهج الناس لعودته ، وسار فيهم سابق سيرته ، وما مضت شهور قليلة حتى سقطت دولة المرابطين على يد دولة الموحدين البدعية ، فاضطر القاضي الجليل إلى خوض الحياة السياسية والحربية[١] .

د ـ معارك السياسة والحرب :

إن ظهور دولة الموحدين على يد المبتدع الكبير محمد بن تومرت كانت من أسباب سقوط دولة المرابطين ، فطبيعي جدّاً أن يخوض حرباً ضد دولة الموحدين ، وتولى قيادة جيوش الموحدين عبد المؤمن بن علي ؛ الذي استطاع بجيشه أن يحتل مدن المغرب مثل فاس ومراكش وغيرها .

ورأى القاضي عياض أن المصلحة العليا لمدينة سبتة وأهلها أن يبايع عبد المؤمن حفاظاً على الأعراض والأموال ، وتجنيب المدينة من الدمار الشامل وقبل أمير الموحدين تلك البيعة الاضطرارية ، وما أن قام محمد بن هود بثورته على الموحدين حتى استجاب أهل سبتة لذلك بزعامة القاضي عياض ، وقام السبتيون بقتل عامل الموحدين وأصحابه ، وسار القاضي عياض إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية في قرطبة وبايعه ، وكان متمسكاً بدعوةِ المرابطين ، وطلب منه أن يعين والياً على سبتة ، فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي ، وأصبحت بذلك مدينة سبتة خارجة عن الموحدين ، وعادت إلى حكم المرابطين .

إلا أن جيوش الموحدين استطاعت إخضاع مدينة سبتة وأهلها ، وأعادوا البيعة من جديد للموحدين الذين قبلوا ذلك ، واشترطوا إبعاد القاضي عياض عن مدينته إلى مراكش ، وقيل : تدلا ؛ إلى أن توفاه الله تعالى .

إن موقف القاضي عياض كان منسجماً مع عقيدته وعلمه ودعوته في محاربته للموحدين ؛ الذين اعتقدوا عصمة إمامهم محمد بن تومرت ، وغير ذلك من العقائد البدعية التي سنفصلها بإذن الله عند كلامنا عن الموحدين .

إن القاضي عياض ليس من أهل السنَّة وحسب ، ولكنه فقيه أهل السنة آنذاك على

---

(١) المصدر السابق نفسه .

الإطلاق ، وهو كذلك يرىٰ وجوب الوقوف أمام دعوة ابن تومرت ، وينبغي التخلص منها حتى حانت أول فرصة ، وإن يكن قد بايع فالبيعة آنذاك كانت حفاظاً على سلامة بلدته وأهلها. أما وقد لاحت الفرصة بخروج بعض المدن على سلطان الموحدين القائم على بدعة الإمام المعصومة ، أما وقد جرت الريح بما لا تشتهي السفن فإن من العقل الاستسلام ثم المبايعة وله حكم المضطر في ذلك.

وإن سلطان الموحدين عبد المؤمن كان على مقدرة عجيبة من الدهاء والمكر ، ولذلك رأىٰ لمصلحة دولته أن يضع الفقهاء والعلماء الذين يشك في ولائهم له في مراكش ، ومعهم من العودة إلى بلادهم ، أو يضعهم في مدن أخرى ليخدموا مخططات الدولة الناشئة[١].

هـ ـ وفاة القاضي عياض:

توفي ـ رحمه الله ـ في منفاه بعيداً عن وطنه في عام ٥٤٤ هـ ودفن في مراكش[٢] فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان على ما قدمه للإسلام.

هؤلاء بعض العلماء الذين كان لهم سبق ومكانة في دولة المرابطين وانتفع الناس بعلمهم وفقههم ، ترجمت لهم ترجمة متواضعة. كما برز في علوم الفقه ، والحديث كثير من العلماء والمحدثين في عصر دولة المرابطين ، منهم: أبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن المعروف بابن أبي حقون ، وله مختصر في أصول الفقه سماه بـ«المقتضب الأشفى من أصول المستصفى» ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي ، ويعرف بالرشاطي ، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ ، وله كتاب سماه «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار» ، ومنهم أيضاً أبو عبد الله بن حسين بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الأنصاري ، وأبو جعفر بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن محمد الخزرجي ، وقد ألف كتاباً في أحكام الرسول ﷺ سماه «آفاق الشموس وأعلاق النفوس» ، وكتاباً آخر سماه «مقاطع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان» ، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية المحاربي وله كتاب يُسمى بـ «الوجيز في التفسير» ، وكذلك برز في عصر علي بن يوسف من

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٢٧).

(٢) المصدر السابق نفسه.

الفقهاء وعلماء الحديث: أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد الأنصاري المعروف بابن أبي أحد عشر ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان ، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر المعروف بابن الدباغ ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة.

■ ■ ■

المبحث الرابع

علوم اللغة في زمن المرابطين

نبغ في علوم اللغة في عصر علي بن يوسف عدد كبير من العلماء البارزين في النحو وعلوم اللغة ، نذكر منهم : أبا محمد ، عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي ت ٥٢١ هـ ، وكان حجة في علمه عالماً متبحراً في النحو وعلوم اللغة ، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرؤون عليه ، ومن تواليفه كتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» وكتاب «التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة» وكتاب آخر في شرح الموطأ ، وبالإضافة إلى ذلك كان شاعراً مطبوعاً ، فمن نظمه قوله :

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم

وذو جهل ميت وهو ماشٍ على الثرى يظن من الأحياء وهو عديم

ومن أئمة اللغويين وأعلامهم في عصر علي بن يوسف ، أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري النحوي ، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة ، متقدماً في علم القراءات ، وأبو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله النحوي المعروف بابن اللجاش ، وكان عالماً متبحراً في النحو ، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميري ت ٥٥٥ هـ ومن تواليفه «نظم القرطين وضم أشعار السقطين» وجمع فيه أشعار «الكامل» للمبرد و«النوادر» لأبي علي البغدادي ، كما له كتاب «التوطئة في العربية» وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب ، وله في شرح أبيات جمل الزجاجي كتاب سماه «شفاء الصدور» ، وكتاب «الفوائد والفرائد» ، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن غزوان الفري ، وكان من أهل المعرفة بالنحو واللغة والعروض ، وله

أرجوزة مزدوجة في قراءة نافع و ثانية في قراءة ابن كثير ، ومن تواليفه كتاب «فوائد الإفصاح عن شواهد الإيضاح»[١] .

■ ■ ■

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ .

المبحث الخامس
علوم التاريخ والجغرافية في عصر المرابطين

ظهر في عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة والتاريخ، نذكر في مقدمتهم: أبا زكريا بن يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الصيرفي، كان من أعلام عصر علي بن يوسف في البلاغة والأدب والتاريخ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن علي بن يوسف أيام أن كان والياً على الأندلس، وألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطي كتاباً سماه «الأنوار الجليلة في تاريخ الدولة المرابطية»، وكتاباً آخر سماه «قصص الأنباء وسياسة الرؤساء» وهما مؤلفان لم يصلا إلينا مع الأسف، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الأول سوىٰ شذور نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م، وقد توفي ابن الصيرفي بغرناطة في سنة ٥٧٠ هـ.

وهناك أيضاً أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢ هـ، صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وهذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية يتضمن تراث القرن الخامس الهجري ١١١٠ م.

وأبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، ويعرف بابن علقمة، وهو من أهل مدينة بلنسية، وله كتاب سماه «البيان الواضح في الملم الفادح» وتوفي ابن علقمة عام ٥٠٩ هـ/ ١١١٤ م.

وأبو طالب عبد الجبار عبد الله بن أحمد بن أصبغ، وله كتاب يسمىٰ «عيون الإمامة ونواظر السياسة».

وأبو عامر محمد بن محمد بن أحمد بن عامر البلوي المعروف بالسالمي، وقد ألف كتاباً في التاريخ سماه «درر القلائد وغرر الفوائد».

وأبو نصر الفتح بن محمد القيسي الإشبيلي، والمعروف بالفتح بن خاقان، ومن

تواليفه كتاب «قلائد العقيان في محاسن الأعيان» ، وكتاب «مطمع الأنفس ومسرح التأنس» وكتاب «رواية المحاسن وغاية المحاسن» .

وأبو القاسم خلف بن عبد الملك ويعرف بابن بشكوال ، وكان من أعلام المؤرخين في عصر المرابطين ، وأشهر تواليفه كتابه المعروف بـ «الصلة» الذي جعله تتمة لكتاب ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس ، ومن تواليفه أيضاً كتاب «الغوامض والمبهمات» في اثني عشر جزءاً ، وكتاب «المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل» في واحد وعشرين جزءاً ، وقد توفي ابن بشكوال في رمضان ٥٧٨ هـ .

وفي مجال الجغرافية نبغ عدد من كبار جغرافيي الأندلس والمغرب في عصر المرابطين ، نذكر منهم : الشريف أبا عبد الله محمد الإدريسي ، صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ، وقد ألف الإدريسي لرجار الثاني صاحب صقلية ، ولذا يعرف هذا الكتاب في كتب الجغرافية العربية باسم الرجاري .

ومن جغرافيي عصر المرابطين عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري صاحب كتاب «المسهب في غرائب المغرب» وقد اتخذ بنو سعيد كتابه أساساً لكتابهم المعروف باسم «المغرب في حلى المغرب»[١] .

■ ■ ■

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٠١ ـ ٤٠٣ .

المبحث السادس
علوم الطب في عصر المرابطين

تقدَّمت العلوم الطبية والصيدلانية في عصر المرابطين تقدماً يشهد له الأسماء والأعلام التي تألقت في حضارة الأندلس والمغرب ، وأشهرها ابن زهر وهو اسم طبيب أندلسي من أعظم أطباء الإسلام ، ممن تركوا بصماتهم واضحة في تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء.

وينتسب أبو مروان عبد الملك بن زهر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية ، عميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن الأزهر الأيادي الإشبيلي ، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين في علم الحديث في إشبيلية.

وقد رحل أبو مروان في شبابه إلى المشرق ، وسمع في القيروان ومصر ، وتتلمذ على أيدي علماء المشرق في الطب ، ورجع إلى الأندلس ، وأصبح من أشهر علماء الطب فيها ، وتوفي في إشبيلية ، وورثه في علم الطب ابنه أبو العلاء الذي تبوأ مكانة عظيمة في دولة المرابطين ، ومن تواليفه «الخواص» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح» في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحاق في كتاب المدخل إلى الطب ، وكتاب «النكت الطبية» وكتاب «الطرر» ومقالة في تركيب الأدوية.

وتوفي أبو مروان في قرطبة ٥٢٥ هـ وحمل إلى إشبيلية ودفن بها ، وأمر الأمير علي بن يوسف بجمع كتبه ونسخها ، وتم ذلك عام ٥٢٦ هـ وورث ابنه أبو العلاء من والده صناعة علوم الطب ، ونبغ في هذا المجال ، ولم يكن في زمانه من يماثله أو ينافسه ، وكان له حظوة لدى الأمراء المرابطين ، فقد صنف للأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين كتاباً سماه «الاقتصاد في صلاح الأجساد» ، ومن تواليفه أيضاً كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» وقد ألفه القاضي أبو الوليد بن

رشد ، وهذا الكتاب يعد من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطىٰ ، وله أيضاً كتاب «الأغذية» ، ومقالة في علل الكلىٰ ، ورسالة في علتي البرص والبهق ، وتوفي هذا العالم في عام ٥٥٧ هـ في إشبيلية .

ومن الأطباء الذين برعوا في عصر علي بن يوسف : أبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي ، وله في الطب كتاب سماه «الشفا» ، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن سعيد السعدي وغيرهم .

ومما يؤكد اهتمام دولة المرابطين بالطب وجود منصب يعرف برئيس الصناعة الطبية ، وهو منصب هام يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة ، إذ كان فيما يبدو المسؤول الأول أمام الأمير في صناعة الطب ، وما يتعلق بها من الأدوية والعقاقير[١] .

أمراء دولة المرابطين :

١ ـ أبو بكر عمر اللمتوني : ٤٤٨ ـ ٤٨٠ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١٠٧٨ م .

٢ ـ يوسف بن تاشفين ٤٨٠ ـ ٥٠٠ هـ/ ١٠٧٨ ـ ١١٠٦ م .

٣ ـ علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ/ ١١٠٦ ـ ١١٤٢ م .

٤ ـ تاشفين بن علي : ٥٣٧ ـ ٥٤٠ هـ/ ١١٤٢ ـ ١١٤٥ م .

٥ ـ إبراهيم بن تاشفين بن علي : ٥٤٠ هـ ـ ١١٤٥ م .

■ ■ ■

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ .

المبحث السابع
أسباب سقوط دولة المرابطين

١ ـ ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حكام المرابطين وأمرائهم في أواخر عصر علي بن يوسف ، وكان للمجتمع الأندلسي تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين ؛ الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا ، فتحقق قول الله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء : ١٦][١] .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذي يجدون المال ، ويجدون الخدم ، ويجدون الراحة ، فينعمون بالدعة والراحة ، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن ، وترتع في الفسق والمجانة ، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات ، وتلغ في الأرض والحرمات ، وهم إذا لم يجدوا مَنْ يَضْرِب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها ، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب العليا إلا بها ولها ، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي ، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها ، فتهلك ، وتطوىٰ صفحتها» .

والآية تقرر سنة الله هذه في إهلاك من انغمس في الشهوات ، وأسرف في الملذات ، وتحلل من القيم والأخلاق ، ولازم الفسق والانحلال والفساد .

٢ ـ ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال ، وبدأت دولة المرابطين في آخر عهد الأمير علي بن يوسف تفقد طهرها وصفاءها الذي اتصف به جيلهم الأول ، مما جعل الرعية المسلمة تتذمر من هذا الانحراف والفساد ، وتستجيب لدعوة

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ .

محمد بن تومرت الذي أظهر نفسه للناس بالزاهد والناسك والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

٣ ـ انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي الذي سبب نزاعاً عنيفاً على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف، كما تطلع مجموعة من الأمراء إلى منصب الأمير علي ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقاً داخليّاً، ففدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت ثورات عنيفة في قرطبة، وفي فاس وغيرها، ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية، وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

٤ ـ الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية مذاهب السنة تعصباً لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير؛ مما جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير علي بن يوسف كان السبب الأول في سقوط المرابطين[١]، ولقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تذمر الرعايا، وإضعاف شأن الإمارة، فقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال، وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة، وكان ذلك سبباً في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة، قال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني:

أهل الرياء لبستم ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم[٢]

٥ ـ ومن أهم العوامل التي أسقطت دولة المرابطين: فقدها لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومحمد بن مزدلي ومحمد بن فاطمة، ومحمد بن الحاج، وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو، فمن لم يستشهد

---

(١) الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين ص ٩٨.
(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين، للدكتور مراجع الغناوي ص ٣١.

من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي ، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادىء والقيم التي حملها في الجيل الذي بعده ، فاختلفت قدرات الجيل الذي بعدهم واستعداداتهم ، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة[١] .

٦ ـ ومن أهل العوامل التي أنهكت دولة المرابطين ، أنها مرت بأزمة اقتصادية حادة ، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات ، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب ، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد ؛ مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان ، ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام ٥٢٤ ـ ٥٣٠ هـ[٢] .

٧ ـ ومن أهم الأسباب الرئيسية في زوال دولة المرابطين ـ في نظري ـ صدامها المسلح مع جيوش الموحدين ، ورأيت أن أفرد له مبحثاً مستقلاً[٣] ويكون ذلك عند دراسة دولة الموحدين .

■ ■ ■

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين ، للدكتور مراجع الغناوي ص ٣١ .
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) نفس المصدر السابق .

نتائج البحث

١ ـ إن في معظم القبائل في العالم الإسلامي رجالاً لهم عقول راجحة وبعد نظر وتقدير للأمور ، وفي أغلب الأحيان يتولى أمر القبيلة أرجح الناس عقلاً ، وأكثرهم جوداً ، وأعظمهم شجاعة ، وأخلصهم لأهله وعشيرته ، وشخصية الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي خير دليل على ما قلت ، ولذلك من الدروس العميقة من هذا البحث وأكثرها أهمية دور زعماء القبائل في دعوة قبائلهم وعشائرهم ، وإيجاد الحماية اللازمة للدعاة إلى الله في أواسط القبائل ، فعلى الحركات الإسلامية العاملة أن توثق علاقاتها مع هذه الشريحة من المجتمع ، وتحرص على دعوتها للإسلام لتنصهر في الدعوة الربانية التي تبذل جهدها لتحكيم شرع الله تعالى.

٢ ـ إن أبا عمران الفاسي العالم الرباني والفقيه المالكي سيد الفقهاء في القيروان في زمانه يعتبر واضعَ الخطوط العريضة لدولة المرابطين ، وكان ـ رحمه الله ـ يميز بين العمل العلني في الدعوة وفقهها وتعليم الناس ، وبين العمل السري لإقامة دولة سنية ، وكان ـ رحمه الله ـ على اتصال بفقهاء أهل السنة في مدن وقرى الشمال الإفريقي ، ولذلك لما تعرف أبو عمران الفاسي على الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم ، وعلم بأحوال قومه وحاجتهم لمنهج الإسلام ومن يربيهم على ذلك ، اتصل بأخيه الشيخ وجاج بن زلوا اللمطي فقيه المالكية بالسوس الأقصى ، وكان فقيهاً صالحاً يقيم بمدينة ملكوس ، وأطلعه على المهمة التي جاء من أجلها الأمير يحيى ، فاختار لهذه المهمة تلميذه الذكي الفقيه العابد الألمعي عبد الله بن ياسين الجزولي ، صاحب العلوم المتنوعة والشخصية الجذابة التي تجري في دمائها صفات الدعاة المتعددة ، وسار ـ رحمه الله ـ وفق خطة محكمة بصبر وحلم وشجاعة في قبائل الملثمين.

٤ ـ كانت مرحلة التعريف التي نفَّذها الإمام عبد الله بن ياسين في قبائل جزولة ولمتونة وغيرها من أصعب المراحل ، وكادت تودي بحياته ، واستطاع أن يحارب

مظاهر الشرك والجهل في مجتمع صنهاجة الصحراوي ، وأن يتحمل الكثير من أجل تعليمهم الإسلام وأركان الإيمان ومقامات الإحسان.

٥ ـ وفي مرحلة التكوين اختار الإمام عبد الله بن ياسين رباطة على مصب نهر السنغال بعيداً عن نفوذ الأمراء وأصحاب الجاه والأموال ، وشكل نخبة صفوية ألزمها بلوائح تنظيمية ومبادىء سلوكية ، واجتهد في تربيتها ، وشكل منها مجلس الشورى.

٦ ـ وفي مرحلة التنفيذ بعد أن أصبحت للإمام ابن ياسين شوكة وقوة ومنعة استطاع أن يقضي على قوة الشر في قبائل لمتونة وجذولة وغيرها ، وأن يوحدها على منهج الإسلام وعقيدة الرحمن ودعوة الإيمان.

٧ ـ كانت تربية عبد الله بن ياسين لأتباعه رفيعة المستوى غرست في نفوسهم حب الشهادة ، والتلذذ بمتاعب الجهاد والحرص على هداية الناس ، واختار لأتباعه اسماً يدل على الرابطة السامية التي ربطت هذه الجموع التي كانت متناحرة وأصبحت متآخية متعاونة ألا هو «المرابطون».

٨ ـ أصبح فقهاء المغرب الأقصى والأحرار المتطلعون لتحكيم شرع الله في مدنهم يتصلون بالمرابطين ، ويطلبون منهم مساعدتهم لإزالة الظلم الواقع عليهم من حكام زناتة ، وبالفعل لبَّى المرابطون هذا النداء ، وتحركت جيوشهم القوية لإزالة المظالم ونشر العدل ، والقضاء على دولة برغواطة الملحدة ، وعلى بقايا الروافض ، وأصبحت جبهاتهم متعددة نحو السنغال والنيجر ونحو فاس ومكناس وطنجة ، وحققوا انتصارات رفيعة ، ودخلت أمم من الزنوج والوثنيين في الإسلام.

٩ ـ استمر الإمام ابن ياسين يقود معارك التوحيد للمغرب الأقصى من أجل إقامة دولة سنية ، واستشهد في تلك المعارك بعد أن ترك خلفه رجالاً آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم وروعة أهدافهم.

١٠ ـ تولى قيادة المرابطين بعده الإمام أبو بكر بن عمر الذي تميز بزهده وعبادته وبساطته وحبه للجهاد والاستشهاد ، وكان إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف مقاتل من المرابطين ، فوضع هذا القائد الخطوط الأولى لدولة المرابطين ، وأناب ابن عمه على المغرب ، وتحرك بجيش عظيم نحو الصحارى القاحلة لنشر الإسلام

في النيجر والسنغال ومالي ، وأبلى بلاءً عظيماً ، ودخلت أمم وشعوب وقبائل لا يحصيها إلا خالقها في دين ودعوة الإسلام الخالدة ، وعندما رجع إلى ابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين في المغرب وجده قد حقق فتوحات عظيمة ، ووحد البلاد وقضى على الفساد ، وأزال الظلم ونشر العدل ، فتنازل عن الإمارة لابن عمه يوسف بعد أن أوصاه بتقوى الله وذكره قدومه على الله ، ثم ودعه ، ودخل في الصحراء الكبرى بجيشه الداعي إلى رضوان الله وصراطه المستقيم ، وأكرمه الله بالشهادة في قلب الصحراء الكبرى .

١١ ـ تولىٰ أمر المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين فنظم المدن وأرسىٰ نظم الحكم وخطط للدولة المرابطية ، فشرع في إنشاء دواوينها ومجالسها وإداراتها وجيوشها ، ووضع الأمراء والفقهاء والقضاة على المدن والقرىٰ ، وأشرف على تنفيذ أحكام الله ، وأثبتت الأيام والحروب والمحن التي مر بها على أنه قائد عسكري وسياسي من الطراز الأول ، وأحبه المرابطون ، والتفوا حوله ، وتطايرت الركبان في نشر سيرته ، وأحبه المسلمون .

١٢ ـ أصاب المسلمين في الأندلس أضرار جسيمة بسبب خنوع ملوك الطوائف للنصارىٰ وضعفهم في الحكم ، مما عرض ممالك الأندلس لأطماع النصارىٰ الحاقدين الذين جاسوا خلال الديار في الأندلس يقتلون ويذبحون ويسبون ، وأصبحت ممالك الأندلس الإسلامية تتساقط في أيديهم مدينة بعد مدينة ، وقرية إثر قرية ، وحصناً خلف حصن ، وركب المسلمين فزع عظيم ، فاضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا الغوث والنصر من الأمير الرباني والقائد الميداني يوسف بن تاشفين ، وكان قرار حكام الأندلس في استدعاء يوسف حكيماً ، وتبناه الملك المعتمد بن عبّاد بكل ما يملك من حجة وقوة ، ولما قالوا للمعتمد : سيضم الأمير يوسف إليه الأندلس ، فقال قولته المشهورة التي أصبحت مثلاً رائعاً على مر العصور وكر الدهور ، تتعلم منه الأجيال الوفاء لدينها والولاء لعقيدتها حيث قال : «رعي الإبل ولا رعي الخنازير» ، وقال المعتمد لابنه : إن استدعاء الأمير يوسف أمر يرضي الله تعالى ، ولن أكون أبداً سبباً في ضياع ديار المسلمين .

١٣ ـ استحباب الأمير يوسف لدعوةِ إخوانه في العقيدة ، وعرض الأمر على أهل شورته ، وحصل على موافقة العلماء والفقهاء ورجال الدولة المرابطية ، وحرك كتائب المرابطين بفرسانها الشجعان وجنودها الأبطال عبر المضيق ، وقاد الأمير

يوسف كتائب المسلمين في الأندلس ، ووضع مع أركان جيشه خطة محكمة للقضاء على جيش ألفونسو النصراني ، وسطر المرابطون في تاريخ أمتنا ملاحم العقيدة والفداء في معركة الزلاقة ، وانتصر المسلمون ، وانهزم النصارىٰ ، وحفظ الله الإسلام في الأندلس لقرون بعد تلك المعركة التاريخية ، وبعد هذا النصر الرائع والنفيس الذي حققه المرابطون ، ورفعوا به راية الإسلام في سماء الأندلس ؛ رجع الأمير يوسف إلى المغرب وترك الغنائم لملوك الأندلس الذين اختلفوا بعد ذلك ، وكادوا أن يضيعوا الإسلام من جديد في تلك الديار ، فطلب فقهاء الأندلس من الأمير يوسف ضم الأندلس لحكم المرابطين ، وشجعه علماء وفقهاء المغرب ، وحصل على فتاوىٰ من علماء المشرق من أمثال أبي بكر الطرطوشي في مصر ، وأبي حامد الغزالي في العراق.

١٤ ـ استطاع يوسف بن تاشفين أن يفتح مدن الأندلس ، وأن يضم الممالك إلى دولة المرابطين ، وأسر بعض ملوك الأندلس الذين ثبت تعاونهم مع النصارىٰ ووضعهم في المغرب إلى أن توفاهم الله ، وبذلك قضىٰ على مهزلة ملوك الطوائف.

١٥ ـ حاول المستشرقون أن يلطخوا دولة المرابطين وخصوصاً الأمير يوسف ؛ إلا أنهم اصطدموا بحقائق التاريخ الناصعة التي دلت على عظمة الأمير يوسف ودولته الميمونة ، وحاول المستشرق رينهارت دوزي أن يشوه دولة المرابطين ويصفها بالبربرية ، والتخلف ، ويصف السلطان علي بن يوسف بالرجل التافه ، ويمدح ملوك الطوائف في الأندلس الذين تحالفوا مع النصارىٰ للقضاء على الإسلام والمسلمين ، وشنّ حملة مسعورة على جهاد المرابطين الذين حققوا وحدة صفوف المسلمين وهزموا أعداءهم النصارىٰ ، وخلصوا المسلمين من هؤلاء الملوك الضعفاء. لقد شتم دوزي المستشرق الأمير يوسف ووصفه هو وابنه بأنهم تافهون ، وأنا لا أستغرب من دوزي المستشرق أن يفقد توازنه ، ويخرج عن نهج المؤرخين النزيه ، لقد كان المستشرق دوزي ملحداً زنديقاً عدواً للإسلامِ والمسلمين ، كيف تريده أن يتحمل شعارات المرابطين الدالة على سمو عقيدتهم وطهارة منهجيتهم ، وكأني بالمستشرق دوزي وهو يقلب الدينار المرابطي والمكتوب على وجهيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقد اشتاط غضباً وفقد عقله وغرق في كفره ، فأباح لنفسه الكذب والافتراء والزور ليهدئ من روعه وانفعاله ، كيف يكون تافهاً من يوحد

المغرب الأقصى ويضم إليه الأندلس ويقضي على ملوك الطوائف؟ لقد وصف المؤرخون المنصفون الأمير يوسف بأنه كان حازماً ضابطاً للنفس ماضي العزيمةِ عالي الهمة ، تحركه عقيدته الإسلامية وشريعته الربانية ، أما دولة المرابطين فقد أثبت التاريخ أنها دولة حضارة وعلم وثقافة ، أما ما قام به أعداؤهم في وصفها بالتخلف الحضاري والتعصب المذهبي فهو قول باطل لا تسعفه الأدلة عارٍ من الحقائق ، وما كان دافع خصومهم من الموحدين والأندلسيين الذين حملوا عليهم حملة ظالمة إلا من باب التعصب الديني أو المذهبي ، أو كراهية سياسية أو قومية حاولوا النيل من دولة المرابطين السنية ، وتابع أولئك الأقوام الذين مضوا بعض المستشرقين أمثال المتعالم الحاقد الهولندي راينهارت دوزي ، وتابعه على ذلك نفر من المعاصرين أمثال أرشيبالد لويس في كتابه «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط» .

١٦ ـ يعتبر ضم الأندلس إلى دولة المرابطين من أعظم أعمال الأمير يوسف بن تاشفين الجهادية .

١٧ ـ كانت نظرة دولة المرابطين إلى الخلافة الإسلامية العباسية في بغداد صائبة صحيحة ؛ لكونها منبثقة من منهج أهل السنة والجماعة ، ولذلك بايعوا الخليفة العباسي ، ورفعوا أعلامه وشعاره ، ودعوا له على منابرهم .

١٨ ـ كانت علاقة الدولة المرابطية بالخلافة العبيدية في مصر عدائية لاختلاف العقائد والمناهج والمذاهب ، ولذلك حرص المرابطون على اقتلاع بقايا الرفض والتشيع من دولتهم .

١٩ ـ كانت علاقة دولة المرابطين بالدولة الزيرية الصنهاجية ذات أبعاد استراتيجية تعاونية ، بسبب وحدة المنهج والمعتقد والمذهب والقرابة التي بين زعماء الدولتين ، ولذلك نجد تنسيقاً في البحر المتوسط للإغارة على أساطيل النصارىٰ ، ونجد دعماً اقتصادياً من دولة تميم بن المعز الزيري لدولة المرابطين عندما خاضوا جهادهم المقدس ضد النصارىٰ .

٢٠ ـ أما علاقة بني حماد بالمرابطين فهي محفوفة بالتخوف من الطرفين ، حيث نجد أن لبني حماد أطماعاً توسعية تستهدف أطرافاً من دولة المرابطين كما نجد أن المعارضين الأندلسيين للمرابطين استقروا في حماية بني حماد ، إلا أن سياسة الأمير يوسف مع بني حماد تميزت بالحكمة وبعد النظر والابتعاد عن الصدام ، مراعياً في

ذلك أموراً عديدة منها قرابتهم واتحادهم في المنهج والمعتقد والمذهب.

٢١ ـ كانت علاقة المرابطين مع ملوك النصارىٰ عدائية ، أما مع أهل الذمة فكانت محكومة بحكم الشريعة فيهم ، فقامت على العدل والإنصاف.

٢٢ ـ كانت الأندلس مليئة بالشعراء والأدباء والفقهاء ، إلا أن الولاء والبراء ضاع مفهومه عند كثير من ملوكهم.

٢٣ ـ استطاع الأندلسيون أن يثروا دولة المرابطين بالشعراء والأدباء ، وأن يؤثروا في كثير من جوانبها المعمارية والفنية والثقافية.

٢٤ ـ الحضارة الإسلامية في زمن دولة المرابطين امتزجت بالعناصر الإفريقية والعربية والأندلسية ، مما جعلها متميزة في كثير من جوانبها الحضارية.

٢٥ ـ كان في زمن المرابطين علماء وفقهاء لا زال أثرهم في الأمة سارياً إلى يومنا هذا من أمثال الفقيه القاضي أبي بكر بن العربي ، والوليد بن رشد ، والقاضي عياض ، والمحدث الفقيه أبي علي الصدفي ، وغيرهم كثير.

٢٦ ـ كان النظام العسكري والقضائي والإداري والمالي مواكباً لعصره ، منضبطاً بأحكام الإسلام في دولة المرابطين.

٢٧ ـ استطاع أسطول المرابطين أن يحقق الأمن والأمان لمسلمي الشمال الإفريقي ، وأن يكبّد النصارىٰ في جنوب البحر المتوسط خسائر هائلة.

٢٨ ـ إن اهتمام الأمير علي بن يوسف بالزهد والعبادة ، وتسليمه أمور الملك في آخر أيامه للأمراء خطأ عظيم كلف دولة المرابطين متاعب عظيمة ، ومن أعظم الأخطاء التي وقع فيها الأمير علي عدم أخذه بنصيحة وزيره الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي أشار على الأمير علي بقتل محمد بن تومرت الكذّاب زعيم الموحدين وقال للأمير: «هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع في بلاده المصامدة ثار علينا منه شر كبير».

إلا أن الأمير علي بن يوسف رفض قتله ، فلما يئس مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت ، فقال أمير المسلمين: نسجنه ولم يتعين لنا

عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل ، ولكن نأمره يخرج عنها من البلد ، وليتوجه حيث شاء»[١] .

٢٩ ـ إن من أعظم أسباب سقوط الدول الذنوب والمعاصي ، وارتكاب الكبائر والمظالم .

٣٠ ـ في زمن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كانت مقومات النصر متجسدة في دولته ، ومن أبين وأهم ما ظهر لي في هذا البحث من مقومات النصر :

أولاً: الإعداد قبل المعركة ، **ثانياً**: معرفة قوة العدو وإمكاناته ، **ثالثاً**: التوجيه المعنوي ، **رابعاً**: التعمية على العدو ، **خامساً**: التحام القيادة مع الشعب ، **سادساً**: متانة العقيدة ووضوحها ، **سابعاً**: القيادة المثلى ، **ثامناً**: عدم القتال لدنيا ، **تاسعاً**: الحكمة في اتخاذ القرارات ، **عاشراً**: صفات المجاهدين الخلقية والروحية ، التي مهدت لهم طريق النصر .

٣١ ـ من أخطر ما تمر به الدول والحركات عدم قدرتها على توريث أفكارها ومناهجها وعقيدتها للجيل الذي بعدها .

٣٢ ـ إن الاستهانة بالخصوم تؤدي إلى انهزام المستهزئ ، وانتصار المستهزأ به .

٣٣ ـ كان لنفوذ المرابطين في بلاد الأندلس أثر واضح المعالم في الحروب الصليبية في الشام ، إذ إن دخولهم الأندلس منع الممالك الصليبية التي كانت تتجه إلى بلاد الشام ، بل إن ظهورهم في تلك المرحلة التاريخية في المغرب والأندلس قد حال دون اشتراك القوىٰ الأوربية بكل ثقلها في الحروب الصليبية في الشرق ، وبذلك قدم المرابطون خدمات عظيمة وجليلة للشرق الإسلامي[٢] .

٣٤ ـ كانت حضارة المرابطين في الأندلس والمغرب مقصداً لأبناء العلم من الأوربيين الذين توالوا وتوافدوا على الأندلس لتلقي العلوم والصناعات ، بل إن بعض ملوكهم أرسل بعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك ، وكل ما يؤدي إلى سير الأمور في الدولة والسير بها في مضمار الحضارة والتقدم .

---

(١) موسوعة المغرب العربي (٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩) .
(٢) موسوعة المغرب العربي (٢/ ١٨٨ ـ ١٨٩) .

٣٥ ـ تركت دولة المرابطين التي لم يصل عمرها الزمني إلى مئة ، وعام وهي فترة قصيرة في عمر الدول ؛ آثاراً واضحة جلية في جميع المجالات ، بل إن تلك المآثر الحضارية تعدت حدود دولة المرابطين إلى أرجاء أخرى من العالم الإسلامي .

٣٦ ـ إن ظهور دولة الموحدين وانقضاضها بعنف على دولة المرابطين تسبب في ضعف النواحي الحضارية والثقافية والسياسية والعسكرية عند المغاربة عموماً ، وفتح مجالاً لملوك النصارىٰ للقضاء على الإسلام في الأندلس فيما بعد .

٣٧ ـ إن للأفراد آجالاً محدودة ، وكذلك لكل دولة أجل محدود ، فإذا جاء أجلها لا تستأخر ولا تستقدم .

٣٨ ـ سنة الله جارية في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء ، ونزع الملك ممن يشاء وإعطائه لمن يشاء .

■ ■ ■



القسم الثاني

صفحات من التاريخ الإسلامي
دَوْلَةُ المُوَحِّدينَ
سقوط الأندلس الإسلامية





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، لك الحمدُ حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت .

وبعد . . . : فهذا هو القسم الثاني من كتابي ، والذي يتحدث عن دولة الموحدين فيعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد بن تومرت ، ويوضح عقيدته المنحرفة والأسس الفكرية التي قامت عليها دعوته الباطلة ، ويبين أعماله الظالمة الجائرة ، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين ، ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء وهتك الأعراض عند الموحدين ، ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه ، ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السنة والجماعة حتى تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة ، ويعطي نبذة مختصرة عن سلاطين الموحدين ابتداءً من عبد المؤمن بن علي الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ، ووحد الشمال الإفريقي بقوة السلاح ، والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين

سار أبناؤه وأحفاده عليها من بعده ، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأراك التي قادها أبو يوسف يعقوب المنصور في عام ٥٩١ هـ ، فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها والنتائج التي ترتبت عليها ، ويثني على المجهودات العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم من منهج أهل السنة والجماعة ، ويتحدث عن طلب بصلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية ، ويذكر الأسباب التي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين ، والوقوف معه في جهاده ضد النصارىٰ .

ويسلط الأضواء على الثورات التي قامت في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين ، وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات وما هي أسبابها وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الإفريقي .

ويقف وقفات متأملة مع أسباب سقوط دولة الموحدين ، فيشير إلى السنن الإلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها .

ويتحدث عن الدويلات في الأندلس والشمال الإفريقي ، فيتكلم عن مملكة غرناطة وأسباب صمودها ضد النصارىٰ ، ودور المرينيين حكام المغرب الأقصى في الوقوف مع مسلمي الأندلس ، ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ، ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الأندلس ، ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الأقصى ومنهجها التي قامت عليه ، ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الإفريقي ، ويتحدث عن أسباب سقوطها ، وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم ، ثم كيف انتزعه السعديون منهم ، ويثني على أعمال السلطان عبد الملك السعدي الذي حقق نصراً عزيزاً على نصارىٰ البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام ٩٨٦ هـ والذي استشهد في المعركة ، وتولى أخوه أبو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده ، ويمضي بالقارئ الكريم إلى فترة انهيار الدولة السعدية ؛ ليقف على أسباب سقوطها ومجيء الأشراف العلويين لحكم المغرب الأقصى .

ويتعرض لدولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ، ويتحدث عن تنظيمهم الإداري وأسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ، ويقف على أسباب سقوطها ، وكيف جاء

العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب ، وحرروا طرابلس من فرسان القديس يوحنا .

إن هذا الجهد المتواضع إنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية ، فإن كان خيراً فمن الله وحده ، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك ، والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه .

الهدف من كتابة تاريخ دولة الموحدين :

١ ـ بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة ، وعقيدة فاسدة .

٢ ـ أهمية تحصين الأمة وأجيالها بعقيدة أهل السنة والجماعة ، وتربية أبنائها عليها حتى يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تخالف القرآن الكريم ، وسنة سيد المرسلين ﷺ ، وإجماع العلماء الراسخين .

٣ ـ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها ، وأسباب سقوطها ، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات .

٤ ـ التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارىٰ الحاقدين .

٥ ـ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافه .

٦ ـ كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الإصلاح ، وجعلتهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام .

٧ ـ بيان أن حركات الإصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة هي التي سارت ، وتسير على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات .

٨ ـ بيان أن الذين كفّروا المسلمين ، وسفكوا دماءهم ، وهتكوا أعراضهم بأنهم قادة في الفساد والدمار والإجرام .

هذا ؛ وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول: محمد بن تومرت ، ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم.

المبحث الثاني: البعد التاريخي عند ابن تومرت.

المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.

المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت.

المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.

الفصل الثاني: ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: عبد المؤمن بن علي.

المبحث الثاني: أبو يعقوب يوسف.

المبحث الثالث: أبو يوسف يعقوب المنصور.

المبحث الرابع: الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر.

الفصل الثالث: الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين. ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: مملكة غرناطة.

المبحث الثاني: دولة بني مرين.

المبحث الثالث: دولة بني عبد الواد.

المبحث الرابع: الدولة الحفصية.

ثم الخلاصة.

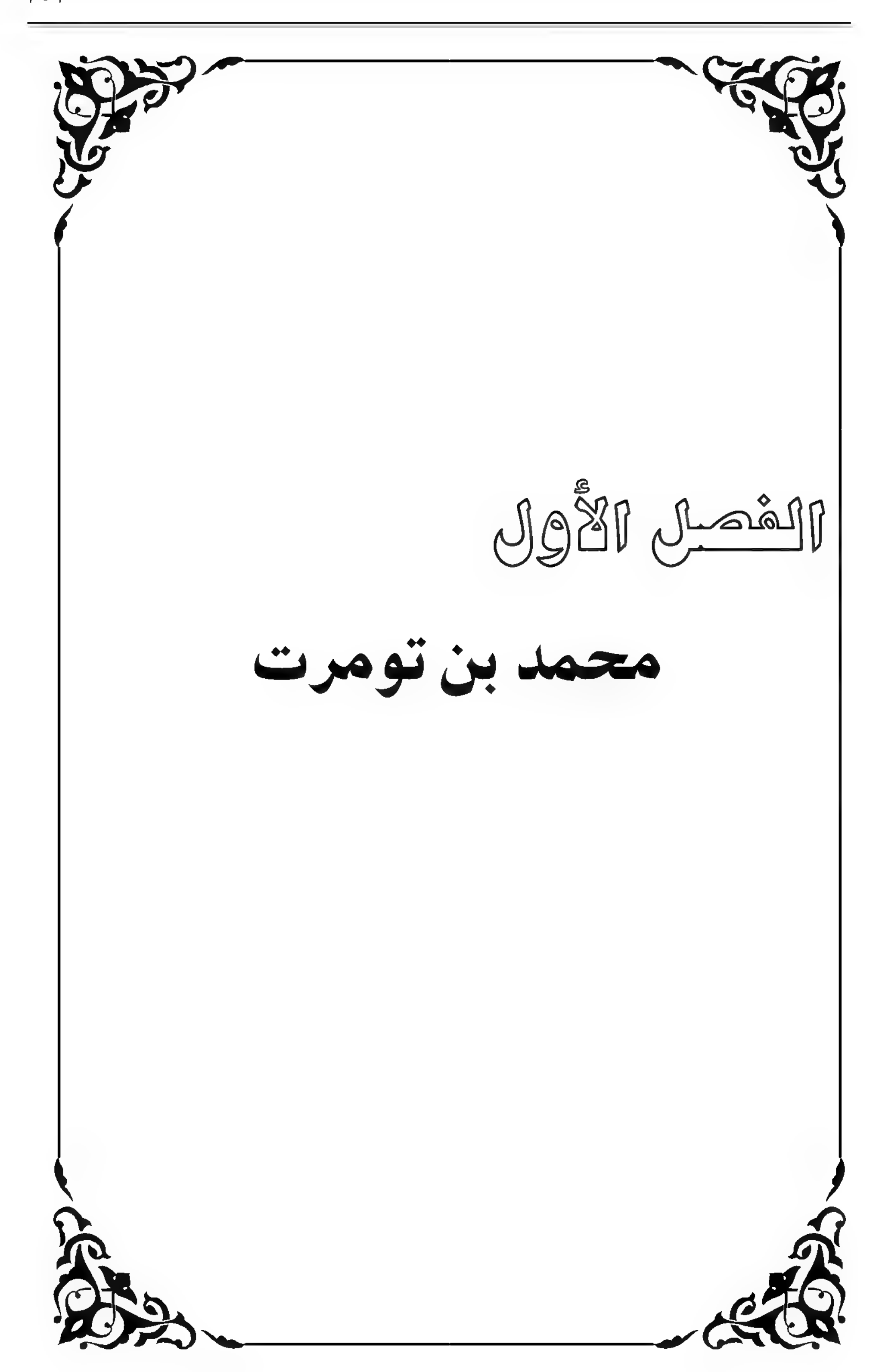
وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

إنه ولي ذلك والقادر عليه ، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصَّلابيّ



الفصل الأول

محمد بن تومرت

المبحث الأول
اسمه ونسبه ، ورحلاته في طلب العلم ، وشيوخه

أ ـ اسمه ونسبه :

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت فبعضهم قال بأنه عربي ، وينتهي نسبه إلى رسول الله ﷺ عن طريق ابنته فاطمة من زوجها علي ، والبعض الآخر يجعل نسبه بربرياً صرفاً. والبعض الآخر يجعله نسباً مختلطاً بين البربر والعرب ، هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب ، قرشي الأصل من صلب الرسول ﷺ[١] .

والمتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعة واحدة ؛ بل إنه تدرج في هذا الأمر ، حتى يضمن قبول الناس له ، فبعد أن اطمأن لقبول دعوته ، وإلى تمكنه من أتباعه ، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه ، ثم لما قبلوا هذا الأمر ، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى إثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول ﷺ ، حيث قال : «وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم ، مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب إليه ، فلا دليل يقوم على بطلانه ؛ لأن الناس مصدقون في أنسابهم»[٢] .

وقول ابن خلدون فيه نظر ؛ لأن المؤرخين الأثبات والثقات أثبتوا أن محمد بن تومرت لا يتورع في الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه[٣] .

ووافق ابن خلدون من المعاصرين الدكتور عبد المجيد النجار[٤] في صحة نسب

(١) انظر سقوط دولة الموحدين ، د. مراجع عقيلة ، ص ٣٦.
(٢) ابن خلدون ـ المقدمة ص ٢٦ .
(٣) انظر الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٣٩).
(٤) انظر : تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ، د. عبد المجيد النجار ص ٥٦ .

ابن تومرت إلى بيت النبي ﷺ وادعى أن صحة هذا النسب تبقى قائمة من حيث الإمكان التاريخي والجغرافي والعقلي.

ويرى محمد بن عبد الله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة ، وثوباً مستعاراً قصد من وراءها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي ؛ الذي انتحلها أيضاً شعاراً لإمامته ورياسته[١].

والذي يظهر من البحث العلمي النزيه ، أن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة ، والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج مايلي:

١ ـ أنه لم يشتهر بين المؤرخين ـ لا سيما علماء الأنساب منهم ـ أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي ، وإنما معظم الذين قالوا بهذا هم من مؤرخي الدولة الموحدية ؛ الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وأمرائها ، أو بتأثر بدعوة ابن تومرت[٢].

٢ ـ أن هذا الادعاء كان مألوفاً عد أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب ، كما لاحظنا في دراسة الدولة العبيدية الرافضية.

٣ ـ ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفاً عند أتباعه إلا بعد أن ادعى ذلك لحاجة في نفسه[٣].

أما تاريخ ميلاده فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحديد سنة الولادة ، فمنهم من قال: ٤٧٣ هـ[٤] ومنهم من قال: ٤٨٥ هـ[٥] ومنهم من قال: ٤٦٩ هـ ، ورجح الدكتور عبد المجيد النجار أنه ولد سنة ٤٧٣ هـ[٦].

ولم تعط المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته ، وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة ، وكانت

---

(١) انظر: عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٥٧.
(٢) من هؤلاء المؤرخين: أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق ، وابن القطان ، وغيرهم.
(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ، ص ٥٥٨.
(٤) انظر: سقوط دولة الموحدين ص ٣٦.
(٥) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٥/ ٥٢).
(٦) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ص ٥٧.

على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون: «وكان أهل بيته أهل نسك ورباط»[(١)] ، كما أنها كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها ؛ كما يبدو من شوق والد ابن تومرت وأخويه عيسى وعبد العزيز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق ، ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة[(٢)] .

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته ، فتعلم القرآن حفظاً ورسماً وقراءة على عادة المغاربة كما وصفها ابن خلدون في قوله: «أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط ، وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه ؛ إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة»[(٣)] .

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وأدبها وشيئاً من الفقه ، لقد ظهر اهتمامه وشغفه بالعلم من شبابه ، قال ابن خلدون: «وشب محمد هذا قارئاً للعلم ، وكان يسمى (آسفو) ومعناه الضياء ؛ لكثرة ما كان يسرج في القناديل بالمساجد لملازمتها»[(٤)] .

ب ـ رحلته في طلب العلم:

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية ، فقصد المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم ، ومصادر المعارف ، ومهد الحضارات ما يفيده في تحقيق أهدافه التي يرنو إليها .

فبدأت رحلته في عام ٥٠٠ هـ ، فحج وشرع في طلب العلم ، ودامت رحلته خمسة عشر عاماً كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره .

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتتلمذ على العلماء في كل من بغداد ، والإسكندرية ، والحجاز ، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس حيث نزل بقرطبة[(٥)] ، ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن

---

(١) ابن خلدون: العبر (٦/ ٢٢٦).
(٢) ابن خلدون ـ المقدمة: ٥٠٦ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) تاريخ ابن خلدون (٦/ ٢٢٦).
(٥) البيان المغرب (١/ ٤٣٥).

حمدين ، إلا أن الإقامة في قرطبة لم تدم طويلاً ، بل كانت محطة للعبور[(١)].

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بحراً ، ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبد الله المازري ، ثم قصد مصر على طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام[(٢)].

ثم توجه إلى الديار المصرية ، وتلقى دروساً ، وأخذ علماً من الشيخ أبي بكر الطرطوشي ، ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام وأداء الفريضة[(٣)]. وتوجه من الحجاز نحو العراق ، ومكث بها ما يزيد على عشر سنوات ، وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال والأشاعرة ، وأخذ من كل ما يخدم فكرته طرفاً قال ابن خلدون: «ودخل العراق ، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار ، وأفاد علماً واسعاً»[(٤)].

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي ، وإلكيا الهراسي ، والمبارك بن عبد الجبار ، وأبو بكر الشاشي.

وكان الإمام الغزالي (ت ٥٥٥ هـ) مبرزاً في علم أصول الدين والتصوف ومتبحراً في علم الكلام ووقع في أغلاط وأخطاء ، قال الذهبي عن كتابه الإحياء: «أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة ، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية ، نسأل الله علماً نافعاً.

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسولُ ﷺ قولاً وفعلاً ، ولم يأت نهي عنه ، قال ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»[(٥)]. فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله ، وبإدمان النظر في الصحيحين ، وسنن النسائي ، ورياض النووي ، وأذكاره ، تفلح وتنجح ، وإياك وآراء عباد الفلاسفة ، ووظائف أهل الرياضيات ، وجوع الرهبان ، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات ، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة ، فواغوثاه بالله ، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم ، نعم ، ولم

---

(١) نفس المصدر السابق (١/ ٤٣٥).
(٢) انظر: تجربة الإصلاح لابن تومرت ، ص ٥٩.
(٣) انظر: ابن خلدون (٦/ ٢٢٦).
(٤) ابن خلدون: العبر (٦/ ٢٢٦).
(٥) أخرجه البخاري ، كتاب النكاح رقم (٥٠٦٣) ، ومسلم رقم (١٤٠١).

ينس الذهبي أن يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمة من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول»(١).

وقال الشيخ الطرطوشي(٢) في رسالة له إلى ابن مظفر: «فأما ما ذكرت من أبي حامد فقد رأيته، وكلمته، فرأيته جليلاً من أهل العلم، واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال، ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الإحياء» عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات»(٣).

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أثنى على كتاب الإحياء قائلاً بأن غالبه جيد، وأن فيه فوائد كثيرة، لكنه أشار إلى بعض مواد مذمومة وفاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكر على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا: أمرضه الشفا ـ يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة ـ وقال: «وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة وما هو أكثر مما يردّ منه»(٤).

وقد كان يتعرض لآراء الغزالي في أكثر كتبه وينقد ما جاء فيها بأسلوب هادئ علمي، وغالباً ما كان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد أن كان في أواخر عمره مقبلاً على كتب الحديث، وأنه قد مات وصحيح البخاري على صدره(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤٠ ـ ٣٤٦).
(٢) توفي عام ٥٢١ هـ.
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤١).
(٤) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ٢١٠).
(٥) فتاوىٰ ابن تيمية (١٠/ ٥٥١ ـ ٥٥٢)، (٦/ ٥٥).

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت ، وأن الغزالي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد[١] وإن ابن تومرت تأثر به ، وكان ابن تومرت رجلاً متحرراً من الجمود والتقليد ومتنوراً في أطروحته التغييرية.

ولا بد من بيان أن الغزالي كان مضطرباً في منهجه العقدي ، ولم تكن مسائل العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السنة والجماعة ، وأن ابن تومرت تأثر به ، واستفاد منه في بعض المسائل ، ووظفها لأهدافه السياسية.

وأما شيخه أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعماد الدين ، والمعروف بـ: الكيا الهراسي (ت ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م) فقد كان عالماً في الفقه والأصول والخلافيات والتفسير ، وله في التفسير كتاب (أحكام القران).

وأما المبارك عبد الجبار (ت ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م) فقد كان محدثاً مكثراً ، إلا أن ابن تومرت لم يطل تتلمذه عليه فقد توفي في نفس السنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت ٥٠٧ هـ) ، فقد كان عالماً في أصول الدين وأصول الفقه ، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق ، وألف في المذهب كتابه «المستظهري»[٢] ، وكان من شيوخه أيضاً أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت ٥٢١) الذي أخذ عن ابن تومرت العلم في الإسكندرية ، وكان متميزاً في الفقه ومتمكناً في السياسة الشرعية التي ألف فيها كتاب «سراج الملوك» كما كان الطرطوشي مهتماً بنشر السنة ومحاربة المبدعة ، وألف كتابه «الحوادث والبدع».

لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية ، وأن يتحصل على علوم متنوعة تجمع بين العلوم العقلية والنقلية ، فضبط الأصول وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغير ذلك من العلوم[٣]. ورأىٰ عن كثب أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب ، وحضر مناقشاتهم وندواتهم ، واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم ، وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي ،

---

(١) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ، ص ٦١.
(٢) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص ٦١.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٢.

واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول إمارات بلاد المغرب ، وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعته إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب ، والتخطيط لإقامة دولة موحدية قوية لا في بلاد المغرب وحدها ، بل في العالم الإسلامي كله(١) .

■ ■ ■

(١) انظر : سقوط الموحدين ، ص (٣٧ ـ ٣٨) .

المبحث الثاني
البعد التاريخي عند محمد بن تومرت

نظر ابن تومرت في المدارس الفكرية الرئيسة التي وجدت في بلاد المغرب قبله ، وخصوصاً تلك المدارس والأفكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبي وسياسي تحميه دولة وشوكة وقوة ، والتي أكسبت تلك الاتجاهات هيبة ومكانة عند الناس ، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الإفريقي ، وأهم تلك الاتجاهات والأفكار التي قامت على أسس قوية تحميها دولة في بلاد المغرب ، والتي استقى منها ابن تومرت أفكاره ، وزاد عليها :

١ ـ الاتجاه السني ، ويمثله دولتا الأغالبة والمرابطين والدولة الزيدية الصنهاجية في آخر عمرها :

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧١ ـ ١٩٣ هـ) سنة ١٨٤ هـ على ولاية إفريقية ، ثم ما لبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي على الخلافة العباسية ، والاكتفاء بالتبعية الاسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغاً من المال في كل سنة ، فوافق له الرشيد على هذا الطلب. وقد توالىٰ على عرش دولة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبد الله بن الأغلب (٢٩٠ ـ ٢٩٦ هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغالبة نفسهم ، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة ٢٩٦ هـ ، وقد عمل الأغالبة ـ حين مدة حكمهم ـ على توطيد المذهب السني ، ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب ، وصقلية ، كما عملوا أيضاً على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار[١]. أما دولة المرابطين (٤٥١ ـ ٥٤١ هـ) فقد قامت في جنوب بلاد المغرب الأقصى بزعامة الفقيه

---

(١) انظر: الأغالبة سياستهم الخارجية ، للأستاذ محمود إسماعيل ، ص ٤٤.

عبد الله بن ياسين ، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني ، وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين ، وكانت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة ، حيث نهجت نهج أهل السنة والجماعة ، ولم تتأثر بأي نزعة دينية أخرى ، وكان من أهم الأسس التي تبنتها: «الجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وكل أمور الدولة»[١] وكان من مآثرهم العظيمة جهادهم ضد النصارىٰ في الأندلس ، وتحقيق نصرهم على النصارىٰ في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين ، وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرباني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرىٰ (٤٨٠ هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين لا سيما بعد ظهور دعوة ابن تومرت في بلاد المغرب الأقصى ، ثم ما لبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش ، وقتلوا السلطان إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٩ ـ ٥٤١ هـ)[٢] وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس[٣] ، وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنيتين ، فإن الدولة الزيدية الصنهاجية قد نهجت النهج السني في آخر عمرها وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (٤٠٦ ـ ٤٥٣ هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة ٤٤٠ هـ حيث خلع طاعتهم ، وأخذ بمذهب أهل السنة ، كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم ، ثم ما لبث أن دعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ)[٤] وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني ، بعد أن كان اتجاهها رافضياً[٥]. ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبة في كتابي الثاني من سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) ، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية ، وكيف قضى عليها سيف السنة ومزيل البدعة المعز بن باديس في

(١) انظر: قيام دولة المرابطين لحسن محمود ، ص ١٦٦ .
(٢) انظر: البيان المغرب (٣/ ٢٣).
(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود. العدد السادس ، ص ٥٤١ .
(٤) انظر: ابن خلدون (٦/ ١٥٩).
(٥) نفس المصدر السابق.

كتابي الثالث (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عند قادتها العظام في كتابي الرابع (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي).

٢ ـ الاتجاه الخارجي: ويمثله دولتا المدراريين (١٤٠ ـ ٣٤٧ هـ) والرستميين (١٤٤ ـ ٢٩٦ هـ).

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة (١٤٠ هـ)، وعلى يد عيسى بن يزيد المكناسي، والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج، حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سجلماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى[١].

وفي سنة ١٥٥ هـ قتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لمآخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بن واسول الملقب بمدرار (١٥٥ ـ ١٦٧هـ)[٢] وقد تولى على عرش الدولة أبناؤه وأحفاده من بعده، حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبيديين، فلما تولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار (٣٣٢ ـ ٣٤٧ هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبيديين قضوا عليه حينما هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة ٣٤٧ هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار.

وأما دولة الرستميين، والتي كانت تنهج المذهب الإباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم (١٤٤ ـ ١٧١ هـ) سنة ١٤٤ هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له[٣].

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة ١٧١ هـ ترك الأمر شورىٰ بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأىٰ بعضهم مبايعة ابنه عبد الوهاب[٤]، رأى آخرون مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك

---

(١) انظر دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص ٤٦.
(٢) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ص ٥٤٣.
(٣) انظر: المغرب الكبير (٣/ ٥٨٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٥٢ ـ ٥٥٣).

عبد الرحمن الأمر فيهم ، لكن مسعوداً تنازل لعبد الوهاب ، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة[١] . وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها ، وهو اليقظان بن أبي اليقظان (٢٩٢ ـ ٢٩٦ هـ) وذلك سنة ٢٩٦ هـ[٢] ، لكن سقوط هذه الدولة لا يعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب ، فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتى بعد سقوط تلك الدولة[٣] .

٣ ـ الاتجاه الرافضي ، وتمثله دولة العبيديين :

وهذا الاتجاهُ كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب ، إذ إن الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك ، لم تقم في بلاد المغرب الأدنىٰ إلا سنة ٢٩٦ هـ .

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغالبة ، والرستميين ، والمدراريين ، والأدارسة ، فاستطاعت بذلك ـ إلى حدٍّ ما ـ أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب ، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار؛ وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار؛ بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس[٤] ، كما أن أهل السنة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون ، وهذا ما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام ٣٦٢ هـ .

٤ ـ الاتجاه الاعتزالي ، ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣١٣ هـ):

أقام هذه الدولة إدريس بن عبد الله بن الحسن سنة ١٧٢ هـ ، وذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية ، حيث امتدت حدود دولة الأدارسة من المحيط الأطلسي غرباً إلى تلمسان ووهران شرقاً[٥] .

---

(١) انظر : الأزهار الرياضية للباروني (٢/ ٩٩٠) .
(٢) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٥٦٥) .
(٣) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد العبادي ص ٤٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٥٥ .
(٥) انظر : دراسات في تاريخ المغرب ص ٥٠ .

ولما توفي إدريس بن عبد الله سنة ١٧٧ هـ بقي الأمر في سلالته حتى قضى على دولتهم العبيديون عام ٣١٣ هـ[١] ، وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف[٢] ، وقرب نسبهم للرسول ﷺ ولكنهم لم يظهروا شيئاً من التشيع ؛ كما يبدو هذا من خلال استقراء تاريخ تلك الدولة .

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي ، فالذي يبدو هو أن زعماء هذه الدولة لا سيما القدماء منهم وجدوا أن المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصىٰ خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته ، ولهذا لم يجدوا مناصاً من إظهار موافقتهم لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبنوه ، وعملوا على نشره ، لكن الأدارسة لم يظهروا حماساً لجعله مذهباً رسمياً لدولتهم[٣] .

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع المذاهب السابقة ، وزاد عليها مما يخدم ميوله ويحقق أهدافه ، ولذلك جاءت الأسس الفكرية لدعوته خليطاً مضطرباً ونسيجاً فكرياً متبايناً .

إن ابن تومرت لم يكن صاحب مدرسة فكرية تعرف به ، لها فلسفتها وأفكارها وقضاياها التي تطرحها وتناقشها ، وتعمل على تثبيتها ونشرها ، ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط ، ولا كان رجل سياسة فقط؛ بل إنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة ، فهو في دينه ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف ، وهو في علمه متبحر ، ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية، وآتى هذا الغرس نتائجه في عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ويعقوب بن يوسف ، ويعتبر رجل السياسة؛ لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ، ومهد لها سبيل القيام ، ووضع لها الأسس التي قامت عليها[٤] .

---

(١) تاريخ المغرب الكبير (٢/ ٤٨٦) .
(٢) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ، ص ٥١ .
(٣) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، ص (٥٤٦) ـ العدد السادس .
(٤) انظر : سقوط دولة الموحدين ، ص ٣٨ .

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الكفر التي كانت تعيش في زمانه ، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة ، وأخذ من المذاهب الفقهية والفكرية ما يتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه ، وسنرىٰ ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى .

■ ■ ■

المبحث الثالث
مسيرة العودة وخطواته الحربية

في عام ٥١٠ هـ[١] شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الإفريقي، واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرىٰ والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتحمل المصاعب والمشاق، ويشكل خلايا تابعة له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر، ومكث في الإسكندرية، وأخرج منها بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وقصد طرابلس بحراً حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية، ثم انتقل إلى المهدية بتونس، واتخذ أحد مساجدها مقراً يدرس به العلم مركزاً على علم الأصول، وأحدث اضطراباً في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم اضطر للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس، وكان في الطريق يختار بعض رفقائه المخلصين وتوجه بهم نحو قسنطينة، ثم بجاية التي وصلها سنة ٥١١ هـ وأقام بها واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وناظر الفقهاء بها وظهر عليهم[٢].

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الذي كان متجهاً إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو؛ فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته، وقد لمح ابن تومرت في عبد المؤمن بن علي علامات الذكاء وصفات النبوغ وملامح الفطنة، وأخبر ابن تومرت تلميذه بحقيقة ما ينوي القيام به[٣] فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكره.

---

(١) روض القرطاس، ص ١٢٠.
(٢) انظر: تجربة الإصلاح في تجربة المهدي ابن تومرت، ص ٦٣.
(٣) انظر: المغرب الكبير (٣/ ٧٧٤ ـ ٧٧٥).

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الأتباع ، فالرواية تقول: إن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبد المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر ، وأن صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر ، وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع بدم وم ن) ويجاوز وقته المئة الخامسة ، وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما ، وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبد المؤمن ، ويبشر به قبل قدومه.

وكتاب الجفر هذا: يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه ، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفراً الصادق ـ رحمه الله ـ كتب لهم فيه كل ما يحتاجون إليه ، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة ، وكان مكتوباً عنده في جلد ماعز ، فكتبه عنه هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية ، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه ، وهذا زعم باطل ، فإن جعفراً الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب ، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إن كتاب الجفر لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ ، والذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار ، والتمييز بين صحيحها وضعيفها ، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد ، وكثير منها من وضع من عرف بالكذب والاختلاق ، كأبي مخنف لوط ، وهشام بن محمد السائب ، وأمثالهما ، وغير خاف على طلبة العلم أن ما لا يعلم إلا من طريق النقل لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند ، فإذا لم توجد ، فلا يسوغ لنا شرعاً وعقلاً أن نقول بثبوته[١].

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف ، ويظهر للباحث

(١) انظر: مجلة المنار (٤/ ٦٠) لمحمد رشيد رضا.

أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال إقامته بالمشرق ، فقد كانت الباطنية تهتم اهتماماً كبيراً في هذه الأمور[١] .

لقد تقاربت أفكار عبد المؤمن مع شيخه وخصوصاً ما يتعلق بالخروج على السلطان ، ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت ، وأخذا يعملان سوياً من أجل تقويض دولة المرابطين[٢] .

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ، ولعبوا دوراً هاماً في دعوته عبد الله الونشريسي الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة . وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس ، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يداوم على أخذ العلم في السر ، ثم يفصح عن ذلك دفعة واحدة عندما يطلب منه ابن تومرت ذلك ؛ فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ، ويزداد إيمانهم بدعوته ، فقام الونشريسي بذلك ، وأتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس[٣] .

واستمر ابن تومرت في تنقله إلى المدن ووصل إلى فاس ، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام ٥١٤ هـ وكان خلال هذه المدة ملتزماً ببرنامجه الذي وضعه لنفسه ، والذي كان من ضمن أهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوة الجسمانية قليلي التجربة ، إضافة لاستمراره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما أفضى إلى طرده من فاس ، فتوجه إلى مراكش[٤] مقر حكم المرابطين . وخلال رحلته إليها كان ينبه عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية[٥] ويدل ذلك على أنه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين .

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام ٥١٤ هـ في زي الزهاد ، وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد قضاته أو وزرائه؛ لأنه شاهد في مراكش من المفاسد ما لم يره

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٠١ .
(٢) انظر : دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص ١٠٢ .
(٣) انظر : ابن خلكان (٥/ ٤٨).
(٤) انظر : البيذق أخبار المهدي ابن تومرت ، ص ٢١ ـ ٢٦ .
(٥) انظر : دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص ١٠٣ .

في مدينة ثانية[١] ، وصدق أن رأى أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها ؛ فوبخها فشكته إلى أخيها ، ثم توجه ابن تومرت إلى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة ؛ فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفاً ، فاستنكر عليهم ذلك ، وعاب عليهم لبس النقاب ، وخاطب علياً قائلاً : «الخلافة لله وليس لك يا علي بن يوسف»[٢] .

ولما كثر نشاط ابن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه علي للاطلاع على حقيقة أمره ، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي ، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها ، والعمل على إحياء السنة ، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المؤمنين ، فذرفت دموعه على وجنتيه[٣] .

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المؤمنين علي بن يوسف عن خطورة دعوته ، فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل ، فإن كان على حق اتبع ، وإن كان على جهل أدب[٤] .

وكانت المناظرة فرصة لا تعوض لابن تومرت؛ لأنها ستتيح له إبراز ما لديه من علم ، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته وفصاحته . وهي أيضاً وسيلة دعائية ممتازة لدعوته؛ لأن ما ستسفر عنه ستتناقله الألسن ، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق ، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور .

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته ، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره ، وهذا ما يسعى إليه لضم أعداد جديدة إلى صفوفه .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي ، حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢٨٢) .
(٢) انظر : دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ، ص ١٠٣ .
(٣) انظر : دولة المرابطين لسلامة محمد سليمان ، ص ١٠٤ .
(٤) انظر : دولة المرابطين سلامة محمد ، ص ١٠٤ .

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المؤمنين علي الغاص بالعلماء والأعيان ، قدم علماء الدولة المرابطية ـ الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل ـ عنهم قاضي ألمرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة.

وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمة في المناظرة لتصوير فساد الأوضاع في الدولة المرابطية ، فأوضح أن الخمور تباع جهاراً نهاراً ، وأن الخنازير تمشي في الشوارع وأن أموال اليتامى تؤكل ، ويبين أن الذي يتحمل المسؤولية هم حاشية أمير المسلمين لإخفائهم تلك الأوضاع عنه[١].

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد أن يثبت عجز علماء مراكش عن مجاراته في العلم ، فطرح عليهم بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عنها ، فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ما عجز عنه بأسلوب أخاذ ، يسخر له كل ثقافته وفصاحته ، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت[٢].

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طالب آخرة وإنما هو طالب سلطان ، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليكتفي شره؛ لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألبهم على المرابطين ، ولكن وزير علي بن يوسف ينتان بن عمر ، وسير بن وربيل ، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب. وألحَّ مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن إذا لم يقتله ، وقال له: «اجعل عليه كبلاً كي لا تسمع له طبلاً» فوافقه على ذلك[٣] ، وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب ، والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: «يا أمير المسلمين هذا وهن في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف ؛ فخل سبيله ؛ إنه رجل لا يملك سد جوعه»[٤]. لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه ، وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين[٥].

---

(١) انظر: ابن خلكان (٥/ ٤٦).
(٢) انظر: دولة المرابطين تأليف سلامة محمد ، ص ١٠٥.
(٣) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٩ ـ ٥٠).
(٤) انظر: دولة المرابطين ، ص ١٠٦.
(٥) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٩ ـ ٥٠).

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس ، بالقرب من مراكش ، وبنى فيها خيمته ، وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق ، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد الآخرة ؛ فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من قبل المناوئين له ، كما أن اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين إلى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها ، وارتضى الحياة بين الأموات ، فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه إليه .

والمقبرة من ناحية أخرى مكان مناسب وهادئ ، وبعيد عن الأعين ، فيتحدث هناك بما يشاء إلى تلاميذه ، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه .

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية :

١ ـ إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتقمصه لأساليب وشخصيات المصلحين ، فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر ، وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها ، فأخذ يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك[١] .

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء ذلك إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين : الأول منهما هو لفت أنظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين ، أما الثاني فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه ، وذلك ليكونوا دعاة إلى أفكاره ومبادئه ، وقد نجح في ذلكم حيث يذكر البيذق أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها «وكانوا له مثل أعضائه وجسده سامعين لقوله مجيبين لأمره مؤمنين به ، ولما تبين حالهم بذلك اختار لهم الإقامة هناك»[٢] .

إن ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التنظيري في دعوته ، إلى الجانب العملي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته ، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب بعد ذلك من يتقبلها من تلاميذه .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان (٥/ ٤٦) .

(٢) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ، ص ٥٤٩ .

ويبدو أن جرأة ابن تومرت في الكلام ، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة[١] ، حيث يذكر تلميذه البيذق ، أنه ما إن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى كثر حوله المؤيدون والأنصار ، فاختار بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ، ومخايل الذكاء والنجابة ، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى .

كانت هذه الخطوة الأولى التي نهجها ابن تومرت لنشر دعوته ، ومن خلال تتبعنا لهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عدداً من السبل حتى يظهر دعوته للناس ، ويجمع حوله المؤيدين والأنصار ، ومن هذه السبل ما يلي :

أ ـ أنه تدرج في إظهار دعوته ، كما ألبسها الصبغة الإصلاحية ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ب ـ أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن منهج أهل السنة والجماعة ، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم ؛ كما يقول المراكشي[٢] .

ج ـ أنه كان يبالغ في إنكار المنكر على الحكام الذين يمر بديارهم ، كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية[٣] ، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين ، وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس .

د ـ مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أنه كان لا يتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حيث يذكر البيذق أنه كان إذا خشي بطشاً وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون[٤] ،

---

(١) انظر : الدعوة الموحدية بالمغرب ، عبد الله علام ، ص ٨٥ .

(٢) المعجب ص ٢٧٠ .

(٣) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧) .

(٤) أخبار المهدي بن تومرت ص ٢٢ .

وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجؤون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تنكشف حقائقهم[١].

يقول ابن العماد: «جره إقدامه وجرأته على حب الرياسة والظهور وارتكاب المحظور ودعوىٰ الكذب والزور من أنه حسني، وهو هرغي بربري، وأنه معصوم وهو بالإجماع مخصوم»[٢].

٢ ـ وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته، أنه جد في تكوين قاعدة قوية مؤمنة بالمبادئ التي يدعو إليها، حيث أعد أفرادها إعداداً خاصاً، وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته، حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلاً[٣]، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث أنشأ حلقات للتدريس، كان يبث أفكاره من خلالها، ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه ألف لهم كتاباً في العقيدة، يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته، حيث طالبهم بحفظه[٤].

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يحتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشي من بطش الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنوريكال ـ إحدى قبائل صنهاجة ـ فآووه وأجاروه، ومنعوا الحماديين من النيل منه[٥]، ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى، وخاف من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هرغة، حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتمى بشوكتيهما من المرابطين، كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

وهكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته، وقد كانت هذه

---

(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ص ٥٥٠.
(٢) شذرات الذهب (٤/ ٧٠).
(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ص ٥٤٩.
(٤) ابن القطان، نظم الجهات، ص ٤٦.
(٥) انظر: ابن خلدون (٦/ ٢٢٧).

القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة ؛ مما أدى إلى إعجاب الناس لها ، ومن ثم تقبلهم لمبادئها[١] .

٣ ـ ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين ، والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب ، وقد جاءت بهذه الخطوة الجريئة إذا ما قورن بالخطوتين السابقتين ، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين ، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره ، ويكون قاعدة شعبية يتكئ عليها في ساعات الخطر ، فلما اطمأن إلى وجود هذه القاعدة ، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس ، أعلن رأيه في دولة المرابطين ، متخذاً الأمر بالمعروف ستاراً لتحقيق غايته ، وطريقاً لإظهار مفاسد دولة المرابطين ، فيبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ، ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق ، كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصارىٰ والمجوس[٢] .

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين ، لا سيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف ، فقرر الانتقال إلى بلاد السوس مسقط رأسه ، حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة ٥١٥ هـ وذلك لضمان الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين ، وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته ، حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار ، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين[٣] .

وحيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة ، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدورس ، وبهذا استطاع أن يوجد حاجز نفسياً قوياً بين كثير من تلاميذه ودولة المرابطين ، وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين ، ومقاومتهم ، وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت .

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين أراد توسيع نفوذه على

(١) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ، ص ٥٥١ .
(٢) البيذق : أخبار المهدي ابن تومرت ، ص ٩ .
(٣) انظر : ابن خلدون (٦/ ٢٢٨) .

القبائل المجاورة ، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم ، وأوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه ، لأن أسلوب العنف الذي كان مجدياً في الحواضر الكبرىٰ أمثال: فاس ، ومراكش ، والمهدية ، لا يجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس ، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف ، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم ، وهذه الخطوة تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيراً بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته ، فكان يتخذ لكل فئة أسلوباً مناسباً لها ، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات ، وهذا لا يفطن إليه إلا من أوتي حظاً وافراً من الفطنة والدهاء. ونجح دعاة ابن تومرت في تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل إلى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقه وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم إلى صفوفه[١].

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور ، لا تزال إلا بالمهدي ؛ لذا فالإيمان به واجب ، ومن يشك فيه فهو كافر ، وأن هذا الوقت وقته ، وأنه سيفتح المشرق والمغرب ، ويملأ الأرض عدلاً كما مُلِئت جوراً[٢].

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت ، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدية ، قرر أن يعلن بأنه هو المهدي المنتظر ، فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيباً موضحاً لهم أن جميع صفات المهدي متوافرة فيه ، فبادر إليه العشرة الملازمين له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر ، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجتهم دونه ، ولما كملت بيعته لقبوه المهدي القائم بأمر الله ، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام[٣] ، وكان تاريخ هذه البيعة على الراجح في جبل إيجليز[٤] عام ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينملل؛ لأنه لا يعقل أن يعلن مهديته الكاذبة فور وصوله إلى إيجليز ، بل الأمر كان يحتاج إلى وقت ، وهذا ما حدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة ، فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

---

(١) انظر: دولة المرابطين للمؤلف سلامة محمد ص ١٠٩.
(٢) انظر: الكامل لابن الأثير (٦/ ٥٦٢).
(٣) ابن خلدون (٦/ ٢٢٨).
(٤) انظر: دولة المرابطين ص ١١١.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط ، وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين ، وساعده على نجاحه ما كان يتسم به كثير من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة ، فضلاً عما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء ، وعلم ، وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير[١] .

لقد ركب الحرام ، فسفك الدماء ، وهتك الأعراض ، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة ، وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب :

دعني ففي النفس أشياء مخبأة ... لألبسنّ لها درعاً وجلبابا
كيما أطهر دين الله من دنس ... وأوجب الفضل للسادات إيجابا[٢]
تالله لو ظفرت كفي بمطلبها ... ما كنت عن ضرب أعناق الورىٰ آبىٰ[٣]

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة ، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته ، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين ، والذين اتهمهم بالتجسيم وهم برآء منه ، وبعد أن فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاؤه في جبل إيجليز لقربه من العاصمة المرابطية ، فانتقل إلى تينمل[٤] في قلب جبال الأطلس الكبير عام ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ م ، واتخذه قاعدة لدولته الناشئة ، وقد بقي فيها حتى وفاته عام ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م[٥] .

■ ■ ■

---

(١) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ، ص ٥٥٤ .
(٢) انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٥٢) .
(٣) انظر : دولة المرابطين ، للمؤلف سلامة محمد ص ١١١ .
(٤) نفس المصدر السابق ، ص ١١٢ .
(٥) نفس المصدر السابق ، ص ١١٢ .

المبحث الرابع
الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

إن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ، ولا تتفق مع منهج أهل السنة والجماعة ؛ الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت :

أولاً : أنه ادعى المهدية وقال بأنه هو المهدي الذي وعد رسول الله ﷺ بخروجه في آخر الزمان ، حيث قال في خطبته حين مبايعته إماماً للموحدين سنة ٥١٥ هـ: «الحمد لله الفاعل لما يريد ، القاضي بما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وصلىٰ اللهُ على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً ، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل ، وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى اسمه اسم النبي ، ونسبه نسب النبي . .»[(١)] . ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء بل إنه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب أتباعه بحفظها ، والعمل بما جاء بها ، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله : «إن العدل ارتفع ، وإن الجور عم ، وإن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا ، وإن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا ، وإن الدجالين استولوا على الدنيا ، وإن الباطل لا يرفعه إلا المهدي ، وإن الحق لا يقوم إلا بالمهدي ، وإن المهدي معلوم في العرب والعجم ، والبدو والحضر ، وإن العلم به ثابت في كل مكان ، وفي كل أوان وآن»[(٢)] .

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي ، عدد صفاته بقوله : «إنه فرد زمانه ، صادق في قوله ، وإنه يملؤها بالعدل» ـ يعني الأرض ـ ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بينها بقوله : «وإنه ـ يعني المهدي ـ معصوم فيما

---

(١) نظم الجمان لابن القطان ، ص ٧٥.

(٢) انظر : أعز ما يطلب لابن تومرت ، ص ٢٥٧ .

دعا إليه من الحق لا يجوز عليه الخطأ ، وإنه لا يكابر ، ولا يضاد ، ولا يدافع ، ولا يعاند ، ولا يخالف ولا ينازع . . وإنه صادق في قوله ، وإنه يقطع الجبابرة والدجاجلة ، وإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها ، وإنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور»[١] .

هكذا كان رأي ابن تومرت في المهدي ، كما يصور ذلك تراثه الفكري ، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي بالمغرب الأقصى ، مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك .

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج في آخر الزمان رجل من أهل البيت يؤيد الله به الدين ، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما ملئت جوراً وظلماً ، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط ، وتخرج الأرض نباتها ، وتمطر السماء مطرها ، ويعطي المال بغير عدّ .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : «في زمانه تكون الثمار كثيرة ، والزروع غزيرة ، والمال وافر ، والسلطان قاهر ، والدين قاسم ، والعدو راغم ، والخير أيامه دائم»[٢] .

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه .

أ ـ اسم المهدي وصفته :

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ ، واسم أبيه كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد ـ أو أحمد ـ بن عبد الله ، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنه .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في المهدي : «وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله عنه»[٣] .

---

(١) ابن تومرت ، أعز ما يطلب ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .
(٢) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣١) . تحقيق د. طه زيني .
(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٢٩) .

وصفته الواردة: «أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف»[١].

ب ـ مكان خروجه:

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم.. (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال) فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي»[٢].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاث من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق، لا من سرداب سامراء كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا النوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان، شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب ولا من سنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان». إلى أن قال: «ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سوداً أيضاً، وهو زي عليه الوقار، لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: العقاب»، إلى أن قال: «والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث»[٣].

٢ ـ وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟»[٤].

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة» إلى أن قال:

---

(١) الأجلى: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته.

(٢) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (٢/ ١٣٦٧).

(٣) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ٣١).

(٤) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى، (٦/ ٤٩١). مع الفتح حديث رقم (٣٤٤٩).

«فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة لله لهذه الأمة»[١].

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين:

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة ، وصلاته بالمسلمين ، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهداه.

وجاءت الأحاديث في السنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين ، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى: محمد بن عبد الله ، ويقال له المهدي ، والسنة يفسر بعضها بعضاً.

١ ـ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منّا الذي يصلّي عيسى ابن مريم خلفه»[٢].

٢ ـ وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسىٰ ابن مريم ، فيقول أميرهم المهدي: تعالى صلِّ بنا ، فيقول: لا ، إن بعضهم أمير بعض ، تكرمة الله لهذه الأمة»[٣].

٣ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي مني أجلى الجبهة ، أقنى الأنف ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، يملك سبع سنين»[٤].

ولقد تكلم العلماء في أحاديث المهدي:

١ ـ قال الشوكاني: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً ، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر ،

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى (٢/ ١٩٣).
(٢) رواه أبو نعيم في أخبار المهدي ، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الجامع الصغير (٥/ ٧١٧٠).
(٣) المنار المنيف لابن القيم ص ١٤٦ ـ ١٤٨.
(٤) سنن أبي داود ، كتاب المهدي (١١/ ٣٧٥) رقم ٤٢٦٥.

وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول ، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي ، فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع ؛ إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك»[١] .

٢ ـ وقال صديق حسن خان: «الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً ، تبلغ حد التواتر المعنوي ، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد»[٢] .

٣ ـ وقال الشيخ محمد جعفر الكتاني: «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة ، وكذا الوارد في الدجال وفي نزول سيدنا عيسىٰ ابن مريم عليه السلام»[٣] .

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة ، كالسنن الأربعة ، والمسانيد ، مسند أحمد ، مسند البزار ، ومسند أبي يعلى ، ومسند الحارث بن أبي أسامة ، ومستدرك الحاكم ، ومصنف ابن أبي شيبة ، وصحيح ابن خزيمة ، وغيرها من المصنفات[٤] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي ؛ فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه. ومما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان ، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة ، ثم دخلت كتب أهل السنة[٥] ، وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب (دائرة معارف القرن العشرين)[٦] محمد فريد وجدي ، وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام .

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي ، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التضعيف والتصحيح ، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي

(١) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال المسيح .
(٢) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، ص ١١٢
(٣) نظم المتناثر في الحديث المتواتر ص ١٤٧ .
(٤) انظر : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨ .
(٥) تفسير المنار (٩/ ٤٩٩ ـ ٥٠٤).
(٦) دائرة معارف القرن العشرين (١٠/ ٤٨٠).

وطعن في كثير من أسانيدها: «فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي ـ كما رأيت ـ لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[١].

قال يوسف الوابل في «أشراط الساعة» تعليقاً على قول ابن خلدون: «ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديثُ فيه صحيحة متواترة»[٢].

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون: «إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين: الجرح مقدم على التعديل، ولو اطلع على أقوالهم وفقهها ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره»[٣]. ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مليء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين، وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد ـ رحمهم الله ـ ليس صواباً، وإنما الحجة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السنة من عبث العابثين، وتحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة؛ فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في

---

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٥٧٤).
(٢) أشراط الساعة للوابل، ص ٢٦٧.
(٣) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (٥/ ١٩٧ ـ ١٩٨).

الحديث، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوىٰ التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها، والحمد لله.

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السنة لا يعتد به، والحكم العدل هو الكتاب والسنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يرد بها ما ثبت من حديث الرسول ﷺ[١].

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: «وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمئة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم، ويقفون بالخيل على باب السرداب، ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن تلد الذي ... كلمتموه بجهلكم ما آنا!
فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل...»[٢].

وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدي المنتظر، ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعي المهدية.

إن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح.

لقد جعل ابن تومرت من المهدية عقيدة ألزم بها أتباعه، وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادعاه لنفسه أمر العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي المعصوم،

---

(١) انظر: أشراط الساعة، ص ٢٦٧.
(٢) انظر: المنار المنيف، ص ١٥٢ ـ ١٥٣.

ثم أشاع ذلك بين أتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم ، دون حرج أو تردد ، وقد أكد هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذ جاء فيها: «ويجب أن يكون الإمام معصوماً من الباطل ليهدم الباطل ، كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال. . ولا بد أن يكون الإمام معصوماً من هذه الفتن ، وأن يكون معصوماً من الجور؛ لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته. . وأن يكون معصوماً من الكذب؛ لأن الكذاب لا يهدم الكذب بل يثبته ، وأن يكون معصوماً من الباطل. . ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولي الأمر ، وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم»[١] .

كما قال بعصمة الإمام من الزلل والفساد حيث قال: «لا يقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد»[٢] وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبح اتجاهاً قوياً من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية ، وقد تمكن من تأصيل هذا الأمر عند أتباعه حتى أطلقوا عليه لقب المعصوم ، وأصبح هذا اللقب من أشهر ألقاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاره به[٣] .

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره ، فبدأ أولاً بالتلميح لهم ، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، وروىٰ في ذلك أحاديث كثيرة ، ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنها تتمثل فيه ، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي ، ثم بالمهدية ، ثم بالعصمة .

والعصمة عند أهل السنة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما يبلغون عن الله من شرع ، ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وغيرهم[٤] .

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثني عشرية الذين قالوا بالعصمة

---

(١) انظر: أعز ما يطلب ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .
(٢) أعز ما يطلب ص ٢٤٦ .
(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس .
(٤) انظر: النبوة والأنبياء للصابوني ص ٥٥ ـ ٥٦ .

لأئمتهم، حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان[١] كما قالوا: «إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان»[٢]. وهكذا نرى كيف غالىٰ ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير «لأن من جعل بعد الرسول معصوماً يجب الإيمان بكل ما يقوله فقد أعطاه معنى النبوة، وإن لم يعطه لفظها»[٣]. بل لم يكتف بهذا الأمر حيث كان يأمر بقتل كل من يشك في عصمته.

ولكي يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ألف لهم كتاب (أعز ما يطلب)[٤] وأمرهم بقراءته بل حفظه، وهذا بلا شك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه.

ولقد أخطأ الدكتور عبد المجيد النجار عندما قال: «وما قال به ـ أي محمد بن تومرت ـ من عصمة الإمام يخالف أيضاً العصمة عند الشيعة، بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغاً فيها للشروط التي يشترطها أهل السنة في الإمام»[٥] ولقد ذكرت شروط أهل السنة في الإمامة في الكتاب الثاني من (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي).

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غرسها ابن تومرت في أصحابه سهلت له القضاء على خصومه، ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين.

ثانياً[٦]: لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم؛ كقوله حيث سمىٰ مرتكب الكبيرة بالفاسق ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر، وهذا قريب من مذهب المعتزلة[٧].

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٩٥).
(٢) انظر: عقائد الإمامية، محمد رضا ظافر، ص ٧٢.
(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، ص ٥٦٠.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت، ص ١٢٧.
(٦) يتابع الكاتب تبيان الانحرافات الفكرية والعقدية في دعوة ابن تومرت.
(٧) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/ ٥٤٨).

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله ـ سبحانه ـ حيث قال حينما تحدث عن صفات الله: «واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه، والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة، فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن»(١) لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه، حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سمىٰ أصحابه بالموحدين(٢)؛ لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمي أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم: «ماعلى وجه الأرض من يؤمن إيمانكم»(٣).

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان «. . . جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية. . .»(٤). أما المريزي فيرىٰ أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علمهم المذهب الأشعري، فكان ذلك سبباً في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب(٥).

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري؛ بل أخذ منهم أكثر المسائل؛ إلا أنه في إثبات الصفات قد وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها(٦).

---

(١) انظر: أعز ما يطلب ص ٢٠٤.
(٢) انظر: عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ١٢ سنة ١٩٥٠ م، ص ٤٩، حسين مؤنس.
(٣) انظر: المراكشي، المعجب، ص ٢٧٦.
(٤) المراكشي، المعجب ص ٢٧٦.
(٥) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ص٥٦٤.
(٦) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص ٣٩.

لقد وظف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية ، ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر؛ لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله .

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار في أعين رعيتهم ، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم ، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر ، ومن ثم يحل للموحدين قتاله ومعاملته معاملة الكافر ، كما وأن هذا المبدأ جعل الموحدين يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ الحق ، ويكافحون الكفر وطواغيته ، وأن معتقدهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم ، وأن الموت في سبيل ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة ، فاجتمعت للموحدين قوتان دافعتان: هما الروح المعنوية العالية والدافع المادي. فانطلقوا كالإعصار يحطمون أعداءهم وينشرون مبادئهم[١] .

إن الدكتور عبد المجيد النجار في كتابه «تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت» والذي نشره المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، والذي قدم له الدكتور طه العلواني يثني على المنهج العقدي لابن تومرت ، ويلمز من طرف خفي منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة حيث يقول: «وفي المجال العقدي حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم ، حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها ، واعتنقوا فهماً جديداً يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل للهِ تعالىٰ في ذاته وصفاته وأفعاله ، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقته التقرير العقدي لابن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري ، وقد قامت رسائله المبسطة الموجزة في العقيدة وخاصة رسالة المرشدة بالدور الكبير في ذلك حيث أصبحت مقرراً للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام»[٢] .

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ، ص ١٣٨ .

الإفريقي، واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد سئل ابن تيمية عن المرشدة كيف كان أصلها وتأليفها؟ وهل تجوز قراءتها أم لا؟

فقال: «الحمد لله رب العالمين. أصل هذه: أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبدالله بن تومرت: الذي لقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المئة الخامسة من نحو مئتي سنة، وكان قد دخل إلى بلاد العراق، وتعلم طرفاً من العلم، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب، إلى قوم من البربر وغيرهم: جهالاً لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء، فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام، واستجاز أن يظهر لهم أنواعاً من المخاريف، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن أقواماً ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله ﷺ الذي يواطئ اسمه اسمه واسم أبيه، وأنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر، ونحو ذلك من الكلام؛ فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتىٰ يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره. ثم إن أولئكَ المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا، وأنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه. وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعاً، وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه»[1]. واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا من أهل الكتاب، والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة. يقرؤون القرآن والحديث: كالصحيحين، والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة، فزعم أنهم مشبهة مجسمة، ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك القول بالتشبيه والتجسيم.

واستحل أيضاً أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس

---

(١) انظر: الفتاوىٰ (١١/ ٤٧٧).

ما كانت تستحله الجهمية المعطلة ـ كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات ـ الذين فعلوا ذلك مع أهل السنة والجماعة.

ومذهب السلف وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فلا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، فكما أن ذاته لا تشبه الذوات ، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل ، ونفي مجمل ، وأعداء الرسل: الجهمية والفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل وإثبات مجمل ، فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه: بكل شيء عليم ، وأنه على كل شيءٍ قدير ، وأنه حي قيوم ، وأنه عزيز حكيم ، وأنه غفور رحيم ، وأنه سميع بصير ، وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين ، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم ، وأنه إليه يصعد الكلام الطيب ، والعمل الصالح يرفعه ، وأنه كلم موسىٰ تكليماً ، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد ﷺ. كما قال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] ، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ، قال: فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه» وهي الزيادة. وقد استفاض عن النبي في الصحاح أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته» وأن الناس قالوا: يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضامون في رؤية الشمس صحواً ليس دونها حجاب»؟ قالوا: لا. قال: «فإنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر» فشبه ﷺ الرؤية بالرؤية ، ولم يشبه المرئي بالمرئي ؛ فإن العباد لا يحيطون بالله علماً ، ولا تدركهُ أبصارهم ، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وقد قال غير واحد من السلف والعلماء: إن (الإدراك) هو الإحاطة ، فالعباد

يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقد قال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] فيبين في هذه الآيات أن الله لا كفواً له، ولا ند له، ولا مثل له، ولا سميّ له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي، أو كلامه مثل كلامي، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي وغضبي، أو استواؤه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي، أو إتيانه كإتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله مثله بخلقه، تعالى الله عما يقولون، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر.

ومن قال: إن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا مشيئة، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضا، ولا غضب، ولا استواء ولا إتيان، ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

ومما يبين ذلك: أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنةِ ماء ولبناً وخمراً وعسلاً ولحماً وفاكهةً وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي اللهُ عنه: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم؟!

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير، وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه حي، وعن بعض عباده أنه حي، وليس هذا مثل هذا، وسمىٰ نفسه الملك، وسمىٰ بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا. وهذا كثير في الكتاب والسنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم على هذا: إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل، لا يقولون بقول أهل التعطيل، نفاة الصفات، ولا بقول أهل التمثيل المشبه للخالق بالمخلوق، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم، وأما المخالفون

للرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من المتفلسفة وأشباههم فيصفون الرب تعالى (بالصفات السلبية) ليس كذا ، ليس كذا ، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات ، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقاً للمعدوم ، فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدم ، فينافقون ؛ يثبتونه من وجه ، ويجحدونه من وجه آخر ، ويقولون: إنه وجود مطلق ، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناسُ أن المطلق لا يكون موجوداً ، فإنه ليسَ في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين ، ولا يتميز عن غيره ، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه ، فيقدر أمراً مطلقاً ، وإن كان لا حقيقةَ له في الخارج ، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مبايناً لخلقه ، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناسِ ، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات ، أو يقولون هو وجود المخلوقات ، ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات ، وخلقها فلم يدخل فيها ، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم ـ الذين امتحنوا المسلمين ، كما تقدم ـ كانوا على هذا الضلال ، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة ونصرهم ، بقي هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم ، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية ، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم على أنه وجود مطلق ، ولا يزيدون على ذلك.

وصاحب المرشدة كانت هذه عقيدته كما صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ، ذكر فيه أن وجود الله تعالى وجود مطلق ، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.

ولهذا لم يذكر في (مرشدته) الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم ، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، وأهل الكلام من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم ، ومشائخ التصوف والزهد ، وعلماء أهل الحديث: فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم ،

وقادر بقدرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن يقول:

«إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهُمَّ إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألكَ من فضلكَ العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنتَ تعلمُ أَن هذا الأمر ـ ويسميه باسمه ـ خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به».

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يُرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله.

فصاحب (المرشدة) لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنةِ والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة، ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة؛ بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة ونحوهم، وهو قول قد اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة وأهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطاله.

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات، ولم يذكر فيها صفة واحدة للهِ تعالى ثبوتية، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله ورسوله وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله، والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة،

فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقاً، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وباطلاً، فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام[1] على ذلك في كتاب كبير، وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد و(التوحيد) هو ما بينه اللهُ تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. وهذه السورة تعدل ثلث القرآن، وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً، فمن قال: إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، أو قال: إن الله يُرىٰ في الآخرةِ أو قال: «أستخيرك بعلمكَ، وأستقدرك بقدرتك» لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبهاً مجسماً، وصاحب(المرشدة) لقب أصحابه موحدين، اتباعاً لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل اللهُ به من سلطان، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن.

وقال أيضاً في قدرة اللهِ تعالى: إنه قادر على ما يشاء، وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: إنه لا يقدر على غير ما فعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيءٍ قدير، سواء شاءه أو لم يشأه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: «أعوذ بوجهكَ» ﴿أَوْ

---

(١) الذي بسط الكلام العلامة ابن تيمية.

يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: «هاتان أهون».

قالوا: فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسنة عامة. وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣ ـ ٤]، فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] فالله قادر على كل ذلك، فلو شاء لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه، وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة، وبينا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك، فإنه يعطي كل ذي حقٍّ حقه، ولا حاجةَ لأحدٍ أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في خلاف ذلك، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده؛ بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدي ولا يبتدي، فإن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفىٰ باللهِ شهيداً. وقال له: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] والنبي ﷺ علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله، وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معناً باطلاً، فالآفةُ منهم لا من الكتاب والسنة فإن الله تعالى قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩][1].

وهذا رد علمي رصين على المرشدة التي وضعها ابن تومرت لأصحابه يبين للقارىء فساد ابن تومرت في منهج العقائد، وبعده عن القرآن والسنة، واعتماده

---

(١) انظر: الفتاوىٰ (١١/ ٤٧٦ ـ ٤٩١).

لمناهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة ، وكان رد العلامة ابن تيمية مليئاً بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة ، كيف لا وهو ينهل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وطريق السلف الصالح. إن فحول علماء الكلام وأئمة هذه المناهج من أمثال أبي الحسن الأشعري (٣٣٠ هـ) وأبي حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) ، والفخر الرازي (٦٠٦ هـ) ، وإمام الحرمين (٤٧٨ هـ) رجعوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة في آخر حياتهم ، ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم.

أ ـ أبو الحسن الأشعري: وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتزال وشرع في الرد على باطله ، يقول في كتابه الإبانة: «فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة ، فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون ، قيل له: قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابةِ والتابعين ، وأئمة الحديث.

ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل ـ نضر اللهُ وجهه ، ورفع درجتهُ ، وأجزلَ مثوبتهُ ـ نحن قائلون ، ولما خالف قوله مجانبون»[1].

ب ـ إمام الحرمين الجويني: «لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته بالويل لفلان ، وها أنا أموت على عقيدة أمي»[2].

ج ـ الإمام الغزالي: «إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارىٰ في إثبات نبوة محمد ﷺ ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية ، وترتيب المقدمات كل ذلكَ لعلمهم بأن ذلكَ مثار الفتن ، ومنبع التشويش ، ومن لا يقنعهُ أدلة القرآن ، لا يقمعه إلا السيف والسنان ، فما بعد بيان اللهِ بيان»[3].

د ـ وأما الفخر الرازي: فقد قال في وصيته: «ولقد اختبرت الطرق الكلامية

---

(١) الإبانة لأبي الحسن الأشعري ، ص ١٧.
(٢) انظر: الحموية لابن تيمية ، ص ٧.
(٣) إلجام العوام عن علم الكلام ، ص ٨٩ ـ ٩٠.

والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات. . . فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده ، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدوم الأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به. . والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين»[١] .

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته ، والتي أحس فيها بالندم والتوبة:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[٢]

كذلك قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم[٣]

إن ابن تومرت استخدمَ في حربه ضد المرابطين أساليب متعددة ، منها: رميهم ظلماً وزوراً بالتجسيم ، وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال والأشاعرة والرافضة أساساً لعقيدة دولة الموحدين الجديدة ، وأصبح فيما بعد من أعلام مدرسة الأشاعرة لسببين:

١ ـ لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل تبنى ـ بصفته إماماً مطاعاً ـ هذا الجانب ، فكان لسلطتهِ الدور الأكبر في انحسار مذهب أهل السنة ، وفشو مذاهب المتكلمين.

٢ ـ تأليفهُ للمرشدة ، وقد تكلمنا عنها ، وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس ، بحيث تدرس للعوام ، مما جعلها تشتهر بسرعة.

وفيما عدا ذلك فابن تومرت يبدو أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة ، ومذهب

---

(١) انظر: القائد لتصحيح العقائد ، ص ٧٤.
(٢) انظر: إيثار الحق على الخلق ، ص ٨.
(٣) المصدر السابق نفسه.

الشيعة ، وقد كان أحد أتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لا يسميه إلا الإمام المعصوم ، وليس قربه من هؤلاء بأقل من قربه من الأشاعرة؛ بل أخذ شيئاً من الخوارج لا سيما في التساهل في الدماء ، ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضرباً من الجهاد في سبيلِ الله ، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها ، وقد أدرك هذا التأثر علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب(١) .

إن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب ، فهي ليست أشعرية بحتة ، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ، وليست خارجية كما ظنها العلماء المرابطون ، وهي أيضاً ليست رافضية في كل اتجاهاتها؛ بل هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ، ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية ، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل(٢) .

ومما لا شك فيه أن الخليط التومرتي في الأفكار والعقائد كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب ، وخصوصاً بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسي يحميها ، وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب .

وقد تحدث المؤرخ المغربي السلاوي عن هذا الأمر بقوله: «. . . وأما حالهم ـ يعني أهل المغرب ـ في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم اللهُ من نزعة الخارجية أولاً والرافضيةِ ثانياً أقاموا على مذهب أهل السنةِ والجماعة مقلدين للجمهور من السلفِ رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه ، وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر . . واستمر الحالُ على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المئة السادسة»(٣) .

لقد اشتط ابن تومرت ، وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ولذلك نجده كفر من لم يؤمن بما يقول ، ويعتنق ما يدعو إليه ، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه ، كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها ، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرح به في أكثر من مناسبة ، كما ضمنه كتبه التي ألفها

---

(١) انظر : الدعوة الموحدية لعبد الله علام ، ص ١٥١ .
(٢) انظر : الدعوة الموحدية لعبد الله علام ، ص ١٥١ .
(٣) السلاوي (١/ ١٢٦ ـ ١٢٧) .

لهم ، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا ، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا: «. . على إهلاك الحرث والنسل ، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم ، وخراب ديارهم ، وفساد بلادهم ، وسفك دمائهم ، واستباحوا أكل أموال الناسِ بالباطل ، وأخذ أموال اليتامىٰ والأرامل»[١] .

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧ هـ أوصىٰ أفراد ذلك الجيش بقوله: «اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ؛ فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنةُ قتالهم»[٢] .

وبالإضافةِ إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين ، فإن القارئ لكتاب (أعز ما يطلب) يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوىٰ الباطلة ضدهم؛ بل إنه قد أفرد فصولاً خاصة منه لهذا الغرض[٣] .

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم فأخذوا بالتصدي لها حيث بينوا للناس كذب تلك التهم التي ألصقها بهم ابن تومرت ، وأنها مخالفة للحقيقة ، ولكن هذا العمل لم يثنِ ابن تومرت عن حربه الدعائية؛ بل إنه كثف جهوده في هذا الميدان ، ومما جاء في إحدىٰ رسائله التي وجهها لهذا الغرض: «واعلموا وفقكم الله ـ يعني أتباعه ـ أن المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم ، أشد في الصد عن سبيل اللهِ من إبليس اللعين ، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه ، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله» .

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية ؛ التي أقامت كيانها على مذهب أهل السنة والجماعة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على هدي من سنة رسول اللهِ ﷺ ، فقد طعن في عقيدتهم ، ووصفهم بأنهم مجسمون ، وكفار لا تجوز طاعتهم ، ولا الولاء لهم ، بل يجب

---

(١) أعز ما يطلب ، ص ٢٦ .
(٢) المعجب ، ص ٢٨٢ .
(٣) من هذه الفصول على سبيل المثال (باب في بيان طوائف الملثمين والمجسمين) .

جهادهم ، ولهذا قاتل الموحدون المرابطين ، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم ، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين مَنْحىً فكرياً عقدياً ، غالىٰ فيه حتىٰ أصبح العداء للمرابطين اتجاهاً فكرياً واضحاً عند ابن تومرت من دولة المرابطين ، وأثر ذلك على معنوياتها ، ثم على كيانها السياسي ، وذلك لأن كثيراً من الناس قد تبنوه ، ومن ثم انبروا للعمل على حرب هذه الدولة ، والسعي إلى إسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها[١] .

وتساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونما مسوغ شرعي ، حيث كان لا يتردد في ذلك ، حينما يرىٰ أنه يخدم دعوته ، أو يحقق شيئاً من مطامحهِ مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض ، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت حيث ألبسه لباساً دينياً حتى أصبح اتجاهاً دعوياً واضحاً في دعوته ، ومن نماذج عمله في هذا الميدان ما ذكره ابن القطان ـ أحد تلاميذ ابن تومرت ـ أنه كان يعظ تلاميذه وأنصاره في كل وقت: « . . ومن لم يحضر أدّب فإن تمادىٰ قتل ، وكل من لم يحفظ حزبه عزر بالسياط ، وكل من لم يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط بالمرة والمرتين ، فإن ظهر منه عناد وتركَ امتثال الأوامر قتل ، ومن داهن . . قتل » .

كما ذكر كل من البيذق[٢] وابن القطان[٣] ، وغيرهما من المؤرخين[٤] أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمىٰ بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من شك في ولائه لدعوته ، وقد ذكر لنا البيذق وصفاً لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ حيث قال: «فأمر بالميز فكان البشير[٥] يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين ، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً ، وازداد الذين آمنوا إيماناً ، وذاق الظالمون النار ، فظنوا أنهم مواقعوها ، وما لهم عنها من محيص . . فمات يومئذ من الناس خمس قبائل»[٦] .

وكانت مخادعة ابن تومرت للناس في قضية التمييز باتفاق مع الونشريسي ، حيث

---

(١) انظر : الدعوة الموحدية بالمغرب ص ١٨١ .
(٢) انظر : أخبار المهدي ، تحقيق عبد الحميد حاجيان ، ص ٧١ ـ ٧٢ .
(٣) نظم الجمان ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ .
(٤) كابن الأثير ، وابن خلدون ، وابن العماد ، والسلاوي .
(٥) هو أبو عبد الله بن محسن الونشريسي .
(٦) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ، ص ٥٦٨ .

طلب منه ابن تومرت أن يخفي علمه وحفظه للقرآن، ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلما كان عام تسعة عشر وخمسمئة، خرج يوماً فقال: «تعلمون أن البشير ـ يعني الونشريسي ـ رجل أمي، ولا يثبت على دابة، فقد جعله اللهُ مبشراً لكم، مطلعاً على أسراركم، وهو آية لكم، قد حفظ القرآن وتعلم الركوب، وقال: اقرأ، فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصاناً وساقه، فبهتوا، وعدوها آيةً لغباوتهم، فقام خطيباً وتلا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهذا البشير مطلع على الأنفس، ملهم، ونبيكم ﷺ يقول: «إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم»[١] وقد صحبنا أقواماً أطلعه الله على سرهم، ولا بد من النظر في أمرهم، وتيمم العدل فيهم، ثم نودي في جبال المصامدة: من كان مطيعاً للإمام، فليأتِ، فأقبلوا يهرعون، فكانوا يعرضون على البشير، فيخرج قوماً على يمينه ويعدهم من أهل الجنة، وقوماً على يساره، فيقول: هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يؤتىٰ بالرجل منهم، فيقول: هذا تائب ردوه على اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفر منهم أحد، وإذا تجمع منهم عدة، قتلهم قراباتهم، حتى يقتل الأخ أخاه»[٢].

قال شعيب الأرناؤوط في استدلالِ ابن تومرت بحديث رسول الله ﷺ: «إن في هذه الأمة محدثين وإن عمر منهم» في الونشريسي بأنه ملهم: «واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويتهِ، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باغ نفسه من الشيطان، صار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليبَ الخبيثةَ لإضلالِ الناسِ وإفسادهم إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر..»[٣].

---

(١) البخاري (٧/ ٤٢) رقم (٣٦٨٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٦).
(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٦).

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التميز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها ، وذلك بسببِ ما تحمله من غلو وشطط ، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم خشية أن يقوىٰ رد الفعل المضاد لدعوته[١] ولما حل ابن تومرت تينملل ، آواه أهلها وأعلنوا طاعتهم له ، لكنهم كانوا كثيري العدد وافري العدة ، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم ، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه من المقربين أن يقتلوهم ففعلوا ، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عدداً كبيراً من الرجال حتى بلغَ عدد الذين قتلوا بهذه الحادثة خمسة عشر ألف رجل[٢] ، ولكي لا تحدث هذه الأعمال رد فعلٍ عند أتباعهِ ، أو تلقى معارضة عند الناس ، فإنه كان يظهر بشيءٍ من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به ، ويدعو إليهِ ، فقد ذكر المؤرخون أنه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم في المقابر ، وهم أحياء حيث يترك لهم مكاناً للتنفس ، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم ، وليشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله ﷺ وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جُوراً وظلماً ، وأن من اتبعه أفلح ، ومن خالفه خسر ، وحينما يسمع أتباعه أن الموتىٰ يكلمونه ، ويشهدون له بصحة ما يدعو إليهِ يعظم اعتقادهم فيه ، وتتأكد طاعتهم له ، أما أولئكَ المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التي من أجلها قبروا يستبيح دماءهم ، حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكي لا يفشو سره بعد ذلك»[٣] .

هذه صورة وأمثلة للأعمال التي قام بها ابن تومرت ، واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها ، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقربين إليهِ ، ولا شكَّ أن هذا العمل يعد في نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب حتى ولو كان المقتول شخصاً واحداً ، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع الشرع الحنيف ، وهو يحسب نفسه داعية إلى اللهِ؛ بل مهدياً معصوماً!!؟[٤] .

(١) انظر : الدعوة الموحدية ، لعبد الله علام ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ .
(٢) انظر : الكامل في التاريخ ، لابن الأثير (٦/ ٥٦٣) .
(٣) انظر : الفتاوى : (١١/ ٤٧٧) .
(٤) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس ، ص ٥٦٩ ، لقد استفدتُ من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس في مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .

وإني لأستغربُ من الدكتور عبد المجيد النجار في تسمية كتابه (تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت) وكان الأولى به أن يسميها تجربة الإفساد والتدمير في حركة المهدي ابن تومرت ، ومن العجب أن المعهد العالمي للفكر الإسلامي جعل كتاب الدكتور عبد المجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغيير ، وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدولة والشعوب والحركات.

■ ■ ■

المبحث الخامس
المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

أولاً: المنهج التربوي:

جعل ابن تومرت منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً في دعوته، ولذلك اجتهد في محاربة المنكراتِ التي انتشرت بين عوام الناس بكل ما يملكُ من قوة، ووجه سهامه نحو الفقهاء للتقليلِ من هيبتهم، وإضعافهم ليتسنىٰ له أن ينشر عقيدته المختلطة، ويؤصل ما يريد من الأحكام والأقوال على النهج الذي يخدم أهدافه؛ ولذلك نجده عندما استقر في منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين:

١ ـ التربية العقدية الروحية:

استغل ابن تومرت جهل أتباعهِ من البدو والأميين الذين لا يستطيعون أن يفهموا الشريعة من أصولها المعتمدة، وكتب لهم شيئاً من العقائدِ والعبادات بعضها باللسان البربري، وبنىٰ مكاناً للعبادةِ ولتعليم الطلبةِ على منهجهِ الذي رسمه، وتربيتهم عليه.

قال ابن خلدون: «فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمئة، وبنىٰ رابطة للعبادة، فاجتمعت إليهِ الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري»[1].

وألزم أتباعه بحفظ شيء من القرآن والحديث النبوي وتعلم المرشدة، واستيعاب حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام، وتحقيق أحكام العبادة، وكان يوزع أصحابه في حلقات كل عشرة يكون مسؤولاً عليهم أحد الطلبة النابهين، ونهج منهج الشدة في التعليم والتربية، وأحدث أحكاماً تبلغ إلى الضرب بالسياطِ لمن يظهر منه التهاون

---

(١) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨).

في حضور الأوقات، أو في حفظ ما يطلب منه حفظه[١].

وكان هذا المنهج يسود جميع أفراد المجتمع الجديد، أما من برز في العلم من أصحابه فألف له كتباً ورسائل خاصة، وهي كتب ورسائل خصص معظمها للاستدلالِ العقلي على العقيدةِ التي جمعها من مذاهب شتىٰ وفرق عدة.

واهتم بالجانب الروحي، واعتمد في تربيته لأصحابه على التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في الآخرة، والإعداد للجهاد في سبيل الله طلباً للشهادة، ومما خاطب به أتباعه في ذلك قوله: «ولا تنازعوا ولا تغتروا بالدنيا فإنها وكل من عليها فان، واحذروا من مكرها وتقلب أحوالها.. وتزودوا منها إلى دار الآخرة، واستعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزاً عظيماً»[٢].

٢ ـ التربية الاجتماعية:

وبعد أن حرص على بناء الأفراد علمياً وروحياً شرع في بناء المجتمع الجديد على أسس من التعاون والتناصر والتآخي، وجعل أهل جبال أطلس في تينمل الأنصار ومن جاءهم من غيرهم المهاجرين، وقعد قواعد في هذا المجتمع للتآخي والتعاون وإغاثة المظلوم، واحترام الممتلكات، حمل عليها الكافة ووضع تعازير قاسية لعقاب من يتعداها، وربط المجتمع الجديد بوشائج القربى بين القبائل المختلفة بطريق المؤاخاة بينها، أو بطريق المصاهرة المتبادلة، وخاطب قيادة مجتمعه الجديد بقوله: «ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي ﷺ بقوله: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين»[٣]. وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدجال، ومنكم الذي يؤم بعيسىٰ..» وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به..»[٤].

ويصف الأمير عزيز في كتابه (أخبار القيروان) المجتمع الموحدي (لهم تودد

---

(١) انظر: نظم الجمان لابن القطان، ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) ابن تومرت. رسالة إلى الموحدين ص ٩ نقلاً عن كتاب عبد المجيد النجار، ص ١١٦.
(٣) انظر: فتح الباري (١٣/ ٢٩٥) الطبعة السلفية.
(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٤٩).

وأدب وبشاشة ، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ، ولا يخلون يوماً من طراد ومثاقفة ونضال . . »[١] .

ويصف ابن خلكان محمد بن تومرت فيقول : «مكانه بالجبل معظم ، مات كهلاً وكان أسمر ربعة ، عظيم الهامة ، حديد النظر مهيباً ، وآثاره تغني عن أخباره ، قدم في الثرىٰ وهامة في الثريا ، ونفس ترى إراقة ماء الحياةِ دون إراقة ماء المحيا ، أغفل المرابطون ربطه وحله ، حتى دب دبيب الفلق في الغسق ، وكان قوته من غزل أخته رغيفاً بزيت ، أو قليل سمن ، لم يتنقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا ، رأىٰ أصحابه يوماً وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه ، فأمر بإحراق جميعه ، وقال : من أرادَ الدنيا ، فهذا له عندي ، ومن كان يبغي الآخرة ، فجزاؤه عند الله ، وكان يتمثل كثيراً :

تجرد من الدنيا فإنك إنما   خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد[٢]

ثانياً : المنهج السياسي :

حرص ابن تومرت بعد رجوعه أن يسلك طريق النصح والإرشاد والوعظ ، ولذلك اتصل بالأمراء وولاة الأمر في المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ، ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ، ويحملهم المسؤولية في ذلك ، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف ، وتوج أمره بنصح أمير المسلمين علي بن يوسف ، ونبهه إلى انتشار المنكرات ، ووعظه ، وأغلظ له القول وقال له : «إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها ، غير أني آمر بالمعروف وأنهىٰ عن المنكر ، وأنتَ أولى من يفعل ذلك ، فإنك المسؤول عنه ، وقد وجب عليكَ إحياء السنة وإماتة البدعة ، وقد ظهرت بمملكتك المنكرات ، وفشت البدع ، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها إذ لك القدرة على ذلك ، وأنتَ المأخوذ به والمسؤول عنه»[٣] .

وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن «خلع مبايعة علي بن يوسف من أعناق

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) وفيات الأعيان (٥/ ٥٤) .
(٣) تاريخ الدولتين للزركشي ، ص ١٢١ .

تابعيه وأصحابه ، وأعلن الجميع بخلعه»[١] وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد ، وكان خطته تسير في سبل ثلاثة : حملة نقدية للمرابطين ، وإقامة تنظيم سياسي ، وتعبئة نفسية للأنصار :

١ ـ الحملة النقدية ضد المرابطين :

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين ، محاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسخاً نهائياً وترسيخ ولائهم له : «فكل من أطاعهم في معصية الله ، وأعانهم على ظلمهم في سفك دماء المسلمين ، وأخذ أموالهم ، وكل من أعانهم من القبائل فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسنة وترك معونة المجسمين والمرتدين والمعتدين ، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السنة وأعانوكم على جهاد الكفرة فخلوا سبيلهم ، وهم إخوانكم في دين الله وسنة رسوله ، وإن عاندوا الحق ، وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم»[٢] .

وشن حرباً نفسية على حكام وأمراء وأتباع المرابطين في رسالته إليهم : «إلى القوم الذين استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية ، لمتونة ، أما بعد : قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ، ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصىٰ ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة ، فإن أديتموها كنتم في عافية ، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم ، ونكدر دياركم ، ويرجع العامر خالياً والجديد بالياً ، وكتبنا هذا إليكم إعذاراً وإنذاراً ، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضا»[٣] .

وهكذا شرع ابن تومرت في توجيه حملة نقدية إلى دولة المرابطين ، ووسع نطاقها ، واستهدف بها كافة الناس من أهل المغرب موالين أو معادين ، وحاول أن يعزل الحكام عن عامة الناس بفضح سياستهم ، وتضخيم أخطائهم ، تنفيراً للنفوس منهم ، وتمهيداً لنزع ولائهم ، ثم لمعاداتهم ، وإمعاناً منه في تهجينهم ، وتشويه

(١) نظم الجمان لابن القطان ، ص ٢٩ .

(٢) رسالة إلى الأتباع لابن تومرت ص ٢ .

(٣) رسالة لابن تومرت ضمن الحلل الموشية لابن الخط .

صورتهم؛ اخترع الألقاب المشينة، ورماهم بها كـ (المجسمون) و(الزراجنة) تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمىٰ الزرجان؛ لأنهم بيض الثياب سود القلوب، و(الحشم) لاتخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم[١].

٢ ـ التنظيم السياسي:

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكيلاً سياسياً بحيث يضم وينظم ويرتب جميع أفراد الدولة حتى يضمن ويعمق ولاءهم للدعوة، ويمكن مراقبتهم والإشراف عليهم، ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتها الملقاة على عاتقها، وقد بلغت طبقات الموحدين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة. كانت الطبقات الثلاثة الأولى أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشائخ القبائل، وزعماء المصامدة، وكبار الشخصيات، الذين تتوافر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحدين وتسيير دفة الحكم، أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية[٢]. وقد جعل الدكتور عبد المجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة سياسية، وبين مهماتها التي أنيطت بعهدتها:

الجهاز الأول: جهاز سياسي، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين.

الجهاز الثاني: جهاز علمي ثقافي، ويشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

الجهاز الثالث: جهاز عسكري، ويشتمل طبقة الجند، وطبقة الرماة والغزاة.

الجهاز الرابع: جهاز شعبي، يضم مجموعة من القبائل، وهي هرغة، وأهل تينمل، وجدميوه، وجنفيسة، وهنتاتة، وأهل القبائل[٣]. وقال ابن الخطيب: «لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر، لا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده»[٤].

---

(١) انظر: نظم الجمان لابن القطان، ص ٨٥.
(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص ٤٠.
(٣) انظر: تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، ص ١٢٠ ـ ١٢١.
(٤) الحلل الموشية لابن الخطيب، ص ٨٠.

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معاجلة تقوم على التخصص ؛ ضماناً للمزيد من النجاح اجتناباً للعفوية والفوضىٰ ، وقد كانت المهام الكبرىٰ المطروحة على هذه الجماعة مهام ثلاثة : «مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسي للجماعة الناشئة ، وهي التي تكفل بها الجهاز الأول ، ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادئ العقدية التي قامت عليها الدعوة ، وهي التي تكفل بها الجهاز الثاني ، ومهمة دفاعية تتعلق بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها ، وهي التي تكفل بها الجهاز الثالث .

ويبدو أن الجهاز الرابع وضع لحصر الأتباع وإحكام ارتباطهم ، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية ، فيكون بدور ما نسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة . وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله : «أهل الجماعة للتفاوض والمشورة . . وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي ، وسائر القبائل لمدافعة العدو»(١) .

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم في فكر محمد بن تومرت ولذلك أسس بديلاً سياسياً اجتماعياً تربوياً ليحلَّ محل النظام السياسي ، والاجتماعي والتربوي في دولة المرابطين(٢) .

لقد أظهر ابن تومرت في منهجه السياسي ملكة تنظيمية كبرىٰ ، وقبض بيد من حديد على الأنصار ، فأعطى مجلس العشرة سلطاناً كبيراً ، وحكمهم في الناس ، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبائل ، وسيطر بواسطتهم على القبائل ، وجعل الجميعَ عيوناً له بعضهم على بعض ، يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء ، مما جعل ابن تومرت مطلعاً على أمور مجتمعه الجديد ، وأصبح مطاعاً ومرهوباً في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقاً ، وتخاف منه خوفاً شديداً)(٣) .

٣ ـ تعبئة الأنصار :

كانت مهمة ابن تومرت صعبة جداً حيث إنه استهدف دولة عرفت بجهادها في

---

(١) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٢ .
(٢) انظر : تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت ، ص ١٢٢ .
(٣) انظر : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، د . حسين مؤنس ، ص ١٨١ .

الصحراء الكبرى وفي إسبانيا ، وكان لها الفضل بعد الله في توحيد المغرب الأقصى مع الأندلس ، واشتهر حكامها بالصلاح والعدل والجهاد وحب الخير لعموم الأمة ؛ ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم أنهم على درب الحق ، وأن خصمهم على درب الباطل ، واعتمد في تعبئته لأنصاره على :

أ ـ غرس الثقة في نفوسهم وبأنهم على حق :

ولذلك خاطبهم بقوله : «ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصابة المعنيون بقوله ﷺ: «لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ، ويقتل الدجال ، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسىٰ ابن مريم ، ولا يزال الأمير فيكم إلى قيام الساعة»[١] .

وحرص ابن تومرت على رد كل ما يوقع في نفوس أصحابه من الوهن من طعون المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التي أصبحوا من أنصارها ، فكان لا يكل ولا يمل في تفنيد كل ما وجهه المرابطون من حملة مضادة ضد دعوته البدعية ، وقاد ابن تومرت حملة دعائية مضادة ، ومن ذلك ما خاطب به أصحابه قائلاً : «واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله ِمن إبليس اللعين ، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه ، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله ، وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة للهِ ورسوله . . . فانتبهوا وفقكم الله لهذه الحيل التي يحتالون بها على عيشهم ودنياهم ؛ حتى حملهم ذلك على الافتراء على اللهِ ورسولهِ حتى عكسوا الحقائق ، وقلبوها وحرفوا الكلام عن مواضعه ، ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السنة إلى الخلاف ، وسموه مخالفاً ببغيهم»[٢] .

لقد استطاع ابن تومرت أن يقنع أتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة ، والتي تقيم أمر الله ، وتجاهدُ في سبيلهِ ، وشحن بذلك النفوس ، وأقنع العقول ، وأخذ خطوة أخرى لتعزيز مكانته ، وبسط هيمنته على أتباعه ، وزعم بأنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم .

---

(١) المعجب للمراكشي ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) رسالة إلى الأتباع ص ٤ ، وأيضاً الرسالة المنظمة ، ص ١٠٨ .

ب ـ الثقة بالإمام:

وسلك مسالك متعددة من أجل إقناع أصحابه وأتباعه بأنه المهدي المعصوم، فحرص على الظهور بمظهرِ الاستقامة والتدين والإخلاص، فزهد في متاع الدنيا من مأكل وملبس ومسكن، ثم جعل ثقة أنصاره به ذات اتجاه عقدي؛ بحيث تمنع نفوس الأتباع من الضعف والتراجع أمام أوامره وتوجيهاته، فأقنعهم بأنه الإمام المنتظر والمهدي المعصوم، وبأن نسبه يرجع ضارباً في أعماقه في آل البيت المطهر، وبذلك استطاع بهذه التعاليم المتعلقة بالإمامة أن يرشح ثقة أتباعه به، وأن يضمن ولاءهم الدائم، وطاعتهم المطلقة[١]، ولم ينس أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى إنشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقصى، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد، تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة، وأقنعهم بأنهم القيادة المثلى لهذه القبائل[٢].

٤ ـ المنهج العسكري:

وبعد أن نظم صفوفه وأحكم تنظيمه، وأصدر إنذاره وتهديده إلى المرابطين: «قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فأستعين بالله على قتالكم»[٣].

وكانت هذه الخطوة تمهيداً منه نحو قتال المرابطين، وحرصاً على ترسيخ عقيدة الجهاد، وحببه لجنوده، وأقنعهم بأن جهاد المرابطين فرض عليهم، كما فرض على الصحابة جهاد الكفرة: «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول ولا يزول، حتى ينفخ في الصور، والسنة التي قاتلوا عليها هي هذه لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة الملثمين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا عذر لأحد في تركه، ولا حجة له عند الله، فإنهم سعوا في هدم الدين، وإماتة السنة»[٤].

---

(١) تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ص ١٢٧.
(٢) انظر: معالم في تاريخ المغرب، د. حسين مؤنس، ص ١٧٧.
(٣) الحلل لابن الخطيب، ص ٨١.
(٤) الرسالة المنظمة، ص ١٠٥.

ولما بذل ابن تومرت جهده في إعدادِ أصحابهِ إعداداً عقدياً جعل يعد العدة المادية ، فجعل يجمعُ المقاتلين متخيراً الأقوياء الصادقين ، وتخلص من كل من شك فيه في صفوفه ، ومن أعالي جبال الأطلس واصل ابن تومرت حملته الإعلامية التشويهية على المرابطين واصفاً إياهم بأقذع الأوصاف ، فاضطر الأمير علي بن يوسف أن يسل الحسام لإخماد تلك الفتنةِ ، فوجه إليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه ؛ إلا أن ذلك الجيش رجع دون قتال ، واستغل ابن تومرت ذلك وجعلها منة من الله عليهم ، وما فعله ينتان في حقيقته هروب وخوف من لقاء الموحدين ، وتعاظم خطر ابن تومرت واستمر علي بن يوسف في إرسال الحملات تلو الحملات لاستئصال شأفته ، ولكن جميعها كان مصيرها الفشل والهزيمة ، ومن هذه الحملات حملة أبي إسحاق إبراهيم الذي وجهه إليه على رأس جيش كبير ، ولكنه انهزم أمام ابن تومرت دون قتال ، وتعقبتهم القوات الموحدية وقتلت أعداداً كبيرةً منهم وغنموا حملتهم ، وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه ، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلي اللمتوني الذي أضاف هو أيضاً هزيمة إلى سجل الهزائم المرابطية على يد الموحدين[١] ، وكان ابن تومرت يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: «انظروا إلى أعدائكم ، واعلموا أن كل ما جاؤوا به من خيل وعدة ، إنما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم ، فأعطاكم وأغناكم»[٢]. وكان ينزل في المعارك بنفسهِ ، ويبدو أن ابن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية ؛ فقد تمرس بالقتال في الميدان ، وتعرض في كثير من الأحيان إلى السقوط في خضم المعركة ، كما تعرض إلى جراحات السيوف ، وكثيراً ما كان يشير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقي العالية ، وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء ، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة.

ولكي يكون ابن تومرت وعسكره في منعة من مباغتة الجيش المرابطي اتخذ عاصمة له مقراً منيعاً هو مدينة تينملل ، التي قال ابن الخطيب في وصف منعتها: «لا يعلم مدينة أحصن منها ، لا يدخلها الفارسُ إلا من شرقها ، وهو الطريق إليها

---

(١) انظر دولة المرابطين ، تأليف سلامة محمد سلمان ، ص ١١٣ .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، د. حمدي عبد المنعم ، ص ١٠١ .

من مراكش ، المصنوعة من نفس الجبل ، تحت راكبها حافات وفوقه حافات ، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب ، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد»[١] .

لقد كانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدون أثرها الكبير في ذيوع عقيدة ابن تومرت ، وظن كثير من الناس بأنه المهدي وذلك كثر أتباعه ، وعظمت ثقته بنفسه وقوته ، فارسل إلى علي بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها تهديد ووعيد ، فيما يلي نصها : «من القائم بدين اللهِ العامل بسنة رسول الله محمد بن عبد الله ، وفقه الله ، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف ، أما بعد فإنا ما وجدنا لأكثركم من عهد ، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين ، لم تخشوا عقوبة رب العالمين ، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين ، الذين غووا فأصبحوا نادمين ، فتبعهم الناس أجمعين ، فإذا هم أخسر الخاسرين ، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين ، ودعاء الناس إلى اليقين ، ونسأل من الله أجر المحسنين ، لا تغتروا فإن المسلمين إليكم قادمون ، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله ، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم مؤمنين ولا تؤمنون بلا إله إلا الله ، وأنها كلمة تقولونها عند الخوف والتعجب ، وتارك واحدة من السنة كتاركها كلها ، ومن أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فيء ، وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل ، وما تغني الآيات والنذر عن قومٍ لا يؤمنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون ، والسلام على من اتبع الهدىٰ وخشي الرحمن»[٢] لقد كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان حرب بين الموحدين والمرابطين .

إن الذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة ، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتىٰ وأقوىٰ الجيوش النصرانية في الأندلس ، تعبث بين الفينة والفينة في أحواز طليطلة ، وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب .

ويبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت في صنع هذه الهزائم ، منها الاستراتيجية العسكرية التي اتبعها ابن تومرت في قتاله المرابطين ، وقد ساعدته وعورة أرضه على

(١) انظر : تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ، ص ١٢٩ .
(٢) أخبار المهدي ابن تومرت للبيذق ، ص ١١ .

عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة. كما أن الجيوش الهاجمة عادة تحتاج إلى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة، بينما كان ابن تومرت وأتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي، في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجند المرابطي منهارة، فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف، فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته، وهو يسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه، بعدما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وأنه هو المهدي. كل هذه الأمور كانت تجعل من الجندي المرابطي مضطرب النفس، متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت؛ ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام[١].

وازدادت ثقة ابن تومرت بنفسه بعد تحقيق تلك الانتصارات، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته، وإما القتال مهدداً ومتوعداً من عدم الانقياد له، ومما جاء فيه: «إلى القومِ الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغيَة اللمتونية، أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى اللهِ العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقىٰ، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة فإن أديتموها كنتم في عافية؛ وإلا فنستعين بالله عليكم على قتالكم حتى نمحو آثاركم ونهدم دياركم، وحتى يرجع العامر خالياً والجديد بالياً، وكتابنا هذا إليكم إعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم سلام السنة لا سلام الرضا»[٢].

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وقد ارتكزت استراتيجيته في هذه المرحلة على استنزاف قوىٰ الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات، وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة.

---

(١) انظر: دولة المرابطين، ص ١١٤.
(٢) انظر: دولة المرابطين، ص ١١٥.

فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلّات المرابطين القريبة من مقره ؛ مكبدة إياها خسائر فادحة.

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش ، أراد أن يطهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له ؛ فأوعز في عام ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م لصديقه الحميم الونشريسي ـ الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم ـ أن يظهر ما لديه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت ، وكان الونشريسي باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ أسماء من شرع أنهم يشكون في مهدية ابن تومرت ، وكان أيضاً ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين ؛ فدفعها إلى الونشريسي فحفظها. وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علماً وحكمة ، فاختبره القوم فعجبوا من شدة حفظه ، ثم شهد لابن تومرت بالمهدية ، ثم قال: اعرض علي أصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار ، وقد أنزل اللهُ تعالى ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني ويشهدون بصدقي ، وكان المهدي قد وضع فيها رجالاً لهذا الغرض ، فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر ، وبعد أن وقف على رأسها قال: «يا ملائكة الله إن عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت» فقال من فيها: صدق ، فصدقه الناس ، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مقدسة. وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره ؛ مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته ، وكشف زيفها.

ونادىٰ ابن تومرت في أهل الجبل للحضور للتمييز ، وأخذ الونشريسي يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول: هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر[١] ، فيقول: هذا من أهل الجنة. ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل أنهم من أهل النار ، وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفاً ، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره[٢].

وعلم ابن تومرت أن الباقين من أهل وأقارب المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك ، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش إليهم واغتنام أموال المرابطين ، فسرهم ذلك

---

(١) الغمر: هو غير المجرب.
(٢) انظر: ابن خلكان (٦/ ٥٢ ـ ٥٣).

وسلاهم عن أهلهم ، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين ، وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم. وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش. وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف ، وسبب ذلك يعود إلى أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية. فالوصول إلى أسوار مراكش لم يتم بسهولة ، بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون وحصنوها بالقلاع ، على أي حال صمم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش ، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم ، ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت ، وقد استعدت للقتال ، وتجمع منهم نحو أربعين ألفاً منهم الفرسان والغالب منهم رجاله ، وقدم عليهم الونشريسي ، ووجههم نحو مراكش فبدؤوا بالزحف نحوها عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م. وقبل وصولهم إلى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم.

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يوماً على أرجح الروايات[(١)]. وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحدين ؛ الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصارهم على المرابطين.

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصار الموقعة التي خرج فيها أمير المسلمين علي بن يوسف لفك الحصار عن عاصمته ، ولكنه لم يوفق ، وتشتت شمل جيشه ، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراكش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع. لقد أخذت الغيرة القائد عبد الله بن همشك الذي كان مع أصحابه الأندلسيين المئة محصوراً داخل المدينة ، فخاطب أمير المسلمين قائلاً: «ما نعيرُ إلا بالمقام تحت الحصار». فأوضح له أمير المسلمين أن قتال المصامدة ليس مثل قتال النصارىٰ ، فأكد إليه ابن همشك بأنه يعرفهم لوجود نخبة منهم في الأندلس ، وبين لأمير المسلمين أنه ما زال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة ، وأن البقاء على هذا الحال لا يكون إلا مع قلة العدد ، ثم

(١) انظر: دولة المرابطين ، ص ١١٨.

عرض رغبته عليه بأن يعطيه ثلاثمئة فارس ليخرج بهم فسمح له. وقبل خوضه المعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده لتتلاءم مع طبيعة المعركة المقبلة ، فرأىٰ أن يقصروا رماحهم ، ثم برز للموحدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمئة رأس من رؤوس المصامدة ، فارتفعت معنويات الجند ، وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار[١] وأرسل أمير المسلمين علي بن يوسف رسائله إلى سائر ولاته وقواده طالباً المدد والعون ، فجاءت إليه النجدات من كل صوب ، وكان أعظمها القادم من سجلماسة بقيادة واليها وانودين بن سير ، وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجدات ، وقدم أبو محمدبن سير قائداً عاماً للقوات المرابطية ، وقيل: قدم الزبير بن علي بن يوسف[٢].

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسنان. فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع له ، فرد أمير المسلمين عليهم محذراً إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة ، وهكذا لم يستجب أي طرف للآخر.

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية وعبد المؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة. وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريسي ، فخلفه عبد المؤمن في قيادة الجيش. ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك ، والبستان عندهم يسمى البحيرة[٣] وما إن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ، ففر عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربعمئة ما بين فارس وراجل ، وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها ؛ لأن عبد المؤمن كان قد واراها فوراً ؛ فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء[٤].

وتابع عبد المؤمن مع من نجا سيره نحو تينملل. وعندما وصل إلى هيلانة[٥]

---

(١) انظر: دولة المرابطين ، ص ١١٩.

(٢) انظر: عصر المرابطين والموحدين لعنان ، ص ١٨٨.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ (٦/ ٥٦٥).

(٤) ابن خلكان (٥/ ٥٣).

(٥) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش.

استعاد أنفاسه وحشد جنوده ، وأعاد الكرة على مراكش فهزم أيضاً ، وقتل من أتباعه نحواً من اثني عشر ألفاً ، فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه إلى تينملل ، وكان البيذق قد سبق عبد المؤمن إلى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة ، فسأله ابن تومرت عن عبد المؤمن ، فقال: هو حي ، فرد معزياً: الأمر باق ، وأوصاهم بعدم الجزع.

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة ، وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم ، وهم: سير بن ورابيل ، ومسعود بن وزتيغ ، ويحيى بن سير ، ويحيى بن كانجان إلى تينملل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين ، وتقابل الطرفان بموقع يقال له أبكر متاع بني كوربيت ، إلا أنه لم يحدث قتال بينهما ، ويعلل البيذق[1] ذلك بأن المرابطين قد حلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين ؛ التي تدفقت عليهم النجدات من هنتانة وكنفيسة ومزالة فرجعوا إلى مراكش.

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بابن تومرت ، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان حليفه الله؟! وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي ، وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة ، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تساور نفوسهم. عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته ، فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره ، وأوصاهم أن يقولوا إذا سئلوا: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة ، فجدوا في قتال عدوكم ؛ فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق» ، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة. ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين ، وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم ، وطلب منهم إن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سوياً إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم ، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعاركِ التي نشبت مع المرابطين ،

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ، ص ٣٩ ـ ٤١.

وسقط فيها عدد كبير من الموحدين ، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون. ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً : يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عز وجل. فقالوا: وجدنا ما لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على بال بشر ، إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت ، عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدي ، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان تركها لهم فماتوا من فورهم؛ لأنه خشي أن يخرجوا فيذيعوا سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه[١] .

ورأىٰ ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي منيت بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحةِ بكل مخططاته التي سخر حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة ، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة.

وتكاد تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت عام ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م[٢] وتذكر المصادر الموحدية أنه لما شعر بدنو أجله استدعىٰ أصحابه المسمين بالجماعة ، وأهل الخمسين ، فلما حضروا أخذ يعظهم واعداً إياهم بالنصر على المرابطين ، ومحذراً إياهم من الفرقة والتناحر ، وأمر عليهم عبد المؤمن ، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعاً لربه[٣] .

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلماً إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة. ولما اشتد عليه مرضه قدم عبد المؤمن بن علي للصلاة ، وأمر بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير ، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينملل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن علي وصلى عليه ، ودفنه سراً بمسجده كما أوصاه ، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ، ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي[٤] .

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ، ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة ، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٢٢ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٧٨١) .

حتى صدقوه وآمنوا بمهديته ، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم ، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشعر لهولها الأبدان ، حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة .

لقد كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء ، واستغلاله كل الفرص ، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيماً ومرشداً روحياً لها ، وليدفع بقبيلته مصمودة إلى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف .

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادية في ذلك الوقت . فقد كان على قسط وافر من العلم ، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ، ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه . كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم ، فيساعد في ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخصوم ، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله ، وأملى عليها ما يريد ؛ فانقادت له مبهورة .

لقد ساعد ابن تومرت في تحقيق أهدافه سذاجة المجتمع وجهله ، وما عشعشت في ذهنه من الأساطير وانحرافات حتى عاد غريباً عن منهل الإسلام الصافي ، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم ، فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكاً بعلائق الجاهلية ؛ مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت ، فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة ، فتقبلوها دون نقد أو تمحيص ، وقدموا أرواحهم دفاعاً عنها بعد أن أوهمهم أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً .

ومن افتراءات ابن تومرت أنه ادعىٰ أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام ، وأن من لم يؤمن بمهديته فهو كافر ، وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه[١] ، وأحدث في أذان الصبح (أصبح ولله الحمد) ، وتطاول وادعىٰ أنه يعلم الغيب[٢] .

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف ، وتذكيها العصبية القبلية ، لا يمكن أن

(١) انظر : دولة المرابطين ، ص ١٢٤ .
(٢) انظر : عصر المرابطين والموحدين لعنان ، ص ٢١٦ .

تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها؛ لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع ، وانبرىٰ له شيخ الإسلام ابن تيمية بهدم عقيدته بمعاول الحق والحجج والبراهين ، وقد بينت ذلك[١] .

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان ؛ حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلناً في مدينة مراكش من فوق منبر مسجدها بطلان عقيدة المهدي ابن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع ، كما أسقطه من السكة ومن الخطبة ، وقال: لاندعوه بالمهدي ، وكتب بلك إلى الآفاق[٢] وبناءً على هذا الإعلان حذف اسم (المهدي) من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ (القرآن حجة الله) في المركز ، وفي الهامش نقش اسم (خليفة الموحدين المأمون)[٣] . إن عقيدة أهل السنة والجماعة الضاربة في أعماق أهالي الشمال الإفريقي حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين ، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية ، واتخذت من جهاد النصارىٰ في الأندلس هدفاً أسمىٰ لوجودها ، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مراكش إلى الأندلس سوىٰ الغيرة على الإسلام ، عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوىٰ تحت مطارق ألفونسو السادس ، وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارىٰ عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس ، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين ، وأدى ذلكَ إلى ازدياد ضغط النصارىٰ على المسلمين في الأندلس ، وبدؤوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرىٰ ، في هذا الوقت استطاع ابن تومرت بواسطة المؤمنين بمهديته أن

---

(١) انظر : الفتاوىٰ (١١/ ٤٩٢).
(٢) انظر : دولة المرابطين ص ١٢٥ .
(٣) مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقية والأندلس ، ص ١٩١ ، رسالة ماجستير.

يطيحوا بدولة المرابطين ، فأثلج ذلك قلوب النصارىٰ الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحىٰ وشيكاً[1] .

إن رجال الإصلاح في تاريخنا الإسلامي هم الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ، أما الذين كذبوا وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض ، وكفروا المسلمين الأولىٰ بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير والإفساد ، وإنها لمغالطة تاريخية وخيانة للأمانة العلمية عندما تضفي على المفسدين ثوب الإصلاح ، وتجعلهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام . إن حركات الإصلاح في التاريخ الإسلامي هي التي التزمت بكتاب ربها وسنة نبيها ، واستوعبت فقه التمكين ، وأخذت بأسبابه ، وحرصت على تنفيذ شروطه جديرة بالدراسة الواعية من أجل إخراج فقه للعاملين في مجال الدعوة الإسلامية ، وإنها لكفيلة بربط الحاضر بالماضي ، وجديرة بإثراء واقعنا بفقه بناء الدول وأسباب النهوض وعوامل السقوط ، وكيفية الأخذ بأسباب النجاح ، واتقاء المزالق .

■ ■ ■

(١) انظر : دولة المرابطين ص ١٢٦ لقد استفدت من كتاب تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت للأستاذ/ عبد المجيد النجار ، ودولة المرابطين للأستاذ سلامة محمد سلمان الهرفي في مبحث المنهج التربوي والسياسي والعسكري عند ابن تومرت ، وغيرهما من المراجع ، وهذا للأمانة العلمية .



الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده





المبحث الأول
عبد المؤمن بن علي

أولاً: اسمه ونسبه:

عبد المؤمن بن علي بن علوي ، سلطان المغرب الذي يلقب بأمير المؤمنين ، الكومي ، القيسي ، المغربي.

ولد بأعمال تلمسان ، وكان أبوه يصنع الفخار[١].

قيل: إنه قال ـ أعني عبد المؤمن ـ: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مضر بن نزار ، وللكومية علينا حق الولادة ، والمنشأ فيهم ، وهم أخوالي[٢].

وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تومرت ، قالوا: قسيمه في النسب الكريم ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وأربعمئة[٣] ، ووصفه الذهبي فقال: «وكان أبيض جميلاً ، ذا جسم عمم[٤] ، تعلوه حمرة ، أسود الشعر ، معتدل القامة ، جهوري الصوت ، فصيحاً جزل المنطق ، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة ، وكان في كبره شيخاً وقوراً أبيض الشعر ، كث اللحية ، واضح بياض الأسنان ، وكان عظيم الهامة ، طويل القعدة ، شثن الكف ، أشهل العين».

أ ـ لقاؤه بمحمد بن تومرت:

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبد المؤمن ، فحدثه ووانسه ، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: أطلب العلم ، قال: قد

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٦).
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر (٢٠/ ٣٦٧).
(٤) عظم الخلق في الناس وغيرهم.

وجدت طلبتك ، ففقهه ، وصحبه ، وأحبه ، وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النبل[١] . وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات :

تكاملت فيك أوصاف خصصت بها فكلنـــا بـــك مســـرور ومغتبـــط
السّــن ضــاحكــة والكــفُّ مــانحــة والنفـس واسعـة والـوجـهُ منبسـط[٢]

وكان ابن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاب الدول. لقد كان ابن تومرت يعمل على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ؛ ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة ، وعلمه ، ودربه ، وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن في كل ما يقول وأن يقتدوا به في كل ما يفعله ، وكان عبد المؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب ، فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة ؛ لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس[٣] .

ب ـ بيعته :

بايع أصحاب ابن تومرت المقربين عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان ٥٢٤ هـ ، وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة الخاصة ؛ لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين ، ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة قيل : في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ ، وقيل ٥٢٧ هـ ، وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم؛ لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة ، وإلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسته ورجاحة عقله وشجاعته[٤] . وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته ، والتي أشار فيها إلى توليه عبد المؤمن من بعده : «استدعى ابن تومرت قبل موته الرجال المسمين بالجماعة وأهل الخمسين الثلاثة : عمر أرتاج ، وعمر إينتي ، وعبد الله بن سليمان ، فحمد الله ، ثم قال : إن الله سبحانه ، وله الحمد منّ عليكم أيتها الطائفةُ بتأييده ، وخصكم بحقيقة توحيده ، وقيض لكم مَنْ

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨) .
(٢) انظر : النجوم الزاهرة (٥/ ٣٦٣) .
(٣) انظر : موسوعة المغرب العربي للغنيمي (٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤) .
(٤) انظر : تاريخ الإسلام ، د. حسن إبراهيم (٤/ ٢٠٨) .

ألفاكم ضلالاً لا تهتدون ، وعمياً لا تبصرون ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، فهداكم الله به ونصركم ، وجمعكم بعد الفرقة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك بما كسبت أيديهم ، فجددوا لله خالص نياتكم ، أروه من الشكر قولاً وفعلاً مما يزكي به سعيكم ، واحذروا الفرقة ، وكونوا يداً واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس ، وأسرعوا إلى طاعتكم ، وإن لم تفعلوا شملكم الذل ، واحتقرتكم العامة ، وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة ، واللين بالعنف ، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً بعد أن بلوناه ، فرأيناه ثبتاً في دينه ، متبصراً في أمره ، وهو هذا ـ وأشار إلى عبد المؤمن ـ فاسمعوا له وأطيعوه ما أطاع ربه ، فإن بدل ففي الموحدين بركة وخير ، والأمر أمر الله يقلده من يشاء. فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت»[١] .

وقال ابن خلكان[٢] : ما استخلفه ، بل أشار إليه ، وما قاله الذهبي نقله عن عبد الواحد المراكشي[٣] .

كما أن هناك سبباً آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبد المؤمن ؛ ألا وهو أن عبد المؤمن كومي وليس من المصامدة ، وهذا يجعل حداً لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة ، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقوعها محتملاً بين القبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

وما أن أعلنت طبقة الجماعة وفاة ابن تومرت وبيعتها لعبد المؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات بالبيعة له ، ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم ، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل ، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها ، ولذلك لم يستطع بادئ الأمر أن يستبد بأمر من الأمور ، ولا أن يبت في حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن ، وكان الموحدون الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه ، فهم لم يتركوا لعبد المؤمن العنان لأن يستبد بهم ، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد في قرارات الحكم ، بل نجدهم يناقشون وينتقدون أعمال

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٩) .
(٢) انظر : وفيات الأعيان (٣/ ٢٣٩) .
(٣) انظر : المعجب ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧ .

عبد المؤمن ويتجرؤون عليه ، وقد وصل الحالُ ببعضهم أن قتل أخا عبد المؤمن ، لما جاء لزيارةِ أخيه الخليفة ، وجلس في المكان المخصص له ، فما كان منه إلا أن غضب لنفسه ، واعتبر ذلك إهانة له ، فثار بأخي عبد المؤمن الخليفة وقتله ، ولما غضب عبد المؤمن ، وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه ، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك[١].

ويروي البيذق هذا الحادث ضمن أخبار سنة ست وثلاثين وخمسمئة (٥٣٦ هـ) فيقول: «وفيها جاء إبراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد ، وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فتغابر إبراهيم أخو الخليفة مع محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقتله محمد بن أبي بكر بن بيكيت. فقام له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكاك وقالا له: ألم يقل المهدي: بأن الجماعة وصبيانهم وعبيدهم كل من في الدنيا؟! فصمت عند ذلك الخليفة»[٢].

لقد أسرها عبد المؤمن في نفسه ، وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت ، ووضع نظاماً جديداً يكرس الولاء لشخصه وأسرته ، وسنرىٰ ذلك بإذن الله ، ويبدو أن عبد المؤمن لا يعتقد اعتقاداً راسخاً في عصمة ابن تومرت ومهديته ، وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه ابن تومرت بعد أن مهد ذلك ، وجعل الزمن جزءاًمن هدفه.

لقد كان الظلم في تعاليم ابن تومرت واضحاً ، فهذا خليفة الموحدين يُقتل أخوه ، ويُمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة ، وكل من في الأرض عبيد لهم ، ولا شك أن ذلك الحديث أثر في عبد المؤمن بن علي.

ثانياً: قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب:

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولىٰ عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين ، وكانت مهمته عسيرة وصعبة ، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين ، وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيداً للمعركة المقبلة الفاصلة ، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في رأب الصدع ، وتأليف القلوب ، وتعبئتها لمدافعة

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢) أخبار المهدي للبيذق ، ص ٩٣.

المرابطين ، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة القتال ضد المرابطين ، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراكش ، فقد هاجمها أياماً ، ثم ارتحل عنها[١] ، غير أن ابن القطان[٢] وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة ، وفيها خرج عبد المؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، فسار أولاً نحو حصن تازاجورت وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بقيادة يدر بن ولكوط ، وقيل: يحيى بن مريم الزرجاني[٣] ، فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين ، وهو رقم مبالغ فيه ، فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يجاوز العشرين ألف مقاتل ، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع ، والحصون المرابطية في المغرب ؛ فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارىٰ في الأندلس.

رحل عبد المؤمن عن تازاجورت بعد أن سبىٰ ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور ، وصحبها معه إلى تينملل ، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد بمن كان في تلمسان من أسرىٰ الموحدين ، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليها ، كما استولى في نفس العام ٥٢٦ هـ على حصن هزرجة ، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته ، ومنها سار إلى بلدة جثجال ، وأضرم فيها النيران ، وقتل أهلها ، ثم سار إلى بلدة أجلاحال ، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامرأته في يوم العيد ، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمئة رجل ، وفي نفس العام استولىٰ الموحدون على حصن جلاوة ، افتتحه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيىٰ الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين ، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته ، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه ، وفي هذا العام أيضاً افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين ، وكان قد تولىٰ بناءه ميمون بن ياسين ، كما كانت تقوم على حراسته حامية من هزرجة قوامها مئتي وخمسمئة راجل ، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجؤوا إلى الحيلة ،

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ، د. مهدي عبد المنعم ص ١١١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

فداخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطؤوا معهم على فتحه ، فاقتحموه ليلاً ، وقتلوا أبا بكر بن واصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين ، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين[١] ، ثم عاد عبد المؤمن إلى تينملل ، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة ، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض منافسي عبد المؤمن ، وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال تلح في نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن ، وأعني بهم أصحاب ابن تومرت العشرة ، وتتلخص هذه الحادثة في إقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن علي أثناء غيابه عن تينملل غازياً ، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن ابن ملوية ، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل ، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمىٰ تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه ، ثم يزحف بقواته المجتمعة إلى تينملل ، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينملل جمع شيوخ جنفيسة ، وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت ، ونعوا إلى ابن ملوية تلك الخيانة ، وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكي أحد أهل الخمسين ومعه غلامه ، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه ، وحملا جثته إلى تينملل حيث صلبت ، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها ، وقسم الغنائم عليها[٢] .

ويبدو أن عبد الله بن ملوية لم يكن متطلعاً للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة ، وخصوصاً وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من كذب وباطل وظلم وجور ابن تومرت ، الذي مارسه بدون مسوغ شرعي ، ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين علي بن يوسف .

وفي عام ٥٢٦ هـ حدث أمر عظيم يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول عهد المرابطين ، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي[٣] ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين ، وكان الفلاكي من أهل إشبيلية ، وكان في بداية أمره شقياً

---

(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .
(٢) انظر : تاريخ المغرب في الأندلس ، ص ١١٤ .
(٣) انظر : دولة المرابطين ص ١٢٧ .

وقاطع طريق ، ثم تاب فعفا عنه والي إشبيلية ، وقدمه على الرماة والرجالة ، ثم انتقل إلى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف ، الذي قدمه على فرقة من جند المرابطين ووجهه إلى السوس لمدافعة الموحدين ، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين ، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين ، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس ، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدية من قبل ، وظل في خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة ، وعاد إلى طاعة المرابطين ، وفي عام ٥٢٨ هـ قتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام ٥٢٩ هـ سار عبد المؤمن لغزو بني بيغز ، وظل يحاصرهم نحو أربعين يوماً ، فلما يئس من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينملل ، واستمر الصراع من عام ٥٣١ هـ ـ ٥٣٢ هـ . وفي هذا العام ٥٣٢ هـ تحرك عبد المؤمن من تينملل إلى جبل غياثة ، فعسكر بجرائده على مقربة من المقرمدة عند وادي أبي حلوا ، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولىٰ قيادتها عبد الله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت ، فعسكرت بالقرب من محلة سير ، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس ، يتقدمهم يحيى بن فانو ، غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين ، وراسل عبد المؤمن بن علي ، وطلب منه عسكراً لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبد الله بن يحيى بن أبي بكر ، فأمده بقوة موحدية ، أغار بها على محلات عسكر المغرب ، وألحق بهم خسائر فادحة ، وفي نفس الوقت توفي القائد يحيى بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للمرابطين ، فأسند الأمير سير القيادة للقوة الزناتية لمحمد بن يحيى ابن القائد المتوفىٰ ، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجدة. وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير بن علي بأن عبد المؤمن يريد بلاد غمارة ، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه ، واستمرت هذه القوات المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق ومراقبة تحركات عبد المؤمن ، وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذويه من زناتة ، واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين ، فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة

زناتة ، وهاجمتها ، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة[١] .

وفي عام ٥٣٣ هـ تحرك عبد المؤمن بن علي من تينملل ، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاجة ، فزحف إليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند للمرابطين ، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة ، وكان علي بن يوسف قد قتل عدداً من أعيان قبيلة منانة ، وكان ذلك سبباً في دخولها في طاعة الموحدين ، ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات ، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة أيام ، وهو يشن عليهم الغارات ، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدزران ثم إلى بني سوار من منانة الجبل ، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ، ثم سار عبد المؤمن إلى أجر فرجان ، فتبعه تاشفين بن علي في قواته وسد عليه الطريق ، فنشبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين ، هزم فيها تاشفين ، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت ، فاستولىٰ الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد ، وفي هذه اللحظات وصلت قوىٰ مرابطية من مراكش مدداً لتاشفين ، ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين ، فطمعوا في انتزاع الغنائم من الموحدين ، فلما علم عبد المؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة ، فأمر برصد الكمائن في مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة جزولة ، وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ما سمعوا قرع الطبول . نجحت خطة عبد المؤمن بن علي نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسبان ، فقد هاجمت جزولة ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها ، فلما توسطوا مواضع الكمائن ، دقت الطبول فجأة ، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم ، واستولوا على أسلحتهم ودوابهم ، وما إن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة .

وفي عام ٥٣٤ هـ خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين ، وانضمت إليهِ فرقة بقيادة الروبرتير ، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزعور ما يقرب من شهرين ، وشددوا عليهم الحصار ، وقطعوا عنهم الميرة ، حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم ، ثم نشبت بين الفريقين

---

(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١٧ .

معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين ، ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحاً.

وفي عام ٥٣٥ هـ (١١٤٠ ـ ١١٤١م) ، خرج الجيش المرابطي من مراكش بقيادة الروبرتير ، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي في مكان يسمىٰ امسيميصي يقع في أرض كدميوه شمال تينملل ، وقيل: إن اللقاء حدث بجبل خدميره ، ولا يذكر البيذق نشوب معركة بين الجانبين ، وإنما يؤكد أن كل فريق عاد إلى بلاده ، بينما يؤكد ابن عذارىٰ حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين ، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحاً إلى مراكش. ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لمتونة ، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمىٰ اكظرور ، فهزم المرابطون ، وارتد الروبرتير في فلوله جريحاً إلى مراكش ، وعاد عبد المؤمن إلى تينملل[١].

واصل عبد المؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين ، فخرج بقواته في نفس العام ٥٣٥ هـ وحاصر حصن تينلين ، وكان يدافع عنه واليه المرابطي يركين بن وبدرن ، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام ، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس ، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين ، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها أيرمناد ، وتاسلولت وتيونوين وإيجلي وغيرهم ، وفي نفس الوقت هاجم الروبرتير محلة تيغيغايين الموحدية ، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش. أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس ، وكان من جملة سباياه فيها (تماكونت) ابنة ينتان بن عمر أحد وزراء علي بن يوسف ، التي رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها ، وذكرته بشفاعة أبيها بنتان بن عمر في ابن تومرت ، عندما كان ماراً بمراكش ، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكيل به ، فلم يتردد عبد المؤمن في قبول رجائها ، وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات ، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبد المؤمن ،وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيغايين ، وأرسلهن آمنات مكرمات إلى تينملل. رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدون على المرابطين أن ينقل

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٢٠.

مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين مستهدفاً القضاء عليها وإسقاطها ، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية ٥٣٥ هـ ، ويورد البيذق ـ وكان شاهداً عياناً لأحداث هذه الفترة ـ وصفاً دقيقاً لحملة عبد المؤمن الكبرىٰ ضد المرابطين ، فيذكر أنه خرج من تينملل في حشود ضخمة متجهاً نحو الشمال الشرقي ، فنزل بموضع يسمىٰ وانزال ، ثم زحف إلى أشبار ، وتقع جنوب شرقي مراكش ، ثم غادرها إلى تاساوات فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في إثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مروراً ببلدة يمللو القريبة منها ، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو (واويزغت) دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ، ودارت فيها الدائرة على المرابطين. ثم تقدم الموحدون إلى (داي) فولىٰ حاكمها المرابطي علي بن ساقطر الأدبار ، وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين وواصل الموحدون زحفهم صوب (تازاكارت) ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعة واوما ، ثم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها ، فدخلها الموحدون ، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته ، ووجه منها عدداً من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة ، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين إلى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبد المؤمن. وهكذا دخل أهل فازاز جميعاً في طاعة الموحدين ، وأقام عبد المؤمن فترة في آزرو حيث تزوج من إحدى نسائها.
وواصل عبد المؤمن زحفه ، فخرج من آزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة ففتك بها وأباد معظمها ، واستولى على كميات كبيرة من المؤن والعتاد ، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي آزرو ، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطقة الواقعة جنوبي آزرو ، وعندئذ اتجه نحو سجلماسة ، فبادر واليها أبو بكر بن صارة بالدخول في طاعة الموحدين. وفي أوائل عام ٥٣٦ هـ قامت سرية موحدية على رأسها عبد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمتها ، وتابع ابن زكو زحفه إلى الشمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي ، وفي هذه الأثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به ، ثم بعث الروبرتير في قوة إلى الفلاج لاستنقاذها ، فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيى آغوال ، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل فيها قائدهم يحيى ، واحتز رأسه وأرسل إلى فاس .ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقي فاس ، وضربوا محلتهم على سفح جبل عفرا. بينما عسكر المرابطون في موضع يسمى النواظر يقع على مقربة من جبل عفرا. ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء

وكان شتاءً قاسياً ، تعرضت به المنطقة خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت السهول والقرىٰ والوديان ، وقاسىٰ بسببها العسكران أيما عناء وشدة ، إلا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكىٰ ، حيث تساقطت الخيام ، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض ، وغرقت الدور ، وهلك عدد كبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلة الأقوات والوقود في كل من المعسكرين ، وبلغ سعر الشعير في معسكر الموحدين وفقاً لقول البيذق ثلاثة دنانير للرطل ، وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل.

مع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم ، فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي ، وتقع إلى الشمال الشرقي من فاس. وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في أثر الموحدين ، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاي إلى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة ، وكانوا قد أظهروا الولاء للموحدين ودخلوا في طاعتهم ، وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها ، وأصبح العسكران كفرسي رهان ، كلما تقدم الموحدون سار وراءهم المرابطون ، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في موضع يقال له (تازغدرا) أسفرت عن قتل عدد من القوتين ، ارتد الروبرتير على إثرها إلى بني تاودا ، بينما سار الموحدون إلى (تاغزوت) ومنها إلى بني مزكلدة ، ثم إلى إيلانة ثم إلى أيجن. وفي أيجن مرض الشيخ أبو حفص عمر بن علي أزناج أحد جماعة العشرة ، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ، ونصحهم بالتزام الصبر والتمسك والإخلاص لمبادىء ابن تومرت ، وطاعة عبد المؤمن ، ثم توفي في مساء نفس اليوم ، ودفن في موضع يسمى (بجدار نمضى).

ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف ، مروراً بتامقريت ووادي لو أرض بني سعيد ، ومن ورائهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان ، في الوقت الذي وصلت قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطلة على البحر المتوسط ، ومكنت نفوذها في تلك النواحي ، وواصلت من هنالك تقدمها إلى ثغر المزمة ومنها إلى جبل تمسامان ، حيث وجه عبد المؤمن قائده عبد الرحمن بن زكو في قوة من الموحدين لغزو مليلة ، فاقتحمه وظفر بغنائم وفيرة.

ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كومية ، قبيلة عبد المؤمن ، ومنها

واصلوا تقدمهم شرقاً إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن ، وفي هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات **الأولى**: بقيادة عبد الرحمن بن زكو ، وجهتها ثغر وهران ، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه ، **والثانية**: بقيادة الشيخ أبي إبراهيم إسماعيل ، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان ، **والثالثة**: بقيادة يوسف بن واندوين ، وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان ، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهر ، ومحمد بن يحيى بن فانو ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون ، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهر وابن فانو ، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم على قوى المرابطين ، وإن كانت كلفتهم كثيراً طوال حياة أمير المسلمين علي بن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيبته في نفوس المرابطين ، ثم جاءت وفاته سنة ٥٣٧ هـ بداية لنهاية دولة المرابطين[١] ، وتولىٰ الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة والده لقتال الموحدين ، للك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشؤون الحكم الداخلية ، وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأنلدس ، ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت ، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مئة وخمسين سفينة حربية في عام (٥٣٨ هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة علي بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين ، فانضمت مسوفة إلى الموحدين ، وفي عام ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م تمكن عبد المؤمن بن علي من قتل القائد المرابطي الروبرتير ، ودخل تلمسان وفي ٢٧ رمضان من نفس العام قتل تاشفين ، ودخل الموحدون وهران ، وفي ١٤ ذي القعدة ٥٤٠ هـ دخل الموحدون فاس ، وفي ١٨ شوال تمكنوا من دخول مراكش[٢].

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير ، استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما بعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين ، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات ، فقضوا على

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، ص ١٢١ ـ ١٢٤.
(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٨٣ ـ ٧٨٦).

اقتصاديات دولة المرابطين ، كما شجع هذا الوضع الإسبان النصارىٰ على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم ، وقد صور صاحب الحلل الموشية[١] ذلك بقوله: «وتأججت نارُ الفتنةِ في المغرب ، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب ، وغلت الأسعار ، وتوالت الفتن ، وعم الجدب ، وقلت المجابي ، وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدوة ، ونقل إليها كثير من أسلحتها وعددها ، فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس ، واختل عليهم ، وألح النصارىٰ بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها ، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي ؛ فساءت الأحوال ، وكثرت الشدائد والأهوال»[٢] .

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله ، فكان لا بد من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط .

ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس:

بعد أن احتل عبد المؤمن بن علي مدينة فاس وحاصر مراكش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له ، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي ، ولكن أهل سبتة انتقضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين ، وجاز القاضي عياض واليهم السابق إلى يحيى بن علي بن غانية المسوفي والي الأندلس ، فلقيه بالجزيرة الخضراء وطلب منه والياً على سبتة ، فأرسل معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي ، فقام بأمر سبتة ، وشكل حلفاً مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودكالة ، فاضطر عبد المؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه ، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته ، ثم عاد إلى مراكش ، وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه ، فعفا عبد المؤمن عنه ، وراجع أهل سبتة طاعتهم ، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه[٣] .

---

(١) مؤلفه مجهول.

(٢) الحلل الموشية ، ص ١٢ .

(٣) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٨٨).

وبعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى بهدف استتباب الأمر لعبد المؤمن وجّه نظره إلى الأندلس، وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين، فأعلنت ثوراتها وانفصالها عن المرابطين، وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين بن علي في عام ٥٣٩ هـ، وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس، ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠ هـ، كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولىٰ أبو محمد سدراي على مرتلة أجاز ابن قيس إلى عبد المؤمن بمراكش عام ٥٤١ هـ، ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة الموحدين، فسير عبد المؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي، في شعبان ٥٤١ هـ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسىٰ بن سعيد، وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة، وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت إشبيلية في سنة ٥٤١ هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقي أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة.

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان، فنزل يوسف بإشبيلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية وقادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة ٥٤٣ هـ، ولم تبدأ سنة ٥٤٥ هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا عبد المؤمن بن علي، وأعلنوا الدخول في طاعته، وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس، وإشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام ٥٤٦ هـ وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب

حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسىٰ ، وحرق السفن والأجفان الراسية به ، ووصلوا إلى المسجد الجامع .

وفي سنة ٥٤٩ هـ تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن بدر اللمتوني ، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس . ثم تلقىٰ السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية براً وبحراً ، وتخليصها من النصارىٰ ، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخيه أبي حفص ، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً . وحاول ألفونسو السابق الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارىٰ من هذا الحصار ، فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل ، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٥٦ آلاف مقاتل ، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة ، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، والي إشبيلية ، فازدادت قوة الموحدين بقدومه ، واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ، ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتىٰ ، إذ رأى (العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارىٰ فارتحل) . وولىٰ عسكر ألفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس ، ومات ألفونسو في طريقه إلى بياسة سنة ٥٢٢ هـ ، وخلا الجو للموحدين ، فشددوا الحصار على القصبة ، واستولوا عليها في سنة ٥٥٢ هـ ،وهكذا استرد الموحدون المرية ، وقد تهدمت أبنيتها ، وتغير محاسنها[١] .

وفي سنة ٥٥٥ هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه ، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس ، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس ، فنزل بجبل الفتح ، وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس ، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ، ثم أمر بغزو غرب الأندلس ، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة ، ففتح حصن أطرفاكمش من أحواز بطليوس ، واستولىٰ الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر ، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش[٢] .

---

(١) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٧٩١) .
(٢) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٧٩٢) .

رابعاً: فتح المغربين الأدنى والأوسط:

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام ٥٥٦ هـ، وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبد المؤمن من اختلاف الأمراء، وتطاول العرب من بني سليم وهلال على إفريقية بالعبث والفساد، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة ٥٤٦ هـ من مراكش قاصداً مملكة يحيى بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيى تميم، وكان قد انتقل إليها بعد سقوط المهدية في أيدي النورمان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علم بقدوم عبد المؤمن بن علي خرج للقائه؛ فتلقاه بحفاوة بالغة وصحبه في غزو إفريقية، ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه (سبع) للقاء جيوش عبد المؤمن، فانهزم هزيمة نكراء، ودخل الموحدون بداية، ولما رأىٰ يحيىٰ أن لا طاقة له بمحاربة عبد المؤمن، هرب في البحر إلى صقلية لقصد الانتقال منها إلى بغداد، وحمل معه ما استطاع من الذخائر والجواهر والذهب والأموال، ثم عدل عن ذلك، ونزل في بونة على أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن، أما عبد المؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم، وحرزهم الأمنع، واقتحمها عنوة، فخربها، وأضرم النار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز، ولما استولىٰ عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبد الله، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها وكر عائداً إلى مراكش. وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه، فأمنه وأصحبه معه إلى مراكش في سنة ٥٤٧ هـ وأسكنه بها، ثم انتقل يحيى إلى سيلا سنة ٥٥٨ هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة.

أما الحسن بن علي فقد صحب عبد المؤمن في غزواته الأولى إلى إفريقية، كما صحبه في سنة ٥٤٤ هـ في غزوته الثانية، فحاصر معه المهدية، ثم دخلها، وسكن بها ثماني سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي بتامسنا في سنة ٥٦٣ هـ. ثار عرب الأثبج ورياح وزغبة في سطيف على عبد الله بن عبد المؤمن بن علي من أجل إعادة دولة بني حماد، فأرسل عبد المؤمن بن علي إلى ابنه مدداً، والتقىٰ عبد الله بن عبد المؤمن بهم سطيف،

فانهزم العرب ، وأعلنوا استسلامهم للموحدين ، وقدم إليه وفد من كبرائهم طائعين ، فأكرمهم ، ووصلهم ، وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته ، فاتخذ منهم جنداً ، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ، ثم إنه استنفرهم في الغزو بالأندلس ، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما أراد الجواز في الأندلس في سنة ٥٥٥ هـ أدخلهم بها ، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة ، وبعضهم في إقليم إشبيلية ، مما يلي شريش وأعمالها ، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور ، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو خمسة آلاف فارس سوىٰ الرجالة[١].

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ، ونزل على مدينة تونس سنة ٥٥٢ هـ ، فحاصرها ، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها ، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان ، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين ، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب ، فهزموا الموحدين[٢].

وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك ، فخلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز بن خراسان ، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك. فخرج أبوه من مراكش في جيوش لا تحصى في ١٠ شوال سنة ٥٥٣ هـ بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيى ، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة ، ثم واصل زحفه إلى المهدية ، وضرب عليها الحصار ، وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية ، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر ، ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية ، ودخلها في سنة ٥٤٤ هـ. وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس ، فاستولىٰ عليها من بني كامل من رياح ، المتغلبين عليها ، كما استولىٰ على قفصة من بني الورد ، وعلى طبرقة من مدالع بني علال ، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة ، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي ، والأربس

---

(١) المراكشي ، ص ٢٢٦.

(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٩٥).

من بني فثانة العرب ، ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضاً ، وافتتح بلاد الجريد كلها[١] . وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته ، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً ، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة[٢] .

خامساً: سياسته مع النصارىٰ واليهود وتخريجه للساسة لضبط نظام الدولة:

أ ـ عندما استولىٰ عبد المؤمن على مراكش ، قتل المقاتلة ، وكف عن الرعية ، وأحضر اليهود والنصارىٰ ، وقال: إن المهدي أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة الإسلام ، وأنا مخيركم بين ثلاث ، إما أن تسلموا ، وإما أن تلحقوا بدار الحرب ، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب ، وخرب كنائسهم ، وعملها مساجد ، وألقى الجزية ، فعل ذلك في جميع مدائنه ، وأنفق بيوت الأموال ، وصلىٰ فيها اقتداء بعلي وليرىٰ الناسُ أنه لا يكنز المال ، وأقام كثيراً من معالم الإسلام مع سياسة كاملة ، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتلوه ، وأزال المنكر ، وكان يؤم بالناس ، ويتلو في اليوم سبعاً ، ويلبس الصوف الفاخر ، ويصوم الإثنين والخميس ، ويقسم الفيء بالشرع فأحبوه ، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده ، ولم يدع مشركاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً ، فجميع رعيته مسلمون[٣] .

ورأى عبد المؤمن أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نظماً موطدة الدعائم ، فأطلق حرية العلوم والمعارف ، وسار في كل ذلك مع نهج الدين الحنيف ، وبنىٰ عدداً من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب ، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً ، مع التمرين على فنون الحرب ، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشىٰ أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم ، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة ، وموظفي الحكومة ، وقادة الجيش ، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره ، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد ، ولكي يجعل منهم

---

(١) المراكشي ، ص ٢٣٠.
(٢) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٩٩).
(٣) انظر: الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرىٰ كان يمتحنُ تدريباتهم العسكرية ، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل ، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدها ، ووضع سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر ، وقيادة السفن ، والوثوب على سفن العدو ، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه[1].

لقد استطاع عبد المؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشئ نظاماً جديداً للدولة ، إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته ، وكان أشد ما يعنىٰ به عبد المؤمن ـ وهو من أعظم قادة عصره ـ تنظيم شؤون الحرب والجهاد التي بث فيها بجهوده ومتابعته ، نهضة إحياء شاملة ، وإليك وصف نظام سير الموحدين ، وتقسيمات الجيش ، كما كان عندما استولىٰ على تونس والمهدية من النورمان الصقليين[2].

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس ، وكانت علامة المسير ثلاث قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً ، مدهون بلون الموحدين الأخضر ، ومحلى بالذهب ، وقد صنع من خشب رنان ، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه ، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص وهو يحمل مطوياً أثناء السير ، ولا ينشر عندئذ سوىٰ علم الطلائع ، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب ، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة ، وتخصص لغذاء الجند ، وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف ـ فضلاً عن الفرسان ـ من سبعين ألفاً من المشاة ، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء ، أو ضيق في المكان ، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح ؛ فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدىٰ ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر ،

---

(١) انظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف أشباخ (٢/ ٥٠).
(٢) انظر : الأرك ، د. شوقي أبو خليل ص ٢٩.

حتى يتسنىٰ للجند أن يبدؤوا السير في اليوم التالي بقوىٰ مجددة ، وترتب على هذا التمهل في مسير الجيش أن اقتفىٰ عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط. وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه ، وإلى قيادة الجند التابعين له ، وكان يتقدمه مئة شيخ وقائد ، يمتطون جياداً مطهمة يتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثياباً فخمة ، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركاً وتيمناً ، وقد وضع في صندوق بديع الصنع ، محلى بصفائح الذهب ، مرصع بأروع اللآلئ والأحجار الكريمة ، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين ، وبني عباد ملوك إشبيلية ، وبني هود ملك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيها جميعاً وتكدست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام ، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وإلى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والي تلمسان ، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف ، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون(١) الذين يرافقون الجيش ، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية ، والنافخون في الأبواق والقرون(٢) وغيرهم من رجال الموسيقا العسكرية ، ثم الولاة والقضاة والوزراء والكتاب ، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم ، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر ، افرد لكل قسم مكانه المعين ، ولا يسمح لإنسان أن يتركَ المعسكر دون إذن القائد المختص ، ثم توزع الأقوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يقتر على أحد منهم.

يستنتج من هذه النظم الصارمة ، ومن المثابرة على التمارين الحربية ، ومن دراسة حياة الموحدين:

١ ـ أن عبد المؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.

---

(١) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولداً.

(٢) القرن هنا: آلة موسيقية تعتمد على النفخ ، تشبه تماماً القرن المعروف على رأس البقر أو غيره.

٢ ـ كان يتولىٰ القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.

٣ ـ وكان يتبع نظاماً جديداً في منتهىٰ البساطة ، ولكنه جم الفوائد.

٤ ـ وأن قيمة الجيش ليست في عدده ، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه ، وكان عبد المؤمن يرىٰ أن القوةْ الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب ، حسنة التسليح ، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن ، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لا يستغنى عنه في المعارك.

ومن أعمال عبد المؤمن: مسح جميع أراضي مملكته ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها ، وثروتها ، وغلاتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية ، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى ، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن ، والمناطق الصحراوية والغنية بالخيل تقدم الفرسان ودواب الحمل والجمال ، وعلى الولايات الأخرىٰ في المدن الداخلية ـ مثلاً ـ تقديم الجند المشاة والسلاح ، كل بنسبة سكانها.

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة ، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسي والنشاب والخوذات والدروع والسهام.. وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار[1]. وعزم عبد المؤمن على تغيير نظام الطبقات؛ ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر غير الموالية له ، وتخلَّص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له غير مؤكداً ، ومشاغبتها عليه محتمل وقوعها. وخافه الموحدون خوفاً عظيماً ، وأرعبت النفوس منه ، وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه الشخصية وطموحه الذاتي ، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصاً كبيراً. فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ التي هزم فيها الموحدون من قبل القوات المرابطية ، وهؤلاء هم: أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسي ، وسليمان بن مخلوف الحضرمي ، وأبو عمران موسىٰ بن تماري الكدميوي ، وأبو يحيى بن بيكيت ، وأبو عبد الله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي آصناك ، فقد توفي سنة ٥٣٦ هـ ، وقتل عبد الله بن يعلي بن

---

(١) انظر: معركة الآراك ، ص ٣٢.

ملوية سنة ٥٢٧ هـ بعد أن خرج على الخليفة عبد المؤمن. إذ إنه حقد على الموحدين بيعتهم له ، أما أبو الحسن بن واكاك ، فقد قتله طلحة غلام أبي إسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة ٥٤١ هـ.

وإذاً فقد توفي من طبقة الجماعة ـ المكونة من عشرة أشخاص ـ ثمانية أفراد ، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وعبد المؤمن بن علي ، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة ، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين ، وغيرهما من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتيحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين ، فرصة طيبة لعبد المؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات[1] وبعد أن تخلص من أكثر من (٣٢٠٨٠) شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات ، فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضروا ، والرعب يملأ جوانحهم ، والخوف يملأ قلوبهم ، خوفاً ورهبةً مما يخبئه لهم الخليفة ، لقد رسم عبد المؤمن خطته في أناة وروية ، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال ، حتى إذا ما استوفىٰ ربط الحلقات وإحكامها ، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله ، وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ، ولا يكون للموحدين أي شيء ، وهكذا أصبح عبد المؤمن خليفة الموحدين اسماً وفعلاً.

ولما أصبحت الحال تلك ، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش ، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي ، وأعلن عليهم النظام الجديد ، وحدد فيه مكان كل منهم ، وتغيرت الطبقات من أربع عشر طبقة إلى ثلاثة طبقات: **فالطبقة الأولى**: هم السابقون الأولون الذين بايعوا ابن تومرت ، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه ، والذين شاهدوا البحيرة وباؤوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الحظوةِ بها ، وشهد لهم بالفضل الذي لا يوازى والرتبة التي لا تعادل ، ويتلو هذه الطبقة: **الطبقة الثانية**: وهي من آمن بهذا الأمر ودخل في هذا الحزب وانضوىٰ إلى هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران ، **والطبقة الثالثة**: من فتح وهران إلى هلم جرا.

ومن النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين ، يتبين أن عبد المؤمن ألغىٰ

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص ٥٨.

طبقة الجماعة إلغاءً نهائياً ، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شؤون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين ، وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبد المؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبد المؤمن ألغى الأربع عشرة طبقة ، وجمعها كلها في طبقة واحدة ، وهي الطبقة الأولى في نظامه ، وهو قد ذهب إلى مدى أبعد ، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأىٰ ابن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين ، يوم الثاني عشر من جمادىٰ الثانية من سنة خمسمئة وأربعة وعشرين هجرية ، الموافق الثالث عشر من مايو سنة ١١٣٠ م.

ومعنىٰ هذا أن عبد المؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولىٰ في نظام ابن تومرت ، ثم إنه ساوىٰ بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأولى ، وجعل مكانة الجميع على قدم المساواة. وهذه المساواة بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الإحدى عشر الأخيرة في النظام الملغىٰ ، كسباً معنوياً كبيراً وفائدة مادية جليلة. وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لإتاحته لهم هذه الفرصة الذهبية. كما وأن التنظيمَ الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية ، فرصة الانتماء للنظام الموحدي ، واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية: فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين ، منذ موقعة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ وحتى فتح وهران سنة ٥٣٨ هـ وهذا يعني أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات ، والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة ٥٢٤ هـ وحتى سنة ٥٣٨ هـ. سواءً كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختياراً أو إجباراً وقسراً بحد السيف. وهكذا استطاع عبد المؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الموحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين ، وإدراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدىٰ إلى انتشار الرضا بينهم واطمئنانهم إلى مستقبلهم الذي يبشر به انضواؤهم في النظام الطبقي للموحدين ، وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي ، قد أتيحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضا والتأييد للخليفة عبد المؤمن بن علي ، الذي أقدم بشجاعة فائقة ، على تغيير النظام القديم ، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحدي ، بل وفي الطبقة الثانية منه ، وبهذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له ، والمؤيدين لسياسته ، والدافعين لأعدائه .

والطبقة الثالثة: تضم من دخل حركة الموحدين منذ فتح وهران سنة ٥٣٨ هـ وإلى أي زمن تلا ذلك ، فاتحاً الباب لكل من يطيع الموحدين لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة .

ثم إن عبد المؤمن لما افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدين ـ بعد أن قضى على إمارة بني حماد فيه ـ قام بمحاربة قبائل بني هلال ، الذين وقفوا في وجهه ، وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة ، وأرغموهم على الخضوع والطاعة ، وبدلاً من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها ، نجده ينقل معه ألفاً من كل قبيلة منهم ، وينزلهم بالمغرب الأقصى ، كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ، ومنحهم جزيل العطاء . وعن هذه الأحداث يذكر البيذق قائلاً : «وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسبيها ، فترك منها أمير المؤمنين في فاس ومكناسة وفي سلا ، وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراكش وعيالهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية ، وابن الزحامس ، وابن زيان ، وأبو قطران ، وأبو عرفة ، والقائد ابن معرف . فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم ، وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم . فقالوا للخليفة : تأمر بالرجوع إليك؟ فقال لهم الخليفة مجاوباً لهم : نحن نصل إليكم ، وردهم كافة بنسائهم ، وكان ذلك في عام ٥٤٧ هـ»(١) .

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنىٰ ، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى . وهو في الواقع قام بهذا العمل ، ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط ، ويجعلها في متناول يده ، كما أنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولائها . كما وأن جلبه لتلك الآلاف منهم وإنزالهم

---

(١) البيذق ، أخبار المهدي ، ص ١١٦ .

بالقرب منه ، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوىٰ بهم ، ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة[١] .

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم ، وحرضهم على قتال النصارىٰ ودخول الأندلس معه ؛ فقال :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرْد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشدوا على الأعداء شدة صائلِ
فما العزُّ إلا ظهرُ أجردَ سابحٍ ... وأبيض مأثور وليس بسائلِ
بني العم من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابن باسلِ
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نيَّةٌ ... عواقبها منصورة بالأوائلِ
هي الغزوة الغراء والموعد الذي ... تنجز من بعد المدىٰ المتطاولِ
بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنىٰ ... بها ننصف التحقيق من كل باطلِ
فلا تتوانوا فالبدار غنيمة ... وللمدلج الساري صفاء المناهلِ[٢]

وكانت الشعراء تقصد عبد المؤمن لمدحه ، ولما قال فيه التفاسي قصيدته :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع ، وأمر له بألف دينار[٣] ، ولما سار عبد المؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق ، وسماه جبل الفتح ، فأقام أشهراً ، وبنىٰ هناك قصوراً ومدينة ، ووفد إليه كبراء الأندلس ، وقام بعض الشعراء منشداً :

ما للعدوىٰ جنة أوقى من الهرب ... أين المعز وخيل الله في الطلب
وأين يذهب من في رأس شاهقة ... وقد رمته سهام الله بالشهب
حدث عن الروم في أقطار أندلس ... والبحر قد ملأ البرين بالعرب

فأعجب بها عبد المؤمن وقال : بمثل هذا يمدح الخلفاء[٤] ، وبعد أن اطمأن عبد المؤمن إلى سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في الدولة ، وضمن تحطم نفوذ الشخصيات البارزة في مجموعة الموحدين ، وتأكد

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين ، ص ٥٧ ـ ٦٠ .
(٢) انظر سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .

له ولاء أغلب الطبقات في النظام الجديد ، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي أنزلها في أحواز مراكش ، أقدم على الخطوة الخطيرة التي ما فتئ يستعد لها ، ويمهد الطريق أمامها ؛ ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه ، وتولية أحد أبنائه ولياً لعهده[١] .

وفي عام ٥٤٩ هـ أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم ، من بني هلال وصنهاجة ، توليته لابنه محمد ولياً لعهده ، وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر ، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة ، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك ، فجاء فيها : «ولكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية ، وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها ، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها ، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها . . . . وكانت العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها ، حاضرة وبادية من أهل إقليمها ومن ذوي ألبابها وحلومها ، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم ، ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ، ولم تزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ، ورغباتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد اللهِ وصولهم في هذه الوفادة ، للأخذ بأطناب السعادة المنيفة بهم على مقتضىٰ الآمال والإرادة ، صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه ، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه. واعلموا أن محمداً ـ وفقه الله ـ هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه ، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصده في توليته مرادهم. فرأيناه بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ، ونتذاكر معهم في ذلك الأمر المسؤول ، ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل ، ونلقي إليهم حديث القوم المذكورين ، بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل ، فكان ذلك على ما أقصد ، وذكروا في الأمر على ما أتوخىٰ فيه وأعتمد. وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنىٰ عليهِ ولا مما أعتقد. . . وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى ـ أعزه الله بتقواه ـ هذا أمر نحن أولىٰ بتقديمه ، وأعلم بوجوبه ولزومه ، وأولىٰ بتأميره علينا وتحكيمه ، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود

---

(١) انظر : سقوط الموحدين ، ص ٦٠ .

الشرع ورسومه ، فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعاية . . وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ، ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ، ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء : هذا أمر في ضمائر أكثرنا معقود ، وفي نفوس جمهورنا موجود ، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد . . وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه ، قصد اعتقادها على أكرم وجه وأسناه ، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم ، وسرىٰ النعيم بها في أبشارهم ومناتهم ، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلاً بعد قبيل»[1] .

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط :

أولها : أن عبد المؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير في تولية أحد أبنائه لخلافته في الحكم .

وثانيها : أن هذه الفكرة إنما أثارتها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية وهي التي لم تكتف بإثارة الموضوع ، بل وألحت عليه . ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة في دولة الموحدين ، ليست من الأمور البسيطة التي يمكن لمثل هذه القبائل أن تبدي رأيها عنها وتتدخل فيها . فهي مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية في جوهرها ، فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التي أخضعت بحد السيف . وتدخل هذه القبائل في مثل هذا الموضوع ، يثير الشك بأن الخليفة عبد المؤمن هو الذي أوحى لها بأن تثيره وتلح عليه .

والنقطة الثالثة : هي أن الموحدين وأشياخهم لما أن جمعهم الخليفة في حضرته ، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية في أن يتولىٰ ابنه محمد الحكم بعده ، بينوا أنهم أولى من غيرهم في اقتراح مثل هذا الأمر ، وأنهم أولىٰ بعقد النية والعزم عليه ، والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبد المؤمن السيد المطاع بلا منازع في دولة الموحدين ؛ ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد ، وتقديم البيعة لولي عهده .

النقطة الرابعة : يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيى وجد نفسه أمام أمر واقع ؛ ولذلك بادر بإظهار الرضا عن هذه البيعة ، وكان أول المبايعين لابن عبد المؤمن ،

---

(١) انظر : سقوط الموحدين ، ص ٦٢ .

وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبد المؤمن في الحكم.

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل الحكم وراثياً في عقبه، وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات، وجعل الحكم وراثياً.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه، ومن الطبيعي أن يكون أهل ابن تومرت أول المعارضين لعبد المؤمن، ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحدي بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط؛ مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحدي في المعركة. وطمع بنو هلال إثر هذا الانتصار في الموحدين، الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة، ولكن عبد المؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل، وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحدي وارتفاع روحه المعنوية، وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف في وجه العواصف الهوج، ففوَّت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبد المؤمن بفعله ذاك، وألقي القبض على يصلتين، وقتل في سبتة عام ٥٤٦ هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام ٥٤٩ هـ حاول أخوا ابن تومرت، عيسى وعبد العزيز في مدينة مراكش القيام بثورة على عبد المؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم، إلا أن المخلصين من أنصار عبد المؤمن وأهل مراكش قضوا على تلك المحاولة الفاشلة، وكان عبد المؤمن بعيداً عن مراكش في سلا، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم ثلاثمئة شخص، وقتلوا جميعاً، وأعدم أخوا ابن تومرت. وفي عام ٥٥٥ هـ حاول بيت ابن تومرت اغتيال عبد المؤمن إلا أن تلك المؤامرات أحبطت في مهدها، وشعر عبد المؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته، وأمرهم أن يأتوه ركباناً ويركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة ٥٥٧ هـ إلى مراكش في تعداد تجاوز الأربعين ألفاً وفرح بهم عبد المؤمن فرحاً عظيماً، وأنزلهم في مراكش، وأعطاهم الدور، ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه، ويحيط به في تسياره، وبذلك اطمأن على نفسه وعلى حكم أبنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبد المؤمن من إبعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بني هلال ، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية ، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات ؛ جعل من الموحدين خدماً لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد أن كانوا يخدمون فكرة ، ويدافعون عن مبدأ ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبد المؤمن في جعل الحكم وراثياً ساهم في إيجاد تنافس شديد وتنازع مميت بين أبناء عبد المؤمن فيما بعد ، بل سفكت دماء ، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الإخوة في سبيل تولي الحكم ، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة ، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة[١]. لم يكتفِ عبد المؤمن ببيعة الموحدين لابنه ، بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة ، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحدين: ظهور التكتلات التي ساهمت في إضعاف الدولة ، وكانت سبباً في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبد المؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية ، وعبد السلام الكومي[٢].

شيء من سيرة عبد المؤمن ووفاته:

١ ـ لما نزل عبد المؤمن سلا ، وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر في البحر عبر النهر ، وضربت له خيمة ، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة ، خَرَّ ساجداً ، ثم رفع رأسه وقد بلَّ الدمع لحيته ، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغيف واحد ، فراموا عبور هذا النهر ، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يُعَدِّ بهم ، فقال: لا آخذهُ إلا عن اثنين ، فقال أحدهما وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح ، ففعل ، فكان الشاب كلما أعيا ، دنا من القارب ، ووضع يده عليه يستريح ، فيضربه بالمجذاف ، فما عدا إلا بعد جهد ، فما شك السامعون أنه هو السابح ، والآخران ابن تومرت ، وعبد الواحد الشرقي[٣].

٢ ـ ذكر ابن العماد في شذرات الذهب عبد المؤمن بن علي فقال: «كان ملكاً

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص ٦٢ ـ ٦٨.

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص ٦٩.

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣).

عادلاً سايساً عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل ، وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن العظيم ، ويجتنب لبس الحرير ، ويصوم الإثنين والخميس ، ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنما خُلِق له ، وكان سفاكاً لدماء من خالفه ، سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهم فقالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا ، فلم ينكر ذلك عليهم ؛ فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ، ووضعهما تحت سجادته وهما :

يا ذا الذي قهر الأنام بسيفه ... ماذا يضرك أن تكون إلهـا
الفظ بها فيما لفظت فإنه ... لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآها وجم وعظم أمرهما ، وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم: لا علم لنا إلا ما علمتنا ، فكان عبد المؤمن يتزيا بزي العامة ليقف على الحقائق ؛ فوقعت عيناه على شيخ عليه سيما الخير ، فتفرس فيه أنه قائل البيتين فقال له: اصدقني أنت قائل البيتين؟ قال: أنا هو ، قال: لم فعلت ذلك؟ قال: قصدتُ إصلاح دينك ، فدفع إليه ألف دينار فلم يقبلها . ومن شعره وقد كثر الثوار عليه :

لا تحفلن بما قالوا وما فعلوا ... إن كنتَ تسمو إلى العليا من الرتب
وجرد السيف فيما أنت طالبه ... فما ترد صدور الخيل بالكتب[(١)]

٣ ـ بعد أن أتم عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط ، وإسقاط إمارة بني حماد فيه ، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية ، وضمها إلى دولة الموحدين ، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً ، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية ، وبعد أن تم تعيين ابنه ولياً لعهده ، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة ، وقضىٰ على أغلب المتآمرين ورؤوس الفتنة ، وخضد شوكة أفراد بيت ابن تومرت ، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال ، وتقوية ظهره بعصبية قبيلته ، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوىٰ القيام به ، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية ، وكل من تمرد على دولة الموحدين ، ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة[(٢)] .

يقول ابن صاحب الصلاة: «تم إعداد مئتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة

---

(١) انظر : شذرات الذهب (٤٠/ ١٨٣) .
(٢) انظر : سقوط دولة الموحدين ، ص ٧٧ .

بمرسىٰ المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو ، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس ، وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحدي الزاخر. وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: «أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة ، وما عينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله. . . ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على أجمل الهيئات والدروع والبيضات والترسة ، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس ، وما استغربته الأذهان ، ولا تقدم بمثله الزمان ، وقسم ذلك كله على الموحدين»[1] .

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول ، من عام ثمانية وخمسين وخمسمئة هجرية (٥٥٨ هـ) ، وانتهىٰ به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل ، وكان تعداد الجيش حوالي مئة ألف راجل ومئة ألف فارس. وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة ، تقسيم الجيش أربعة أقسام ، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد إسبانيا :

١ ـ **الجيش الأول**: يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

٢ ـ **الجيش الثاني**: إلى فرناند ودي ليون.

٣ ـ **الجيش الثالث**: إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

٤ ـ **الجيش الرابع**: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمد هذا العمل ، مرض عبد المؤمن بن علي المفاجئ ، وانتظار الموحدين شفاءه ، إلا أن المرض أصاب قوته ، وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جمادىٰ الآخرة من سنة ٥٥٨ هـ[2] ، قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمئة: «فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن بن علي ، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف ، وحمل أباه إلى مراكش على صفة أنه مريض ، فلما وصلها أظهر موته ، فعزاه الناس ، وبايعوه

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، ص ٢١٣ ـ ٢١٥ .

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص ٧٨ .

على الملك من بعد أبيه ، ولقبوه أمير المؤمنين ، وقد كان عبد المؤمن هذا حازماً شجاعاً ، جواداً معظماً للشريعة ، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل ، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد ، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها ، كثير الخشوع ، ولكن كان سفاكاً للدماء ، حتى على الذنب الصغير ، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء»[(١)] .

إن المتتبع لتاريخ عبد المؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة ابن تومرت تبدد ؛ حيث انشغل بالأمور السياسية والعسكرية ، واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرىٰ ، كرمز على محبته له ولدعوته ، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ، ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون ـ على حسب اطلاعي ـ أنه قام بشيء من هذا ، ويدل على ذلك أن عبد المؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار ، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان المغرب الأقصى ؛ الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر ابن تومرت ، ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنباً إلى جنب مع الظل السياسي للدولة في عهد عبد المؤمن ، وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه ابن تومرت ، وأصدر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ، وكان ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.
إن تاريخ عبد المؤمن يشير إلى أنه لم يكن جاداً بالالتزام الحرفي لدعوة ابن تومرت ، ولعل ما تحمله دعوة ابن تومرت من شطط وغلو في بعض أفكارها من الأسباب الرئيسية التي جعلته يحجم عن العمل على نشرها ؛ حتى لا يحدث رد فعل مضاد له مما يعرض دولته للخطر[(٢)] .

■ ■ ■

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٤).
(٢) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد السادس ، ص ٥٧٢ ، ٥٧٣ .

المبحث الثاني
أبو يعقوب يوسف

هو السلطان الكبير ، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي ، صاحب المغرب.

قيل: إنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه ، وشربه الخمر ، فخلع بعد شهر ونصف ، وبويع أبو يعقوب ، وكان شاباً مليحاً أبيض بحمرة ، مستدير الوجه ، أفوه ، أعين ، تام القامة ، حلو الكلام فصيحاً ، حلو المفاكهة ، عارفاً باللغة والأخبار والفقه ، متفنناً ، عالي الهمة ، سخياً ، جواداً ، مهيباً ، شجاعاً ، خليقاً للملك[1].

أولاً: علمه وبيعته:

أ ـ علمه:

قال عبد الواحد بن علي التميمي: صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ، أظنه البخاري ، قال: وكان سديد الملوكية ، بعيد الهمة ، جواداً ، استغنىٰ الناس في أيامه ، ثم إنه نظر في الطب والفلسفة ، وجمع كتب الفلاسفة ، وتطلبها من الأقطار ، وكان يصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف ، فكان لا يصبر عنه ، وسمعت أبا بكر بن يحيى الفقيه قال: سمعت الحكم أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب ، وجدته هو وابن طفيل فقط ، فأخذ ابن طفيل يطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء ، أقديمة أم حادثة؟ فخفت ، وتعللت ، وأنكرت الفلسفة ، ففهم ، فالتفت إلى ابن طفيل ، وذكر قول أرسطو فيها ، وأورد حجج أهل الإسلام ، فرأيت منه غزارة حفظ ، لم أكن أظنها في

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٩).

عالم ، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب[١] .

وقال عنه الدكتور شوقي أبو خليل: «أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها وآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام ، وأحسن الناس ألفاظاً للقرآن الكريم ، وأسرعهم نفوذ الخاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد الهمة ، سخياً جواداً ، استغنىٰ الناس في أيامه ، وكثرت في أيديهم الأموال ، هذا مع إيثار للعلم شديد ، وتعطش إليه مفرط ، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري ، وحفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم ، هذا مع ذكر جميل من الفقه ، وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع حفظ اللغة ، وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة والطب. وجمع مكتبة ، وكان ما فيه قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمئة ألف مجلد.

ب ـ بيعته :

يرىٰ الأستاذ الدكتور مراجع عقيلة الغنائي أن بيعة يوسف بن عبد المؤمن تمت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبد المؤمن والحزب الموالي لهما ، وأن أبا حفص عمر بن عبد المؤمن حرص على أن يسيطر منذ توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة ، وأن ينظم كتلة من الموحدين ترتبط مصالحها به ، ولذلك أصبح عليه من السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق محمد ، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه. ولربما كان عمل الأمير عمر ، بجعل الإمارة لأخيه يوسف بدلاً منه ، وهو الشخصية ذات القوة والنفوذ ؛ إنما كان يبعد نفسه عن شبهة التآمر ، والذي يرجح الفرض القائل بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه يوسف ، أن بعضاً من أبناء عبد المؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف ؛ فقد رفض السيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة ، والسيد أبو محمد عبد الله والي بجاية ، أن يبايعا لأخيهما بالإمارة.

ولذلك لم يستطع يوسف بن عبد المؤمن أن يسمىٰ بأمير المؤمنين وإنما اكتفى باسم الأمير ، كما أن رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحدين والجيوش

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ١٠٠).

الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا[١]، لذلك ألغي مشروع العبور إلى الأندلس، وأعطيت الجنود أمراً بالرجوع إلى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحدين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحدين[٢]، فابن صاحب الصلاة يقول: «ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم، ومراتبهم، وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم، وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة، ولم يعلم أحداً بالوفاة، واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات. وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح، بقراءة الحزب، واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد، ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم، وتأخر العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم»[٣].

وسعىٰ شيوخ الموحدين في سبيل الإصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم، وصفا الجو بين أبناء عبد المؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبد المؤمن في منتصف جمادىٰ الآخرة من سنة ثلاث وستين وخمسمئة (٥٦٣ هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمىٰ يوسف باسم أمير المؤمنين، وهو الاسم الخلافي عند الموحدين[٤].

ثانياً: سياسة يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور:

١ ـ **المحور الأول**: استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.

٢ ـ **المحور الثاني**: العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الإسبانية.

٣ ـ **المحور الثالث**: المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين، ص ٨٥.
(٢) انظر: المصدر السابق نفسه.
(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ٢٣١ ـ ٢٣٣.
(٤) انظر: سقوط الموحدين، ص ٨٨.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثخنتها ، وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها .

ينتسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعد بن محمد والياً للمرابطين على أفراغة[1] .

تولىٰ محمد بن سعد بن مردنيش حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض ، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢ هـ) الموافق ٢١ أغسطس سنة (١١٤٧ م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسة بالتنازل لابن مردنيش عن حكمها في جمادىٰ الأولىٰ سنة (٥٤٢ هـ). وبذلك أصبح حكم ابن مردنيش يشمل شرق الأندلس ، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ، ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع مماليك النصارىٰ وإمارتها ضد الموحدين ، وكان غرض الإسبان النصارىٰ من الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره ، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين ، كما أنهم رأوا فيه قوة أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب ، كما أنه كان من الدوافع الرئيسية لمعاضدة أمراء وملوك النصارىٰ لابن مردنيش ، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الإسلامية ، وثانياً إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس ، وشدة شوكتهم ؛ جعلت الكثير من المماليك والإمارات الإسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم ، وبهذا فقد ابن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية ، وأن أغلب إماراته وولاياته دخلت في حوزتهم ، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأديهم للموحدين ، سواء عن طواعية أو كره منهم ، رأىٰ ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه ، وأن مآل إماراته التي جهد في إقامتها ، هو الوقوع في أيدي الموحدين ، خاصة بعد أن فقد الكثير من حلفائه؛ ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه ، وأخذت نفسيته تشذ في تصرفاتها ، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم ، نتيجة لهذه الأحقاد والشكوك

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص ٨٩.

والتبلبل الفكري ، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون ، ومنها أنه قتل وزيريه ابني الجذع بالجوع ، إذ بنىٰ لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا .

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر ، وارتكب الكثير جداً من أمثال هذه الأعمال ، ولذلك امتلأَتْ منه النفوس رعباً وخاصةً أقرب الناس إليهِ ، وتوالت النكبات على ابن مردنيش ، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجئ عام ٥٦٧ هـ وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين ، وبموته قدم آل محمد بن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين ، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله إلى الموحدين ، وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية[(١)] .

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين:

لقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس ، وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارىٰ الإسبان أولاً ، ثم أمراء الأندلس ثانياً ، ثم المغاربة ثالثاً ، وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش ، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم ، فقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحدين ، وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم ، وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة. لقد انشغل الموحدون بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش ؛ مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة ، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين ، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم ؛ إحدىٰ البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها[(٢)] .

ثالثاً: الثورة في المغرب الأقصى:

وفي عام ٥٥٩ هـ ـ ١١٦٤ م قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن ، وتزعم تلك الثورة مرزدغ الصنهاجي ، وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة ، وقام الثوار بمهاجمة النواحي ، ودخلوا

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٢) انظر: سقوط الموحدين ص ٩١ ـ ٩٢ .

تازا ، حيث قتل رجالها وسبىٰ نساءها واحتوىٰ أموالها ، ولم يتوان خليفة الموحدين في إرسال جيش للثوار ، ففض جموعهم ، وقضى على زعمائهم[١] .

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ ٥٦٠ هـ ، فقد تبعتها ثورة كبيرة أخرى ، قادها سبع بن منحفاد ، وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين ، ولذلك خرج لهم الخليفة الموحدي على رأس جيوشه الجرارة للقضاء عليها. وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وخمسمئة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلى هذا الجبل. وكانت هذه الهزيمة سبباً في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين ، وأصبحت قوات الموحدين تحرز انتصاراً بعدَ انتصار ، وتلاحق المتمردين من الثوار ؛ حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منحفاد ، ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره ، وكان ذلك في عام ٥٦٢ هـ. وهكذا تمكن الموحدون من القضاء على الثورة التي هزت كيان دولتهم ، وأضعفت قوتهم ، وأوهنت شوكتهم ، وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين.

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتي صنهاجة وغمارة ، حتى التهبت ثورة أخرى في سنة ثلاث وستين وخمسمئة (٥٦٣ هـ) ، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصىٰ ونواحيه ، وجرد جيش موحدي قوي إلى الثوار ، بقيادة السيد أبي حفص عمر ، الذي تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رؤوسها.

بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدين بعض الوقت ، وهدأت البلاد ، سواء في المغرب أو الأندلس ، ودخلت دولة الموحدين في فترة من الهدوء عمّها الاطمئنان والراحة ، فانتعشت الزراعة والصناعة ، وراجت الحركة التجارية[٢] .

رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية في المغرب الأقصى:

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة ابن الرند في عام ٥٧٥ هـ ، واستطاع علي بن المعز المعتز الرندي أن يتخلص من حكم الموحدين في قفصة ، وساعدته عدة أسباب في تحقيق هدفه ، منها: ما فعله قراقوش التقوي من أعمال ضد سيطرة الموحدين ، ونجاحه في الاستيلاء على الكثير

---

(١) انظر: المصدر السابق ، ص ٧٥.

(٢) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص ٩٦ ـ ٩٨.

من البلاد من أيدي الموحدين ، وكان قراقوش هذا مرسلاً من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد ، وكما أن الانشغال الذي حدث للموحدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة ، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة ، وخاصة وأن قراقوش التقوي اشتهر صيته في إفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه القبائل من بني هلال وبني سليم ، فخشيت دولة الموحدين من اندلاع الثورات وانتشار أعمال التمرد ، ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدنىٰ بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم ، ولذلك بادر خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام ٥٧٥ هـ ، واستطاع يوسف بن عبد المؤمن أن يحتل قفصة في عام ٥٧٦ هـ ، ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات إفريقية ومدنها ، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها ، وبعد أن رتب الخليفة أمور إفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد ثورة التمرد علي بن الرند الذي لجأ إلى الخليفة مستسلماً وتائباً ، وطالباً للعفو عند حصار الموحدين لمدينة قفصة[(١)] .

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحدين في تشجيع ملوك وأمراء الإسبان على الطمع في دولة الموحدين ، وأحيت فيهم روح القتال والحرب التي كادت تنتهي في عهد عبد المؤمن بن علي؛ ولذلك تجددت روح العداء للموحدين من جديد[(٢)] .

خامساً: غزو الخليفة الموحدي لبلاد الأندلس:

لما استتب الأمر ليوسف بن عبد المؤمن في بلاد المغرب ، انصرف إلى الجهاد في الأندلس ، وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق لإسبانية في صفر سنة ٦٥٥ هـ/ ١١٧١ م ، واستطاع أن يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذي توفي عام ٥٦٧ هـ ، فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين ، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصارىٰ ، ومكث في الأندلس أربعة أعوام ، نظم

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص ١٠٠ .

(٢) انظر: سقوط الموحدين ، ص ١٠١ .

خلالها عدة غزوات ضد النصارىٰ ، حقق فيها نجاحات رائعة ، ثم عاد إلى مراكش عام ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م بعد أن بنىٰ جامع إشبيلية ، وأدخل الماء إليها ، وأقام جسراً على واديها .

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارىٰ في الأندلس على شدتها ، برية وبحرية ، ولما رأى أبو يعقوب ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصارىٰ ، عبر إلى الأندلس في صفر ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م وصمم على قتال مملكة البرتغال التي كانت أشد الأعداء على المسلمين ، ووضع خطة تقضي أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر ، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتالة وليون ، بينما تنشغل قوات إسلامية أخرى تزحف من الجنوب بقوات النصارىٰ القشتالية والليونية ، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة ، وقوىٰ مسلمي الأندلس .

سار أبو يعقوب على رأس الجيش الرئيسي متجهاً إلى بطليوس معتزماً حصار إشبونة ، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح ، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرىٰ ، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه ،حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين ، مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر .

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ، ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، حتى استولى أبو يعقوب عليها ، خلا قلعتها ، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ ، وكان أبو يعقوب يتولىٰ القيادة بنفسه معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك بسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجربين ، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليها وغربيها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ، ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها ، فكان الخطر . ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي إشبيلية أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة ، وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة ، فهل وقع سوء فهم ، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلاً من أن يسير في الصباح ، وبدلاً من أن يسير في

اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة ، وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية ، وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي ، وتفاقم الأمر ، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلاً في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل ، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة ، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألفى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجهاً لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب ، خلافاً لنصح قواده ، ووجود الجيش البرتغالي في مكرز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة ، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي ، وأخيراً ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارىٰ أعظم من سابقه ، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعاً من الرعب العام ، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارىٰ يبلغ عشرين ألف مقاتل ، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو ، وبادر النصارىٰ بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم ، وساعدت حامية القلعة شنترين جيش النصارىٰ بالخروج من القلعة ، ومهاجمة المسلمين[١]. ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة ، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوىٰ حرسه الخاص ، وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع اللحاق بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين ، وهو يضطرم سخطاً ، أنه وقع ضحية خيانة ، أو ضحية سوء تفاهم ، لقد وجد نفسه أمام الأعداء ، وخاض معركة كانت كفة النصارىٰ فيها أرجح ، فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارىٰ بسيفه وقتل ستة من الرجال ، وأخيراً طعنه أحد النصارىٰ بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخاً بدمائه[٢].

ولما بلغ خبر اشتباك الخليفة مع النصارىٰ رجع الأمير أبو إسحاق بقواته ، وهاجم بها النصارىٰ ، وسالت دماء من الفريقين غزيرة ، فتح المسلمين في نهايتها قلعة شنترين[٣].

---

(١) انظر: الأرك ، شوقي أبو خليل ص ٤٢.

(٢) انظر: المصدر نفسه.

(٣) انظر: المصدر السابق نفسه.

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في ١٢ ربيع الأول ٥٨٠ هـ/ ٢٤ أيار (يوليو) سنة ١١٨٤ م وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى إشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل، حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن[١].

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس:

لم يستطع السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارىٰ في الأندلس لعدة أسباب، منها:

١ ـ لم تكن قيادة يوسف بن عبد المؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكري والسياسي، ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحدي، وليست لهذا الجيش خطة مرسومة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام ٥٦٧ هـ؛ حيث كان قرار الغزو جاء متأخراً عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردي من الخليفة الموحدي، والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش، وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة ودون ترو أحياناً، فهو قرر أن تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة وندة، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم إنه أثناء مسيره إلى وندة، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي؛ وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

٢ ـ ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين: عدم تقديره للظروف، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة وندة تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان، وكان من المشرف له أنه قبل هذا العرض، وحصل على المدينة دون أي جهد كان.

٣ ـ كانت للخليفة الموحدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية، ولذلك نجد الخليفة الموحدي بدلاً من أن يكون مشرفاً على تسيير دفة المعارك، وهو القائد الوحيد المسؤول الأول، مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحدين تحاصر مدينة

---

(١) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٨٠١).

وندة جاءه أحد قادة الموحدين وطلب من الخليفة إمداده ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر ، لم يلتفت إليه ، واستمر في مناقشة تلك المسائل[١] .

٤ ـ لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحدين؛ ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم ؛ الذين تعرضوا للظلم والقهر من زعماء الموحدين.

٥ ـ انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن؛ ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها ، ونفيهم من البلاد ، ووصل الأمر بالبعض إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام ، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة ، وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية ، وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة ، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسؤولي الدولة ، ومن أشهر هذه الحوادث:

ـ محاسبة محمد بن أبي سعيد مسؤول الأعمال المخزنية في إشبيلية ، وثبتت عليه خيانة الدولة فصودرت أمواله وممتلكاته ، وامتحن في نفسه طويلاً ، ثم ضُربت عُنُقُه ، وكان ذلك عام ٥٧٣ هـ[٢] .

٦ ـ انتشار الطاعون في المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبد المؤمن في عام ٥٧١ هـ ، واستمر لمدة عام تقريباً بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى ، وقد قضى على الكثير من السكان ، وعلى بعض زعماء دولة الموحدين منهم أربعة من أبناء عبد المؤمن بن علي. وقد أصيب الخليفة الموحدي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر ، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا ، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله ، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم ، وضاق المصلىٰ بالموتىٰ ، فأمر الخليفة أن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش ، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك ، فقد خيم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهرة ، ولم يعد يخرج منها أحداً ، أو يأتي وافداً إليها[٣] .

(١) انظر: سقوط الموحدين ، ص ١٢٠ .
(٢) انظر: سقوط الموحدين ، ص ١٢٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ، وهو أحد طبقة الجماعة ، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين ، وقد كان قادماً من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام ٥٧١ هـ ، وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس أثره في إضعاف المعنويات ، وفي قلة الأيدي العاملة ، وتعطل التجارة ، وتوقف الحياة الزراعية والصناعية ، وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادي ومعنوي سيئ على الرعية ، وشجعت هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارىٰ من النيل من الموحدين؛ ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين؛ وأخذت تعبث في بلاد الأندلس بالفساد[١] . «وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة»[٢] ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم في التو والحين[٣] .

٧ ـ تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدي: وهذه القبيلة ينحدر منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، ففي سنة ٥٧٨ هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدي في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس ، فاهتم الخليفة لهذا الحادث لأمرين:

الأمر الأول: وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت ، وخوفاً من التفاف قبائل الموحدين حولها .

الأمر الثاني: فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهماً لخزانة الموحدين ، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزانة بضربة عنيفة .

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر ٥٧٨ هـ على رأس قواته . ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته ، واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن . ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم ، ووضع عليه جنداً لحراسته . لقد كان لهذه الثورة أثر في إضعاف

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) البيان المغرب (٣/ ١١٠).
(٣) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص ١٢٩ .

شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم وتشجيع خصومهم على محاربتهم[١].

٨ ـ ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدي، وحرصه على أن يتولىٰ جميع الأمور بنفسه، وعدم إصغائه لنصح الناصحين، ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما فعل في مهاجمته لمدينة وندة وشنترين على التوالي، مما أتاح لملوك وأمراء الإسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز القوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الإسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته، وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف تؤدي إلى انهزام النصارىٰ[٢].

٩ ـ استطاع النصارىٰ أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين، ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم[٣].

هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب، ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ونفوذهم وسلطتهم. ولقد كان يوسف بن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله، وعبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا ويجري نحوك الأمم استباقا[٤]

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة، ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة؛ بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته، ودفعهم نحو المعالي، فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً، وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح

---

(١) انظر: سقوط الموحدين ص ١٣١.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٥.
(٣) سقوط الموحدين، ص ١٥٤.
(٤) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، العبادي، ص ١١٥.

الفراش ، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار[١] .

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره ، وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة ، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي[٢] .

■ ■ ■

(١) انظر : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، حسين مؤنس ، ص ١٩٤ .
(٢) انظر : نفس المصدر .

المبحث الثالث
أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً: اسمه وشيء من سيرته:

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد بن عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي، صاحب بلاد المغرب. كان صافي السمرة جداً، إلى الطول أقرب، جميل الوجه، أفوه، أعين، شديد الكحل، ضخم الأعضاء، جهوري الصوت، جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة، وأحسنهم حديثاً، وأكثرهم إصابة بالظن، مجرباً للأمور، ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً، وطالع مقاصد العمال والولاء وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه، فبايعوه، وعقدوا له الولاية، ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده، ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه، وعظمت الفتوحات[١].

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها، وقرر المقاتلين في مراكزها، ومهد مصالحها في مدة شهرين[٢].

---

(١) وفيات الأعيان (٧/ ٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.

أ ـ إصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت[(١)] ، وجالس الصلحاء والمحدثين ، ومال إلى الظاهرة ، وأعرض عن كتب المالكية ، وأحرق ما لا يحصىٰ من كتب الفروع[(٢)] .

قال عبد الواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتىٰ بها ، فتحرق ، وتهدد على الاشتغال بالفروع ، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من «الكتب الخمسة» و«الموطأ» ، ومسند ابن أبي شيبة ومسند البزار وسنن الدارقطني وسنن البيهقي ، وكان يملي ذلك بنفسه على كبار دولته ، وحفظ ذلك خلق ، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة[(٣)] . وكان لا يحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل ، قال مرة لعبد الواحد بن علي: «أنا أنظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين ، أرأيت المسألةَ فيها أقوال ، ففي أيها الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ، فقطع كلامي ، وقال: ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى (سنن) أبي داود ، أو هذا ، وأشار إلى السيف[(٤)] . قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب والاطلاع ما دامت على أصول أهل السنة والجماعة ، وهذا ما فعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين محمود زنكي ، حيث ترك مذاهب أهل السنة والجماعة تنشط في دعوتها ودعم دارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفياً ، واهتم بالمحدثين ، ووفر لهم ما يحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم ، وكذلك القراء والحفاظ ، وبذلك الفعل الجميل استطاع أن يجند أهل السنة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارىٰ ، وواصل السيرَ بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين ، وتحققت الانتصارات الكبرىٰ والفتوحات العظمىٰ.

إن هذا التضييقَ الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب تفجر الثورات الداخلية متواجداً.

لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادئ نظرة معادية

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٣).
(٣) المصدر السابق (٢١/ ٣١٤).
(٤) المصدر السابق نفسه.

اتسمت بالحقد والكراهية ، على أنهم من غير أهل الإيمان ؛ فعاملوهم بقسوة بالغة ، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف ، ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ما جاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله: «لما تعذرت مآربي ، واضطربت مغاربي ، ألقيت حبلي على غاربي ، وجعلتُ من مذهبات الشعر بضاعتي ؛ من أخلاق الأدب رضاعتي»(١) .

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده ؛ فقال: «مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم ، وأعمله في رقاب الأمم.. ولو أن للعلم لساناً ، والورقة إنساناً لتألمت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ، ومسالمة الأفاعي أنجح»(٢) .

وهذا أبو الوليد محمد بن عبد الله القرطبي ، الذي يصف المقري أحواله في كتاب «نفح الطيب» بقوله: «وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره في قرطبة وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي ، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية ، ثم سافر إلى مصر ،وأقام بها مدة ثم قال: فوالله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين ، ثم سافر إلى الصعيد وحدث بقوص بالموطأ ثم قال: ويصلون إلى هذه البلاد ولا يحجون ما أنا إلا هربت منه إليه ، ثم دخل اليمن ولما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه إلى الهند ، حيث أدركته المنية بها سنة ٥٥١ هـ وقيل باليمن»(٣) .

ولله دِرّ الإمام مالك في نصحهِ لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعتُ مالكاً يقول: «دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض ، وقد نزل عن شماله إلى بساط ، وإذا بصبي يخرج ثم يرجع ، فقال أبو جعفر: أتدري من هذا؟ قال: لا ، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك ، وحقيق أنت بكل خير ، وخلق بكل إكرام ، يقول مالك: وقد كان

---

(١) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ، د. علي أحمد ، ص ٨٦.
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٨٥ ، ٨٦.
(٣) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ، ص ٨٧.

أدناني وألصق ركبته بركبتي ، فلم يزل يسألني حتى أتاه المؤذن بالظهر ، فقال لي: أنت أعلم الناس ، فقلت: لا واللهِ يا أمير المؤمنين ، فقال: بلىٰ ولكنك تكتم ذلك ، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب ، ثم أعلقه في الكعبة ، وأحمل الناس عليه. فقلت. يا أمير المؤمنين لا تفعل ، فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ ، وقول الصحابة ، وقول التابعين ، ورأياً هو إجماعُ أهل المدينةِ لم أخرج عنهم ، غير أني لا أرى أن يعلق في الكعبة[١] .

وفي رواية: يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد ، فأفتىٰ كل في مصره بما رآه «فلم يزل يؤخذ عنهم كابراً عن كابر إلى يومنا هذا ، فإن ذهبت تولهم عما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً ، فأقِرَّ كل أهل بلد على ما فيها من العلم ، وخذ هذا العلم لنفسك»[٢] .

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ، ولا يمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته ، وإن كان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقدية عند الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت[٣] ، وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر هاني الجياني: ما قرأت؟ قال: تواليف الإمام ـ يعني ابن تومرت ـ قال: فزورني[٤] ، وقال: ما هكذا يقول الطالب! حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله ، وقرأت من السنة ، ثم بعد ذلك قل ما شئت[٥] .

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح ، يقول تاج الدين ابن حمويه: دخلت مراكش في أيام يعقوب ، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملة ، يقصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده ، فأعذب موردي ، وأنجح مقصدي ، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء ، تفتح بالتلاوة ثم الحديث ، ثم يدعو هو ، وكان

---

(١) انظر: الإمام مالك بن أنس ، عبد الغني الدقر ، ص ١٣٣ .
(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٤ .
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦) .
(٤) أي: نظر إليه نظرة المغضب .
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٦) .

يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر، وكان فصيحاً مهيباً، حسن الصورةِ، تام الخلافة، لا يرىٰ منه اكفهرار، ولا من مجالسه إعراض، يتزيَّى بزي الزهاد والعلماء، وعليهِ جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله (فتاوى)، وبلغني أن السودان[1] قدموا له فيلاً فوصلهم، ورده، وقال: لا نريد أن نكون أصحاب الفيل، وكان يجمعُ الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبي، وعشرة معلمين. حكي لي بعض عماله: أنه فرق في عيد نيفاً وسبعين ألف شاة[2].

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق، وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمر، فزع إلى قبيلته، وهؤلاء ـ يعني طلبة العلم ـ لا قبيل لهم إلا أنا، فعظموا عند الموحدين[3].

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة، واهتم بالمرضىٰ وبنىٰ لهم مارستان وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرىٰ فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين ديناراً للأدوية، وكان يعود المرضىٰ في الجمعة[4].

ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة، وأحرق كتبهم، واهتم بالطب والهندسة[5].

وحارب الخمر في ملكه، وتوعد عليها فعدمت[6].

قال عنه ابن كثير: «كن ديّناً حسن السيرة صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حازماً، ثم مال إلى مذهب الشافعي واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد ـ رحمه الله ـ، وكان يؤم الناسَ في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف ـ رحمه الله ـ[7].

---

(١) تطلق على بلاد غرب إفريقية وجنوب الشمال الإفريقي سابقاً.
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق (٢١/ ٣١٥).
(٥) المصدر السابق (٢١/ ٣١٧).
(٦) نفس المصدر السابق (٢١/ ٣١٨).
(٧) البداية والنهاية، (١٣/ ٢٢).

وقال عنه ابن العماد: «كان ذكياً شجاعاً مقداماً محباً للعلوم كثير الجهاد ميمون النقيبة ظاهري المذهب، معادياً لكتب الفقه، أباد منها شيئاً كثيراً بالحريق، وحمل الناس على التشاغل بالأثر»[١].

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت، والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا أستبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت؛ لكنه لم يستطع أن يفردها دون غيرها حتى لا يثير الناس[٢].

إن هذا السلطان طلب من أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ـ أحد المقربين إليه ـ أن يشهد له بين يدي الله عز وجل بأنه لا يقول بالعصمة ـ يعني عصمة ابن تومرت ـ ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسنة واستئصال ونبذ تعاليم ابن تومرت؛ التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أو دعا إليه، «لأنه لا يرىٰ شيئاً من هذا كله، وكان لا يرىٰ رأيهم في ابن تومرت»[٣].

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاؤوا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين؛ الذين تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم، فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده، وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: «... يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء ـ يعني الطلبة ـ لا قبيل لهم إلا أنا، فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم، وإليّ مفزعهم، وإليّ ينتسبون»[٤].

---

(١) شذرات الذهب(٤/ ٣٢١).
(٢) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحاً.
(٣) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ص ٥٧٥.
(٤) انظر: نفس المصدر السابق ص ٥٧٦.

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل ، من دعوةِ ابن تومرت ، وسعىٰ لتقويضهِ بعد نصف قرن من انتشار تعاليم ابن تومرت ، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات؛ لأن ما تحمله دعوة ابن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ. . .﴾ [الرعد: ١٧].

إن المنصور الموحدي لم يعلن صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت ، لأن الكثير من الناس ببلاد المغرب الأقصى لا سيما العامة وشيوخ الموحدين ، وزعماء القبائل ، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت ، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه ، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطيره من قبل أولئك القوم ، قد لا يستطيع رده أو التصدي له ، وهذا بلا شك جعله يكتفي ببيان موقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها ، ولكن بالرغم من قلّة ما قام به المنصور من جهد ، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت ، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج إيجابية وطيبة ، حيث إنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت ، مما دعا الكثير من الموحدين لا سيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ، ودراستها بموضوعية وإنصاف ، فبانت لهم حقيقتها ، وما تحمله من جنوح في تفكيرها ؛ مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئاً فشيئاً[(١)].

ثانياً: سياسية أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، ثالث الخلفاء الموحدين ، العصر الذهبي للدولة الموحدية ، والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرىٰ الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً ، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين ، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم ، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي ، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من

---

(١) انظر: مجلة الإمام محمد بن سعود ص ٥٧٥.

المصامدة أولاً ، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها ، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة ، ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة[١] .

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة ، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة ، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة ، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة ، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شؤون الإدارة والقيادة العسكرية ، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله ، وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرىٰ[٢] .

أ ـ الصراع مع بني غانية المرابطين :

استطاع بنو غانية أن يقودوا ثورة في المغرب الأوسط ضد الخليفة أبي يعقوب يوسف المنصور ، واستطاعوا أن يحتلوا مدينة باجيه بأربعة آلاف من الطوارق الملثمين ، بسبب ضعف حامية الموحدين هناك ، وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها ، وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة .

كان زكريا بن يحيىٰ بن غانية قد تولىٰ بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، ثم تولىٰ أخوه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين ، وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الأندلس ظل بنو غانية لا يخضعون لسيطرتهم ، وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد بن مرادنش عام ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م ، وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي ، وكان على حكم جزر البليار في ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية ، وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين ، لكن أخوته عزلوه ورفضوا ذلك ، وولوا بدلاً منه أخاه علي بن إسحاق الذي بادر بإعلان الثورة على الموحدين ، وخاض ضدهم معركة طويلة الزمن .

---

(١) انظر : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٩٤ .
(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٩٥ .

ويرجع أصل بني غانية إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية ، وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم ، وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين.

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين ، وكانوا من خيرة المجاهدين ضد القوىٰ الصليبية ، واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطلونيا ، وساروا على سنة أسلافهم في العقائد ، والتزام منهج أهل السنة والدعاء للخليفة العباسي في بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعاراً لهم ، وهادنوا الموحدين بعض الوقت ، ولما مات الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن ، واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيء استغل بنو غانية هذا الاضطراب ، وأظهروا العصيان ، وخرجوا عن سياسة المهادنة ، واستولوا على أسطول موحدي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية ، ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى المغرب الأوسط عام ٥٨١ هـ/ ١١٨٥ م وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش التقوي ، وأعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفع شعارهم ، وأصبح المغرب الأوسط والأدنىٰ تابعاً وخاضعاً لأتباع الخلافة العباسية.

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع للقضاء على بني غانية ، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وإفريقية ، وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية أتباع قراقوش ، وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والإحسان ، وشرع في إرسال الجيوش تتلوها الجيوش ، وانكسرت بعض جيوش الموحدين ، وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحدين ، إلا أن السلطان يعقوب بن يوسف استمر في إرسال الحملات ، وفقد الألوف من جنوده ومن خيرة رجاله ، وأنفق الملايين من الأموال ، وكان بنو غانية وحلفاؤهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم ، فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثوا أن يعودوا من جديد ، واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ، ولكن في النهاية استطاع أبو يوسف يعقوب بن يوسف أن يسحق هذه الثورة العنيفة ، ويقبض على زعمائها ، وقاد العمليات العسكرية بنفسه عام ٥٨٢ هـ/ ١١٦٨ م وجعل من مدينة تونس مقراً لقيادته ، واستطاع بفضل حزمه وشجاعته أن ينتصر على الثوار ، وفر علي بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام ٥٨٤ هـ وانضم إلى جيوش الموحدين كثير من الأعراب والأتراك ، واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غرباً. لقد استعمل يعقوب بن

يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه ، وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاة ، واهتم بإدارة الأموال ، ونقل معه كثيراً من القبائل العربية إلى المغرب الأقصىٰ ، ليستخدمها في الجهاد ضد النصارىٰ ، ويأمن من ثوراتها المستمرة .

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ، ويوحد الجبهة الداخلية ، وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحدي من الداخل ، وأمن خطر القبائل العربية ، ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس ، لقد كان هذا العمل الحاسم القوي في توحيد الجبهة الداخلية سبباً من أسباب انتصاره على النصارىٰ في الأندلس في معركة الآراك الكبيرة .

لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته ؛ ولذلك أرجأ جهاد النصارىٰ في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم ، وهذا يدل على عمق تفكيره الإستراتيجي ، وبعد نظره العسكري[1] .

إننا ـ ونحن ندرس التاريخ ـ أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرة ألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم ، وهذا الهدف السامي الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السنة والجماعة ، وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود .

إن تحرير بيت المقدس ما تم ذلك الفتح الميمون إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام وإزالة البدع بالحجة والبرهان ، وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان ، مع التدرج المدروس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية .

ب ـ جهاده في الأندلس :

بعد استشهاد السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس ٥٨٠ هـ هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين :

١ ـ انشغال الموحدين بثورات قامت في إفريقية ، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش ، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه .

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٧) .

٢ ـ الخلاف الذي وقع بين ملوك الإسبان في تلك الفترة ، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده ، فيغريهم بالسير إلى غزوه ، ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين (مارتن دين بسيرجا) مطراناً لطليطلة ، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارىٰ الإسبان ضد المسلمين ، وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة ، وبالفعل تم للنصارىٰ ما خططوه ، وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف ، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرىٰ المسلمين القريبة منهم ، فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرىٰ ، وسيقت الماشية ، وسُبِي المسلمون العزل رجالاً ونساءً ، وقتل قسم كبير منهم ، وزحفت قوىٰ من فرسان النصارىٰ إلى أقصىٰ جنوب الأندلس ، وهم يتابعون العبث والتخريب[١] .

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتالة واعتزازه بالنصرانية ، ولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة ، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال . وهذا هو نص الخطاب كما ورد في «وفيات الأعيان» :

(باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلىٰ اللهُ على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد . فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ، ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أني أمير الملة النصرانية ، وقد علمتُ الآن ما عليهِ رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، وإخلادهم إلى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار ، وأسبي الذراري ، وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعاًولا تملكون امتناعاً ، وقد حكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاماً بعد عام ، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فلا أدري أكان الجيشُ أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى

(١) انظر : تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ (٢/ ٨١) .

جواز البحر سبيلاً لعله لا يسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك ، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستنكار من الرهان ، وترسل إلي جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات ، وأجوز بحملتي إليك ، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك ، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين ، والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة ، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى)[١] .

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزقه ، وكتب على ظهر قطعة منه : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل : ٣٧] الجواب ما ترىٰ لا ما تسمع .

ولا كتــب إلا المشــرفيــة عنــده ولا رسـل إلا الخميـس العـرمـرم[٢]

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته ، وأخذته غيرة الإسلام ، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس ، وأمر أن يذاع الخطاب في جنوده الموحدين ليثير غيرتهم ، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد ، وأمر السلطان الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذاناً بالدعوة العامة إلى الجهاد ، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير إلى سبتة ، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس .

ودوت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب ، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي ، حتى برقة شرقاً على حدود مصر ، ضد النصارىٰ الذين غدوا خطراً على الإسلام . في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين ، واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبيين قد وصلت إلى مسامع المغاربة ، وأحيت قلوبهم ، وطهرت نفوسهم ، وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله ؛ بل نجد أن بعض المغاربة فضل الذهاب إلى الشام ، والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي .

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحارىٰ والمدن والقرىٰ

(١) وفيات الأعيان (٧/ ٦) .
(٢) وفيات الأعيان (٧/ ٧) .

والهضاب والشواطىء والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد ، وانضموا إلى ألوية الجهاد في إسبانية ، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول النصارىٰ فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق.

وبعد أن سيّر أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس ، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلاً ، ثم بادر بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن ، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولاً إلى اختراق قلب إسبانية وافتتاح طليطلة ، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرىٰ بسرعة وسهولة ، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح ، على مقربة من قلعة الآراك ، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان. ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارىٰ ، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ/ ١١٩٥ م ، وعقد مجلساً من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة[١].

ثالثاً: معركة الأرَك:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلو متراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح على أحد فروع نهر وادي آنة ، وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس ، في حينه تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين ، وطلب العون من ملكي ليون ونبارة[٢] واستفز كل ملوك إسبانيا المسيحية ، واستصرخ البابا في روما ، وقدمت إليه جيوش فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية ، ووافته جنود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين ، حتى لقد قدرت القوات الأوربية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ (١٥٠ ألف جندي) تزيد عن ثلاثة أضعاف القوات الإسلامية[٣]. وتحركت تلك القوات ونزلت في

(١) انظر: الأرك ، شوقي أبو خليل ، ص ٥٣ ـ ٥٤.
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤.
(٣) انظر: موسوعة المغرب العربي ، ص ٢٣١.

الأرك ، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي ، ومرت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك[١].

خطة الموحدين:

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبي يوسف يعقوب المنصور ، وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة ، واستمع الزعيم لرأي الجميع ، ثم التفت إلى زعماء الأندلس ، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد ، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب ، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم ، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة لتسيير دفة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة ، ولا سيما في معركة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائداً عاماً للجيش كله ، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيى بن أبي حفص ، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم ، وهم ما لم يتبع دائماً ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم ، على أنه مع ذلك كانوا يؤلفون قسماً مستقلاً من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص ، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول ، وأما بقية الجيش ، وهي المؤلفة من قبائل البربر ، ومعظمهم غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين ؛ فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين ، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتبعين ، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب ، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي ، وأعجب أبو يوسف

---

(١) انظر: معركة الأرك ، ص ٥٦.

المنصور بها ، فوافق عليها ، وأمر بتنفيذها[١] .

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ ، وهذا يدل على اهتمام أبي عبد الله بن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية .

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ، ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الإسبان القديمة في الحرب ، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع ، والامتناع في القلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب ، إما لنفاد المؤن ، أو لتفشي الأمراض ، أو لحلول الشتاء ، ولكن ألفونسو رأى ـ وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة ـ أنه من العار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصاً وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصراً باهراً على جيش الموحدين[٢] .

وفي ٩ شعبان ٥٩١ هـ تموز (يوليه) ١١٩٥ م كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة ، وفي صباح هذا اليوم ، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند ، لكي يذكي حماستهم للقتال ، خبر حلم رآه في الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى في نومه فارساً بهي الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء ، وبيده راية خضراء ، وقد انتشرت في الآفاق ، يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء يبشره بالنصر بحول الله .

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه ، الذي قدرته الروايات الأوروبية الكنسية بستمئة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه ، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى[٣] ، فاحتل الموحدون ـ أو القوات النظامية ـ القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين ، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة ، واختل الجناح الأيمان قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد. وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي ، ورفعت صفوف المتطوعين ، ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ، وهو لون

(١) انظر: معركة الأرك ، ص ٥٩ .
(٢) انظر: معركة الأرك ، ص ٥٧ .
(٣) انظر: معركة الأرك ، ص ٥٨ .

الموحدين ، إلى المقدمة ، لتفتتح القتال ، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى[١]. وحين كمل الحشد قال القائد للجند: إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم: «اغفروا له ـ فإن هذا موضع الغفران ـ وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نياتكم»[٢].

فبكى الناس ، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص ، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم[٣].

وقام وخطب وحرض على الجهاد ، وبين فضله ومكانته وقدره ، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم ، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم ، وقويت أنفسهم وعزائمهم ، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم[٤].

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال ، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب ، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا يمكن الوصول إليه بواسطة طرق ضيقة وعرة ، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعاً عالياً ، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال[٥].

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين والمثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من عل[٦].

وفي «البيان المغرب» في معرض الحديث عن القشتاليين ، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك ، وهم في المرتفع المشرف عليه: «فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر ، أسراباً تتلوها أسراب ، وأفواجاً تعقبها أفواج ، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج ، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام ،

---

(١) انظر: معركة الأرك ، ص ٥٨.
(٢) صلاح الأمة في علو الهمة ، د. سيد العفاني (٦/ ٢٤٠).
(٣) صلاح الأمة في علو الهمة.
(٤) انظر: تاريخ الأندلس لعبد الرحمن الحجي ، ص ٤٨٦.
(٥) انظر: معركة الأرك ، ص ٥٩.
(٦) انظر: المصدر السابق نفسه.

فتوقفت كالجبال الراسيات ، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة ، فصعد غبارها إلى الجو ، فقال أبو يوسف المنصور لخاصته ومن طاف به: «جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم» ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدت ، ومرّ على صفوف ، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه ، وعاد إلى موضعه وساقته»[١] .

لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس ، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة ، هجموا للمرة الثانية ، وضاعفوا جهودهم ، واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها ، وقتلوا قسماً منها ، واضطرا الباقون إلى التقهقر والتراجع ، وأكرم الله الآلاف من المسلمين بالشهادة ، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص ، الذي سقط شهيداً وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة ، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين ، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته ، وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة ، وكان ملك قشتالة يقود قلب جيشه بنفسه ، ويحيط به عشرة آلاف فارس ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح ، لقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية ، واستبدل المسلمون النقص في العدد بالإقدام والشجاعة ، وحتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام ، لم يغادرها ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب ، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا ، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع ، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار ، وأرجاء المكان تدوي بوقع حوافر الخيل ، وقرع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ، وأنين الجرحى[٢] .

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت

---

(١) انظر: البيان المغرب ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .
(٢) انظر: تاريخ الأندلس ، لأشباخ (٢/ ٨٦).

حول ملك قشتالة. وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله». ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو، وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان، وأن تنقذ حياته[١].

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الإسبانية، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين[٢].

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في إشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مئتي متر[٣]، كما بنى حصناً كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء، وكان عددهم عشرين ألفاً، وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأ لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد، وستسعى للانتقام من المسلمين[٤].

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى، فقام في أوائل سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦ م بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية، واخترق ولاية (أستراما دورة) وعبر النهر الكبير (الوادي الكبير) في اتجاه

---

(١) انظر: الأرك، ص ٦١.
(٢) انظر: روض القرطاس، ص ١٤٥.
(٣) انظر: معركة الأرك، ص ٦٣.
(٤) المصدر السابق.

نهر التاجة ، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع ، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ، ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده بعد الأرك ، ولقلة عددهم ، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة ، لكنه لم ينجح ، فعاد منسحباً جنوباً بسبب نقص التموين ، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك ، فدب المرض في صفوف الموحدين ، وكثر الموت بينهم ، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعد أن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة ، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي ، وكانت حملتهم هذه آخر حملة تهيأ لاحتلال طليطلة[١] .

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها ، وساعده على ذلك موقعه القوي ولذلك استجاب ملك نافار وليون وعقد معهما حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف ، فعقد في سنة ٥٩٢ هـ/ ١١٩٦ م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ، ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة؛ لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش[٢] .

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى ... ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من قد غدا بالمكرمات مقلداً ... وموشحاً ومختماً ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره ... وتعطرت منه الرياح تأرجا[٣]

رابعاً: نتائج معركة الأرك:

١ ـ ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك والدمار من قبل النصارى الإسبان.

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام د. حسين إبراهيم حسن (٤/ ٢١٥).
(٢) انظر: معركة الأرك، ص ٦٥.
(٣) انظر: نفح الطيب (١/ ٤١٩).

٢ ـ سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله.

٣ ـ حقق الموحدون نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

٤ ـ ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

٥ ـ انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين، وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

٦ ـ عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه، وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد.

٧ ـ أصيب نصارى الإسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم، وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

٨ ـ جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين، وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدون.

٩ ـ تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك، وترتيب الأمور، ورص الصفوف، والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

١٠ ـ دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد، وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي. وغير ذلك من النتائج.

خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك:

لا شك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك له أسباب عدة، منها:

١ ـ الاهتمام بتصحيح العقيدة، ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم، وهذا ما قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف، حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت، واستخف بمن بالغوا في تقديسه، واهتم بالقرآن والسنة، وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة، وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج السنة والجماعة.

٢ ـ اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء ، وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء.

٣ ـ محاربة النكير والتضييق على الفساق ، وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ، ونشر العدل بين الرعية ، والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه ، وحارب الظلم ، وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم ، وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

٤ ـ فتح باب الاجتهاد ، وحارب الجمود ، وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه ، وألزم العلماء بأن لا يفتوا إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية ، ولا يقلدوا أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين[١] ، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس ، وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه ، وأبطل التقليد[٢]. ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية ، وأخوه أبو عمر ، وغيرهم[٣].

٥ ـ احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف ، وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع ، روى ابن خلكان: أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب إفريقية ، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور ، وأقامت عنده ، ثم جرت بينهما منافرة ، فجاءت إلى بيت أخيها ، فسير الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه ، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش ، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان ، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور ، وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله ، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور.

---

(١) كان الأولىٰ أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه ، وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والزهري والأوزاعي ، رحمهم الله.

(٢) انظر: الأعلام للزركلي (٨/ ٢٠٣).

(٣) انظر: معركة الأرك ، ص ٧١.

ومضت بعد ذلك أيام. ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش ، وقال له: أنت قاضي المسلمين ، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني ، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين ، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية ، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور، وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين ، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة ، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير ، وقال له: يا مولانا الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله ، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور ، ثم قال: يا أبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير ، ثم استدعى خادماً وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه ، فحملت إليه في ذلك النهار ، ولم يتغير على القاضي ، ولا قال له شيئاً يكرهه ، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره ، وهذه حسنة تعد له ، وللقاضي أيضاً ، فإنه بالغ في إقامة منار العدل[1] .

٦ ـ الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين ، حيث استطاع أن يوحد البيت المغربي الداخلي ، ويقضي على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين ، وقاد المعارك بنفسه ، وأسند المهام الكبرىٰ لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

٧ ـ الاهتمام بمبدأ الشورىٰ ، والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين ؛ ولذلك استمع أبو يوسف إلى الآراء في مجلس حربه ، وأعطىٰ لأهل الاختصاص مكانة معنوية ، واستمع لزعيم الأندلسيين ، واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارىٰ ، واعتمد خطة أبي عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

٨ ـ الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد ، فمثلاً الأندلسيون يفضلون أن يكون زعيمهم منهم ، وترتفع معنوياتهم ، وتنشط هممهم ، ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم ، ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم ، ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبد الله بن صناديد.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (٧/ ١٠ ـ ١١).

٩ ـ جودة التخطيط ، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين ، وتوفير العدة والعتاد ، وتقسيم المواقع ، وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة .

١٠ ـ الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ؛ ولذلك عيّن أبو يوسف المنصور أبا يحيىٰ بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحدين ؛ لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال .

١١ ـ إذكاء روح الجهاد في الجنود. وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد ، ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث الجهاد لتملىٰ على الموحدين من أجل دراستها وحفظها ، وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين .

١٢ ـ تواضع القيادة ، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم .

١٣ ـ سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤىٰ ، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأىٰ من نزول فارس بهي الطلعة ، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء ، وقد انتشرت في الآفاق ، يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته .

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور .

سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور:

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بتوحيد الشام مع مصر ، وتولىٰ القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي ، فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد ، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولىٰ على بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين ، وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدي ، وأرسل إليه هدية

تشتمل على مصحفين ومئة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلاً من العود ، وستمئة مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوساً عربياً بأوتارها ، وعشرين من النصول الهندية ، وعدة سروج موشاة[١] .

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً[٢] جاء فيه :

«الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض ، وأغنىٰ من أهلها من سأله الفرض ، وأجرىٰ على يده النافلة والفرض ، وزين سماء الذراري التي بعضها من بعض» . وكان عنوان الكتاب : من صلاح الدين إلى أمير المسلمين ، وفي أوله : «الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب» . ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لا أمير المؤمنين ، وأن يعقوب أسرها في نفسه ، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً . وقد قيل : إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مئة وثمانين سفينة ، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام ، وقد دلل ابن خلدون[٣] بذلك على تفوق ملوك المغرب على ملوك المشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية[٤] .

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحدي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً ، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس ، وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارىٰ الأندلس ؛ الذين كانوا يتطلعون إلى استرداد أملاكهم من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارىٰ الأندلس .

على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح ؛ لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور لنداء صلاح الدين ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى أن

---

(١) انظر : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٦) .
(٢) الاستقصا ، للسلاوي (٢/ ١٦٣) .
(٣) انظر : العبر (٦/ ٤٩٠) .
(٤) انظر : تاريخ الإسلام (٤/ ٢١٦) .

يعقوب المنصور كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارىٰ في الأندلس[(١)].
وذكر بعض المؤرخين سبباً آخر منع أبو يوسف المنصور من دعم صلاح الدين ؛ وذلك لأن توسع صلاح الدين في غرب مصر بحروب قام بها بعض أتباعه وخصوصاً قراقوش التقوي ؛ الذي حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بني هلال ، وابن غانية الذي كان يدعو إلى المرابطين ، وهذا سبب وجيه[(٢)].

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية في مصر ساءهم؛ لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار؛ ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين ، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد ، وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ، ولا سيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليهِ صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق ، وتطهيره من عيوبه[(٣)].

وقد أشار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر[(٤)].

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس بن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره ؛ كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب المنصور :

إن الخلافة نالت من محاسنكم ... أوفىٰ الحظوظِ فأبدت منظراً عجبا
أعلى المراتب من بعد النبوة ... قد حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا
سينظم السعد مصراً في ممالكه ... حتى يدوخ منها خيله حلبا
إلى العراق إلى أقصىٰ الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذي كانت الدنيا تؤمله ... وكل عصر له ما زال مرتقبا[(٥)]

لا شك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي ، وأن أولىٰ

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) انظر : معركة الأرك ، ص ٧٠.
(٣) انظر : دراسات في تاريخ المغرب ، ص ١١٤.
(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٥).
(٥) انظر : دراسات في تاريخ المغرب للعبادي ، ص ١١٥.

الخطواتِ المستهدفة هي البلاد المصرية ، لقد صرح سلطان الموحدين المنصور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر ما فيها من المناكير والبدع ، وقال: نحن إن شاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ[١].

إذاً فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله. ولا شك أن أمراء الدولة النورية والأيوبية يعلمون بهذا ، ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم ، فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب ، وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها ؛ وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول لإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية ، وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدىٰ هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها[٢].

لقد تحركت الحملاتُ الأيوبية نحو المغرب ، واتخذت الطريق الصحراوي ، لقصره أولاً ، ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ؛ ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يخضعوا شرق ليبيا لسيادتهم ، ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته ، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ، ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها ، أو الاستيلاء عليها منهم[٣].

وقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية ، وحزازات سياسية ، وموقف داخلي متوتر ، وخارجي متربص ، وقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين ، وبالغ في إكرامه ، ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتاً أعطاه بكل بيت ألفاً.

ومن القصيدة:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... إلى بحر جود ما لأخراه ساحلُ
إلى معدن التقوىٰ إلى كعبة الندىٰ ... إلى سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول ترجىٰ الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقناً ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين ، ص ١٩٨.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) سقوط الموحدين ، ص ١٩٨.

وحـــزت بقصيـــدك العـــلا فبلغتهـــا   وأدنـــىٰ عطيـــاكَ العـــدد والفـــواضـــل
فـــلا زلـــت للعليـــاء والجـــود بـــانيـــاً   تبلغـــك الآمـــالُ مـــا أنـــتَ آمـــل(١)

إن صلاح الدين الأيوبي لم يعترف بخلافة السلطان الموحدي ، ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ ، وهذه مسألة لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة ، وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال: «.... بأن الخطاب يكفي ، وطريق جحدنا له ممكن ، والكتاب حجة تقيد اللسان عن الإنكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع ، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه ، ولا يحل اتباعه ، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ، شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين ، مطيعين لمن لا تحل طاعته ، متقلدين لمن لا تصح ولايته»(٢) .

لو التقى صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة لوصلوا إلى أمور تنفع الأمة كلها ؛ نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ، ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح سياسة الموحدين ، والاقتراب من منهج أهل السنة والجماعة ، ولكن الله غالب على أمره .

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهل المشرق والمغرب ، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان ، فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة ، واستشهد منهم عدد كبير ، ودفن في فلسطين(٣) .

ويشير الرحالة ابن جبير ـ وكان معاصراً لزمن صلاح الدين ـ إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجارة المغاربة دوناً عن سائر تجار المسلمين «لأن

(١) انظر: معركة الأرك ، ص ٧٤.
(٢) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، عز الدين عمر أحمد موسىٰ ، ص ٣٩. وانظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٧ ، للعبادي.
(٣) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١٨ .

طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنىً ظهر واشتهار ، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم ، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم . . » ثم يشير ابن جبير في مكان آخر في كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في الشرق العربي بفداء الأسرىٰ من المغاربة : «فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم»[١] .

سابعاً : وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه :

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دول الموحدين ، ولقد اهتم بالبناء والعمارة ، فسعىٰ لإكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ بناءها والده؛ وبنىٰ بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية ، ويصعد إليها بغير درج ، وتسمىٰ الآن منارة حسان .

كان عبد المؤمن بن علي قد هدم سور مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين ، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور . ومما ساعد على إقامة هذه المنشآت الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته[٢] .

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال . فقال بعضهم : إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من وقعة الأرك ، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته . وقال بعضهم آخر : إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن في الشام[٣] .

ولم يذكر أحد من المؤرخين أنه مات بالمغرب سوىٰ عبد الواحد المراكشي ، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر ، وأن ذلك لم يزل عزمه حتى

---

(١) راجع رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١٩ .
(٢) راجع رحلة ابن جبير .
(٣) المصدر السابق نفسه .

مات في مستهل سنة ٥٩٥ هـ ، ودفن بتينملل مع آبائه ، ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب[1] .

يروي ابن أبي زرع أن المنصور لما أشرف على الموت قال : ما ندمتُ على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها :

الأولى: إدخال البدو ـ العربان ـ من إفريقية إلى المغرب ، مع أني أعلم أنهم أهل فساد .

والثانية: بناء «رباط الفتح» ، أنفقت فيه بيت المال ، وهو بعد لا يعمر .

والثالثة: إطلاق أسارىٰ الأرك ، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم .

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الأولى والثانية ، وكتب لرباط الفتح أن يعمر ، ولكن بعد قرون من وفاته ، حيث غصت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس[2] .

لقد توفي هذا السلطان المجهاد الذي أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام ٥٩٥ هـ[3] فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه .

■ ■ ■

(١) انظر : معركة الأرك ص ٧٦ .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٩) .
(٣) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦) .

المبحث الرابع
الخليفة الموحدي
أبو محمد عبد الله الناصر

توفي الخليفة الموحدي يعقوب المنصور عام ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م وقد أثارت وفاته حزناً عميقاً في الأوساط الإسلامية المغربية ذلك ؛ لأن كثيراً من الناس كذبوا وفاته ، وقال البعض : إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يرابط في ثغورنا لجهاد الكفار ، وقال البعض الآخر : بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر رسول الله ﷺ حيث يخفي أمره ، وقال فريق ثالث : بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك . وقد كذب المؤرخون هذه الروايات . وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينملل[١] . إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطماع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد ، وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر ، وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشر عاماً ، حيث إنه ولد في عام ٥٧٦ هـ/ ١١٨٠ م .

وتولىٰ الحكم عام ٥٩٥ هـ/ ١١٩٩ م وقد كان شاباً طموحاً معتزاً بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ، ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين ، واستبد بالأمور ، ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله ، وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد ، وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص ، إلا أن أبا محمد عبد الله الناصر استبد بالأمر[٢] .

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦) .
(٢) المصدر السابق .

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورةِ آل غانية التي نشطت من جديد، والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد، والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين، واستطاع عبد الله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، ولقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين، واستعمل السلطان المرابطي علي بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيىٰ، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما تفرَّق في كثير من الناس، ومنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوفِ من الله عز وجل والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدمٍ في الفقه، واتساعٍ في رواية الحديث، وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عُدَّ وحده بخمسمئة فارس. وكان علي بن يوسف بن تاشفين الملثمي يعده للعظائم ويستدفع به المهمات، وأصلح اللهُ على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها إنقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩ هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعدما احتل هذا سرقسطة وطُليطلة وقلعة أيوب.

ولى عليُّ بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية مدينة بلنسية، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً إلى أن مات، وبموته كانت أولىٰ الفتن على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانية يجول في الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر عنها إلى جزيرة البليار، (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارةَ جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين، داعياً للخلافة العباسية. وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فأمّه بقايا المرابطين، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيلِ اللهِ، وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم ـ غرب إيطاليا وجنوب فرنسا ـ فيغنم وينكي في الأعداء أشد نكاية، واشتد بذلك عوده وقوي أمره، وتشبه بالسلاطين العظام، ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفي عام ٥٧٩ هـ.

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين ، فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم وأشغلهم عنه ، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر ، فلما كانت سنة ٥٧٨ هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم ، والدعاء لهم على المنابر ، ويتوعدونه إن لم يلب مرادهم ، فأعطاهم العهود المؤجلة ، واستشار وجوه أصحابه ، فاختلفوا عليه ، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار ، ومنهم من رأىٰ أن الدخول أسلم لحماية الأنفس والأعراض ، وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوةٍ من غزواته ، فأكرمه الله بالشهادة ، فتولىٰ الأمر من بعده ولده الأكبر علي بعهد من والده ، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدىٰ ، واستطاع الخليفة الموحدي المنصور أن يكسر شوكته ، وجرد الجيوش لحربه وقادها بنفسه ، واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس بحد السنان ، ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبيين[1] .

ومع وفاة الخليفة الموحدي المنصور عاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على إفريقية ، وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين ، وكان عبد الله بن غانية قد حاول في عام ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠هـ أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف .

ورأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولىٰ على جزر البليار قاعدة بني غانية ، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في إفريقية؛ لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين ، وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرىٰ إلى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية ، وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص .

كانت الحملة تتكون من ألفين ومئتي فارس وسبعمئة من الرماة وخمسة عشر ألف

---

(١) انظر : العقاب ، شوقي أبو خليل ، ص ١٥ ـ ١٦ .

من الرجال ، وغير رجال الأسطول كان الأسطول في ثلاثمئة جفن (سفينة) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذي الحجة ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٣ م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها ، وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل ، وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينةِ ، ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد عثمان قائد الجيش ، ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة ، فدخل البلد عنوة ، وأرسل حاكمها إلى العاصمة مراكش ، وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار ، وتم لهم ذلك سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م وأقيم عليها عبد الله بن طاع الله الكومي والياً عليها ، وبذلك يكون الموحدون قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة).

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط ، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م واستولىٰ على تونس والمهدية ، وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبية ، وأقام الناصر الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على إفريقية ، وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في إفريقية ، ونستطيع أن نقول: إن عام ٦٠٤ هـ الذي كانت فيهِ موقعة الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية ، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها وشتت جموعها وأحلافها. وفي عام ٦٣١ هـ/ ٦٣٣ هـ أو ١٢٣٤ م/ ١٢٣٦ م توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر ، وكانت هذه نهاية ثورة المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان[١].

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم؛ لأنهم رأوا في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السنة والجماعة؛ ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ، ولذلك سعىٰ بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصدقها للإسلام

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦ ـ ٢٤٠).

الصحيح ، وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وإفريقية لمدة تزيد على أربعة عقود مع ثورة بني غانية .

لقد كان فشل تلكَ المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحدية القوية والمركزة ، وبسبب ضعف الخلافة العباسية ؛ التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين ، وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين ، وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة .

ثانياً : جهاد الناصر لدين الله في الأندلس :

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد ، ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارىٰ ، وخصوصاً ألفونس الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسىٰ مرارةَ الهزيمة ، فشرعَ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية تحصيناً قوياً عام ١٢٠٩ م ، ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكن الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس ؛ الذي سعىٰ في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون ، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة المسلمين ، واعتزم بعد ذلك محو وصمة هزيمة الأرك ، بإحراز نصر على الموحدين[١] .

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت ، واستطاع الإسبان النصارىٰ أن يوحدوا جبهتهم الداخلية ، وأن يدعو نصارىٰ أوروبة لحرب صليبية باركها البابا أنوسان الثالث ، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارىٰ في أوروبة وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس[٢] .

وشرع النصارىٰ الحاقدون في إحراق الزروع والحقول ، ونهب القرىٰ ، وقتل السكان ، وسبوا منهم جموعاً كبيرة .

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس ، أعلن الناصر لدين الله

---

(١) انظر : معركة العقاب ، شوقي أبو خليل ، ص ٢٣ .

(٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٤٠) .

الجهاد ، فحشد قوات كبيرة ، وشرع في إرسالها من المغرب ، وقسمها إلى خمسة جيوش :

١ ـ الجيش الأول من قبائل البربر .

٢ ـ الجيش الثاني من الجنود المغاربة .

٣ ـ الجيش الثالث من الجنود الموحدية النظامية .

٤ ـ الجيش الرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة .

٥ ـ الجيش الخامس هو جند الأندلس .

وقدر جيش أبي عبد الله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد ، وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧ هـ أوائل أيار (مايو) سنة ١٢١١ م ، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ، ونزل في جزيرة طريف ، ثم سار بعد أيام إلى إشبيلية ، وهناك كان الخطأ الفادح[١] .

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته ، واستبداده بالرأي ، حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سلبطرة ، فأنهك بذلك قواهم ، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه ، وأصر أبو عبد الله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد بن جامع ، وكان الموحدون يشكون في صدق نياته ، ولكن أبا عبد الله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته ، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة .

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء ، وعانىٰ المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق ، كما أودىٰ المرض بحياة الآلاف منهم ، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً بعد يوم .

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ، ويرغم الموحدين على رفع الحصار ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، وفجع ألفونسو بفقده لولدِهِ الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن ، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين ، بسبب الجوع الذي حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين .

---

(١) انظر : معركة العقاب ، شوقي أبو خليل ، ص ٢٣ .

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبة ، وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس[١] .

وقام البابا أنوسان الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارىٰ ، وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسة «بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه ـ أي البابا ـ يمنح كل من لبىٰ الدعوة الغفران التام»[٢] .

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوروبة للوقوف مع نصارىٰ الإسبان ، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة ، وقد تولوا الإنفاق على حشودهم[٣] .

ووفدت على إسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان ، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً ، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووقف أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافار ـ بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة ـ أولاً على أن يؤيد قضية إسبانية بالمال والجند ، ثم ـ وهو الأهم ـ على التعهد بأن يسير في فرسانه ، وأن يشترك بنفسه في القتال.

واجتمعت في مملكة قشتالة ما لا يحصىٰ من جنود النصارىٰ المتعطشين لسفك دماء المسلمين ، وكان في مقدمةِ تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم ، وبيدرو الثاني ملك أراغون في جيشه الضخم ، كما توافدت إمدادات ليون وجليقية والبرتغال ، وكانت القوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين ، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث ، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طُليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة ، بأنواع من السلاح والملابس

---

(١) انظر: معركة العقاب ، ص ٢٦.
(٢) انظر: معركة العقاب ، ص ٢٨.
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩.

واللغات والعادات ، لقد اشتركت أوروبة فعلياً بأمر من البابا ، وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن ، كل ذلك مكّن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء[١] .

وفي روما أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام ، والاكتفاء بالخبز والماء التماساً لانتصار الجيوش النصرانية ، وأقيمت الصلواتُ العامة ، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد ، والسير حفاة ، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرىٰ ، ومن دير إلى آخر ، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية ؛ طلب فيها إلى النصارىٰ أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبان .

وفي ٢٠ حزيران (يونية) ١٢١٢ م ، تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء المسلمين ، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش ، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن ، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوروبة ، وكان تعداده ما بين ستين ومئة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لويبزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة ومطران بوددو (بُردال) وأسقف نانت .

وكان الجيش الثالث بقيادة بيدور الثاني ، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية .

أما الجيش الثالث ، وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، ويتألف من جنود قشتالة ، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان ، الأمير الليوني سانشو فرنانديز ، والأمير البرتغالي بيورو ، وردريك مطران طليطلة ، وخمسة أساقفة أخر .

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً ، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير[٢] .

أ ـ حصار قلعة رباح :

وفي اليوم الخامس من بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) ١٢١٢ م ، هاجم جنود النصارىٰ حصن (مجلون) ، وأبادوا جميع من فيه ،

---

(١) انظر : العقاب : ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢) انظر : العقاب ، ص ٣٢.

بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ، ولقي النصارىٰ في عبور وداي يانة الذي تقع عليه المدينة صعاباً فادحة ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصنانير والخوازيق الحديدية .

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة ، المنيعة ، حتى سقطت المدينة في أيديهم ، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية ، والأسوار المنيعة ، وكان يخشىٰ أن تقتضي حصاراً طويلاً . وأبدىٰ ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ، ويقول يوسف أشباخ[١] : «وقبل أن يعود النصارىٰ إلى مهاجمة القلعة ، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها ، وأن يُبدأ بالسير تواً لمهاجمةِ المسلمين»[٢] .

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة ، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارىٰ يشعرون بنقصها .

لقد ضيق النصارىٰ على مسلمي القلعة ، واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارىٰ وانسحب بجنوده وترك القلعة ، ووجد ألفونسو في قلعةِ رباح كميات عظيمة من المؤن[٣] .

وسار النصارىٰ إلى لقاء المسلمين بعزم أقوىٰ ، وأذكىٰ شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذي لقي فيهِ ملك قشتالةَ قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمتهُ الشنعاء ، وأذكىٰ شجاعتهم قدوم سانشو ملك نافار ، وقد اشتهر بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال .

وعلى أثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة ، ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وبيدرو الثاني ملك أرغوان نحو مدينة سلبطرة ، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل .

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشاً لم تخرج إسبانية النصرانية مثله من قبل ، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها واتقاء لحصار لا طائل منه ، فاخترقوا ممر (ورادال)

---

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (٢/ ١١٣) .

(٢) انظر : معركة العقاب ، ص ٣١ .

(٣) انظر : معركة العقاب ، ص ٣٢ .

في جبال سيار مورنيا (جبل الشارات) لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى[١].

ب ـ مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج:

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين، غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدس من وزيره أبي سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهاراً، فكان لهذا الفعل أثر سيىء في الجيش الإسلامي كله، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض من الوزير الذميم، وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر[٢].

قلت: وهذا بالفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة، ولا تقوي صفها ووحدتها في مواجهة صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك، ونجد في الشريعة الغرّاء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطئ الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار.

المعركة:

قام ملوك الإسبان في صباح ١٦ تموز (يولية) بترتيب جندهم لخوض المعركة، فرابط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الربى، وتزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق:

١ ـ تتألف الفرقة الأولىٰ من سكان الجبال القشتالية، ويقودها (ديجولويز).

٢ ـ وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاسبتارية والدواوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت (جونزالو نونيز دي لارا).

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥.

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٣٦.

٣ ـ والفرقة الثالثة تتألف من جند وفرسان من قشتالة القديمة واشترويش ، وبسكونية ، ويقودها الكونت (ردريك دياز كاميروس).

٤ ـ وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة ، وبعض قوات ليون ، ويقودها ألفونسو بنفسه ، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين ، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلاً عن المطران (ردريك الطليطلي)[1] ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم.

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا ، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر ، فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق ، ويتألف كله من قوات أراغون ، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين ، ويقوده الملك بيدروا ، ومن حوله الأحبار والأرغونيون.

أما جيشُ الموحدين ، فقد قسمه أبو عبد الله محمد الناصر تجاه جيش النصارىٰ في سهل «تولوزا» وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق.

كانت الفرقة الأمامية من المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم ، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله ، ونشر الإسلام ، وتقدرهم الرواية العربية بمئة وستين ألف مقاتل ، واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة ، والقبائل البربرية في الميسرة ، وأما القلب والقوات الاحتياطية ، فكانت تتألف من صفوة الجيش ، من الجند المغاربة النظاميين ، أو بعبارة أخرى من الجند الموحدين ، وضرب أبو عبد الله محمد الناصر قبّته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف ، وربط أمامها جواده المسرج ، وقعد في داخلها على درقته[2] ، إيذاناً باقتراب المعركة ، ومن حوله حرسه من مشاة وفرسان ، وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارىٰ الإسبان ومن معهم من قوات أوروبية صليبية ، فكانت سدّاً منيعاً دون اختراقه الموت.

ولما تمت استعدادات المعركة ، خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي

(١) انظر : تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين لأشباخ (٢/ ١١٧).
(٢) انظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (٢/ ١١٨).

عباءة سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن ، وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه ، وشهر سيفه بالأخرىٰ ، بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوّي بشدة في ساحة المعركة[(١)] ، وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال ، وطلب الشهادة في سبيل الله ، وكان هجومهم عنيفاً قوياً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارىٰ التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية ـ الاسبتارية والدواوية ـ فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين ويمزقوها . واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام ، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعين من المسلمين ، وتقدموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي ، حيث حُشدت صفوة الجند ، لقوا أشد مقاومة ؛ وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارين ، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الرُّبى تطور المعركة على هذا النحو السيئ ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين الطليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية ، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة : «إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد»[(٢)] ، تدل على أنه لم يكن يأمل بالنصر بعد . ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار ، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعمعة ، وهم يرفعون أعلاماً عليها صورة المسيح ، يثيرون أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جندهم . وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة ، ليلموا شعثهم ، وينظموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوىٰ الجديدة ، وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامي ، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه ، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب ، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حطما ، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي ، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند

---

(١) انظر : العقاب ، ص ٤٢ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (٢/ ١١٨) نقلاً عن العقاب ص ٤٥ .

الموحدين النظاميين ، والحرس المغاربة ، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارىٰ ، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة ، وبسالة نادرة ، ورجولة فريدة ، وجلد لا مثيل له ، ولكن الدائرة حطمت ، وأصبح نصر النصارىٰ لا مفر منه ، وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ، ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة . ولما تحققت الهزيمة ، تراجع مع نفر من جنوده واتجه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها إلى إشبيلية .

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس ، وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس ، حيث كانت النهاية ، أو نهاية البداية مصرع غرناطة .

لقد كانت حشود النصارىٰ في معركة العقاب ضخمة جداً ، وكانت التعبئة والنفير العام على مستوىٰ أوروبة كلها يدفعهم الحقد الصليبي للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم[١] .

لقد استشهد في هذه المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ، ومن أشهر هؤلاء العلماء :

١ ـ أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضري (٥٤٢ ـ ٦٠٩ هـ) . من أهل شاطبة ، صاحب التآليف ، والذي «كان أحد الحفاظ للحديث ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً ، ولا يخل بحفظ شيء منها . موصوفاً بالدراية والرواية ، غالباً عليهِ الورع والزهد ، على مناهج السلف ، يأكل الجشب ، ويلبس الخشن ، وربما أذن في المساجد ، وله تآليف دالة على سعة حفظه ، مع النظم والنثر . ثم توجه إثر ذلك غازياً . وشهدَ وقعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها . وكانت السبب الأقوىٰ في تحيّف الروم بلادها حتى استولت عليها ، ففقد حينئذ ولم يوجد حياً ولا ميتاً ، وذلك يوم الإثنين منتصف صفر سنة تسع وستمئة)[٢] .

٢ ـ القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري . من سكان فاس الذي تولىٰ قضاء سبتة ثم بلنسية «فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر من صفر سنة تسع وستمئة» .

---

(١) انظر : العقاب ص ٤٦ ـ ٤٧ .
(٢) التكملة (١/ ١٠١ ـ ١٠٢) رقم ٢٦٢ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص ٤٩٤ .

٣ ـ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري. من أهل سبتة، الذي «استوسع في الرواية. وكان معروفاً بالزهد، واستشهد في كائنة العقاب»[١].

٤ ـ أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس «كان زاهداً، عابداً، معلماً للقرآن، له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازياً، وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستمئة، فأقام هنالك أياماً يلقى الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراهُ استشهد بها فإنه انقطع عني خبره»[٢].

٥ ـ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي، من أهل اليسَّانة عمل قرطبة «ولي قضاء موضعة مدة طويلة، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه، وله تأليف في رجال الموطأ، واستشهد في وقعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩ هـ»[٣].

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضائهم تتصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر، ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: أسباب الهزيمةِ في العقاب:

١ ـ الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه، ألا وهي: «صدق الرحمن وكذب الشيطان»[٤].

٢ ـ لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب، ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله؛ ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار على سلبطرة، وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار، واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدي لأقصى عوامل الطبيعة، ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي، وترك الرأي الجماعي.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٢٠٢) رقم ٥٣٦ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص ٤٩٥.
(٢) المصدر السابق (١/ ٢٣٥) رقم ٦٢٣ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص ٤٩٥.
(٣) التكملة (٢/ ٥٨٥ ـ ٥٨٦) رقم ١٥٥٩ نقلاً عن التاريخ الأندلسي ص ٤٩٥.
(٤) انظر: العقاب، ص ٥٠.

٣ ـ ضعف شخصية الناصر لدين الله ؛ الذي أصبح ألعوبة وخاتماً بيد وزيره أبي سعيد بن جامع.

٤ ـ سبّب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ، ولا سيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم ، كل هذا مهد للفرار ، وانسحب الأندلسيون من المعركة ، وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة ، وكان هذا الانفصال غير المتوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

٥ ـ إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك ، وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم ، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية ، وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوروبة ، وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

٦ ـ الثورات التي حدثت في المغرب مع بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ، ويقدمون خيرة رجالهم(١).

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة ، وقام النصارىٰ بقتل كل الأسرىٰ الذين وقعوا بين أيديهم ، وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال ، تولوزا ، بياسة ، بلقيس ، بانيوس ، وابدة ، التي أعملوا السيف في رقاب أهلها ، وحطموا كثيراً من مبانيها ، بينما كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحاً بنكاية المسلمين ، ولولا الأمراضُ التي فتكت بجيوش النصارىٰ لتابعوا بطشهم بالمسلمين ، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرىٰ من النساء والصبية ، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة(٢).

لقد كانت المجزرة اللاإنسانية في مدينة بياسة. يقول أشباخ في «تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين»(٣): «ولم يكن في بياسة سوىٰ المرضىٰ والضعاف ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش ، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين ، فشاءت قسوة النصارىٰ أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف ، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرىٰ؛ بل ذهب النصارىٰ الذين

(١) انظر: العقاب ، ص ٥١.
(٢) انظر: العقاب ، ص ٥٢.
(٣) انظر: تاريخ الأندلس ليوسف أشباخ(٢/ ١٢٣).

أعمتهم نشوة الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك ، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل ، وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينةِ الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء.

ونظم النصارىٰ في الواقع على المدينة هجوماً عاماً خسروا فيه كثيراً من القتلىٰ ، ولم يسفر عن أي نجاح ، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها ، وأن يحتلوها ، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينةِ بقيت على ثباتها رغم جهود الإسبان ، وعندئذ رأى الملوك ، أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارىٰ ما عرضه المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة ، وأرسلوا إلى ملوك النصارىٰ يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب (مليون دينار) ، على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم ، وهكذا قُبل العرض ، وعقد الملوكُ مع المدينة اتفاقات بهذا المعنىٰ نظراً لما أنسوه من صعاب في افتتاحها.

ولكن الأحبار الظامئين إلى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد أو شرط ، فشاء ضعاف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحلين لذلك عذراً هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارىٰ ، ولم يؤدوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال ، وسرعان ما أطلق النصارىٰ العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكوبين ، فقتل من في أبدة زهاء ستين ألفاً ، وسُبي مثل هذا العدد ، وهدمت الدورُ بعد أن خلت المدينةُ من سكانها ، وعندئذ أبدىٰ الأحبار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ، ضارعين إلى المولىٰ أن يشملهم برحمته»[(١)].

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ، ووفائه للعهود واحترامه للأديان؟ قال الشاعر :

ملكنا فكان العدل منا سجية   فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارىٰ وطالما   غدونا على الأسرىٰ نمن ونصفح

---

(١) انظر : العقاب ، ص ٥٣.

فحسبكـــم هـــذا التفـــاوت بيننـــا وكـــل إنـــاء بـــالـــذي فيـــه ينضـــح[١]

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوىٰ السلطان الناصر بالأندلس فقط، ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضاً، فقامت دويلات في المغرب، وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين، وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارىٰ.

جاء في نفح الطيب: «كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخلاء كثير من قُراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو لها»[٢]. وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذين غص بالقتلىٰ من جنده مسرعاً إلى إشبيلية، وهنالك صب جام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم، وأذل القادة والزعماء، وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزيناً كئيباً، ولكي ينسىٰ حزنه وكدره قضىٰ بقية أيامه في الملذات والشهوات، ولم يقم بشيءٍ من شؤون الحكم سوىٰ أَنْ عيّن لولايةِ عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله، وكان يومئذ طفلاً في العاشرة من عمره، ولما انتهىٰ من هذا التعيين، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه، واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه، وقضىٰ أمداً لا يجاوزُ العام في هذا اللهو الصاخب، ثم دس له خدمه السم، وتوفي مسموماً بأمر من وزرائه؛ لأنه كان قد عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل، فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في ١١ شعبان ٦١٠ هـ/ ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٢١٤ م، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً وبضعة أشهر[٣].

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدىٰ الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة. وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين؛ لعبد الله علوان، ص ٨٤.
(٢) نفح الطيب (١/ ٤٢٠).
(٣) انظر: العقاب، ص ٥٧.

وقرآنه، وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس، ويقرر العبور إلى المغرب معتمداً على محالفة الغرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمئة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة، وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين، وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدين دماءً وأموالاً، وتفككاً داخلياً، وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م؛ رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلاً عام ١٢١٢ م وليس عام ١٢٦٩ م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاماً بعد معركة العقاب، ولكنها لم تكن دولة بمعنىٰ الكلمة؛ إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة، وأخذت تتهاوىٰ مع الأيام؛ حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين، ومن قبلهم بني عبد الواد في تلمسان، وبني حفص في تونس[١].

رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين:

١ ـ ظلمهم الفظيع للمرابطين، وسفكهم للدماء واعتداؤهم على الأموال، وسبيهم للنساء دون وجه حق، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم؛ ولذلك كفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وسبوا نساءهم، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحياناً واهية، أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير، ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على الظالم لينتقم اللهُ منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه وحيث إن دعوة المظلوم مستجابة لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه رسول الله إلى اليمن: «... واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب».

ومن سنته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون بالدنيا، وأن مآلهم إلى الخسران والهلاك؛ كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود[٢].

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٤٨ ـ ٢٥٣).

(٢) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عُبادة كُحيلة، ص ١١٩

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة لهُ وهو مريض، وبانتهاءِ هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدية معينة يعلمها اللهُ هي الأجل المقدر لها ، أي الذي قدره الله لها بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم ، التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله[1] . قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] ، قال الآلوسي في تفسيره هذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: ٣٤] أي: لكل أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين مضروب لاستئصالهم[2] ، ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً، ولكن وقت حصوله مجهول لنا ، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة اللهِ تعالى في الظلم والظالمين ، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط ، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيامِ ولا بالسنين ، وهو محدود عند الله تعالى[3] .

إن سنة اللهِ مطردة في هلاك الأمم الظالمة ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٢].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة ، بل إن سنتهُ تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة ؛ فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين ، لأن اللهَ تعالى لما حكىٰ أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم ؛ فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد ، فالآية تحذر من وخامة الظلم.

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنىٰ أن حكامها لا يظلمون الناس والناس

(١) انظر: السنن الإلهية ، د. عبد الكريم زيدان ، ص ١٢١ .
(٢) انظر: تفسير الآلوسي (٨/ ١١٢).
(٣) انظر: السنن الإلهية في الأمم ص ١٢١ .

أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم ، فهذه الدولة مع كفرها تبقىٰ ، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط ، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم(١) ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

قال الإمام الرازي في تفسيره: «إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك. والمعنى أن اللهَ تعالى لا يهلك أهل القرىٰ بمجردِ كونهم مشركين ، إذ كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح ، وعدم الفساد»(٢).

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك وكفر ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنىٰ الآية: إن اللهَ تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط(٣).

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: «وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراكُ في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم ، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك لأن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق ـ أي في الآخرة ـ وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزىٰ بهِ في الآخرة»(٤).

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ؛ ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتكِ الأعراض ومصادرة الأموال ، وسار خليفته عبد المؤمن على منوالِهِ وكذلكَ كثيرٌ من زعماءِ الموحدين ، فجرت فيهم سنة اللهِ

(١) انظر السنن الإلهية في الأمم والأفراد ، ص ١٢٢.
(٢) تفسير الرازي (١٨/ ٧٦).
(٣) تفسير القرطبي (٩/ ١١٤).
(٤) انظر: رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق صلاح المنجد ص ٤٠.

التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل ، فانتقم من الظالمين ، وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضىٰ أمر الدولةِ إلى الزوال.

٢ ـ من أسباب سقوط دولة الموحدين ، ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكريةِ التي قامت عليها دولة الموحدين ، والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة ، وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية السنية ، ورفعت شعاراتها ، وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم ، واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

٣ ـ ثورات الأعراب المتتالية: حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها ، فأحياناً تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوي ضد الموحدين ، وأحياناً تخضع لدولة الموحدين ، ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين ، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخليةِ والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين ، لقد قدم الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدي عام ٥٨٤ هـ. ومنذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠ هـ أصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ، ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين. ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل ، وبنو جابر «ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي بمصاهرتهم للبربر ، وبالاحتكاك بهم»[(١)].

٤ ـ ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين: ومن أشهر هذه الثورات: ثورة محمد بن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليها إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارىٰ ، ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارىٰ من أجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس ، ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة ، وقتل في تلك المعارك خيرةُ رجالهم ، وثورة ابن هود ، وعامل بلنسية الذي التجأ إلى ملك ليون.

---

(١) انظر: العقاب ، ص ٦٨.

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم ، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب[١] .

٥ ـ النزاع على الخلافة بين الموحدين ، ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة عندهم :

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها ، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة ، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين ، بل وبأعدائهم من النصارىٰ ، فوجدت مراكز القوىٰ في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد ، فسقطت هيبة الخلافة ، مما ساعد على اضمحلالها وزوالها . ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفةِ وما أعقبها من نزاع السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر : تعدد الخلفاء في وقت واحد ، والاستعانة بالنصارىٰ ، وتولية حكام ضعاف[٢] .

أ ـ ولما تولىٰ الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية ، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل ، وبعد قليل خرجَ على العادل واليهِ على قرطبة في ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م السيد أبو محمد عبد الله العباسي بمقتل العادل . بايع الموحدون المأمون بن المنصور ، فلما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر ، وظل كل منهما مدعياً للأمرِ ، عاملاً على إحرازِ النصرِ على منافسه طوال خلافة المأمون ، وما يقرب من أربعة أعوامٍ من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤ ـ ٦٣٣ هـ/ ١٢٢٦ ـ ١٢٣٧ م) وفي عام ٦٢٩ هـ/ ١٢٣١ م ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعىٰ بالأمر السيد أبو موسىٰ بن المنصور بسبتة وتسمىٰ بالمؤيد ، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس ، ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها ، فأهملت شؤون الإدارة ، وانتشرت الفتن ، وقلت المجابي ، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضاريةِ بين بني عبد المؤمن[٣] .

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، عز الدين عمر أحمد موسى ، ص ٨٣ .

(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص ٦٣ .

(٣) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص ٨٤ .

ب ـ دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالفات مع النصارىٰ من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه ، فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارىٰ ، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة ؛ الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها ، وأن يبني كنيسة للروم بمراكش بمقابل عدد من الفرسان الروم ، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة .

ج ـ إن النزاع بين أمراء البيتِ الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحاكم منذ وفاة المستنصر ، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتوليةِ حكام ضعفاء صغار السن ، أو مقعدي الشيوخ ، أو باحثين عن ملذاتهم[١] .

إن ضعف الخلفاء يسر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة ، والتحكم في سياستها وتوجيهها . وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية[٢] .

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور ، فرفعوا للخلافة من شاؤوا ، وخلعوا من كرهوا ، وقتلوا من أرادوا ، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس[٣] .

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولةِ أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها ، فكانوا دائماً يبسطون نفوذهم لكيلا يفلت زمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا . ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ[٤] .

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن ، وظهور الخلفاء الضعفاء ، وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة ، ونشوب الفتن فيها ، جعل ولاة الأقاليمِ يستبدون بولاياتهم ، وانفصل بعضهم نهائياً عن مراكش . لقد

(١) انظر : المصدر السابق ، ص ٨٥ .
(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٨٦ .
(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ٨٧ .
(٤) انظر : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري ، وحسن ضبطه ، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم ، وكان عمل الوزراء والولاةِ هو التنفيذ والتبليغ ، ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة[1] .

٦ ـ الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين ، وتغير أهداف الجيش الموحدي:

لا شك أن النزاع السياسي ، وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة ، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوىٰ رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي ، ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم ، وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها ، إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط ، وعلى وضع الخطط الحربية وضعاً صحيحاً وتنفيذاً أكيداً.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون ، وتأثرت معنوياتهم القتالية ، ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدوا جيشاً قادراً على تحقيق انتصاراتٍ ، بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة ، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارىٰ في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش ، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند ؛ الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها ، لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش ، فبدلاً من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين ، تحوّل إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء ، وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ؛ ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

---

(١) انظر: المصدر السابق ، ص ٩١ ـ ٩٢.

لقد كان إدخالُ العربان في الجيش الموحدي كافة على أهدافه ونظامه ؛ إذ لا همّ لهم سوىٰ السلب والنهب واكتساب المال ، ولا يعرفون نظاماً ، ولا يتقيدون بأوامر ، وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة وجد هؤلاء العربان سوقاً رائجة وتجارة رابحة ، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية ، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جُعل من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة(١) .

٧ ـ الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون ، وانهماكهم في ملذاتهم ، غير مهتمين بشؤون الدولة والحكم ، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم ، وإشرافهم على كل أمر جل أو صغر ، فالناصرُ منذ هزيمة العقاب احتجب ، وانهمكَ في الملذات حتى وافاه حينه ، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته ، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيل في رياضة ، وتوفي في طعنة بقرة شرود ، والمرتضىٰ كان ميالاً للدعة والمسالمة ، ومولعاً بالسماع ليلاً ونهاراً(٢) وكذلك المقربون منهم .

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك ، ولا يهمهم ما يكون في الناسِ من منكرات ، فهي لا تقلقهم ، ولا ينهون عنها لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ، ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها ، قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ أراد الله بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات ، أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها ، والسعي لها ، وطلب أسباب العيش الهنيء(٣) .

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .
(٢) انظر : المصدر السابق ص ٨٦ .
(٣) انظر : السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد ، ص ١٨٦ .

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة ، وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٣].

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها ، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها ، أي متنعميها وجباريها وملوكها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال ، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم ، فكان توجه الأمر إليهم آكد[١].

٨ ـ تقلص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية ، وتناحر عناصرها ، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت ، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها إفريقية ، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترةِ الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من المغرب ، وظهر في شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٨ م في مرسية ، وحكم تحت شعار العباسيين ، وسيطر ابن هود على معظم الأندلس ، وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين «وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم؛ إلا من ستره الله منهم ، وأخفاه في ذلك الوقت عنهم»[٢].

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م زيان بن مردنيش

---

(١) انظر: تفسير الآلوسي (١٥/ ٤٢).

(٢) انظر: البيان المغرب (٣/ ٢٦٩) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، ص ١٠٨.

وفي سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة، ونازع ابن هود على زعامة الأندلس، فما جاء عام ٣٣٦ هـ/ ١٢٣٩ م إلا وقد سيطر على غرب الأندلس[1].

وزالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين، وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين، واضطرت الأندلس لمجابهة النصارىٰ منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرىٰ، فسقطت قرطبة عام ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٦ م وبلنسية في عام ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٩ م، ومرسية ٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م، وإشبيلية ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م. وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت إفريقية سنة ٦٢٧ هـ/ ١٢٣٠ م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن، فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين، وكتب للجهات بطلب البيعات[2].

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس وإفريقية، وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل[3]، فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بنو عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس، فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية.

٩ ـ فتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين، بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد، ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد، وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين، والذي

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص ١٠٨.
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص ١٠٩.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١١١.

توصلوا من خلاله إلى الدولة ، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب ، فالجيش ، ثم الإدارة ، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: «ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يتأكد ، إلى أن بالغوا في ذلك ، ولو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء»[١]. ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوىٰ تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الأساسي ، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة ، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين ، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادئ التي قامت عليها ، ويلتزمها ، وتبعد من يحيد عنها.

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها ، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقوياً بهم ، وولاهم المناصب في الدولة ، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين ، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية ، بل خاضعة لسيادة الدولة ، ولهذا فإنّ كثيراً ممن قدم منهم كان يسعىٰ لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ، ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس ، وذبل الإيمان في القلوب ؛ فدب النزاعُ على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش ، واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة ، فالمنصور يصرح بذلك لخاصته ، والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها ، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن ، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة ، فتجسد ذلك عملياً في خلافة المستنصر ، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ، ولا ريب أن الفكر إن لم يداوم عليه أصحابه عليه يتحجر ، ويغدو آفة عليهم[٢].

كما لا يخفىٰ الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيفِ والقوة ؛ مع كونه يتنافىٰ مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم ، فجعلت الناس

---

(١) المعجب ، ص ١٩١.
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ص ١١٧.

تنسل من المنظومة الموحدية والعقدية ، وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام.

هذه بعض الأسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين.

خامساً: خلفاء الموحدين:

١ ـ عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ ـ ٥٥٨ هـ/ ١١٢٠ ـ ١١٦٣ م.

٢ ـ أبو يعقوب يوسف ٥٥٨ ـ ٥٨٠ هـ/ ١٣٣٦ ـ ١١٨٤ م.

٣ ـ أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠ ـ ٥٩٥ هـ/ ١١٨٤ ـ ١١٩٩ م.

٤ ـ أبو محمد عبد الله الناصر ٥٩٥ ـ ٦١٠ هـ/ ١١٩٩ ـ ١٢١٣.

٥ ـ أبو يعقوب يوسف المستنصر ٦١١ ـ ٦٢٠ هـ/ ١٢١٣ ـ ١٢٢٤ م.

٦ ـ عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢٠ ـ ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م.

٧ ـ أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) ٦٢١ ـ ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٤ ـ ١٢٢٧ م.

٨ ـ يحيى بن الناصر ٦٢٤ ـ ٦٢٧ هـ/ ١٢٢٧ ـ ١٢٣٠ م.

٩ ـ المأمون بن المنصور ٦٢٧ ـ ٦٣٠ هـ/ ١٢٣١ ـ ١٢٤٢ م.

١٠ ـ الرشيد بن المأمون بن المنصور ٦٣٠ ـ ٦٤٠ هـ/ ١٢٣٢ ـ ١٢٤٢ م.

١١ ـ السعيد علي أبو الحسن ٦٤٠ ـ ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٤٨ م.

١٢ ـ أبو حفص عمر المرتضى ٦٤٦ ـ ٦٦٥ هـ/ ١٢٤٨ ـ ١٢٦٦ م.

١٣ ـ أبو دبوس الواثق بالله ٦٦٥ ـ ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٦ ـ ١٢٧٠ م.

■ ■ ■



الفصل الثالث

الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين





الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ، ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارىٰ الإسبان في عام ٨٩٧ هـ ، ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين ، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم ، وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى .

أما الشمال الإفريقي بعد سقوط الموحدين ، فانقسم إلى دول ، لا تجاوز الواحدة منها في بعض الأحيان إطار المدينة ، ولا تجاوز في أحيان أخرى إطار القبيلة ، واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض ، واشتدت النزاعات الداخلية ، وتتابعت الهجمات الخارجية ، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها ، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة ، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة ، وخرج من ذلك المخاض الطويل دول من أهمها: دول بني حفص في إفريقية ، دولة بني زيان في المغرب الأوسط ، دولة بني مرين ، ثم بني وطاس في المغرب الأقصى .

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الأندلس والشمال الإفريقي ، مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات ؛ التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس .

■ ■ ■

المبحث الأول
مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب الأقصى ، وملك محمد ابن يوسف بن هود قواعد الأندلس ، وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب ، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية ، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ، ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم بعض .

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع ما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها ، فرأت أن الفرصة قد حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس ، فبدأت هجومها بالفعل ، وكان احتلال قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣ هـ/ ٢٩ حزيران (يونية) ١٢٣٦ م ، صيحة النذير المدوية ، ولقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله العظيم ، وبالتالي أصابهم الضعف ، ودخلوا في الفوضىٰ والنزاع والخلاف ، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ، ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام ، وبدأت مدن الإسلام الكبرىٰ تتساقط في يد النصارىٰ ، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ م ، ثم سقطت شاطبة ودانية وفي عام ٦٤٦ هـ ، وسقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ، ودام الحصار ثمانية عشر شهراً ، وأبدىٰ فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية ، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم ، واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث ، على أن يُخيَّر المسلمون بين البقاء في إشبيلية ، أو يهاجروا في الحال ، وحُول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام ، وتوزع أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية .

لقد كان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها

وبين مصب الوادي الكبير ، فاستولىٰ النصارىٰ تباعاً على: شريش ، شذونة ، قادس ، شلوقة ، غليانه ، روضة ، ثغر شنتمرية ، وغيرها . . وتحالف ابن الأحمر مع النصارىٰ ، وعاونهم في الاستيلاء على قادس ، وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس ، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة[1] .

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس ، ووضح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر ، وحبهم للدعة والخنوع والترف. لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح ، وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام ، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرىٰ ، كقرطبة ، وبلنسية ، وإشبيلية ، ومرسية بيد النصارىٰ .

لقد صور الشاعر المسلم أبو البقاء الرندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألماً وحزناً ، فلله دره فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات!

قال الشاعر :

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان ... فلا يُغَرَّ بطيبِ العيشِ إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دُوَلٌ ... من سرّه زمن ساءته أزمانُ
وهذه الدار لا تبقي على أحدٍ ... ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يَمَنٍ ... وأين منهم أكاليل وتيجان
أتى على الكل أمرٌ لا مردّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواعٍ منوّعة ... وللزمانِ مسرّات وأحزان
وللحوادث سلوانٌ يسهِّلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان
دهىٰ الجزيرة أمرٌ لا عزاء له ... هوىٰ له أحُدٌ وانهدّ ثهلان[2]
أصابها العينُ في الإسلام فامتحنت ... حتى خلت منها أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شان مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان

---

(١) انظر : سقوط غرناطة ، ص ٣٠.
(٢) أحد وثهلان : جبلان.

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمصُ وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرها العذب فياضٌ وملآن
قواعدٌ كُنَّ أركان البلاد فما ... عسىٰ البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكىٰ لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدةٌ ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظة ... إن كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يُلهيهِ موطنه ... أبَعْدَ حمصٍ تغر المرء أوطان
تلك المصيبةُ أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان
يا أيها البيضاءُ رايتُه ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
يا راكبين عتاق الخيلِ ضامرةً ... كأنها في مجال السّبق عُقبان
وحاملين سيوف الهندِ مرهفةً ... كأنها في ظلم النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهلِ أندلس ... فقد سرىٰ بحديث القوم رُكبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم ... قتلى وأسرىٰ فما يهتز إنسان
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد اللهِ إخوان
ألا نفوس أبياتٌ لها هِمَمٌ ... أما على الخيرِ أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم الكفر وطغيان
بالأمسِ كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارىٰ لا دليل لهم ... عليهمُ من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهمُ ... لهالك الأمر واستهوتكَ أحزان
يا رُبَّ أُمٍّ طفلٍ حيل بينهما ... كما تَفَرَّقُ أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودُها العلج للمكروه مُكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلام وإيمان[١]

(١) نفح الطيب (٤/ ٤٨٦ ـ ٤٨٨).

«وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً ، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه ، وكان يبذل للنصارىٰ ما استطاع من العون المادي والأدبي ، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية ـ وقد أيقنوا انهيار سلطان الإسلام في الأندلس ـ يهرعون إلى احتذاء مثاله ، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة»[1] .

لقد غدر النصارىٰ بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر ، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب ، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقىٰ من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه ، فصانع النصارىٰ ، وتجنب الاشتباك معهم ، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق ، و قلبه يتفطر حزناً وأسىٰ[2] .

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس؛ وحاول ابن الأحمر أن يواجه النصارىٰ ، وخرجَ عن طاعتهم ، وأعلن النصارىٰ الحرب عليه في عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م ، فردهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية ، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين. وفي عام ٦٦٢ هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة مراكش ، وتخليصها من يد النصارىٰ.

شدد النصارىٰ هجماتهم بدءاً من عام ٦٦٣ هـ وبدأت الهزائمُ تتلاحق على محمد ابن يوسف بن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة ، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس ، فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً ، ولكنها لم تجد نفعاً ، فسوء المصير لاح في الأفق ، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م متنازلاً له عن أكثر من مئة موضع معظمها غربي الأندلس ، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة ، وكان في مالقة ، وتحالف ابن الأحمر مع الإسبان عام

---

(١) انظر : نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين ، ص ٣٣.
(٢) انظر : المصدر السابق ، ص ٣٤.

٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م ، وحاصر أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ، ولكنهم لم ينالوا منه مأرباً[١] .

وفي عام ٦٦٨ هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً ، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني ، ولكنه مات قبل أن يرىٰ ما حدث ، وذلك في ٢٩ جمادىٰ الثانية ٦٧١ هـ (كانون الأول/ ديسمبر/ ١٢٧٢ م) وقد قارب الثمانين من عمره ، بعد أن وطد الملك لبني نصر الذي بقي زهاء مئتين وخمسين عاماً أخرىٰ[٢] .

أولاً: ترجمة ابن الأحمر:

هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خمسين بن نصر بن قيس الخزرجي ، يرجع في نسبه إلى سعد بن عُبادة الأنصاري ، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ ، وكان نقيباً شهد العقبة وبدراً[٣] .

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة ٥٩١ هـ ، (١١٩٥ م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة ، دعا للمِّ الشمل ، فاجتمع حوله الكثير ، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥ هـ[٤] .

أ ـ شيء من سيرته:

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شؤون مملكته ، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظم الشرطة والقضاء ، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء ، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم ، فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخىٰ البساطة في المأكل والملبس ، فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس[٥]. يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: «كان هذا السلطان آية في السذاجة والسلامة ، عظيم التجلد

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ، ص ٣٣.
(٢) ابن خلدون (٧/ ١٩٠) نقلاً عن سقوط غرناطة ص ٣٣.
(٣) انظر: التاريخ الأندلسي ، ص ٥١٧.
(٤) انظر: المصدر نفسه ، ص ٥١٧.
(٥) انظر: غرناطة في ظل بني الأحمر ، د. يوسف شكري فرحات ، ص ٣١.

رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً التقشف بعيداً من التصنع ، شديد الحزم ، فظاً في طلب حقه ، مباشراً للحرب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر التبدي»[١] .

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ، ويتمشىٰ في حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقرأ ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر إلى محالفة أعداء المسلمين ، ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر .

من أعمال ابن الأحمر ، إلى جانب بنائه القصر المشهور ، أنه أنشأ مأوىٰ للعميان وداراً للعجزة ، وبنىٰ مستشفىً كبيراً ونشر المدارس ، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات ، وكان يتفقد رعيته متستراً بعيداً عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك[٢] «وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ، ويشافهه طلاب الحاجات ، وينشده الشعراء ، وتدخل عليه الوفود ، ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة»[٣] . كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية ، وكانت توزع بأسعار عادلة «فتوفر ماله ، وغصت بالصامت خزائنه ، فأفعم الأهراء ، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوباً مختلفة»[٤] . ولما ابتنىٰ قصر الحمراء جلب له المياه التي أوصلها كذلك إلى المدينة ، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة ، ومدّ إلى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزالُ بعضها قائماً حتى اليوم[٥] .

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس ، وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب ، منها :

١ ـ موقعها الجغرافي ، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة ، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال ، فكانت مملكة غرناطة أبعد مكان بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس ، من حيث

---

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٤٣ .
(٢) انظر : غرناطة في ظل بني الأحمر ، د . يوسف شكري فرحات ، ص ٣٢ .
(٣) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص ٤٤ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٣ .
(٥) انظر : غرناطة في ظل بني الأحمر ، د . يوسف شكري ، ص ٣٢ .

الموقع ، ومن حيث قربها من بلاد المغرب ، وعدم وجود خط معاد أمام مسلمي غرناطة ، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة .

٢ ـ ظهور دولة بني مرين في المغرب ، وكان من أهدافها الكبرىٰ مواصلة الجهاد في الأندلس ، ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ما تملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارىٰ في الأندلس ، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس ، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس .

٣ ـ هجرة المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة ، وأصبحت لهم ملاذاً يحتمون به ويلجؤون إليه ، فكثر في غرناطة أهل المهارات والكفايات ، والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية ، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبية ، وتصنع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها[١] .

٤ ـ حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارىٰ ، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدولة الصغيرة ، وصمودها ، وجهادها أمام ممالك النصارىٰ الحاقدة .

٥ ـ براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارىٰ ، وتقوية النزاعات بينها ، والتداخل في هذه النزاعات ، ومناصرة فريق على فريق آخر[٢] .

وغير ذلك من الأسباب .

ثانياً : جهاد المرينيين في الأندلس :

تولىٰ الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبد الله الغالب بالله ، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنة من القوة والعزم وبعد الهمة ، وسعة الأفق ، مع علم وأدب ، وكان شاعراً فقيهاً ، حتى إنه دعي باسم (محمد الفقيه) ، وفي أول عهده تحركت قوات نصارىٰ قشتالة بقيادة ألفونسو العاشر للقضاء على غرناطة ، وضمها

---

(١) انظر : التاريخ الأندلسي ، ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .
(٢) انظر : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د. عبادة كحيلة ، ص ٢٦٩ .

تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصر المرينيين في المغرب فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد، وتوالت الكتب على سلطان المغرب «أبي يوسف يعقوب المريني» من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة ٦٧٣ هـ فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العز في صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان[١] الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتسير بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين، وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً، وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له وودعه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في ١٧ ذي الحجة ٦٧٣هـ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها، وواصل السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح ما مر عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الإسبان أمام جيشه المظفر، وجمع في طريقه غنائم ضخمة، وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها، ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم، وقويت نفوسهم، وهكذا استطاع الأمير أبو زيان ـ حامل راية والده المنصور ـ أن يعز الإسلام، ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يعمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة؛ لكي يجاهد في الأندلس، وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يعمراس على مبدأ الصلح، فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبد الواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال، وجمع الله كلمة الإسلام، وألف بين المسلمين.

---

(١) أي: ببناء السفن.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً ، وتصدق بصدقات كثيرة ، وكتب إلى زعماء بني مرين ، وأمراء العرب ، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجاناته يستفزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز ٦٧٤هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق ، والعُدة الكاملة والسلاح ، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوعين وقبائل العرب ، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده ، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج ، وقبيلة بعد قبيلة ، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار ، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر :

فالمرسلات تسوق العاديات إلى ... غزو العداة وتجويز صباح مسا
كأنما البحر أضحى للجياد مدى ... وكُل عُشبة ماء حُوّلت فرسا
كأنما اقترب البرّان واتصلا ... فصار ذاك طريقاً للورى يبسا[1]

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة ، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزائه وخُدام دولته ، ومعه جماعة من صلحاء المغرب ، وكان جوازه يوم الخميس ٢١ صفر ٦٧٤هـ وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني أشقيلولة بعساكرهما ، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين أشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء ، فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما ، وتصافت القلوب ، وتعاهدوا على التقوى والجهاد ، ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها ، وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة ، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى ، ولم يعقد ، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف ، ولم تستطب جفونه مناماً ، ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً ، ولم يزل يجد الرحيل ، ويوالي المسير ، حتى وصل إلى الوادي الكبير ، فعقد هنالك لوالده الأمير أبي يعقوب يوسف على مقدمته ، وقدمه بين يديه مع الأدلاء في جيش من خمسة آلاف فارس

---

(١) انظر : مصرع غرناطة ، ص ٤٣.

من شجعان بني مرين والعرب ، فتقدم والده بمرحلة ، وسار أبو يوسف في إثر ابنه في جميع جيوشه ، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان ، ووصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية ، ودخل (بلمة) عنوة بالسيف ، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجة.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارىٰ بقيادة (دونونة) في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس ، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين ، وأخذ ما في أيديهم من الغنائم[١].

أ ـ مجلس الشورىٰ الحربي:

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورىٰ من قادة الأندلس وأشياخ القبائل مرين ، وأمراء العرب ، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء ، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم ، وسمع أبو يوسف آراء الجميع ، وأخذ أجودها ، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو ، والصبر والثبات عند اللقاء ، والتطلع إلى معية الله وما عنده من الأجر والمثوبة للمجاهدين في سبيله ، وبينما هم كذلك إذ نظر الناسُ إلى طلائع النصارىٰ قد أقبلت نحوهم على بعد والرجال أمام الخيل «ودونونة» في وسط الجيش ، وكان ملك قشتالة حزمه بيده ، وزوجه ابنته ، وفوضه على جيوشه وحروبه ، وفوض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده ، وكان النصارىٰ قد سعدوا به؛ لأنه كان لم ينهزم قط ، وكان وبالاً ودماراً ومصيبة على بلاد الإسلام ، شديد الانتقام ، ولا يمل من القتل وسفك الدماء وسبى نساء المسلمين في كل الأوقات ، فأقبل في كبريائه وغروره تحت ظلال البنود وأصوات الأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد ، والرجال والرماة أمام الجيش كلهم قد شرعوا الحراب[٢] معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

ب ـ ترتيب أبي يوسف لجيشه:

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة ، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارىٰ ، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه ،

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ، ص ٤٥.
(٢) انظر: مصرع غرناطة ، ص ٤٦.

وصلىٰ ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة «اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها» فأجاب الله تعالى دعاءه ، ورحم تضرعه وابتهاله ، فلما فرغ من دعائه قام فاستوىٰ على جواده ، واستعد للقتال وجلاده ، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادىٰ على المسلمين فقال: «يا معشر المسلمين ، وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الذابون على حماه والمقاتلون عداه ، وهذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، له ما بعده ، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، وزينت حورها وأترابها ، فبادروا إليها ، وجدّوا في طلابها ، وابذلوا النفوس في أثمانها ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف ، ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١] فاغتنموا هذه التجارة الرابحة ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمن مات منكم مات شهيداً ، ومن عاش منكم رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً ، ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فلما سمعوا منه هذه المقالة ، تاقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضاً للوداع ، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلهم طابت نفسه بالموت ، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت ، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير ، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير ، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم»[(١)] .

فالتقى الجمعان ، والتحم القتال ، واشتد النزال ، وعظمت الأهوال ، وقسم (دونونة) جيوشه إلى خمسة أجزاء ، ليظهروا جموعاً متكاثرة ، فكانت تقبل بجموعها ، فيدفعهم المسلمون ، وتتلقاهم سيوف المجاهدين ، وحرابهم ، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان ، وقتل زعيم الإسبان (دونونة) كما قتل ولده ، وهزم جيشه ، وتكسرت أعلامه[(٢)] .

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي ص ٥٣٨ عن الذخيرة السنية ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢) انظر: سقوط غرناطة ، ص ٤٨ .

أبي يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزلاقة في زمن المرابطين ، وذكريات معركة الأرك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي ، وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة ، وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم ، وعاد إلى الجزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤ هـ ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس ، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاوينة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم(١) .

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الإسبان قرب إستاجة ، وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية :

١ ـ الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجئه العدو ؛ ولذلك عقد لواءً لابنه أبي يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ، ثم يكون هو على إثره .

٢ ـ إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا ينشغل بها المجاهدون ، وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم ، وبذلك تحاشىٰ الخطأ الذي وقع فيه المسلمون في معركة بلاط الشهداء ، وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ ، واستخراج الدروس والعبر من صفحاته الماضية .

٣ ـ صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده ، والتي ألهب فيها المشاعر ، وحرك بواعث الفداء ، ورغبهم في الشهادة ، فرفعت تلك الخطبة الصادقة معنويات جند المسلمين ، فجاهدوا صابرين محتسبين ، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ، ومهرت في الحروب وخططها .

٤ ـ باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه ، وقتل عدداً من الإسبان بيده ، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحدي ، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين .

٥ ـ أرسل أبو يوسف أعلام النصارىٰ المنكسة إلى أعلى منار (القرويين) ومنار

---

(١) انظر : التاريخ الأندلسي ، ص ٥٣٨ .

جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ، ولترتفع معنوياتهم ، وتتحطم هيبة النصارىٰ من نفوسهم[١] .

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً بهذه الأخبار السارة ، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم ، حيث أرسل ابن أشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني ، وفيه قصيدة من أبياتها :

هبت بنصركُمُ الرياح الأربعُ ... وسرت بسعدكُمُ النجوم الطُّلّعُ
وأتت لنصركم الملائكُ سُبقاً ... حتى أضاق بها الفضاء الأوسعُ
واستبشر الفلكُ الأثير تيقناً ... أن الأمور إلى مرادكَ ترجع[٢]
وأمدّك الرحمن بالفتح الذي ... ملأ البسيطة نورهُ المتشعشع
لم لا؟ وأنت بذلت في مرضاته ... نفساً تُفديها الخلائق أجمعُ
وأتيت تنصر دينه متوكلاً ... بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
أين المفر ولا فرار لهارب ... والأرض تنشر في يديك وتجمع
فلقد كسوت الدين عزّاً شامخاً ... ولبست منه أنت ما لا يُخلع
إن قيل من خير الملوك بأسرها ... فإليكَ يا يعقوب تومي الأصبعُ[٣]

ج ـ الغزوة الثانية :

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م ، وتوغل بجيشه في أرض قشتالة ؛ إلا أن النصارىٰ استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة ، وأن يكسبوه لجانبهم ، ودخل معهم في أحلاف ضرت المسلمين ، واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه ، واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة ، وعقد تحالفاً مع ملك قشتالة ، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال (طريف) مدخل الأندلس كلها ، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف .

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام ، فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة ، فامتنع عن تسليمها ، مع أن ابن الأحمر تنازل

(١) انظر : سقوط غرناطة ، ص ٥٠ .
(٢) إن الأمور مرادها ومرجعها إلى الله تعالى .
(٣) انظر : مصرع غرناطة ، ص ٥١ .

له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة ، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة ، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين ، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد ، فعاد يخطب ودّهم من جديد[١] ، فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين ، واعتذر عن مسلكه في شأن طريف ، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم ، وبقي ملك غرناطة على عهده مع المرينيين حتى توفي ـ محمد الفقيه ـ في شعبان سنة ٧٠١ هـ/ أيار (مايو) ١٣٠٢ م بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة[٢] .

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨ هـ ١٢٧٩ م ، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين ، ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور ـ عبوره الرابع ـ في صفر سنة ٦٨٤ هـ إلى الأندلس ، وجاهد في البر والبحر ، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم ، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفاوض السلطان المريني على ما يراه ، ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس[٣] .

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٥ م ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس.

هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عز وجل برحمته :

كان ـ رحمه الله ـ صواماً قواماً ، دائم الذكر ، كثير الفكر ، لا يزال في أكثر نهاره ذاكراً ، وفي أكثر ليله قائماً يصلي ، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته ، مكرماً للصالحين ، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين ، متواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين ، متوقفاً في سفك الدماء ، كريماً جواداً ، وكان مظفراً منصور الراية ، ميمون النقيبة ، لم تهزم له راية قط ، ولم يكسر له جيش ، ولم يغز قط عدواً

---

(١) انظر : مصرع غرناطة ، ص ٥٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : التاريخ الأندلسي ، ص ٥٤٠ .

إلا قهره ، ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمره ، ولا قصد بلداً إلا فتحه[١] .

ولا ننسىٰ أنه كان خطيباً يؤثر في نفوس جنده ، شجاعاً مقداماً ، يبدأ الحرب بنفسه ، عليه رحمة الله .

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين ، وأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي[٢] .

قال عنه ابن كثير في وفيات عام ٦٨٥ هـ: «أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب ، خرج على الواثق بالله أبي دبوس فسلبه الملك بنظام مراكش ، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء ، في سنة ثمان وستين وستمئة واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة ، وزالت على يديه دولة الموحدين بها»[٣] .

د ـ مشيخة الغزاة:

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم من مملكة قشتالة ، ولذلك رأت القيادتان المرينة والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها ، ليكونوا على أهبة الاستعداد من أجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس ، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة ، وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة ، وأطلق اسم شيخ الغزاة على زعيمها .

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة ، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣ هـ ، فكانت لأخيهِ أبي سعيد عثمان بن العلاء[٤] .

عن هذه المشيخة يذكر المقري في نفح الطيب أنه «لم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال ، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غُزاة ، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة ، ومواقف مشهورة ، وكان

---

(١) انظر : مصرع غرناطة ، ص ٥٥ .

(٢) انظر : المصدر السابق نفسه .

(٣) البداية والنهاية (١٣/ ٣٢٧) .

(٤) انظر : التاريخ الأندلسي ، ص ٥٤٠ .

عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة ، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة»(١).

توفي محمد «الثاني» الفقيه سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ؛ الذي خلع سنة ٧٠٨ هـ ليتولى الحكم أخوه نصر ، وبويع يوم الجمعة غرة شوال عام ٧٠٨ هـ.

وكان مجبولاً على طلب الهدنة محباً للعلم وأهله ، يخط التقاويم الصحيحة ، ويصنع بيديه الآلات الطريفة ، نازل طاغية قشتالة على الجزيرةِ الخضراء ، وطاغية أراغون في ثغر المرية ، فهزم النصارىٰ في المرية ، وانتصر عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصار طويل مضن دام حتى آخر عام ٧٠٩ هـ.

وفي عهد أخيه ، ثم في عهده حصل جفاءٌ وعداءٌ بينه وبين بني مرين حكام المغرب بواسطة جواسيس النصارىٰ المندسين بين المسلمين ، واستغل النصارى ذلك التنافر ، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق ، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم ، فثار الشعب في وجهه ، وكان أن خلع سنة ٧١٣ هـ ورشح الخارجون عليه للملك بدلاً عنه : أبا الوليد إسماعيل بن فرج ، وحفيده إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف ، رأس الأسرة النصرية ، ومؤسس دولتها(٢).

* * *

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك ، واستقرار الأمور ، وإحياء عهد الجهاد ، وحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارىٰ ، لكنهم نكلوا عن معاونتهم ، بسبب سوء تصرفات سابقيه ضدهم(٣).

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٣٨٥) نقلاً عن التاريخ الأندلسي ، ص ٥٤٠.
(٢) انظر : الأعلام للزركلي (٨/ ٢٨).
(٣) انظر : نهاية الأندلس ص ١١٧.

وفي أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة ، وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع ، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة ٧١٦ هـ ، واستولىٰ النصارىٰ على بعض القواعد والحصون[١] .

وفي سنة تسع عشرة وسبعمئة ألّب ملوك النصارىٰ على غرناطة ، وجاءها (دوق بطرة) في جيش لا يحصىٰ كثرةً ، وكان وصياً على الملك الصبي ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة ، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استئصال ما بقي من الملسمين بالأندلس ، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي (البابا) في طليطلة[١] وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليزية بقيادة أمير إنجليزي[٢] .

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف ، منهم ألف وخمسمئة فارس والباقي رجّالة. لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء[٣] ، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة ، لجؤوا إلى الله تعالى ، ودارت المعركة رغم التفاوت الكبير بين الجيشين ، وكان نصراً عزيزاً للمسلمين ، ويوماً مشهوداً. زاد عدد القتلىٰ في هذه المعركة على خمسين ألفاً ، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس ، وهلك الأمراء النصارىٰ جميعهم ، واستمر البيع في الأسرىٰ ، والأسلاب والدواب ستة أشهر ، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأىٰ صدق توجههم إليه[٤] .

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم ، فمما وصف به: «كان حسن الخُلُق ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقل ، ثبتاً في المواقف ، عفيف الإزار ، ناشئاً في حجرة الطهارة ، بعيداً عن الصبوة ، بريّاً من المعاقرة»[٥] .

وفي سنة ٧٢٤ هـ زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة ، وحاصرها بشدة ، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع

---

(١) انظر : ابن جزي ومنهجه في التفسير لعلي الزبيري (١/ ٥٦).
(٢) التاريخ الأندلسي ، ص ٥٤١ ، ٥٤٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٤٢ .
(٤) انظر : ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٥٧). بتصرف.
(٥) الإحاطة (١/ ٣٧٧) ، وقوله : برياً من المعاقرة أي : بعيداً عن شرب الخمر .

حتى استسلمت المدينة ، ونزل أهلها على حكمه[(١)].

وفي رجب عام خمسة وعشرين وسبعمئة دخل مرتش الحصينة التي تقع في جنوب غربي جيان عنوة ، وكانت من أعظم غزواته ، وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي ، والغنائم ، وعاد إلى غرناطة مكللاً بالنصر[(١)].

لكنه ما لبث سوىٰ ثلاثة أيام حتى قُتل بباب قصره غيلة من قبل ابن عم له تربص به ، وطعنه بخنجر له ، وهو بين وزرائه وحشمه ، فحمل جريحاً ، وتُوفي على إثر ذلك في اليوم التالي ، رحمه الله وتقبل شهادته[(٢)].

وفي عام ٧٣٣ هـ استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع تخليص جبل الفتح ـ أي جبل طارق ـ من أيدي النصارىٰ بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام ٧٠٩ هـ وكان للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني سلطان المغرب دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق ؛ الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين ، إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدوة المغربية[(٣)].

هـ ـ موقعة طريف :

وقد تجلىٰ تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرىٰ في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة ٧٤١ هـ من قبل النصارىٰ.

منذ أن استعاد الأندلسيون سنة ٧٣٣ هـ بمساعدة بني مرين ـ حكام المغرب ـ جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارىٰ أربعة وعشرين عاماً ـ إذ سقط في أيدي النصارىٰ سنة ٧٠٩ هـ ـ توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرىٰ.

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارىٰ يحدق بهم سارعوا إلى الاستنجاد بإخوتهم في الدين في العدوة المغربية من بني مرين ، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس.

وفي عهد أبي الحجاج يوسف [ولايته ٧٣٣ ـ ٧٥٥] كثرت غزوات النصارىٰ

---

(١) انظر : نهاية الأندلس ، ص ١٢٠.
(٢) المصدر السابق ، ص ١٢١.
(٣) انظر : ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٥٩).

لأراضي المسلمين ، وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة ، فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين ، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس ، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد ، فاجتاح أراضي النصارىٰ ، وحصل على غنائم لا تحصى ، غير أن النصارىٰ من قشتالة وأراغون والبرتغال كوّنوا أسطولاً بحرياً متحداً ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب ، وسارت قوىٰ النصارىٰ المتحدة للقاء المسلمين ، وبارك البابا هذه الحملة ، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي كان يقع بين حدود النصارىٰ وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك ، وهزم جيشهُ هزيمة منكرة ، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر ، فاحتسب عند الله ابنه ، وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة.

تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسىٰ سبتة تناهز المئة، فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجوار إلى الأندلس ، فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوّهم ، وخالطوهم في أساطيلهم ، واستلحموهم هبراً بالسيوف ، وطعناً بالرماح ، وألقوا أشلاءهم في اليم ، وقتلوا قائدهم ، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسىٰ سبتة[(١)]. ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه ، استأنف إجازة العساكر ، فانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة ، ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف ، وأناخ بها ، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس ، وأحاطوا بطريف ، وأنزلوا لها أنواع القتل ، ونصبوا عليها الآلات.

غير أن الطاغية جهّز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤن عن المعسكر ، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد ، ففنيت أزودتهم ، وافتقدوا العلوفات ؛ فوهن الظفر ، واختلت أحوال المعسكر ، وحشد الطاغية أمم النصرانية ، وظاهره البرتغاليون. وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً ، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة ٧٤١ هـ إلى أوائل شهر جمادىٰ الأولى من نفس العام ، ثم المكيدة التي دبرها لهم

---

(١) انظر : ابن خلدون (٧/ ٢٦١) نقلاً عن ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٢).

أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم[١].

وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي: «ولما قرب معسكرهم سرّب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارىٰ أكمنه بها ، فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين ، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم ، فثاروا بهم من مراصدهم ، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ، ولبّسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم. وتولىٰ السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس.

ولما نشبت الحرب برز الجيشُ الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر ، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ، ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا لحراسته فاستلحموهم ، ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن ، وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن ، واستلبوهن ، وانتهبوا سائر الفسطاط ، وأضرموا النار في المعسكر ، وأحسّ المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم ، وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به ، وتقبضوا عليه ، وولّى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين ، واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم[٢].

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب[٣]. يقول المقري في وصف هذه الفاجعة:

«فقضىٰ الله الذي لا مرد لما قدّره أن صارت تلك الجموع مكسرة ، ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً ، وأضحىٰ حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً.. وقتل جمع من أهل الإسلام ولمّة وافرة من الأعلام.. واشرأبّ العدو الكافر لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريف ، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف ، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء ، والأرزاء التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب ، وقرّت بذلك عيون الأعداء»[٤].

---

(١) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٣).
(٢) انظر: العبر لابن خلدون (٧/ ٢٦١ ، ٢٦٢) نقلاً عن ابن جزي (١/ ٧٤).
(٣) انظر: نهاية الأندلس ، ص ١٢٨.
(٤) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٤) نقلاً عن نفح الطيب (٦/ ٣١٧).

ويرىٰ الأستاذ نجيب زبيب اللبناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانةِ والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارىٰ ، ويرىٰ أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى: «فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب. وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية ، وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة ، ينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية ، حتى إنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين ، فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين.

وكثيراً ما حث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للإيقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة»[1] .

ولا شك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تدمر الأمم إذ لم يكن لها عمل مضاد ضد مخططات الأعداء؛ بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بنائها.

و ـ العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف:

١ ـ أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني ، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.

٢ ـ القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المالقي ، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» «كان حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء مجلاً لأهله مُطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صواله معروفاً بنصرة من أزر إليه. تقدم للمشيخة ببلدة مالقة ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ، ثم ولي القضاء بها فأعز الخُطة وترك الهوادة ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقاتِ حريصاً على الإفادةِ. ثم وُلي القضاء والخطابة بغرناطة»[2] .

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، الأستاذ نجيب زبيب (٣/ ٨١).
(٢) الإحاطة (٢/ ١٧٦ ـ ١٧٧).

«وتصدر لبثِّ العلم بالحضارة يقري فنوناً منه جمة فنفع وخرج ودرس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمل وخفض الجناح»(١).

واستمر على عمله من الاجتهادِ، والرغبة في الجهاد، إلى أن فقد ـ رحمه الله ـ في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرىٰ بظاهر طريف، شهيداً محرّضاً يشحذ البصائر و(يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

٢٣ ـ أبو القاسم محمد بن جُزَيّ، وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب المؤلفات. كان «فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جمّاعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته»(٢).

«فُقِد وهو يحرض الناس، ويشحذ بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف»(٣).

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذين كان همهم نصرة دين الله والموت في سبيل الله تعالى.

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مدّ وجزر، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة، أو أراجون حيناً آخر، ثم ما لبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة، وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات، وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارىٰ، وكان زمن سقوط دولة بني مرين ٨٦٩ هـ(٤).

---

(١) نفس المصدر (٢/ ١٧٧).
(٢) نفح الطيب (٥/ ٥١٤).
(٣) نفس المصدر (٥/ ٥١٤)، نقلاً عن التاريخ الأندلسي، ص ٥٤٧.
(٤) انظر: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٤).

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء ، حيث إن ملك غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعىٰ (ثريا) وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء ، وكانت كثيرة الدهاء والأطماع ؛ فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيى ولياً للعهد ، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد ، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة وولديها ، حتى أقنعته باعتقالهم جميعاً ، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زُجت عائشة الحرة مع ولديها ، وشدد الحجر عليهما ، وعُوملوا بمنتهىٰ الشدةِ والقسوةِ ، وانقسم المجتمعُ الغرناطي إلى فريقين:

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ ، وفريق آخر يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

لم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم ، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها ، وفي مقدمتهم بنو سراج ، وتمكنت من الهرب من قصر الحمراء في ليلة من ليالي جمادىٰ الثانية سنة ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقررت فرديناند وإيزابيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة ، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي ، وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة ، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً ، وتم لهم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها ، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يردّا معاً الإسبان في جمادىٰ الأولى ٨٨٧ هـ/ تموز (يوليه) ١٤٨٢ م.

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الأميرة الشرعية (عائشة الحرة) واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة ، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها ، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧ هـ ، وعمره ٢٥ سنة ، وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد ، وباشر القتال بنفسه ، وحقق انتصارات على النصارىٰ ، وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة

٨٨٨ هـ نيسان (إبريل) سنة ١٤٨٣ م إلا أنه وقع أسيراً في يد النصارىٰ في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل؛ ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليهِ من أجل فكِّ أسره، واستغل النصارىٰ قلة خبرة أبي عبد الله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولىٰ عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل، واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارىٰ إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدم أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة، وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله الصغير، بعد أن وقعه على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير، وأخذ يبث أبو عبد الله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب الأهلية قائمة في غرناطة، وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارىٰ في أواخر جمادىٰ الأولى ٨٩١ هـ/ أيار مايو ١٤٨٦ م، وكان موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً.

فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارىٰ.

وبقي يستظل بمظاهرته للنصارىٰ وتأييدهم له.

وأنه غدا آلة في يد ملك قشتالة يعمل بوحيه وتوجيهه، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبد الله الصغير ضد عمه، وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليهِ، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس، وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبد الله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في جمادى الثانية ٨٩٢ هـ/ حزيران (يونيه) ١٤٨٧ م، وخاف الزغل أن يسير إلى إنجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد الله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في أواخر شعبان

٨٩٢ هـ/آب أغسطس ١٤٧٨ م ونكث فرديناند بوعوده التي قطعها لأهل مالقة ، فغدر بهم ، واسترقهم جميعاً ، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين .

كانت مصر في تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي ، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية إلى البابا أنوصان الثامن ، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارىٰ في بلاد المسلمين في منتهىٰ الأمان والاطمئنان والحرية والحماية ، والمسلمون تسفك دماؤهم ، وتستحل حرمتهم ، وتغزا أراضيهم في الأندلس ، وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغير خطته وسياسته تجاه غرناطة ، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارىٰ في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل ، استقبل فرديناند السفيرين ، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف ، ولم يغير خطته ، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة : «أنهما ـ فرديناند وزوجته إيزابيلا ـ لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارىٰ ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاؤوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين ، فإنهم سوف يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية»[1] .

وفشلت المحاولة الدبلوماسية ، وتركت غرناطة تلاقي قضاءها المحتوم ، ولم ينفذ السلطان تهديده ، فلم يضطهد أحداً؛ لأن الإسلام لا يجيز له ذلك . وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند ، فسقطت المرية في عام ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية ، وأهمها :

١ ـ أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم .

٢ ـ تخفف عنهم أعباء الضرائب .

٣ ـ ألا يولى عليهم يهودي .

٤ ـ ألا يدخل نصراني في الجماعة الإسلامية .

٥ ـ أن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات النصارىٰ الدين الذي يريدون عند البلوغ . وغيرها من الشروط ؛ إلا أن النصارىٰ لا يلتزمون بشيء من ذلك ، بل يسبون النساء ، ويسترقون الرجال ، ويغتصبون الأموال .

---

(١) نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين ، ص ٣٦٩ .

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب ، حيث كانت تفد بعض المتطوعة ، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي[١] .

وتطور سير الأحداث ، وخضع أبو عبد الله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته ، وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة ، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين ، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب ، ونزل وهران ، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس .

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارىٰ[٢] .

في سنة ٨٩٥ هـ/ ١٤٩٠ م ، أرسل الملكان الكاثوليكيان ـ فرديناند وزوجته إيزابيلا ـ وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير ، فثارت نفس أبي عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة ، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر ، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه ، فرفض الانقياد والخضوع ، وقرر المقاومة ، وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠ ـ ٨٠ ألفاً ، مع مدافع وعُدد ضخمة ، وذخائر وأقوات ، وعسكر على ضفاف نهر سنيل على مقربة من غرناطة في ١٢ جمادىٰ الثانية سنة ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١ م ، وأتلف الزروع والحقول والقرىٰ كي لا تمد غرناطة بأي طعام ، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق ، وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها .

لقد استبسل المسلمون ، وتحملوا الحصار ، بل خرجوا لقتال العدو المحاصر ، وأفسدوا عليه خططه وتدابيره .

وظهر في تلك المقاومة موسىٰ بن أبي غسان ، والذي قرر الموت دون الاستسلام ، ومن أقواله في ذلك: «ليعلم ملك النصارىٰ أن العربي قد ولد للجواد والرمح ، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها ، وليكسبها غالية ، أما أنا فخير لي قبر

---

(١) انظر : مصرع غرناطة ص ٧٢ ـ ٧٧ .

(٢) انظر : مصرع غرناطة ص ٧٧ .

تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه ، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين»[١] .

وتولىٰ موسىٰ قيادة الفرسان المسلمين ، يعاونه نعيم بن رضوان ، ومحمد بن زائدة ، وتولىٰ آل الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة الحمراء حماية الحصون.

وحل الشتاء ، وقلت المؤن والذخائر ، ودخل الوزير المسؤول عن غرناطة (أبو القاسم عبد الملك) مجلس أبي عبد الله الصغير ، وقال: إن المؤن الباقية لا تكفي إلا لأمد قصير ، وإن اليأس قد دب إلى قلوب الجند والعامة ، والدفاع عبث لا يجدي.

ولكن موسىٰ بن أبي غسان قرر الدفاع ما أمكن ، فقال للفرسان: «لم يبق لنا سوىٰ الأرض التي نقف عليها ، فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن»[٢] .

واستمر الحصار سبعة أشهر ، واشتد الجوع والحرمان والمرض ، وأعيد تقويم الموقف في بهو الحمراء ، فأقر الملأ التسليم إلا موسىٰ بن أبي غسان الذي قال بحزم: «لم تنضب كل مواردنا بعد . . . ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة ، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة ؛ من أن أحصىٰ بين الذين شهدوا تسليمها»[٣] .

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناساً انهزموا في داخلهم ، وخارت عزائمهم ، وضعفت معنوياتهم ، فقرروا المفاوضة والتسليم ، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك[٤] ، جاء في نفح الطيب: «وفي ثاني ربيع الأول من السنة ـ أعني سنة سبع وتسعين وثمانمئة ـ استولىٰ النصارىٰ على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمئة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين ، منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال ، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنها إقامة

(١) انظر: مصرع غرناطة ص ٨١.
(٢) انظر: المصدر السابق ، ص ٨٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ، ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٤) انظر: سقوط غرناطة ص ٨٣.

شريعتهم على ما كانت ، ولا يحكم على أحد منهم إلا شريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارىٰ دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولىٰ على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولىٰ عليهم من قبل سلطانهم ، وأن يفك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نص عليهم ، ومن هرب من أسارىٰ المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومن أراد الجواز للعُدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارىٰ ودينهم ، وأن من تنصر من المسلمين يُوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارىٰ ، فإن أبىٰ الرجوع إلى الإسلام تمادىٰ على ما أراد ، ولا يعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارىٰ أيام العداوة ، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين ، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم ، ويسير المسلم في بلاد النصارىٰ آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهودي وأهل الدجن[١] .

ولا يمنع مؤذن ولا مُصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منهم يُعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده» ويقول المقري بعد هذا: «وأمثال هذا مما تركنا ذكره» من الشروط[٢] .

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان: «وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة ، لو أخلص النصارىٰ في عهودهم ، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم ، ولما أنسىٰ فرديناند وإيزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم ، أو حيث شاؤوا ، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا ، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى

---

(١) المدجنون: هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الإسبان .

(٢) نفح الطيب (٦/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨) نقلاً عن سقوط غرناطة ، ص ٨٣ .

المغرب ، ولكن سوف نرىٰ أن الأيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارىٰ سوىٰ ستار للخيانة والغدر ، وأن هذه الشروط الخلابة نُقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة ، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدىٰ الغدر الإسباني فيما تلا من العصور»[١] . وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسىٰ بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليوقعوا على قرار التسليم وقال: «اتركوا العويل للنساء والأطفال ، فنحن رجال لنا قلوب لم تُخلق لإرسال الدمع ، ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرىٰ روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ، وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه ، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته ، فإنه لن يعدم سماء تغطيه ، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها»[٢] .

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء ، واليأس ماثل في الوجوه ، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة ، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير : «الله أكبر . . لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا راد لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً ، وأن يذهب الملك على يدي»[٣] ، وصاح من حوله على : «الله أكبر ولا راد لقضاء الله» . وقرروا جميعاً التسليم ، وأن شروط النصارىٰ أفضل ما يمكن الحصول عليه .

نهض موسىٰ بن أبي غسان وصاح : «لا تخدعوا أنفسكم ، ولا تظنوا أن النصارىٰ سيوفون بعهدهم ، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، إن الموت أقل ما نخشىٰ ، فأمامنا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدها ، تخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا ، وأمامنا الجور الفاحش ، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال ، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق ، وهذا ما سوف نعاني من مصائب الموت الشريف ، أما أنا فوالله لن أراه»[٤] ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى .

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسىٰ بن أبي غسان فقال :

---

(١) نقلاً عن مصرع غرناطة ص ٨٥ .

(٢) انظر : مصرع غرناطة ، ص ٨٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) المصدر السابق نفسه .

أنـــا لـــن أقــــرّ وثيقـــة فـــرضـــت وأخضـــع للعـــدا
مـــا كـــان عـــذري إن جبنـــت وخفـــت أسبـــاب الـــردىٰ
والمـــوت حـــق فـــي الـــرقـــاب أطـــال أم قصـــر المـــدىٰ
إنـــي رسمـــتُ نهـــايتـــي بيـــدي ولـــن أتـــرددا
كنـــت الحســـام لأمتـــي واليـــوم للـــوطـــن الفـــدىٰ
أنـــا لـــن أعيـــش العمـــر عبـــداً بـــل ســـأقضـــي سيـــدا[(١)]

ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ، كانون الثاني (يناير) سنة ١٤٩٢ م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارىٰ الإسبان القشتاليون من تل الرحىٰ صاعدين نحو الحمراء؛ حتى تقدم عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار، وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: «هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة، وتسلم القصور ـ قصوري ـ باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القدر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين»[(٢)].

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب. وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه، وكانت الحاشيةُ منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين، وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور، وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء[(٣)] وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعاً لمدينته

---

(١) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، ص ٦٥.
(٢) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٤).
(٣) نفس المصدر السابق (٣/ ١٢٥).

وملكه ، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة ، فصاحت به أمه عائشة الحرة: «ابك مثل النساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال».

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة ، وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة: «ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي ، وتساقطت الدموع من عيني أسىً وخشوعاً وتهيباً من عظمتها ؛ لأنها أصبحت كلمة تاريخية ، لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة»[(١)].

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكرالله باكياً هل يرد الدمع مجداً ثوىٰ وعاراً أقاما
هدّني فوق خطبنا أنك ابني يا لأم تسقىٰ العذاب تؤاما
لم تصن كالرجال ملكاً فأمسىٰ ركنه اندك فابكه كالأيامىٰ[(٢)]

يقول المؤرخ عنان: «وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة ، وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير الإعجاب والاحترام والأسى والشجىٰ قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية»[(٣)].

إن لبعض النساء مواقف مشرفة في تاريخ الأندلس الجهادي تصلح نبراساً لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا ، وما قصة عائشة الحرة مع ابنها إلا واحدة منها[(٤)].

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى الغرب مع أسرته وأمواله ، ونزل مدينة مليلة ، ثم استقر في فاس[(٥)] ، مستجيراً بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس ، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ، ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله العربي العُقيلي ، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ، ومنها في مطلعها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعياً لما مثله يُرعى من الذمم

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧).
(٢) انظر: سقوط الأندلس ص ٧٠.
(٣) نهاية الأندلس بتصرف ، ص ١٩٧ ، نقلاً عن سقوط الأندلس ص ٦٩.
(٤) انظر: سقوط الأندلس ، ص ٧٠.
(٥) نفح الطيب (٦/ ٢٧٨). نقلاً عن سقوط غرناطة ص ٩٦.

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليهِ جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتى لا مردَّ له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاكَ الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهامٌ للردىٰ صبب ... يرمي بأفجع حتف من بهن رُمي
فلا تم تحت ظل الملك نومتنا ... وأي ملك بظلّ الملك لم ينم
يبكي عليه الذي قد كان يعرضه ... بأدمع مزجت أمواهها بدم[١]

ومرت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً في نفوس المسلمين، وأسدل ستارٌ من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المتنصرين (أو الموريسكيين) لم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحُرق من بقي منهم، وزاد الكردينال (كمينسس) على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني وأحرقها[٢]، لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في إسبانيا، وأنىٰ هذا له؟! وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور، وإن للإسلام جولة وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا، وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة، وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

رابعاً: محاكم التفتيش:

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت

---

(١) انظر: نفح الطيب (٦/ ٦١٨ ـ ٦٨٨).
(٢) انظر: سقوط غرناطة ص ٩٨.

على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ، ولما رفض المسلمون عقائد النصارىٰ ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه ، اعتبرهم نصارىٰ الإسبان ثواراً وعملاءً لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية ، وبدأ القتل فيهم ، وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات ، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة. وفي تموز (يوليه) ١٥٠١ م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته: «أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة ، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال».

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ، ومن بقي من المسلمين أخفىٰ إسلامهُ وأظهر تنصره ، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع ، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه ، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة ، تغصّ بالحشرات والجرذان ، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم ، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب: إملاء البطن بالماء حتى الاختناق ، وربط يدي المتهم وراء ظهره ، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه ، والأسياخ المحمية ، وسحق العظام بآلات ضاغطة ، وتمزيق الأرجل ، وفسخ الفك. . ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر ، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه[١].

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة ، وهو إما سجن مؤبد ، أو مصادرة أموال وتهجير ، أو إعدام حرقاً ، وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق[٢].

ومما يذكر. . أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها ، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها ، وهي على هذه الحالة السيئة ، ولا يمكنها الحراك ، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية ، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لا سيما إذا أرخىٰ الليل سدوله ،

---

(١) انظر: محاكم التفتيش ، ص ٩١ ، نقلاً عن سقوط غرناطة ، ص ١٠٠.

(٢) انظر: سقوط غرناطة ص ١٠٠.

وتترك المسكينةُ على هذه الحال إلى أن تجن ، أو تموت جوعاً ورعباً[١] .

لقد قام النصارىٰ بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم ، وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول : «لا إله إلا الله محمد رسول الله . إلا من يقولها في قلبه ، وفي خفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بدل الأذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم تشتعل ناراً ، ودموعهم تسيلُ سيلاً غزيراً ، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمور التي هي أم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، فيا لها من فجيعة ما أمرها! ومصيبة ما أعظمها! وطامة ما أكبرها»[٢] .

«وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلىٰ هذا فليبك الباكون ، ولينتحب المنتحبون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً»[٣] .

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب .

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة ، تقشعر لها القلوب والأبدان .

فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعةِ يصدر في حقه حكمٌ بالموت ، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام .

لقد تابع النصارىٰ الصليبيون المسلمين ، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك ؛ فليعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته[٤] .

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتىٰ والغائبين ،

---

(١) انظر : محاكم التفتيش ص ٩٣ . نقلاً عن سقوط غرناطة ، ص ١٠٩ .
(٢) انظر : نهاية الأندلس ، ص ٣٢١ ، نقلاً عن سقوط الأندلس ص ٧٢ .
(٣) انظر : سقوط الأندلس ص ٧٢ .
(٤) انظر : سقوط الأندلس ص ١٠ .

وتصدر الأحكام في حقهم، وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، فتصادر أموالهم، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب (الأوتودافي) وكذلك يتعدىٰ أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده، فيقضىٰ بحرمانهم من تولي الوظائف العامة، وامتهان بعض المهن الخاصة[١].

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة، وتحمي أشخاصهم، وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف، وسوء استعمال السلطة والقبض على الأبرياء، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة، وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته، وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد، هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعاً لها؛ ولأنه كان يرىٰ فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم، وترىٰ فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر، وأدرك الموريسكيين، وعاش بينهم حيناً في غرناطة: «وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد، فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف، وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم، وفي يوم الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عُمد أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار، ويسمون أولادهم

(١) انظر: ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرىٰ لمحمد عبد الله عنان ص ٢٤/ ٣٢ نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٢).

بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنسية بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية»[١]. وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم، كيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية، ويلتمسون من جهة أخرىٰ سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم، وتشفع لهم لدىٰ ربهم[٢].

خامساً: فتاوىٰ هامة:

وهذه الفتاوىٰ عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أُكْرِهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يعاون اتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة، وكان تاريخ هذه الرسالة سنة ٩١٠ هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٥٠٤ م.

وهذا نص الفتاوىٰ:

(الحمدُ لله والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق؛ وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عُبَيْدَاً للهِ تعالى أحمد بن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني، كان اللهُ للجميعِ بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجَاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم، إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبىٰ للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذاكر الله بين الغافلين كالحي بين

---

(١) أي: الأحكام الإسلامية.

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٣).

الموتىٰ ، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع ، وأن الملك ملك الله ما اتخذ اللهُ من ولد ، وما كان معهُ من إله ، فاعبدوه واصطبروا لعبادته ، فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء ، لأن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار ، وتسقط في الحكم طهارة الماء وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان ، فإذا لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به ، فاقصدوا بالإيماء». نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله ﷺ: «فائتوا منه ما استطعتم». وإن أكرهوكم في وقت صلاة السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية ، وانووا صلاتكم المشروعة ، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام ، إن أجبروكم على شرب الخمر ، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إذا أكرهوكم على محرّم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب ، وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه ، وأنكم ناكرين لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغيرتموه. وكذا إن أكرهوكم على رباً أو حرامٍ فافعلوا منكرين بقلوبكم ، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي إن تبتم للهِ تعالى ، وإن أكرهوكم على كلمة الكفرِ فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمانِ إن نطقتم بها ناكرين لذلك ، وإن قالوا: فاشتموا محمداً فإنهم يقولون له مُمَدْ ، اشتموا مُمداً ، وناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه ، وإن قالوا عيسىٰ توفي بالصليب فانووا من التوفية الكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه ، وإنشاد ذكره ، وإظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو. وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسألُ الله أن يديل الكرة للإسلامِ حتى تعبدوا اللهَ ظاهراً بحول اللهِ من غير محنةٍ ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام. ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ

غرة رجب عام عشرة وتسعمئة عرف الله خبره. يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى»[١].

سادساً: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية:

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة[٢]:

«يعتبر الموريكسي»[٣] أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال أن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسول. أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية. ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح. وأن يحتفل يوم الجمعةِ بأن يرتدي ثياباً نظيفةً أنظف من ثيابه العادية. أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تبح، أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول: إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر. أو يقوم بالوضوء والصلاة، بأن يوجه وجهه نحو المشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن. أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية. أو ينشد الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقا العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب على أيديهن أو شعورهنّ، أو يتبعَ قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد، أو يغسل الموتىٰ، ويكفنهم

---

(١) هذه الفتاوىٰ عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان برومة. انظر الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١/ ٢٢٥).

(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٦).

(٣) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية.

في أثواب جديدة ، أو يدفنهم في أرض بكر .

أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء ، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبي ورسول الله . أو يقول : أن الكعبة أول معابد الله أو يقول أنه لم يُنصَّر إيماناً بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده غنموا رحمة الله؛ لأنهم ماتوا مسلمين»[١] .

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في هذه الديار الإسلامية والعربية ، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة حياتهم ، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والعدل والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد استمرت محاكم التفتيش قروناً عدة ، وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماً سنة ١٨١٨ م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا ، ولكن رهبان (الجزويت) أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب ، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين ، فأرسل المريشال (سولت) الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل (ليمونكي) مع ألف جندي وأربعة مدافع ، وهاجم دير الديوان ، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء ، فقرر الكولونيل (ليمونكي) فحص الأرض ، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة ، أمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة ، فرفعت ، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة ، ففعلوا . فإذا الماء يتسرب إلى أسفل إحدى الغرف ، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس . وفتح الباب بقحوف البنادق ، واصفرت وجوه الرهبان وكستها غبرة . وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ، ونزل القائد الكولونيل وجنده . ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي[٢] :

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة ، وهي عندهم قاعة المحكمة ، وفي وسطها عمود من الرخام ، به حلقة حديدية ضخمة ، ربطت بها سلاسل ، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة ، وأمام العمود عرش (الدينونة) كما يسمونه ، وهو عبارة

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (٢٢٦ ـ ٢٢٧).

(٢) انظر : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، لمحمد الغزالي نقلاً عن مصرع غرناطة .

عن (دكة) عالية يجلس عليها رئيس الديوان[١] ، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ، ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب ، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي ، ويدعوني إلى التقزز ما حييت: رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان ، بعضها عمودي وبعضها أفقي ، فيبقى سجين الأفقية ممداً بها حتى يموت ، وتبقىٰ الجثةُ في السجن الضيق حتى تبلى ، ويتساقط اللحم عن العظم ، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية ؛ تفتح كوة صغيرة إلى الخارج ، وقد عثرنا على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً ، تختلفُ أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين ، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم ، وهم على آخر رمق من الحياة ، وكان فيهم من جُن لكثرة ما لاقىٰ من عذاب ، وكان السجناء عرايا زيادة النكاية بهم ، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ، ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان ، عثرنا على آلات لتكسير العظام ، وسحق الجسم ، وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل ، ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، وذلك كله في سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم ، فيخرج إلى الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً ، يوضع فيه الرأسُ المُعذب ، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوىٰ على الحركة ، وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جُن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب ، قبل أن يحملوا به على الاعتراف ، ويبقىٰ المعذب على حاله تلك حتى يموت[٢].

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمىٰ السيدة الجميلة ، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة ،

---

(١) رئيس ديوان محكمة التفتيش.

(٢) انظر: مصرع غرناطة ، ص ١١٢.

ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره ، فإذا أغلق مُزق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان ، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناسُ بأعينهم وسائل التعذيب جُن جنونهم ، وانطلقوا ـ كمن به مس ـ فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير ، فدُقت عظامه دقاً ، وسحقتها سحقاً.

وأمسكوا أمين سره ، وزفوه إلى السيدة جميلة ، وأطبقوا عليهما الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق ، ثم أخرجوا الجثتين ، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك(١).

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض؛ ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة المتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنىٰ مشاعر وأحاسيس الإنسانية ، وانقادوا إلى حزب الشيطان اللعين.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً:

١ ـ **تفتيت كيان الشمال الإفريقي** بعد سقوط دولة الموحدين ، حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس ، إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

٢ ـ **سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد** ، وتم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندو) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون ، وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد ، ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان ، وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلياً على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس(٢).

٣ ـ **الانغماس في الشهوات** ، والركون إلى الدعة والترف ، وعدم إعداد الأمة للجهاد.

---

(١) انظر: مصرع غرناطة ، ص ٩٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: «العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بهـا ، وأصبحـوا علـى قلـب متقلـب يميـل إلـى الخفـة والمـرح والاسـترسـال بالشهوات»(١) .

أما شوقي أبو خليل فيقول: «والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم ، وناموا في ظل ظليل من الغنىٰ والحياة العابثة ، والمجون ، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر ، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل ، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم ، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية ، وغدا التهتك والإغراق في المجون ، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلىء ، هو الصورة العامة .

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون ، وبحث الناسُ عن اللذة في مختلف وصورها ، فكانت الخمور والقيان والمتع ، وأقبلوا على الحياة يعبّون في بحرها ويسكرون بعطرها ، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة ، والجواري الشاديات ، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون ، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد ، أو يتكون منهم جيش قوي كفء للحرب والمصاولة»(٢) .

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات المعارك والقتال ، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متعبة بينهم ، وقفْ عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخون أن وفاة ابن هود عام ٦٣٥ هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود ، فدبر له مكيدة قتل بها .

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ؟(٣) دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور (الله أكبر) وبقينا فيها زمناً ، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال: «إني

(١) انظر: المصدر السابق ، ص ٩٤ .
(٢) مصرع غرناطة ، ص ٩٤ .
(٣) انظر: سقوط الأندلس ، ص ٢٩ .

محتاج لما يزيد في عقلي ما لا ينقصه»[١].

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: «كانت غيرةُ هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم، أشربت نفوسهم حُبه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم»[٢].

وضاعت ممالك الأندلس من أيدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاده الفاتحين:

دوزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا[٣]

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦ هـ خرج أهلها للقائم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلىٰ:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا[٤]

٤ ـ **الاختلاف والتفرق بين المسلمين**: ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبد الواد والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيعاً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين؛ بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارىٰ ضد إخوانهم في العقيدةِ من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف، وبل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبددٌ فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في دينكم وتركتموه للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد[٥]

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل،

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٧.
(٢) انظر: المصدر السابق، ص ٢١١.
(٣) انظر: عوامل النصر والهزيمة لشوقي أبو خليل، ص ١٢٣.
(٤) انظر: فقه التمكين عند دولة المرابطين، لعلي محمد الصلابي، ص ٩٠.
(٥) انظر: سقوط الأندلس، ص ٣٣.

وجعل سبحانه وتعالىٰ من أسباب هلاك الأمم الاختلاف ، وقال النبي ﷺ في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» وفي رواية «فأهلكوا»[(١)].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: «فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف»[(٢)].

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[(٣)].

وقال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ، ونهانا عن التفرق والاختلاف»[(٤)].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم ، وهو الذي يؤدي إلى تفريقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد بطلان ما عند الطرف الآخر ، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[(٥)].

«وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ؛ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتىٰ مما يضعف الأمة؛ لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة ، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها ، فيطمع فيهاجمها ، ويحتل أراضيها ، ويستولي عليها ، ويستعبدها ، ويمسخ شخصيتها ، وفي ذلك انقراضها وهلاكها»[(٦)].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقىٰ الهلاك بتوقي الاختـلاف المذموم ، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها ، وإن أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الحركات

---

(١) صحيح البخاري بشرح ابن حجر (٩/ ١٠١ ـ ١٠٢).
(٢) المصدر السابق (٩/ ١٠٢).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١١٦).
(٥) انظر: السنن الإلهية ، د. عبد الكريم زيدان ، ص ١٣٩.
(٦) انظر: السنن الإلهية ، ص ١٣٩.

الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى ، وهذا الخلاف قد يؤدي إلى ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: «والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها؛ ولهذا كان شر ما تبتلىٰ به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتىٰ ، بحيث ترىٰ كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال ، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة. وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق ، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفرق في أعين المتفرقين المختلفين ، فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة ، وإنما يضعف تأثيرها في الناس ، وتجعل المغرضين ينفثون باطلهم في الناسِ ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام ، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع ، وينهىٰ عن الاختلاف ، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها ، كل فرقة تعيب الأخرى ، وتدعي أنها وحدها على حق ، ثم يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها ، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول»[(١)].

٥ ـ **موالاة النصارىٰ والثقة بهم** والتحالف معهم ، حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارىٰ إلى أن بلغ ذروة رهيبة ، واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء ، والحب في الله والبغض في الله ، بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها ، وتنحرف عن طريقه ، فلا بد أن يحل بها سخطه ، وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) السنن الإلهية ، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ. . .﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء فقال: «أوثق عرا الإيمان: الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله»[(١)].

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»[(٢)].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة، ويطلب منه الصلح، ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف، وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارىٰ ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام، فهل يؤمن الذئب على الغنم!![(٣)].

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان، ويعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارىٰ من قتل وجراح، ولما سقطت مالقة وحوّل مسجدها الأعظم إلى كنيسة ـ ردّه اللهُ إلى أصله ـ أرسل أبو عبد الله الصغير إلى ملك النصارىٰ يهنئه في ذلك، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارىٰ على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارىٰ في ذلك عناءً يذكر!

وهل شكر النصارىٰ لهذا المتخاذل خذلانه؟ لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقري ـ رحمه الله ـ: «ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٨٦).
(٢) البخاري مع الفتح، كتاب الرقائق، رقم ٦٥٠١.
(٣) سقوط الأندلس، ص ٢٤.

فاس ـ حرسها الله ـ وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤال ، بعد الملك الطويل العريض ، فسبحان المعز المذل ، المانح المانع لا إله إلا هو»[١].

٦ ـ التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث رسول الله ﷺ في تلك المرحلة معطلة ، كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[٢].

وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً»[٣].

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصرة ما تبقىٰ من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم ، وانشغالهم ببعضهم ، وأنهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة وإليك ما حدث في طليطلة:

قال د. عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

«قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الإفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها ، التي لو أدىٰ بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير ، ولحموها وحموا أنفسهم ، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته ، وكأن الأندلس وجدت لمنفعة وليتربع على كرسي حكم ، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد»[٤].

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي (٦٢٧ ـ ٦٥٥ هـ) ، وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً ، تنقلب خارطة الأندلس ، ويتمكن منها عبّاد الصليب ، وتصبح معظم الأندلس أرضاً نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك من أجل سحقه ومحوه من الوجود.

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (٦٧ ـ ٦٨).
(٢) البخاري مع الفتح ، كتاب المظالم ، رقم ٥٤٤٢ (٥/ ١١٦).
(٣) المصدر السابق ، كتاب المظالم ، رقم ٢٤٤٦ (٥/ ١١٧).
(٤) انظر: التاريخ الأندلسي ، ص ٣٣٢.

يقول المقري في «نفح الطيب» واصفاً استعداد النصارىٰ لإحدى المعارك: «وجاء الطاغية دون بطء في جيش لا يحصىٰ ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك»[١].

ويقول جوستاف لوبون (في حضارة العرب): إن الراهب بليدا أبدىٰ ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية[٢].

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارىٰ كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فأهلك عليه أسىً ولا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسُجد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدي
كم من عقيلة معشر معقولةٍ ... فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقيّ بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيّد
ضجّت ملائكة السماء لحالهم ... وبكىٰ لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردىً أو من ردي[٣]
أفلا تراعون الأذمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر تتقلد
يا حسرتي لحمية الإسلام قد ... خمدت وكانت قبل ذلك توقد[٤]

٧ـ غدر النصارىٰ ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارىٰ عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلى القليل النادر، فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم، وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[٥].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا

---

(١) نفح الطيب (١/ ٤٤٩، ٤٥٠) نقلاً عن سقوط الأندلس، ص ٤٥.
(٢) انظر: عوامل النصر والهزيمة، ص ١٢١.
(٣) انظر: سقوط الأندلس، ص ٤٦.
(٤) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٦٣).
(٥) سقوط الأندلس، ص ٤٠.

ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

لقد سطر النصارىٰ في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء، وهتك الأعراض، وقتل النفوس، وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لقد استماتت النصارىٰ في حروبهم مع المسلمين، فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً، وكان من أكبر المجرمين ملك النصارىٰ الذي أشرف على هذه المخططات، وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة، واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم، وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

٨ ـ إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية، ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب، كانت كلمة الأمة واحدة خليفتهم واحداً، وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[1]

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارىٰ فيمكنوهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه»[2].

---

(١) سقوط الأندلس، ص ٣١.

(٢) مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٦).

فبعد أن كانت دولة واحدة ، أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها.

يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: «وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء ، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر ، وهانت لديهم مصالح الأمة ، وتركت دون مصالحهم الذاتية ، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُّلطة ، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيّعوا من الحظ الخُلقي المسلم ، انحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته»[١].

٩ ـ عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين ، وتصدىٰ أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: «فرفع صوته بالاحتساب ومشىٰ بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن آل فرعون ، ولكنه لم يصادف آذان واعية؛ لأنه نفخ في عظام ناخرة ، وعطف على أطلال دائرة ، بيد أنه كان كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه في التنافس والتقريب ،وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته ، وما كان أفطن الفقيه ـ رحمه الله ـ بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم ، لكنه كان يرجو حالاً تثوب ، ومذنباً يتوب»[٢].

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس ، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمةِ ، ودخلوا في معارك فرعية ، وبالغوا فيها حين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم ، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة[٣] بالفقه المذهبي وفروعه ، ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها ، وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم ـ رحمه الله ـ «ولا يغرنك الفُساقُ والمنتسبون إلى

(١) التاريخ الأندلسي ، ص ٣٢٥.
(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٣) سقوط الأندلس ، ص ٣٥.

الفقهِ ، اللابسون جلود الضأنِ على قلوب السباعِ ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم»[١] .

١٠ ـ الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارىٰ والطاعة لهم :

«ففي عام ٦٤٣ هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته ، وأن يؤدي له جزية سنوية ، قدرها مئة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه!! فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك ، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش ، وسلّم ابن الأحمر جيّان ، وأرجونة ، وبركونة ، وبيغ والحجاز وقلعة جابر للنصارىٰ»[٢] .

ولما حاصر النصارىٰ إشبيلية في جمادىٰ الأولىٰ عام ٦٤٥ هـ ، قدّم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدىٰ المسلمون من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية ، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً ، فاضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم ، وفي أوائل رمضان ٦٤٦ هـ دخل فرناندو الثالث إشبيلية ، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأُزيلت معالم الإسلام منها بسرعة[٣] .

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم ، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون ، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس   فما المقام بها إلا من الغلط
السلك يُنثر من أطرافه وأرىٰ   سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه   كيف النجاة مع الحيات في سفط[٤]

١١ ـ سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات :

ظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس ، منها تولية صغار

(١) مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٣) .
(٢) نهاية الأندلس ، ص ٤٣ ، نقلاً عن سقوط الأندلس ، ص ٢٢ .
(٣) انظر : سقوط الأندلس ، ص ٢٢ .
(٤) نفح الطيب (٤/ ٣٥٢) نقلاً عن سقوط الأندلس ، ص ٤٩ .

السن الولاية ، وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ، ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورىٰ ، ومنها تخوين الأمين ، وتأمين الخؤون ، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور ، و تمثل ذلك في صور عدة منها: إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس التي ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: «ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم ، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة ، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاءً لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه ، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس ، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر»[(١)] .

وترتب على هذه السياسات الظالمة ، والمظاهر المنحرفة ، والمظالم المتعدية ، والجور المنتشر: اضطرابات وفتن وصراعات كثيرة ، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام ٦٣٥ هـ وعام ٨٩٣ هـ من قبل تسعة وعشرين حاكماً ، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة شهور وبعضهم سنة أو سنتين ، لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدماً عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين ، ولذلكَ غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادئ والمثل والقيم[(٢)] .

١٢ ـ الثورات الداخلية في الأندلس:

وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة ، ومنها قيام بعض النصارىٰ الذين أخفوا مسيحيتهم وأظهروا الإسلام ، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك النصارىٰ ، ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس ، وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي ، ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون ، والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى ، ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبة في إفريقية ، ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية عام ٨٩٩ م ، واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية ، وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين ، وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين ؛ إلى أن جاء الخليفة الأموي

---

(١) التاريخ الأندلسي ، ص ٣٦٨.

(٢) انظر: سقوط الأندلس ، ص ٥١ .

عبد الرحمن الثالث الناصر ، وكان شجاعاً حازماً ، فواصل الفتوحات ، وطالت مدته في الحكم «نصف قرن» فكانت أول مدينة استسلمت له إستجة ، ثم لحقت بها مدينة ألبيرة ، كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت «أرخدونة» أن تدفع الجزية ، ورضخت إشبيلية لقوات عبد الرحمن في ٩١٣ م وأخضع «ريه» التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركات عدائية ضد الإسلام في الأندلس ٣٧ عاماً ، وحاصر طليطلة سنة ٩٣٢ م واستسلمت له ، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس ، فملوك النصارىٰ في الشمال لا يكلون ولا يملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام ، والدولة العبيدية الرافضية في إفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس ، وأرسلت الدعاة ، وأسسوا حزباً عبيدياً رافضياً في الأندلس ، وتستروا بالطرق الصوفية ، وقاومهم عبد الرحمن الثالث ، واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس ، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارىٰ في الأندلس ، ولكن للهِ في خلقه شؤون[1] .

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات ، وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية ، وزوال الإسلام منها .

ولقد اكتشفت مخابرات دول المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بني المسلمين ، والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارىٰ ، فاستفتىٰ السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء ، فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كانت بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية ، وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية ، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارىٰ ، فأعمل في بعضهم السيف ، ونفى من تبقى منهم إلى المغرب ، لقد أثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارىٰ القشتالي ، وغيره من ملوك القوط ، ولم

---

(١) انظر : ابن عذارى (٤٧/١) نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٢٦٢/٣ ـ ٢٦٧) .

تعط مخابرات دولة المرابطين أدنىٰ فرصة لهؤلاء المندسين[(١)].

ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس:

١ ـ إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم. قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

٢ ـ لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة، فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاباً بالقلق والحيرة والخوف والجبن، يحسب كل صيحة عليه، يخشىٰ من النصارىٰ، ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد، وفقد الإحساس بالذات، ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به، ولا نهي عن منكر تنهىٰ عنه، وأصابهم ما أصاب بني إسرائل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله ﷺ: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله على

---

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٣٤٦). لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الأندلس: سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، مصرع غرناطة، شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة، شوقي أبو خليل، السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي وغيرها من الكتب.

قلوب بعضكم ببعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[١] .

٣ ـ إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة ، والانقياد إلى المخالفة ، والتمرد على أحكام الله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ . . .﴾ [الأنفال : ٥٣] .

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان ؛ حتى تقوم أمام من خالف أمر الله ، وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم .

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله ، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانعكس ذلك في حركة الفتوحاتِ الإسلامية التي توقفت؛ ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين ، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله ، وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق ، وفضحهم الله بذلك ، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب ، وخف دينهم وضعف إيمانهم ، بسبب بطرهم للحق ، وغمطهم لحقوق الناس ، وابتعادهم عن شرع الله .

٤ ـ لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض ، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم ، ونشبت حروب وفتن وبلايا ، وتولدت على إثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم .

٥ ـ وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارىٰ في الأندلس ، فأصبحت شوكتهم تقوىٰ ، وتحصّلوا على مكاسب كبيرة ، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس ، وحرموا من التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم ، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارىٰ لهم ، وكم قتل النصارىٰ من المسلمين ، وكم سبوا من نسائهم!!

٦ ـ إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاض الأرض ، وضياع الملك ، وتسلط الكفار ، وتوالي المصائب .

---

(١) أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب الأمر بالمعروف ، رقم ٤٦٧٠ .

٧ ـ إن من سنن اللهِ تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي اللهُ تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارىٰ على المسلمين في الأندلس ، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين في زمن المرابطين ، والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ، ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين ، وأبدلهم بأمراء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين .

٨ ـ إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ، ويعذب بها الأمم قسمان :

* معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به .

* كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور ، والغرور بالغنىٰ والثروة ، فهذا كله من الكفر بنعمةِ اللهِ ، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام ، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم ، وأتقنوه إتقاناً عجيباً .

يقول الشاعر البسطي الأندلسي :

هـذا جـزاء مخـالـف مثلـي أبـى   تقـوى الإلـه ودان بـالعصيـان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر :

سوّدت وجهك بالمعاصي فالتمس   وجهـاً للقيـا اللهِ غيـر مسـوّد
مـن ذا يتـوب ربـه مـن ذنبـه   أو يقتـدي بنبيـه أو يهتـدي[1]

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لأدفونس ملك النصارىٰ :

«أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة ، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك»[2] .

■ ■ ■

(١) انظر : سقوط الأندلس ، ص ٦١ .
(٢) التاريخ الأندلسي ، د. عبد الرحمن الحجي ، ص ٣٣٧ ، نقلاً عن الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، ص ٢٠ ـ ٢٣ ، كذلك : الطوائف ، محمد عبد الله عنان ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

المبحث الثاني
دولة بني مرين والدولة الوطاسيّة والدولة السّعديّة

أولاً: دولة بني مرين في المغرب الأقصى:

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م، وهم يتفرعون من قبائل (زناتة)، مثل (مغرواة) وبني (يفرن)، وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرىٰ، وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقىٰ وبسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومرتية المنحرفة، ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة:

عبد الحق بن محيو المريني:

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقىٰ، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته[١]. وقد مات عبد الحق سنة ٦١٤ هـ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة ٦٤٢ هـ، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة ٦٥٦ هـ، ويعقوب بن عبد الحق، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين، وصار أمير المغرب سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس[٢].

ثانياً: المنهج الذي قامت عليه الدولة المرينية:

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية دون رفع شعارات الإسلام؛ ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٥٥).
(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٠).

والمسلمين ، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك ، إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين[١] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية ، وبأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون إليهِ كالمرابطين والموحدين ، وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية ، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية ، ومن هنا كسبوا محبة الناس ، إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب ، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين ، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين ، وحققوا انتصارات كبيرة عليهم ، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً ، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم ، وبذلك حققوا مكاسب متعددة ، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم ، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوي في النزاع[٢] ، وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين ، وتدمير تحالف بني زيان مع الموحدين ، والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٣ م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص[٣].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة ، وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد ، وفرض سيطرتهاوقوتها على كافة الأقاليم ، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة ، فاستطاع أن يضبط الأمن ، ويرعىٰ مصالح العباد ، وعمل على توحيد المغرب الأقصى ، وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

---

(١) من أمثال عبد الفتاح الغنيمي ، والدكتور أحمد مختار العبادي.
(٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٠٧).
(٣) انظر : المصدر السابق نفسه.

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق ، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ، ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة ، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه ، وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس ، وضم إقليم سجلماسة للدولة في صفر ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م ، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية ، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة . وفي عام ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء ، وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم[١] .

ثالثاً : حركة التوحيد للشمال الإفريقي :

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الإفريقي تحت نفوذها ، ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى .

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني (٧٣١ ـ ٧٥٢هـ/ ١٣٣١ ـ ١٣٥١م) وولده أبي عنان فارس (٧٥٢ هـ/ ١٣٥١ م) أن يوحدوا الشمال الإفريقي بالقوة ، وعادت وحدة الشمال الإفريقي لمدة قصيرة ، وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧ م ثم أحسن إليهم ، وفرض لهم العطاء ، وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس ، وعادت حركة التوسع في الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارىٰ في الأندلس ، ودخل تونس في عام ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م ، لتمتد مملكته من مسراته إلى ليبيا إلى السوس الأقصىٰ وإلى رندة من عدوة الأندلس .

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها ، ففجروا ثوراتهم ضده ، واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان .

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان ، وطلب الزعامة لنفسه ، واضطر أبو الحسن أن يتخلىٰ عن السلطة في سنة ٧٥٢ هـ/ ١٣٥١ م ثم مات بعد شهور .

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الإفريقي ، وأزال بني زيان سنة ٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م وتابع سيره إلى إفريقية ، ودخل تونس في سنة ٧٥٨ هـ/ ١٣٥٧ م إلا أن انفجار الثورات على مستوىٰ المغرب كله خصوصاً في فاس ، وطمع بعض

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢١٩ ـ ٢٢١) .

أقربائه في السلطة جعله يعود إلى عاصمته ، فوافاه الأجل في العام التالي[١] .

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الإفريقي ، وتقلص النفوذ المريني في المغرب الأوسط والأدنىٰ ، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق ، فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الإقليم .

وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ، ففقدوا المغربين الأقصىٰ والأدنىٰ ، كما استولىٰ البرتغاليون على مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م ، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين ، ثم استولىٰ البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب ، واحتلوا طنجة سنة ٨٦٩ هـ/ ١٤٧٤ م واقتصرت الدولة المرينية على فاس[٢] .

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات ، وتدهور الأمور بفاس ، وتسلط على الأمور رجال لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية ، وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (٨٢٣ ـ ٨٦٩ هـ/ ١٤١٩ ـ ١٤٦٥ م) قرب اليهود من مقاليد الحكم ، وتسلطوا على رقاب الأهالي ، فانفجرت الثورة التي عمت أحياء فاس كلها ، واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (٨٦٩ هـ/ ١٤٦٥ م) وبذلك انتهت دولة بني مرين[٣] .

رابعاً: أسباب سقوط دولة بني مرين:

١ ـ دسائس ملوك الإسبان ضدها ، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم ، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين .

٢ ـ دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات المغرب الأوسط والأدنىٰ ، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات ، وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الإفريقي كله ، والتعجيل بسقوط دولة بني مرين .

---

(١) انظر : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د . عباد كحيلة ، ص ١٤١ .
(٢) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر ، ص ١٤٢ .
(٣) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٣٣٦ ـ ٣٣٧) .

٣ ـ ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة ؛ مما ساهم في إضعافها ، وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شؤونها ، وتنازعت الأهواء والمصالح ، فتولدت انفجارات داخلية ، ونزاع بين الأبناء والأعمام ، وعجل بسقوط الدولة .

٤ ـ المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارىٰ ، والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس ، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين ، واحتلوا سبتة عام ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م ، فكان ذلك الاحتلالُ بداية الانهيار[١] .

٥ ـ تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين ، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب ، فكان ذلك سبباً في قيام الشعب بثورة ضد دولة بني مرين وإزالتها من الوجود .

٦ ـ أجل الله في هذه الدولة ؛ لأن الدول لها آجال لا تتعداها .

وغير ذلك من الأسباب .

خامساً : الدولة الوطاسية :

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس ، وهم فرع من بني مرين ، وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية ، وأنزل بهم السلطان عبد الحق آخر سلطان للدولة المرينية نكبة عظيمة ، ونكل بهم أشد تنكيل ، واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه .

وبعد أن تولىٰ حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام ٨٦٨ هـ ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ، ودخل في حروب طاحنة ، واحتل فاس عام ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٢ م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده . استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس ، فأرسلوا ٤٧٧ سفينة محملة بـ (٣٠ ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال ألفونس الخامس ، ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر ، فاضطر للمفاوضة معهم ، وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطاسيين عن أراض من

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر لمجموعة من الباحثين ، ص ١٤٢ .

المغرب ، واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا ، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته[١].

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولىٰ الحكم محمد الشيخ ، واستطاع البرتغاليون النصارىٰ أن يتوسعوا للاستيلاء على موانىء المغرب مثل سبتة وطنجة وأصيلا ، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها ، وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين (١٤٩٢ م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب ، واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الاستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط ، وكانت هذه الموانئ والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية والبرتغالية والإسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصىٰ ، كما كانت هذه المراكز نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب ، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي ؛ الذين تعاملوا معهم ، ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى ، حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية ، لكنها رفعت لواء الجهاد ، ودعت إلى الوحدة المغربية ، وتدرجت في تحقيق أهدافها ، واستطاعت أن تكسب ودّ الطرق الصوفية وزعماء القبائل ، وتخوض حرباً جهادية ضد النصارىٰ الإسبان والبرتغاليين ، وحرّروا الأراضي المحتلة ، وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك ، واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام ٩٥٩ هـ.

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فرّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ، ويهزم السعديين في فاس عام ٩٦١ هـ ، وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد ، وأسقط الدولة الوطاسية في نفس العام ٩٦١ هـ[٢].

---

(١) انظر : موسوعة المغرب (٣/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٥٣).

سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية:

١ ـ دخولهم في معاهدات مع النصارىٰ المحتلين من الإسبان والبرتغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

٢ ـ عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

٣ ـ ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها، وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

٤ ـ الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارىٰ على الحركة التجارية في الموانئ.

٥ ـ التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة بين المغاربة.

سابعاً: السعديون:

يرجع أصل السعديين إلى الجزيرة العربية، ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[١]. ويرىٰ الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب؛ بقطع النظر عما أرجف به خصومها من الطعن في نسبها[٢]. وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة، أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعديين، فيرىٰ الأستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر[٣] رسول الله ﷺ.

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم[٤]، ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: «وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم

---

(١) انظر: وادي المخازن لشوقي أبي خليل، ص ٣١.
(٢) قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٢).
(٣) الظئر: المرضعة والعاطفة على غير ولدها.
(٤) انظر: وادي المخازن لشوقي أبي خليل، ص ٣٢.

اشتهروا عند الخاصة والعامة ، فصاروا كالعلم الصرف المرتجل ، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف»[١]. أما صاحب «موسوعة المغرب العربي» الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ، ورافع لواء الجهاد الإسلامي ، فقال: «هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي اللهُ عنه»[٢].

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المتعتدين ، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارىٰ من الإسبان والبرتغال ، فأرشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله ، وكان مقيماً في درعة ، فأرسلوا إليه فجاء إليهم ، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه ، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية ، وشرع في حركة الجهاد ، ووفقه الله في معارك ضارية ، وحقق انتصارات رائعة على النصارىٰ ، وزحزح أقدام النصارىٰ من أراضي المغرب ، وأصاب هيبتهم ، فتيمن المسلمون بقيادته ، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة ، وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٣ هـ ، وخلف ولدين ، وكان أبو العباس أحمد الأعرج أكبرهم ، فبايعه الناس بعد والده ، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم ، وفي سنة ٩٣٠ هـ دخل مراكش ، وجعلها عاصمة السعديين . وفي سنة (٩٤٠ هـ) اتفق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون نصيب الأشراف السعديين من (تادلة)[٣] إلى (السوس) ، وللوطاسيين من (تادلة) إلى المغرب الأوسط .

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ الأخ الأصغر الملك من أخيه ، وألقى القبض عليه ، واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (٩٦١ هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب ، ولكنه قتل سنة (٩٦٤ هـ) وتولىٰ زمام الأمور من بعده ابنه عبد الله

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٢ ، نقلاً عن الاستقصا (٥/ ٦).
(٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ١١٤ ـ ١١٥).
(٣) انظر : قادة فتح بلاد المغرب(٢/ ٢٠٤).

الغالب ، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة ٩٨١ هـ[(١)] ، فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل ، وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً ، قتل اثنين من إخوتهِ عند وصوله إلى الحكم ، وأمر بسجن آخر ، فكرهته الرعية[(٢)] ، ووصفه السلاوي بقوله: «وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر ، وكان مع ذلك متكبراً تياهاً غير مبال بأحد ، ولا متوقف في الدماء ، عسوفاً على الرعية ، ومن شعره قوله:

فقُم بنا نصطبح صهباء صافيةً وفي وجهها عسجدٌ وفي وجهه نُقط
وانهض إليها على رغم العدا قلقاً فإن تأخير الصِّبا غلط

ومن شعره أيضاً:

ساروا فسار فُؤادي إثر ظعنهمُ خلفوني نحيل الجسم حيرانا
لا افتر الثرى من بعد بينهمُ ولا سقىٰ هاطلٌ ورداً وريحانا[(٣)]

إلا أن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه ، حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك ، وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر ، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية ، وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته ؛ إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان ، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا ، واستطاعت أن تحرّر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني ، وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، ثم كان هو أول من بلغ بشارة الفتح إلى السلطان ، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم[(٤)] .

وما أن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله ، واستطاع عبد الملك أن يستميل القوّاد والوزراء ، فانقادوا إليه جميعاً ، وبايع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة (٩٨٣ هـ) .

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) انظر: وادي المخازن ، ص ٢٣ .
(٣) الاستقصاء (٥/ ٥٨) نقلاً عن وادي المخازن ، ص ٣٤ .
(٤) انظر: قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤) .

ثامناً: من إصلاحات عبد الملك وأعماله:

١ ـ أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

٢ ـ اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

٣ ـ أسس جيشاً نظامياً متطوراً، واستفاد من خبرة الجندية العثمانية، وتشبه بهم في التسليح والرتب.

٤ ـ استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين، وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

٥ ـ فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوربيين احترموه وأجلوه.

قال الشاعر الفرنسي (أكبريبا دو بيني) المعاصر لأحداث هذه الفترة: «كان عبد الله الملك جميل الوجه؛ بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمنية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك»[١].

٦ ـ اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية، وكان أخوه العباس أحمد المنصور بالله ـ الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ـ ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة[٢].

تاسعاً: معركة وادي المخازن:

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارىٰ البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمىٰ في كتب التاريخ معركة القصر الكبير، أو معركة وادي

---

(١) انظر: وادي المخازن، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩ ـ ٤٠.

المخازن، بتاريخ : ٣٠ جمادىٰ الثانية ٩٨٦ هـ الموافق : ٤ آب (أغسطس) ١٥٧٨ م .

ولقد كانت لتلك المعركة أسباب من أهمها :

١ ـ أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة ، والتي جعلتهم ينسحبون من أسفىٰ وأزنور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب (١٥٢١ ـ ١٥٥٧ م) .

٢ ـ أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوربة ، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جيدة ؛ أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي ، يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً ، وعلى المغرب خصوصاً . لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترىٰ أن يدها مطلقة في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرىٰ ، فخطط لغزو واحتلال المغرب[١] .

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارىٰ والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عمّيه عبد الملك المعتصم بالله ، وأحمد المنصور ، مقابل أن يتنازل عن موانئ وشواطئ المغرب «فشرط عليه أن يكون للنصارىٰ سائر السواحل ، وله ما وراء ذلك»[٢] .

١ ـ حشود النصارىٰ :

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارىٰ عشرات الألوف من الإسبان والبرتغاليين والطليان والألمان ، وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه ، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[٣] .

ووصلت قوات النصارىٰ إلى طنجة وأصيلا في عام ١٥٧٨ م .

---

(١) انظر : وادي الخازن ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢) انظر : الاستقصاء (٥/ ٦٩) نقلاً عن وادي المخازن ، ص ٤٦ .
(٣) انظر : وادي المخازن ص ٤٩ .

٢ ـ الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: «أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله».

والتقت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم، فكتب إلى أهل المغرب: ما استصرخت بالنصارىٰ[١] حتى عدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء: «إنّه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه»، وتهدّدهم قائلاً: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٩][٢].

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: «الحمدُ للهِ كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضا على آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحّته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب، لو رجعت على نفسك اللّوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب.

وأمّا قولك: في النصارىٰ فإنك رجعت إلى أهل العدوة، واستعظمت أن تسميهم بالنصارىٰ، ففيه المقت الذي لا يخفىٰ، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلّهم على الضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارىٰ والعياذ بالله، والثاني: إنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال عليه الصلاة والسلام: «إني لا أستعين بمشرك..» الاستعانة بهم ـ بالمشركين ـ على المسلمين، فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل

(١) سمىٰ النصارىٰ أهل العدوة، واستنكف عن تسميتهم نصارىٰ.
(٢) انظر: وادي المخازن ص ٥١.

من وراء قلبه. . وقولك: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ، إيه أنت مع الله ورسوله؟

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا ، حملتهم الغيرة الإسلامية ، والحمية الإيمانية ، وتجدد لهم نور الإيمان ، وأشرق عليهم شعاع الإيقان ، فمن قائل يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء ، ومن قائل يقول: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١١].

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك ، وعوّلت على بلوغ الملك بحشودهم ، وأنىٰ لكَ هذا مع قول الله تعالى: ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢][١]. ولما عاين أهل القصر الكبير النصارىٰ ، واستبطؤوا وصول السلطان عبد الملك؛ أرادوا الفرار والتحصين في الجبال ، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك ، وجوازك العدوة ، فإن ثبتّ إلى أن نتقدم عليك ، فأنتَ نصراني حقيقي شجاع ، وإلا فأنت كلب بن كلب»[٢]. فليس من الشجاعة ، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرىٰ والمدن والعزّل ، ولا ينتظر مقابلة المحاربين ، وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان ، وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر[٣].

وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله ، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

٣ ـ قوىٰ الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي):

الجيش البرتغالي:

١٢٥,٠٠٠ ، وما يلزمهم من المعدات ، والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها ، وتضخم عدد جيش المغرب ، فهي تتحدث عن ١٤,٠٠٠ راجل ،

---

(١) الاستقصاء (٥/ ٧٩) نقلاً عن وادي المخازن ، ص ٥٣.

(٢) انظر: وادي المخازن ، ص ٥٣.

(٣) انظر: وادي المخازن ، ص ٥٤.

و٢٠٠٠ فارس ، و٣٦ مدفعاً ، مقابل: ٥٠,٠٠٠ راجل في الجيش المغربي ، و٢٢,٠٠٠ فارس ، و١,٥٠٠ من الرماة ، و٢٠ مدفعاً .

ذكر أبو القاضي في «المنتقى المقصور»: عدد الجيش البرتغالي مئة ألف وخمسة وعشرون ألفاً[(١)] .

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في «مرآة المحاسن»:

إن مجموعهم كان مئة ألف وعشرين ألفاً ، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[(٢)] .

كان مع الجيش البرتغالي ٢٠,٠٠٠ إسباني ، ٣٠٠٠ ألماني ، ٧٠٠٠ إيطالي وغيرهم عدد كبير ، مع ألوف الخيل ، وأكثر من أربعين مدفعاً . . وكل هذه القوىٰ البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان. وكان معهم المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين: ٣٠٠ ـ ٦٠٠ راجل على الأكثر[(٣)] .

الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهد ، يملكون تفوقاً في الخيل ، ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط ، وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

١ ـ أنهم ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارىٰ المحتلين ، واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية ، والحصون المنيعة ، والخنادق العميقة .

٢ ـ التفاف الشعب حول القيادة ، حيث تم الالتحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن ؛ لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب ، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات ، وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي) أحد جناحي الجيش المغربي ، وأبلى بلاءً حسناً رائعاً ، وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر ، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، وتورع أبو المحاسن

---

(١) انظر: الاستقصاء (٥/ ٦٩) نقلاً عن وادي المخازن ، ص ٥٦ .
(٢) انظر: الاستقصاء (٥/ ٦٩) نقلاً عن وادي المخازن ، ص ٥٦ .
(٣) انظر: وادي المخازن ، ص ٥٦ .

عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم ، وعف عنها ، ولم يأخذ منها شيئاً[(١)] .

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله ، عبقرية فذة في المعركة ، وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي .

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله ، فعزل عدوّه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة ، وخطة مدروسة حكيمة ، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة . وكان عزله عن أسطوله محكماً ؛ عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ، ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها»[(٢)] .

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة ، ثم صفوف الرماة المشاة ، وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب ؛ وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين ، واستثمار النصر[(٢)] .

كان صباح الإثنين ٣٠ جمادىٰ الآخرة ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ م يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب ، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام ، وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه ، مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر[(٢)] ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٠] .

كما ذكرت بوجوب الثبات :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال : ١٥] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

وبضرورة الانتظام :

(١) انظر : وادي المخازن ، ص ٥٨ .

(٢) انظر : وادي المخازن ، ص ٦٢ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وذكر أيضاً حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز فاشتاقت النفوس للشهادة(١).

ولم يأل القسس والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوربة الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحرب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنودهِ إلى صفوف النصارىٰ، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً: ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله؟ وأمر هذا القائد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أَنْ يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا، وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموتهِ إلا أخوه المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: «السلطان يأمر فلاناً أَنْ يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر»(٢).

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش، وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارىٰ، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعىٰ، وولىٰ الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصُرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن.

---

(١) انظر: وادي المخازن، ص ٦٤.

(٢) الاستقصاء (٥/ ٨٠) نقلاً عن وادي المخازن، ص ٦٦.

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[(١)].

جاء في «درة السلوك» لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة «مخطوطة بدار الوثائق بالرباط، د٤٢٨، ص ١٤»[(٢)]:

وابن أخيه[(٣)] بالنصارىٰ اعتصما ... وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان[(٤)] ... بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا ... ينيف عن مئة ألف سُمعا
فقيض الله له المنصورا[(٥)] ... ملكاً شجاعاً أسداً هصورا
فخلص الإسلام من يد اللعين ... بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير ... في ساعة من الزمان[(٦)] ذا شهير
مات بها بستيان اللعين ... فما له عن الرّدى معين
ثم محمد[(٧)] الذي أتى به ... مات غريقاً[(٨)] يومه فانتبه
لحكمة اللهِ العظيم القاهر ... أفادهم وزيَّن المنابر
بذكر عمّه أبي العباس ... الحازم الرأي شديد الباس
نجلُ الرسولِ المصطفىٰ المختار ... به زها المغربُ على الأقطار[(٩)]

عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن:

١ ـ القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه

---

(١) انظر: وادي المخازن، ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) دعوة الحق، السنة ١٩، العدد ٨، رمضان ١٣٩٨ هـ، ص ٥٦، نقلاً عن وادي المخازن، ص ٦٧.
(٣) إشارة إلى المتوكل.
(٤) بستيان (لضرورة الوزن) إلا فهو سبستيان.
(٥) أحمد المنصور، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه، كان جديراً بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيأ وخطط للمعركة.
(٦) إشارة إلى قصر مدة المعركة.
(٧) محمد المتوكل المسلوخ.
(٨) في نهر وادي الخازن.
(٩) برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

أبي العباس ، ولحاجبه المنصور ، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال : أبي علي القوري ، والحسين العلج ، ومحمد أبي طيبة ، وعلي بن موسىٰ ، الذي كان عاملاً على العرائش .

٢ ـ التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي ، والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوىٰ الشعبية .

٣ ـ رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم ، والعملُ على تضميد الجرح بسبب سقوط غرناطة ، وضياع الأندلس ، والانتقام من النصارىٰ الذين عذبوا المسلمين المهاجرين الذين تحت حكمهم في الأندلس .

٤ ـ اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية ، وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة ؛ مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية .

٥ ـ الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول ، مع قطع طرق تموينه وإمداده ، ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن .

٦ ـ القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور ، حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال ، فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم .

٧ ـ تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ، ويطوقوا النصارىٰ المنهزمين ، ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة للفرار .

٨ ـ استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته ؛ مما جعل القلوب تتنافر .

٩ ـ وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي ، وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد[١] .

---

(١) انظر : وادي المخازن ص ٧٢ ـ ٧٥ .

١٠ ـ دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم ، وخذل وهزيمة أعدائهم. وغير ذلك من الأسباب.

الحادي عشر : نتائج المعركة :

١ ـ أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي ، وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة ، وذلك يوم الإثنين ٣٠ جمادىٰ الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمئة للهجرة.

٢ ـ وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية ، في زمن السلطان مراد خان الثالث ، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب ، وحل السرور بالمسلمين ، وعم السعد في ديارهم ، ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

٣ ـ ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم ، وأصبحت دول أوربة تخطب ودّها ، واضطر ملك البرتغال الجديد «الريكي» أن يرسل وفداً إلى المغرب ، وكذلك ملك الإسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة.

ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ، ومعهم هداياهم الثمينة[١].

وبعدها رسل ملك فرنسا ، وأصبحت الوفود «تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور»[٢].

٤ ـ سقط نجم نصارىٰ البرتغال في بحار المغرب ، واضطربت دولتهم ، وضعفت شوكتهم ، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس مارية ـ المؤرخ البرتغالي ـ واصفاً نتائج المعركة :

«وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار ، العصر الذي لو وصفته ـ كما وصفه غيره من المؤرخين ـ لقلت : هو العصر النحس البالغ في النحوسة ، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح ، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال ، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس ، وزال رونقهم ، وذهبت النخوة والقوة منهم ، وخلفها الفشل ، وانقطع الرجاء ، واضمحل إبان الغنىٰ والربح ، وذلك هو العصر الذي

---

(١) انظر : وادي المخازن ص ٧٠.

(٢) الاستقصا (٥/ ٩٢) نقلاً عن وادي المخازن ص ٧٠.

هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب»[١].

٥ ـ مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد عبد الملك المعتصم بالله.

٦ ـ سارع البرتغاليون النصارىٰ بفكاك أسراهم، ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

٧ ـ سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

٨ ـ حديث تحول جذري في التفكير والتخطيط ـ على مستوىٰ أوروبة، حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب[٢].

الثاني عشر: السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م. أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل، لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة[٣].

درس في مراكز علمية عديدة، ومن أهم هذه المراكز: «فاس، ومراكش بتارودانت...» ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير.

أ ـ من أشهر شيوخه:

١ ـ أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم، واهتمامه بالفنون، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.

٢ ـ شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

٣ ـ أبو زكريا يحيى السراج.

٤ ـ محمد بن يوسف الدرعي.

---

(١) الاستقصا (٥/ ٨٥ ـ ٨٦) نقلاً عن وادي المخازن، ص ٧١.
(٢) انظر: وادي المخازن ص ٧٦.
(٣) انظر: وادي المخازن، ص ٣٧، نقلاً عن الاستقصا (٥/ ١٣٦).

٥ ـ سليمان بن إبراهيم.

٦ ـ موسىٰ الروداني[١].

ب ـ من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

١ ـ «المعارف في كل ما تحتاج الخلائق» يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها، ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الأسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية، ويرسم التفكير الاستراتيجي القتالي.

٢ ـ مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»[٢].

٣ ـ كتابات أدبية وشعرية متميزة، تظهر فيها المحسنات البديعية أحياناً[٣].

وصفه السلاوي فقال: «نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة[٤] لأهله عليه، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره[٥]. كان طويل القامة، ممتلئ الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل، ضيق البلج[٦] براق الثنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل»[٧].

ج ـ إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه، ويحاسبهم على عدم

---

(١) انظر: وادي المخازن، ص ٣٨.
(٢) حاول أن يزيح بعض الإشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه.
(٣) انظر: وادي المخازن، ص ٣٨.
(٤) ثافن الرجل: لازمه حتى عرف باطن أمره.
(٥) أي: طفولته.
(٦) البلج: تباعد ما بين الحاجبين.
(٧) انظر: وادي المخازن ص ٣٩.

المحافظة على أوقات العمل الرسمية ، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية .

وأحدث حروفاً لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو ، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمي به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية .

واهتم بالجهاز القضائي ، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً ، ومنع السلطة التنفيذية من التداخل مع السلطة القضائية .

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوربي والقضاء المغربي في القرنين ١١ و١٢ هـ (١٦ و١٧ م) فقال: «في الوقت الذي كانت أوروبة في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا ، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة ، وهذا ما كان يدعىٰ بقضاء المظالم»[1] .

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم ، وجعله في جامع القصبة في مراكش ، بجوار قصره ، وشكل لجنة تراقب مجرىٰ القضاء في الأقاليم ، ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه .

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد ، يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلو متراً ؛ بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر القرىٰ والبوادي بأمن وسلام .

وطور عمل المؤسسات الاستشارية ، وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملأ ، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية ، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد ، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية ، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله .

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو

---

(١) انظر: دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن ، ص ٤١ .

ممثلين المدن والمراكز القروية ؛ عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع[١].

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته ، واقتدىٰ بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس ، واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك ، ومن أهم هذه القيادات : إبراهيم بن محمد السُفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن ، وأحمد بن بركة ، وأحمد الحداد العمري المعقلي.

ودعّم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم ، وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحىٰ والمرضىٰ في الحروب ، واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه ، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع ، واهتموا بتطوير الأسطول ، خصوصاً في ميناءي العرائش وسلا[٢].

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب ، وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ، ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك ، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة ، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاده[٣].

الثالث عشر : انهيار الدولة السعدية :

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك ، آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية ، وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها :

١ ـ الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية ؛ التي عجلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها.

٢ ـ ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصىٰ ، وانشغل الأمراء السعديون بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

---

(١) انظر : وادي المخازن ص ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) وادي المخازن ، ص ٤٤.

(٣) انظر : تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، د. نور الدين حسام ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨.

٣ ـ دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع كل إمارة على حساب الأخرىٰ ، ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها .

٤ ـ ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة ؛ أخذت تسعىٰ لتوحيد المغرب .

٥ ـ تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد ، وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والانهيار حيث لا يزال طفلاً صغيراً ، وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم ، وانتهىٰ الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٨ م وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس ، واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد ، وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة ، وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة؛ لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسي في هذه المرحلة الحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية ، وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام ١٠٧٥ هـ ـ ١٤١٢ م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ، ولا تزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد إلى يومنا هذا[(١)] .

■ ■ ■

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٣٤٨) .

المبحث الثالث
بنو عبد الواد (بنو زيان)

أولاً: نشأة دولتهم:

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين، وعندما ضعف أمر الموحدين انفصلوا بالمغرب الأوسط، وجعلوا مجينة تلمسان عاصمة لهم، وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرىٰ، وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد[(١)].

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرىٰ خلف الماء والكلأ والمراعي، ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار، وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمئة سنة تقريباً، وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط، واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد، وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبد الواد يغمر أسن بن زيان عن دول الموحدين، وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعلياً، وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقارب الخمسين سنة (٦٣٣ هـ ـ ١٢٤٥ م/ ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) كان يغمر أسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الإفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين، لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين، إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر، وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية، ودخلت في صراع عنيف وقتال مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام ٦٧٠ هـ/ ١٢٧١ م أمام الضربات المرينية قرب وجدة، ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها

---

(١) انظر: تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٣٤).

حصاراً استمر لمدة عام كاملاً ، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقىٰ من أقطار المغرب الأقصىٰ[١] .

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس. وتحالف بنو عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني.

وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية ؛ فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد ، وألحقوا بهم هزائم في عام ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م.

وكان بنو عبد الواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتدُّ خطبهم ، وتنكسر حشودهم ، وتنهزم قواتهم أمام المرينيين ، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني ، فيناصرون فريقاً على حساب آخر ، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درعاً حصيناً بينهم وبين بني مرين إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً ، حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم بعض ، وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي ، وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٧ م إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بها.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للانهيار أكثر من عشرين مرة ، ومع ذلك استطاعت أن تبقىٰ في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون ، ويرجع ذلك إلى أسباب منها[٢] :

١ ـ ظهور الزعيم يغمر أسن بن زيان ، والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن ، يقول ابن خلدون عنه : «كان يغمر أسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً ،

(١) انظر : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، ص ١٣٤.
(٢) انظر : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، ص ١٣٦.

وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالاً ، وأعرفهم بمصالح قبيلته ، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة ، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده ، وكان مرموقاً بعين التجلة ، مؤملاً للأمر عند المشيخة ، تعظمه من أمره الخاصة ، وتضرع إليه في نوائبها العامة ، لما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام ، واضطلع بأعبائه ، وظهر على الخارجين ، وأصارهم في جملته وتحت سلطانه ، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار ، واتخذ الآلة ، ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء[1] .

٢ ـ حصانةُ مدينتهم وموقعها الوعر ، وخصوبة الإقليم المحيط بها ، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار .

٣ ـ حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية ، فمنحوهم إقطاعات واسعة ، وأكرموهم بالأموال والعطاء ، فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة .

٤ ـ إسناد مرافق الدولة إلى الأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارىٰ الإسبان وجورهم وتعسفهم ، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة ، وفي الحياة المعمارية ، والحياة الثقافية .

٥ ـ اهتمامها بالتجارة ، واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين إفريقية المدارية وأوربة ، فكان يتم التبادل بين التجار بين ما يحملوه من إفريقية من تبر ورقيق وجلود وعاج وبين ما يحمله التجار من أوربة وأخصها السلاح .

فهيأت الدولة الأمن للتجارة ، وخفضت عنهم الضرائب ، واكتفت بما تحصله من رسوم ، فكان للتجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة .

٦ ـ اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء ؛ حتى إن يحيىٰ بن خلدون (ت ٧٨ هـ) وهو أخ المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (٧٥٣ هـ/ ١٣٥٢ م ـ ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩ م) وكان هذا الأمير محباً للعلماء والأدباء ، وكان هو نفسهُ أديباً شاعراً ، وله كتاب اسمه: «نظم السلوك في سياسة الملوك» ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال[2] .

---

(١) ابن خلدون في تاريخه (٧/ ٧٩) .

(٢) المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، ص ١٣٦ .

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين ، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان ، والمقري مؤلف نفح الطيب ، كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي ، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق[١] .

ثانياً: التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:

قسمت السلطات في الدولة إلى :

١ ـ السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف .

٢ ـ السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم .

٣ ـ السلطة القضائية ويتولاها قاضي القضاة .

٤ ـ السلطة المالية ويتولاها صاحب المال .

ويتابع مسؤولي السلطات السابقة شخص يطلق عليه (مزاول) وله حق الإشراف على كل هؤلاء ، وهو ما يعرف في زماننا رئيس الوزراء في كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي ، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة ، والقاضي ، وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب[٢] .

ثالثاً: أسباب السقوط لبني عبد الواد:

١ ـ النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم .

٢ ـ قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة ، وخلخل بنيتها القائمة عليها .

٣ ـ ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان .

٤ ـ مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة ٩١٠ هـ/ ١٥٠٤ م ثم استيلاؤهم على وهران ٩١٤ هـ ، ثم سعيهم للاستيلاء على

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ، د. أحمد شلبي (٤/ ٢٥٢) .

(٢) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي ، د. أحمد شلبي (٢٥٢ ـ ٢٥٣) .

الجزائر وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية[١] ، وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

٥ ـ ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية ، وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الإسبان ، وانتهىٰ الأمر بزوال دولتي بني زيان في عام ٩٢٦ هـ/ ١٥٥٤ م ، ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني ؛ والذي استطاع أن يهزم الإسبان[٢] ، وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً؛ لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان ، وهزموهم ، وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بنو عبد الدار ، فكان ذلك التخاذل والتواكل سبباً في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران ، واعتدىٰ الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش ، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء ، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة ، وفي أواخر رمضان سنة ٩١٥ هـ/ ١٥١١ م اقتحم النصارىٰ الإسبان أسوار (بجاية) وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة[٣] .

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء إخوانهم في العقيدة والدين ؛ الذين جاؤوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الإفريقي.

■ ■ ■

(١) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥).
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر : قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٢٣٥).

المبحث الرابع
الدولة الحفصية

أولاً: النشأة:

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص ، فمنهم من أرجعهم إلى عمر ابن الخطاب كابن نخيل ، الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية[١].

ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة ، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص ، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم.

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش ، ويعتبر أبو حفص من زعماء المصامدة ، وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة ، وهو من خواص ابن تومرت ، وآمن بدعوته ، وبذل قصارىٰ جهده في مناصرته ، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين ، من غير منازع ، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية ، فبينما كان ابن تومرت يسمىٰ بالإمام ، وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمىٰ هو بالشيخ[٢]. وبلغ من احترام عبد المؤمن له ، وحسن تقديره إياه أن كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم ، وأكرم أولاده من بعده ، وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وإفريقية.

وعندما تولىٰ الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور[٣] أسند إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهناتي أمر إفريقية ، وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها ، ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب.

---

(١) تاريخ الدولة الإسلامية بالمغرب (١/ ٣٧٤).
(٢) انظر: بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٢٢٠.
(٣) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ، ص ١٢١.

وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي ؛ أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال ، وتنقطع أطماع بني غانية عنها ، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ، ويرضاه من أهل الكفاية ، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل ، فقبل الناصر شروطه ، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية[(١)] .

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م[(٢)] .

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد الحفصي على الانفصال منها :

١ ـ انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة ؛ التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة ١٢١٢ م .

٢ ـ رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م لتعاليم ابن تومرت ، ثم أزال اسمه من السكة والخطبة .

٣ ـ قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ، ومعظمهم من هنتاتة ، قبيلة الحفصيين .

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ، ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون ، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته ، واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت ، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت ، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة ، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة ، وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان[(٣)] .

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس ، وقضىٰ على البقية

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ، ص ١٢١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٨٠ .
(٣) المصدر السابق .

الباقية من بني غانية ، واستولىٰ على قسنطينة وبجاية ، ودخل تلمسان ، وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة ، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصىٰ ، وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين[١] ، ودعا له عدد من ولاة الأندلس ، وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية ، وإلى الأمير أبي زكريا عبد الواحد وجه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية ، فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمر الحفصيين منشداً قصيدته السينية الفريدة ؛ التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها ، وكبا دونها من جاراها[٢] ، وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلُسا ... إن السبيلَ إلى منجاتها درسا
وهَبْ لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر مُلتمسا
وحاشىٰ مما تُعانيه حُشاشتها ... فطالما ذاقت البلوىٰ صباح مسا
ياللجزيرةِ أصبح أهلها جزراً ... للحادث وأمسىٰ جدها تعسا
في كل شارقة إلمامُ بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحافُ نائبة ... تثني الأمان حذاراً والسرور أسىٰ
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الأشراك مبتسماً ... جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها القوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرساً ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بِيَعاً ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاعِ فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت دُرُسا
وأربُعاً نمنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداقِ مونقةً ... فصوّحَ النصر من أدواحها وعسىٰ
وحال ما حولها من منظر عجيب ... يستجلسُ الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا ... غيث الدّبا في مغانيها التي كسبا
وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا

---

(١) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، ص ١٢٧ .
(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠) .

فأين عيش جنيناه بها خضراً وأين عصر جليناهُ بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ما نام هضمها حيناً ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها فغادر الشم من أعلامها خُنسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى إدراك ما لم تطأ رجلاهُ مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبالها أيها المولىٰ الرحيم فما أبقى المراسُ لها حبلاً ولا مرسا

إلى أن قال:

طهر بلادك منهم إنهم نجسٌ ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطئ راساً كل من رأسا
وانصر عبداً بأقصىٰ شرقِها شرقت عيونهم أدمُعاً تهمي زكاً وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت داءً ما لم تباشر حسمه انتكسَا
فاملأ هنيئاً لك التأييد ساحتها جرداً سلاهب أو خطيئة دعسا
واضرب لها موعداً بالفتحِ ترقبه لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى[1]

ولقد لبىٰ السلطان الحفصي النداء، وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة، إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارىٰ؛ مما جعل أهالي المدينةِ يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارىٰ الحاقدين[2].

وفتح أبو زكريا أبواب إفريقية للهجرة الأندلسية، وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيىٰ، وكان أعظم حكام دولة الحفصيين، وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية حققت أهدافها، حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في إفريقية، وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقاً إلى مدينة الجزائر غرباً، وبدا كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب[3].

---

(١) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠ ـ ١٢٢).
(٢) المصدر السابق (٣/ ١٢٢).
(٣) انظر: المغرب في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨.

ثانياً: ولاية العهد:

سلك الحفصيون ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة. وفي عام ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م عين الأميرُ أبو زكريا ابنه على ولايةِ بجاية، وحول له معظم الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتميز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته، وخاصته من أهل العلم والتقوىٰ والدين والرأي السديد.

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد، ومما جعل في وصيته قبل موته في عام ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م:

١ ـ «المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

٢ ـ تفقده للجيش، وحسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفيه بالكبير، فيجترئ السفيه عليه، ويفسد نية الكبير، فيكون إحسانه مفسدة له في كلا الوجهين.

٣ ـ وأوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات؛ لأن الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليهِ أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

٤ ـ أن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جميعاً، فإن في تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

٥ ـ عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاء وعن أحكامهم، ومهما دعي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

٦ ـ أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات؛ لأنهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

٧ ـ أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متمادٍ في غيه في فساد صلاحهم وأحوالهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.

أما الحسود فعليهِ أن لا يقبل عثرته؛ لأن في إقالته ما يشجعه على القول ، والقول يدفعه إلى العمل ، ووبال عمله يضر غيره ، فليحسم داءه قبل انتشاره ويتدارك أمره قبل إظهاره.

٨ ـ عليه أن يزهد في الدنيا ، فلا ينشغل بلهوها وزينتها ، بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا ، وينال بها مرضاة الله في الآخرة»[١].

وبعد موت أبي زكريا تولىٰ زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمىٰ بالمستنصر بالله ؛ الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦ هـ ، وكان إعلانه كأمير للمسلمين ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٩ م ، وبايعه شريف مكة بالخلافة[٢].

وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة ، كالأصل العربي ، والنسب النبوي ، إلى جانب قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب[٣] ، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشراف قريش ، وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وقد تزوج النبي ﷺ ابنته حفصة ، فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي ، وهذا النسب النبوي ، وبحكم قرابتهم للموحدين ، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة[٤].

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل ، وإعلانه في كل حفل ومناسبة ، وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية ، وذكر نسبهم الذي يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون ، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

قـوم أبـو حفـص أب لهـم ... ومـا أدراكَ والفـاروق هـو أول[٥]

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول ، واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية ، وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ الدول (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨).
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ، ص ١٢٣.
(٣) نفس المصدر السابق ، ص ١٢٤.
(٤) المصدر السابق ، ص ١٢٤.
(٥) المصدر السابق.

بمبايعة الحفصيين ، وكذلك المرينيين في المغرب الأقصىٰ .

يقول السلاوي الناصري: «ولما بلغ بنو مرين بالمغرب ، وغلبوا على الكثير من ضواحيه ، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب ، واستجلاباً لمرضاتهم ، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم ، إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم . .»[١] واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة .

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الإفريقي عاصمتها تونس وبسطت نفوذها في بلاد الأندلس والمغرب والحجاز ، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية ، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية ، ومن أهم تلك الأهداف: السيطرة على البحر الأحمر وتجارته ، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها ، كالطولونيين ، والإخشيديين ، والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ، ثم جاء الأيوبيون والممالك والعثمانيون ، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين»[٢] .

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوىٰ السلاطين الذين حكموا مصر ، واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية ، وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً للأمثال ، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته ، لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م ، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول ، وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة ، ولقبه بالمستنصر بالله ، وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز ، وما يغزوه من بلاد الأعداء ، وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ، ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية ، وشرع بيبرس بعدة إصلاحات في الحرم النبوي الشريف ، وأرسل كسوة الكعبة ، وأرسل الصدقات

(١) انظر: السلاوي ، الاستقصا (٣/ ٢٨ ـ ٢٩) نقلاً عن العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس .
(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٢٧ .

والشموع والزيت والطيب. . . إلخ ، ثم أدىٰ بيبرس فريضة الحج ، وظهر منه خشوع وكرم متميز ، وأزال أنصار الحفصيين ، وأمر بالدعاء للخليفةِ العباسي على منابر الحجاز بدلاًمن الخليفة الحفصي ، ووضع مندوباً تابعاً له بجانب شريف مكة ؛ إلا أن بعد مضي وقت قصير ضعف نفوذ كل من الخلافتين ، وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها[١] .

واستطاع المستنصر أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ، ويجعلها مقصداً للعلماءِ والأدباء ، وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوىٰ الدولي في زمانه ، وجاءته سفارات من دول متعددة ، بعضها من السودان ، وبعض الآخر من أوروبة ، واهتم بعاصمة الدولة ، وتطور العمران ، وازدهرت الأحوال العامة في أيامهِ ، وأصبحت أعز أيامِ الدولة الحفصية .

وتعرضت الدولةُ الحفصيةُ لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر ، إلا أنها أخفقت ، بسبب الوباء الذي عصف بها ، وعصف بحياةِ الملك نفسه[٢] .

مات المستنصر الموحدي عام (٦٧٥ هـ/ ١٢٧٧ م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري ، ضعف أمرها ، وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس ، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية ، واستقلت بجاية عن تونس ، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة ، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية ، واستولوا على تونس عدة مرات[٣] وأصبح الشمال الإفريقي في دوامة الصراع .

واستطاعَ الحفصيون أن يعودوا إلى حكم إفريقية ، لدىٰ انسحاب المرينيين ، وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر ٧٧٢ هـ/ ١٣٧٠ م ـ ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٤ م ، واستطاعَ أن يقف أمام هجوم من النصارىٰ على المهدية سنة ٧٩٢ هـ ـ ١٣٩٠ م ، فهزموهم ، واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها ، وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان ، وضم

---

(١) انظر: المصدر السابق نفسه.
(٢) المغرب في تاريخ المغرب ، ص ١٢٨ .
(٣) عام ١٣٤٦ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥٧ م نقلاً عن العبادي: دراسات في تاريخ المغرب. . ، ص ١٢٩ .

بعض الإمارات التي استقلت في حياة أبيه ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م ، وعلى بسكرة سنة ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٢ م ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م .

وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته ، وتطلب مصالحته خاصة ، ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر ، وتوفي أبو فارس سنة ٨٣٨ هـ/ ١٤٣٤ م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهراً ومات ، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان ؛ إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة ٨٥٠ هـ/ ١٤٤٦ م ويهزم عمه أبا الحسن[١] .

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده ، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا ، وسلاطين مصر والأندلس ، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته ، وهاجم الإسبان سواحل تونس ، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثىٰ لها ، وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه :

وكنا أسوداً والرجال تهابنا فجاء زمان فيه نخشىٰ الأرانب[٢]

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان ، وثار عليه ابنه ، فقبض عليه ، وسمل عينه ، وخلعه من منصبه ، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م فكانت نهاية الحفصيين ، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والإسبان ، واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان ، وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨ م[٣] .

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام ٩٨١ هـ/ ١٥٧٣ م[٤] .

ثالثاً : طرابلس والدولة الحفصية :

اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم ، وأرسلوا الأمراء إلى طرابلس ، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي ، وعبد الله بن إبراهيم بن

(١) المغرب الكبير (٢/ ٨٧٩) .
(٢) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٠٥) .
(٣) المصدر السابق .
(٤) انظر : المغرب في تاريخ المغرب ، ص ١٣٢ .

جامع ، ومحمد بن عيسى الهنتاتي ، ويوسف بن طاهر اليربوعي ، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ، ولكنه لم ينجح ، وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه ، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني ، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (٦٤٧ ـ ٦٦٥ هـ) ؛ فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته ، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين ، واستبد بالأمر.

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة ، وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير ، وسبَّب ذلك الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة ، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده ، وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس ، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميراً لهم سنة ٧١١ هـ ، ورأى اضطراب الأحوال بتونس ؛ فعقد العزم على غزوها ، واحتل تونس وجعل ابنه أبا ضربة عليها ، ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ، ثم رجع إلى طرابلس[١].

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات ، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبو بكر سنة ٨١٨ هـ الذي استطاع أن يحرر تونس ، ولكنه فشل في ضم طرابلس ، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر[٢].

رابعاً: طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص:

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم ، آل إليهم حكم طرابلس من سنة ٧٢٤ هـ ، وظلوا يحكمونها ـ دون استقرار ـ حتى قبيل غزو الإسبان لها[٣].

ومن ولاة بني ثابت:

* ثابت بن محمد (الأول) ٧٢٤ هـ[٤].

* محمد بن ثابت ٧٣٠ هـ.

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي ، ص ٣٤٢.
(٢) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٨).
(٣) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٩).
(٤) المصدر السابق.

غزا جزيرة جربة ، وضمها إلى طرابلس ، واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨ هـ.

* ثابت بن محمد بن ثابت الثاني ٧٥٠ هـ.

استطاع تجار جنوة أن يخدعوا الطرابلسيين ، ويحتلوا المدينة في عام ٧٥٥ هـ وهرب ثابت من المدينة ، وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع ، وغلبوا على أمرهم ، فملكوا البلاد ، ونهبوا الأموال ، وتملكوا المتع ، وأسروا الرجال ، وسبوا النساء ، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوة ، فتدخل بنو مكي وهم من البربر ، ونسبهم في لواتة بزعامة أحمد بن مكي ، وكان حاكماً لقابس ، وتفاوض مع الجنويين ، وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين ، فقبل ، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ ، فلم يتفاعل ، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد ، وتم دفع المبلغ ، وحرر بذلك طرابلس ، بعد ما مكث الجنويُّون حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن أخذه ، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة ، وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو إخوانه في العقيدة[١] .

بعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها ، وجعلها دار إمارته ، وبقي أميراً عليها إلى أن توفي عام ٧٦٦ هـ.

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه ، فكان سيئ المعاملة ، عاجز الرأي ، مستبداً في الأمر ، كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر ، ووقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي ، وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص ، واعترف لهم بالولاء[٢] .

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة ٧٩٢ هـ ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران ابن محمد بن ثابت ، واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين ، وتعرض لحصار عنيف

(١) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٣٥٢.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٣.

استمر لمدة سنة ، إلا أنه قاوم ذلك ، واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر ، واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس ، ويقبضوا على واليها علي بن عمران. وأسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر ، ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر ، وعين عليها رجلاً من قبله يثق فيه ، وأصبحت طرابلس تابعة له ، وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس ، وإمارتهم عليها(١) ، بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة(٢) .

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣ هـ ، واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٨٣٣ هـ.

ثم تولىٰ ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص ، وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شرطاً:

١ ـ أن يبقىٰ واليها على البلاد ، ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها ونشاطها التجاري ونشاطها الثقافي.

٢ ـ أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء.

٣ ـ أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد.

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط ، وظهر من عبد الواحد بن حفص حزماً ورأياً وإرادة ، ونشر العدل ، ومنع الظلم ، واستتب الأمن ، واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ، ونعمت البلاد بالخيرات ، واتسعت التجارات ، وكثرت الأموال ، وبقي والياً إلى أن توفي ٨٥٨ هـ ، وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة ، وكانت أيام رغد وهناء على أهل طرابلس(٣) .

ثورة بني غراب:

ثار بنو غراب على والي طرابلس أبي بكر بن عثمان ، وألقوا القبض عليه ، وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس فسجنه ، ثم قتله.

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٥.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٤٦.
(٣) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٣٥٧.

ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب ، وقام رجل يقال له منصور أصلح بين المتخاصمين ، وهدأت الفتنة ، واختار الطرابلسيون الشيخ منصوراً ، وهو الذي سعىٰ في الإصلاح والياً عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر ، وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة ، فجاءته البيعة من غريان ، وترهونة ، ومسلاتة ، وبني وليد ، وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام ٨٨٥ هـ وخلفه في الحكم مامي ، وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة. وتوفي عام ٨٩٨ هـ واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف فولوه حاكماً عليهم ، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط ، وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ، ولم يكن أهلاً للولاية ؛ فأهمل تحصين البلاد ، وتقوية أبراجها وأسوارها ، وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينةِ ، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء ، ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ، ودام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو ١٨ سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة ، وجمع الأموال والثروات[١] .

ويرىٰ الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة ٨٣٣ هـ إلى أن احتلها الإسبان سنة ٩١٦ هـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل ، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي ، وانغمس أهلها في متع الحياة ، ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم ، وأخلاقهم وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم ، فطمع فيهم الأعداء من النصارىٰ ، فتكالبوا عليهم[٢] ، وحانت الفرصة للإسبان ، فجهزوا مئة وعشرين قطعة بحرية ، وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة ، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان ، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين وفي ٨ من ربيع سنة ٩١٦ هـ ، تحركت قواتهم نحو طرابلس ، ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر ، سنة ٩١٦ هـ ، الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠ م ، وبدأ القتال بين النصارىٰ والإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس ، ولم تكن القوات متكافئة ، وسقطت المدينة في يد الأعداء ، فهتكت الأعراض ، وسبيت النساء ، وقتل الرجل ،

---

(١) انظر : المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٩.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٦٠.

وديست المقدسات ، واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ، ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة ، ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢ هـ ١٥٣٥ م واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ، ويحرّروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا ، وسنتعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى ؛ عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العليّة ودورها في العالم الإسلامي عموماً ، والشمال الإفريقي خصوصاً .

خامساً: أسباب سقوط الدولة الحفصية :

١ ـ اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت ، وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ، ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي ؛ فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين .

٢ ـ الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف ، وقتال دموي .

٣ ـ استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين ، فتضطر أحياناً الدولة لتجريد الجيوش ، وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها ، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال ، وأحياناً تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية .

٤ ـ استهدفت مدن إفريقية من قبل الإسبان النصارىٰ والأوروبيين عموماً ، فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي ، والانتقام من المسلمين ، واستغلال خيراتهم وثرواتهم ، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهىٰ بالتحالف بين الإسبان والحفصيين .

٥ ـ ظهور قوىٰ إسلامية سنية أصلية متمثلة في السلطة العثمانية ، والتي استطاعت أن تهزم النصارىٰ في ميادين البر وميادين البحر ، وكان دافع الدولة العثمانية في

صراعها مع النصارىٰ نصرة الإسلام والمسلمين ، وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

٦ ـ تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ، ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ، ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها ، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم ؛ فراسلوهم ، واتصلوا بهم ، وتعاونوا على البر والتقوىٰ من إجل إعزاز الإسلام والمسلمين ، ودحر النصارىٰ الغاصبين.

٧ ـ كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه من التنازع بين المسلمين ، وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.

■ ■ ■

الخلاصة

١ ـ يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين؛ لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدول.

٢ ـ يعتبر منهج ابن تومرت خليطاً من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخوارج.

٣ ـ لم يتورع ابن تومرت في سفك الدماء، وسبي النساء، وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه.

٤ ـ يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الإفريقي بقوة السلطان، وتأليفه لكتب في مجال العقائد، وحكم عليها علماء السنة بالابتداع.

٥ ـ أخطاء بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة إصلاحية؛ لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الإصلاح؛ التي جاءت في الكتاب والسنة؛ بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة في ضياع الأندلس، وتمزق وحدة الشمال الإفريقي.

٦ ـ كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية، ومنهجية تربوية، وأهداف سياسية سعىٰ بكافة الوسائل، والأساليب لتحقيقها.

٧ ـ ساعدت سذاجة المجتمع المغربي، وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في أوساطه.

٨ ـ تزعم عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت، وخاض حروباً ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين؛ وتوحيد الشمال الإفريقي.

٩ ـ ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبد المؤمن بن علي تمثلت في إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته

إلى قبيلة كومية ، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات ، وجعل الحكم وراثياً في أسرته .

١٠ ـ لم يلتزم عبد المؤمن بالمنهج التومرتي حرفياً ، وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية ؛ ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما حانت له فرصة ، كما حدث عندما ألغىٰ نظام الطبقات ، وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت ؛ وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت ، والعمل على نشرها ، ويعتبر ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن ؛ لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت .

١١ ـ تولىٰ أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٥٨ هـ بعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه ، واستقر له الحكم ، وبايعه جميع الموحدين في ٥٦٣ هـ وكان أبو يعقوب مولعاً بحب الفلاسفة ؛ ولذلك قرب إليه ابن طفيل .

١٢ ـ عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة ، واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة ، واستنزف جهودهم ، وأخذ من أوقاتهم ، وقتل من رجالهم ، وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به ، وشقوا عصا الطاعة ، ولم يستطع الموحدون أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام ٥٦٧ هـ .

١٣ ـ اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام ٥٥٩ هـ ، وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين ، وأوهنت شوكتهم إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام ٥٦٣ هـ .

١٤ ـ قامت في المغرب في قفصة في عام ٥٧٥ هـ ثورة ضد الموحدين بقيادة علي بن المعز بن المعتز الرندي ، واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين ؛ إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها في عام ٥٧٦ هـ .

١٥ ـ عجز يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارىٰ في الأندلس ، لعدة أسباب منها نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحدي ، وعدم قدرته على تقدير الظروف ، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه

مع أيسر الطرق ، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ، وانشغاله بالمناقشات الفكرية حتى عند حصاره لأعدائه ، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا ، كما أن الخليفة الموحدي يوسف كان حريصاً على أن يتولىٰ جميع الأمور بنفسه ، وعدم إصغائه لنصح الناصحين .

١٦ ـ توفي السلطان يوسف في ٥٨٠ هـ ودفن في تينملل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الإسلامي .

١٧ ـ تولىٰ أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه ، فقام بالأمر أحسن قيام ، وأظهر أبهة الملك ، ورفع راية الجهاد ، ونصب ميزان العدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين ؛ كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامه ، وعظمت الفتوحات .

١٨ ـ صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت ، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين .

١٩ ـ عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والأعراب ، واستطاع أن يخضد شوكتهم ، وأن يوحد الشمال الإفريقي كله .

٢٠ ـ عمل على استنفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارىٰ ، واستجاب له المسلمون ، وتوافدوا على معابر العبور استعداداً للجهاد ضد النصارىٰ في الأندلس .

٢١ ـ استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصراً حاسماً على النصارىٰ في الأندلس في معركة الأرك عام ٥٩١ هـ ، وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الأندلس والشمال الإفريقي ؛ من أهمها : ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس ، وسقوط هيبة ملوك النصارىٰ .

٢٢ ـ نستطيع أن نقول بأن يعقوب المنصور أخذ بأسباب النصر المعنوية والحسية ؛ حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها ، ووحد القيادة ، وأعطىٰ مجلس الشورىٰ صلاحات واسعة ، وأسند المهام إلى أهلها . . إلى آخره .

٢٣ ـ طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمده بمدد ضد

النصارىٰ في المشرق ؛ إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ، ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ، ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارىٰ في المشرق تحت قيادة صلاح الدين .

٢٤ ـ توفي السلطان يعقوب المنصور عام ٥٩٥ هـ بعد أن جاهد بالسيف ، وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السنة والجماعة .

٢٥ ـ تولىٰ أبو محمد عبد الله الناصر لدين الله خلافة الموحدين عام ٥٩٥ هـ ، واستطاع أن يقضي على ثورة بني غانية ، وأن يوحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنىٰ ، وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصداً جهاد النصارىٰ في الأندلس ، وانهزمَ في معركة العقاب عام ٦٠٩ هـ أمام الجحافل النصرانية ، ثم رجع إلى المغرب ، وانهمك في الشهوات والملذات حتى قتل مسموماً عام ٩١٠ هـ .

٢٦ ـ بعد هزيمة العقاب توغل النصارىٰ في مدن وقرىٰ المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية من قتل وهتك الأعراض وسبي النساء ، ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس .

٢٧ ـ تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ، ولقد كان لصغر سن الخليفة ، وقلة خبرته ، وإعجابه بنفسه ، وتسلط الوزير ابن جامع عليه دور في هزيمة العقاب .

٢٨ ـ لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ، ومن أهمها : هزيمة معركة العقاب ، وظلم الموحدين للمرابطين ، والثورات المتتالية في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط ، والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحدي ، والانهيار العسكري الذي أصاب القوات الموحدية ، وانكماش العقيدة التومرتية في نفوس الموحدين ، وتحول الحكم إلى الوراثة .

٢٩ ـ بعد زوال دولة الموحدين في عام ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م انقسم الأندلس والشمال الإفريقي إلى دويلات ؛ من أهمها : دولة بني الأحمر في غرناطة ، وبني مرين في المغرب الأقصىٰ ، وبني الواد في المغرب الأوسط ، وبني حفص في المغرب الأدنىٰ .

٣٠ ـ كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها أمام الهجمات النصرانية أسباب من

أهمها: موقعها الجغرافي المتميز ، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ما تملك ، هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التي سقطت إليها ، قانون التحدي عند الشعور بالخطر ، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله ، براعة حكام غرناطة في إدارة الصراع العسكري والسياسي.

٣١ ـ ظهر في ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني ؛ الذي استطاعَ أن يحقق نصراً حاسماً على النصارىٰ في معركة قرب إستاجة ، وظهرت ملكات قيادية للسلطان المريني تمثلت في أمور منها: اهتمامه بعنصر الاستطلاع ، إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة ، خطبته المؤثرة في جنوده ، دخوله في المعركة بنفسِهِ ، وقتله للنصارىٰ بيده.

٣٢ ـ كانت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر يعتريها الذبول والشك بسبب عملاء النصارىٰ ؛ الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الأحمر بعقد اتفاقات مع ملوك النصارىٰ ، إلا أنها سرعان ما تتبخر أمام الخطر الداهم ، وترجع علاقات المسلمين إلى مجاريها الطبيعية.

٣٣ ـ كانت لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة ، ولقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارىٰ ، وكانت أعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارىٰ ؛ إلا أنهم عوضوا نقصهم بالإيمان وصحة اللجوء إلى الله ، فأنزل اللهُ نصره عليهم ، وكان النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارىٰ وملوكهم في عام ٧١٩ هـ ، وكان عدد الملوك والأمراء القتلى أكثر من عشرين ، والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألف.

٣٤ ـ كانت موقعة طريف في عام ٧٤١ هـ ، والتي انهزم فيها المسلمون ، وضعفت شوكتهم أمام النصارى ؛ لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب ، ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء ، من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي ، ووالد لسان الدين الخطيب.

٣٥ ـ اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء ، واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة ، وتحركوا من أجل احتلال غرناطة في عام ٨٨٧ هـ ، واستطاعَ أبو عبد الله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه ، وباشر الحروب بنفسه ضد النصارىٰ ؛ إلا أنه وقع أسيراً بيد النصارىٰ عام ٨٨٨ هـ.

٣٦ ـ استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبد اللهِ الصغير ، وأطلق سراحه في الوقت الحرج الذي زاد من الصراع الداخلي في غرناطة ؛ بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة .

٣٧ ـ وفي عام ٨٩٧ هـ حاصرت جحافل النصارىٰ غرناطة ، ونقضوا كل العهود والمواثيق ، وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا لتسليمها ، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين .

٣٨ ـ كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب ، ولقد ارتكبت في حق المسلمين ما تقشعر منه الأبدان ، وتشيب من هوله الولدان .

٣٩ ـ حاول المستضعفون من المسلمين أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم ، وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوىٰ ، وقد دونت في هذا البحث إحدىٰ الفتاوىٰ الهامة .

٤٠ ـ كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الأندلس ، من أهمها : تفكك وحدة الشمال الإفريقي ، الانغماس في الشهوات ، والركون إلى الدعة والترف ، الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، موالاة النصارىٰ والثقة بهم والتحالف معهم ، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة ، غدر النصارىٰ ونقضهم للعهود ، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف ، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب ، الرضا والخضوع والذل تحت حكم النصارىٰ والطاعة لهم ، سوء سياسة الولاة ، وإرهاق الأمة بالجبايات .

٤١ ـ لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكيم شرع الله ، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وضياع الملك والعزة والتمكين .

٤٢ ـ زالت دولة الموحدين من الوجود عام ٦٦٨ هـ ، واستولىٰ على مقاليد الحكم في المغرب الأقصىٰ بنو مرين .

٤٣ ـ حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله الأقصىٰ والأوسط والأدنىٰ ، ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف ، إلا أنها ضعفت ، وتقلصت ، ثم زالت من الوجود عام ٨٦٩ هـ ، وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارىٰ في الأندلس .

٤٤ ـ من أهم أسباب سقوط دولة بني مرين : دسائس ملوك الإسبان ، وتحالف

غرناطة معهم ضد بني مرين ، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب ، وتولي الحكم بعض الأمراء الضعاف ، الخطر الخارجي من البرتغال على موانئ الدولة ، وغير ذلك من الأسباب .

٤٥ ـ بعد سنتين من تولي أبي عبد الله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي ، واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام ٨٧٧ هـ/ ١٤٧٢ م .

٤٦ ـ استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام ٩٥٦ هـ ، وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها : دخول الوطاسيين في معاهدات مع الإسبان والبرتغاليين ، عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانيها ، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي ، فالتف الشعب حولهم .

٤٧ ـ استطاع الأمير أبو مروان عبد الملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين ؛ فساعدوه على تخليص المغرب من ابن أخيه محمد المتوكل ، وبايعه أهل المغرب عام ٩٨٣ هـ .

٤٨ ـ كان السلطان عبد الملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط ، وله من بعد النظر حظ وافر ، فأقام دولته على أسس علمية ، وسلح جيشه ، وطور بلاده ، واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية .

٤٩ ـ حقق السعديون بقيادة السلطان عبد الملك وأخيه أحمد المنصور انتصاراً حاسماً على النصارىٰ في معركة وادي المخازن في ٩٨٦ هـ ، وتجلت عبقرية السلطان عبد الملك العسكرية في وضعه خطة محكمة ، وشرع في تنفيذها بنفسه .

٥٠ ـ استشهد السلطان عبد الملك في وسط المعركة ، وتولىٰ أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده ، وبايعه أهالي المغرب .

٥١ ـ كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحراً في العلم ، وترك مؤلفات في فنون متعددة منها : أدبية وشعرية وحديثية ، ومن أشهر كتبه : «المعارف في كل ما يحتاج الخلائق» .

٥٢ ـ استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته أشواطاً نحو التقدم والازدهار ، وبناء الدولة على أسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة .

٥٣ ـ بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣ م ضعفت

الدولة السعدية ، ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي ، وانفصلت عن كيانها مجموعة من الإمارات والولايات ، وانتهت فعلياً على يد قبيلة الشبانات العربية في عام ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٨ م ، وأزالوا نهائياً الأسرة السعدية .

٥٤ ـ لم تستطع قبيلة الشبانات أن تقوم بالدور القيادي في المغرب ، فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين ؛ الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام ١٠٧٥ هـ/ ١٤١٢ م ، وتولوا مقاليد المغرب ، ودخلوا مراكش ، ولا تزال أسرة العلويين إلى يومنا هذا في حكم المغرب الأقصىٰ .

٥٥ ـ حكم المغرب الأوسط بنو عبد الواد بعد زوال دولة الموحدين ، واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون ، وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الإسبان لمدينة وهران وبجاية في عام ٩١٥ هـ/ ١٥١١ م ، وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام ٩٦٢ هـ/ ١٥٥٤ م على يد الفاتحين العثمانيين .

٥٦ ـ حكم إفريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الإفريقي بنو حفص ، وتعرضت دولتهم للمد والجزر ، وزال ملكهم من الوجود في عام ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨ م على يد العثمانيين .

٥٧ ـ سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الإسبان في عام ٩١٦ هـ ، ثم سلمت إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م ، واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م ، حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ، ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا .

■ ■ ■

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ **ابن جزي ومنهجه في التفسير**: علي محمد الزبيري، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

٢ ـ **ابن خلدون**: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال، بيروت ـ لبنان.

٣ ـ **أعز ما يطلب لابن تومرت**: تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥ م.

٤ ـ **ابن ماجه** للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي.

٥ ـ **أشراط الساعة**، ليوسف عبد الله الوابل، الطبعة الثالثة ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م، دار ابن الجوزي.

٦ ـ **إلجام العوام عن علم الكلام**، لأبي حامد محمد الغزالي الطوسي.

٧ ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لابن عذارىٰ المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣ م.

٨ ـ **المغرب الكبير**، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م.

٩ ـ **البيذق أخبار المهدي ابن تومرت**، أبو بكر الصنهاجي، تحقيق ليفي بروفنسال باريس ١٩٢٨ م.

١٠ ـ **الدعوة الموحدية بالمغرب**، عبد الله علي علام، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤ م.

١١ ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ م .

١٢ ـ **النهاية ، الفتن والملاحم** ، للحافظ إسماعيل بن كثير ، تحقيق د. طه زيني ، دار النصر للطباعة ، الناشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ .

١٣ ـ **المنار المنيف لابن القيم** ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ١٣٩٠ هـ .

١٤ ـ **النبوة والأنبياء** ، لمحمد علي الصابوني .

١٥ ـ **الملل والنحل** للشهرستاني ، العلامة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ هـ .

١٦ ـ **الحموية** ، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية .

١٧ ـ **أخبار المهدي** ، تحقيق عبد الحميد حاجيات ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ، ١٣٩٥ هـ .

١٨ ـ **الكامل في التاريخ لابن الأثير** ، لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٩ م .

١٩ ـ **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية** ، مؤلف مجهول ، اعتنىٰ بنشره السيد بشير الفورتي ، تونس ١٣٢٩ هـ .

٢٠ ـ **ابن صاحب الصلاة** ، عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي .

٢١ ـ **المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين** ، دار الأندلس ـ بيروت ـ الطبعة الأولىٰ ١٩٨٣ م .

٢٢ ـ **الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق** ، د. علي أحمد ، دار شمال دمشق ، ١٩٩٥ م .

٢٣ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، ليوسف بن تغري الأتابكي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي في مصر .

٢٤ ـ **المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب** ، د. عبادة كحيلة ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م .

٢٥ ـ **التكملة** ، **لكتاب الصلة** ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبّار .

٢٦ ـ **العقاب** ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، تصوير ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م ، عن ط ١ ، ١٩٧٩ م .

٢٧ ـ **الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس** ، نجيب زبيب ، دار الأمير ، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م .

٢٨ ـ **السنن الإلهية** ، د. عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ م .

٢٩ ـ **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد .

٣٠ ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** ، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني .

٣١ ـ **الأعلام** ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت .

٣٢ ـ **الإمام مالك بن أنس** ، عبد الغني الدقر ، دار القلم ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م .

٣٣ ـ **الأرك** ، د. شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، الطبعة الأولىٰ ، ١٩٧٩ م .

٣٤ ـ **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري .

٣٥ ـ **الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة** ، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري ، طبع دار الكتب العلمية ، بيروت ، سنة ١٣٩٩ هـ .

٣٦ ـ **الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية** ، سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي ، مطبعة الأزهار البارونية .

٣٧ ـ **الإبانة عن أصول الديانة** ، لأبي الحسن الأشعري ، نشر دار البيان ، دمشق ، سنة ١٤٠١ هـ .

٣٨ ـ **بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية** ، مجموعة من البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرىٰ الأستاذ د. أحمد فكري ١٦ ـ ٢٠ أكتوبر ١٩٧٦ م شباب الجامعة.

٣٩ ـ **تاريخ الإسلام** ، د. حسن إبراهيم حسن ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثالثة عشر ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م.

٤٠ ـ **تاريخ الفتح العربي في ليبيا** ، الطاهر أحمد الزاوي ، دار التراث العربي ، الطبعة الثالثة.

٤١ ـ **تاريخ عصر النهضة الأوروبية** ، د. نور الدين حسام ، دار الفكر ، طبعة ١٩٦٨ م.

٤٢ ـ **تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري** ، تأليف مجموعة من الأساتذة ، دار الأمل للنشر والتوزيع.

٤٣ ـ **تاريخ الأندلس** ، عبد الرحمن الحجي ، دار القلم ، الطبعة الرابعة ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٤ م.

٤٤ ـ **تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين** ، د. حمدي عبد المنعم محمد حسين ، مؤسسة شباب الجامعة طبعة ١٩٨٦ م.

٤٥ ـ **تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت** ، د. عبد المجيد النجار ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م.

٤٦ ـ **تفسير الرازي** ، للإمام الفخر الرازي.

٤٧ ـ **تفسير القرطبي** ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

٤٨ ـ **تفسير الآلوسي** ، روح المعاني للإمام الآلوسي.

٤٩ ـ **البداية والنهاية** لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، دار الريان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م.

٥٠ ـ **دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية** ، د. عبد الحليم عويس ، دار الوفاء ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م.

٥١ ـ **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس** ، د. أحمد مختار العبادي ، مؤسسة شباب الجامعة.

٥٢ ـ **دعوة الحق** ، السنة ١٩ ، العدد ٨ ، رمضان ١٣٩٨ هـ.

٥٣ ـ **ديوان التحقيق والمحاكمات** ، لمحمد عبد الله عنان.

٥٤ ـ **دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي** ، عز الدين عمر أحمد موسىٰ ، دار الشروق ، الطبعة الأولىٰ ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

٥٥ ـ **دولة المرابطين** ، سلامة محمد سلمان الهرفي ، دار الندوة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٥٦ ـ **دائرة معارف القرن العشرين** ، لمحمد فريد وجدي ، مطابع دائرة معارف القرن العشرين ، الطبعة الثالثة ١٣٤٣ هـ.

٥٧ ـ **رحلة ابن جبير** ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤.

٥٨ ـ **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين** ، يوسف أشباخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨ م.

٥٩ ـ **تفسير المنار** ، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت الطبعة الثانية بالأوفست.

٦٠ ـ **درء تعارض العقل والنقل** ، الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

٦١ ـ **سقوط الأندلس** ، د. ناصر العمر ، مؤسسة المؤتمن ، دار الوطن ، الطبعة الأولىٰ ١٤١٢ هـ.

٦٢ ـ **سقوط غرناطة** ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٨١ م.

٦٣ ـ **سقوط دولة الموحدين** ، د. مراجع عقلية الغناكي ، ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م منشورات جامعة قاريونس.

٦٤ ـ **سير أعلام النبلاء** ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ.

٦٥ ـ **سنن أبي داود** ، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.

٦٦ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي المسمىٰ ابن العماد (ت: ١٠٨٩ هـ).

٦٧ ـ **صحيح البخاري** ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى ٢٥٦ هـ.

٦٨ ـ **صحيح مسلم** ، مسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث.

٦٩ ـ **صحيح الجامع للألباني** ، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٨ هـ.

٧٠ ـ **صلاح الأمة في علو الهمة** ، د. سيد بن حسين العفاني ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧ هـ/ ١٩٨٥م.

٧١ ـ **صلاح الدين بطل حطين** ، عبد الله علوان ، دار السلام ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.

٧٢ ـ **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس** ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٦٤ م.

٧٣ ـ **عقيدة أهل السنة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر** ، للشيخ عبد المحسن حمد العباد ، مطابع الرشيد ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولىٰ.

٧٤ ـ **عقد بيعة بولاية العهد** ، في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حسن مؤنس.

٧٥ ـ **عقائد الإمامية** ، لمحمد رضا ظافر.

٧٦ ـ **عوامل النصر والهزيمة** ، لشوقي أبي خليل ، دار الفكر ، دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

٧٧ ـ **غرناطة في ظل بني الأحمر** ، د. يوسف شكري فرحات ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

٧٨ ـ **فقه التمكين عند دولة المرابطين** ، علي محمد محمد الصلابي ، سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي.

٧٩ ـ **فتح الباري ، شرح صحيح البخاري** ، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.

٨٠ ـ **فتاوىٰ ابن تيمية** ، لأبي العباس ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد القاسم.

٨١ ـ **قيام دولة المرابطين** ، لحسن أحمد محمود القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٨٢ ـ **قادة فتح بلاد المغرب** ، محمد شيت خطاب ، دار الفكر ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م .

٨٣ ـ **موسوعة التاريخ الإسلامي** ، د. أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥ م .

٨٤ ـ **مجموعة رسائل ابن حزم** .

٨٥ ـ **موسوعة المغرب العربي للغنيمي** ، عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، الناشر ، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م .

٨٦ ـ **مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقية** ، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الملك عبد العزيز ، مكة ١٩٧٩ م ، لم تطبع .

٨٧ ـ **معالم تاريخ المغرب والأندلس** ، د. حسين مؤنس ، الطبعة الأولىٰ ، القاهرة ١٩٨٠ م .

٨٨ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل** ، شرح وتحقيق أحمد شاكر ، أتمه د. عبد الحسين عبد المجيد هاشم ، دار المعارف ، بمصر ، الطبعة الأولى .

٨٩ ـ **مجلة المنار** ، لمحمد رشيد رضا .

٩٠ ـ **الأغالبة سياستهم الخارجية** ، محمود إسماعيل .

٩١ ـ **مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود** ، العدد السادس ، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م ، مجلة محكمة .

٩٢ ـ **نظم الجمان في أخبار الزمان** ، لابن القطان ، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي .

٩٣ ـ **نظم المتناثر في الحديث المتواتر** ، للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الكتاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٠ هـ .

٩٤ ـ **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب** ، المقري ، تحقيق ، د. إحسان عباس .

٩٥ ـ **وادي المخازن** ، لشوقي أبي خليل ، دار الفكر ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨ م.

٩٦ ـ **وفيات الأعيان** ، لابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس ابن خلكان ، دار صادر بيروت ، حققه د. إحسان عباس.

■ ■ ■

فهرس الموضوعات

دولة المرابطين

القسم الأول: دولة المرابطين في الشمال الإفريقي

الفصل الثاني: المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس

الفصل الرابع: سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة

الفصل الخامس: أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية

القسم الثاني: دولة الموحدين

الفصل الأول: محمد بن تومرت

الفصل الثاني: عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده